انتشار
الإسلام بين المغول

تأليف

دكتور

رجب محمد عبد الحليم

معهد البحوث والدراسات الأفريقية

جامعة القاهرة

دار النهضة العربية

للطبع والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين
محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه اجمعين
الى يوم الدين

كان يحلم بها اصحاب هذه الأديان فى الاحاطة بالاســلام من الشرق والغرب تمهيدا لتسديد الضربة القاضية التى تجهز عليه الى الابد .

كل ذلك وغيره من القضايا التى صاحبت اســلام المغول والقضــايا الأخرى التى برزت نتيجــة لحــدوث بعض التناقضــات فى تصرفات بعض سلاطينهم والتى لا تتفق مع اســلامهم ، كل ذلك وغيره من مراحــل حياتهم ومظاهرها وخاصة فى العهد الاسلامى ، تناولناه بالدراسة فى ستة فصول .

وقد تحدثنا فى الفصل الأول عن اوجه المنافسة التى قامت بين البوذية والنصرانية من جانب ، والاسلام من جانب آخر على مســتوى الامبراطورية المغولية والعوامل والسبل التى سلكتها كل من هاتين الديانتين كى تميل بقلوب المغول وتكسب ودهم وتضعهم فى صدام دموى مع الاسلام والمسلمين، ثم تحدثنا عن النتائج التى وصلت اليها بالفعل فى هذا المجال وعن فشلها آخر الأمــر فى تحقيق أهدافها كاملة .

وفى الفصل الثانى كان علينا ان نتحــدث عن العــوامل التى دفعت بالاسلام كى يحقق النصر فى هذه المعركة الشرسة وكان نصرا مذهلا لدرجة انه جعل المغول فى الممالك الثلاث يقطعون ما كان يربطهم بالخوانين العظام الذين كانوا يجلسون على عرش الامبراطورية المغولية كلها بممالكها الأربــع على اعتبار ان هؤلاء الخــوانين كانوا وثنيين ولا يصــح ان يخضــع المغول المسلمون لوثنيين مهما كان شأنهم .

وكانت العلاقة بين الفريقين بدأت فى الفتور منــذ عهــد منكو خان (٦٤٩ — ٦٥٨هـ/١٢٥١ — ١٢٥٩) ثم تحولت الى صراع بين ممالك المغــول كلها منذ عهد قوبيلاى خان (٦٥٨ — ٦٩٣ هـ/١٢٦٠ — ١٢٩٤ م) وبدأت هذه الممالك تسير وكأنها دول مستقلة وبدأت ، الطبقة الحاكمة فى كل منها تندمج فى السكان من الترك والفرس ، وبدأوا يميلون الى الاسلام دين هذه الأغلبية التى عاشوا بينها ، فلما اسلموا تأكد هذا الاستقلال وتحول الى امر واقع ، ولذلك اتى حديثنا منذ ذلك الحين عن هذه الممالك الثلاث كل منها على حدة على اعتبار انها اصبحت ممالك مستقلة لا تربطها فيما بينها رابطة سياسية ، ولا تجمع بينها وبين الخوانين العظام فى بلاد الصين والخطا صــلة ، وذلك

بدانا الحديث فى الفصل الثالث عن تحول مغول القفجاق الى الاسلام وقسمنا هذا التحول الى مرحلتين :

أولاهما مرحلة التمهيد والتهيئة لانتشار الاسلام بين المغول وهى فترة الحكم الوثنى ، وفيها كان الخوانين بن مسلمن وبوذيين ، قليلهم اعتنق الاسلام ومعظمهم ظل على البوذية او الشامانية ، ثم تأتى المرحلة الثانية وهى مرحلة اكتمال حركة انتشار الاسلام بين المغول ، وفيها تعاقب على الحكم خوانين او سلاطين من المغول المسلمين وظل الأمر كذلك حتى نهاية حكمهم . وفى هذه المرحلة اعتنق المغول الاسلام وانفعلوا به انفعالا قويا ظهر فى سلوكهم ومظاهر حياتهم ، وكان علينا ان نخص هذه المظاهر بحديث نجلو فيه مظاهر الحياة الاسلامية التى برزت فى حياة هؤلاء المغول بعد ان اسلموا وحسن اسلامهم .

وقد اتبعنا نفس المنهج عند حديثنا عن مغول ايران فى الفصل الرابع ، وعند حديثنا عن مغول آسيا الوسطى فى الفصل الخامس ، ورأينا كى تكتمل الصورة ان نخصص حديثا قصيرا عن مغول الصين والخطا الذين اعتنقوا البوذية ونبين موقفهم من الاسلام ومدى انتشاره بينهم ، وبذلك نكون قد أحطنا بموضوعنا واستكملناه بحثا ودراسة بالنسبة لمغول الامبراطورية المغولية كلها .

ولا شك ان صعابا قابلتنا حينما تصدينا لهذا الحديث وتلك الدراسة ، فالمعلومات عن انتشار الاسلام بين المغول قليلة ومتناثرة بل ومتناقضة فى بعض الأحيان ، وهى لا تخرج عن كونها اشارات خاطفة فى شكل جملة او عبارة هنا او هناك أثناء الحديث عن تاريخ المغول الذى امسك كثير من كتاب المسلمين ومؤرخيهم عن تدوينه ، وأخذ بعضهم الحذر والتزم آخرون الصمت عن تدوين هذا التاريخ ، بغضا لهؤلاء المغول وكراهية لهم . ولما بداوا يكتبون تاريخهم صوروهم فى صورة كريهة تفيض حزنا ومرارة واسندوا اليهم كل نقيصة ، وظلت هذه الصورة تلاحق بعضهم حتى بعد اسلامهم ، وكان علينا أن نتفهم الدوافع التى دفعت بهؤلاء الكتاب كى يلونوا صورة المغول على هذا النحو وان نستشف الحقائق من بين ثنايا كتاباتهم واحيانا من ظلال بعض كلماتهم او عباراتهم الخاطفة . وكان اعتمادنا فى ذلك بالدرجة الاولى على

المصادر المعاصرة للحدث نفسه ، سواء كانت مصادر عربية أم فارسية وتركية معربة . وبعض هذه المصادر شارك اصحابها فى صنع الأحداث او التقوا بمن شاركوا فى صنعهاونقلوا عنهم مباشرة،او ذهبوا الى مواقع الأحداث ورأوا بأعينهم وسمعوا بآذانهم ووصفوا لنا ما شاهدوه وكتبوا لنا ما سمعوه بأنفسهم .

وطوال تاريخ المغول نجد امامنا مؤرخين من هذا النوع ، ففى فترة ظهور المغول وغزوهم ابلاد المشرق الاسلامى وغيره من البلاد ، نجد امامنا ابن الأثير الذى كان معاصرا لجنكيزخان والذى توفى بعده بست سنوات (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) ، وابو الفرج غريغوريوس المعروف بابن العبرى والذى عاش بعد ذلك بفترة طويلة . وقد احجم ابن الأثير فى البداية عن تدوين اخبار هذا الغزو حزنا على الاسلام والمسلمين من جراء ما اصابهم منه ، ثم اخذ بعد ذلك يدون ما وصل اليه من اخبار فى دقة وتمحيص . أما ابن العبرى (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) فقد أعطانا فى كتابه « تاريخ مختصر الدول » وصفا مقتضبا لغزوات المغول واخبارهم منذ البداية ، وأخذ يستكمل ما فات ابن الأثير حتى وصل فى تاريخه الى نهاية عهد السلطان احمد تكودار . ورغم ان كتاباته تعطى للمسيحية فى آسيا فى عهد المغول حجما اكبر من حجمها الطبيعى ، الا انه كان يستقى معلوماته من مصادر الاحداث مباشرة ، يدل على ذلك ما يقوله احيانا « حدثنى الملك حاتم (يقصد هيثوم) ملك الارمن عند اجتماعى به بمدينة طرسوس بعد سنين من عودته (عام ٦٥٣ هـ/١٢٥٥ م) من خدمة مونككا خان (يقصد مانكوخان) ، قال .... الخ »(١) .

يأتى بعد ذلك مؤرخون يزيدون فى الأهمية على ابن الاثير وابن العبرى ، ذلك أنهم كانوا يشاركون فى صنع الأحداث ، او على الأقل كانوا يتصلون بمن يصنعونها ، وكانت تحت ايديهم وثائق الدولة ، سواء فى بلاد المغول او فى مصر والشام ، يغترفون منها ما يشاءون من الأسرار والأخبار . مثال ذلك رشيد الدين فضل الله الهمدانى (٦٤٥ — ٧١٨هـ/١٢٤٧ — ١٣١٩ م) صاحب كتاب جامع التواريخ الذى وضعه بالفارسية . فقد كان هذا الرجل مشاركا فى الأحداث بصفته وزيرا لأول ثلاثة من سلاطين مغول ايران

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٦٠ .

المسلمين . وهم السلطان محمود غازان ، وأخوه السلطان اولجايتو محمد خدابنده ، والسلطان ابو سعيد بن اولجايتو ، علاوة على انه كان يجيد الفارسية والمغولية والتركية ، فضلا عن أن وثائق الدولة كانت تحت يده ، ولذلك فقد أعطانا هذا الوزير المؤرخ تاريخا دقيقا وموضوعيا الى حد كبير عن الحياة السياسية داخل هذه الدولة منذ عهد جنكيزخان وحتى وفاة محمود غازان عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م ، وأعطانا بعض الأحداث والأسماء والاشارات التى تخص موضوعنا والتى لا نجدها فى مصدر آخر سواه(١) .

وكذلك يأتى فى الأهمية ابن الفوطى (٦٤٢ — ٧٢٣هـ/١٢٤٤ — ١٣٢٣م) صاحب كتاب « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة » وقد عاصر هذا المؤرخ فترة تحول المغول فى ممالكهم الثلاث الى الاسلام وأكمل لنا ما فات رشيد الدين الهمدانى . وكذلك فعل أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ/١٣٢٩م) فى تاريخه ، وابن ايبك الدوادارى فى كتابه « كنز الدرر وجامع الغرر » الذى انتهى من تاليفه عام ٧٣٦هـ/١٣٣٥ م .وكان ابو الفدا ملكا على حماة بسوريا ، بالوراثة عن ابيه ، وقد جعله موقعه هذا على صلة بالصراع الذى كان ناشبا بين المغول والاسلام ، كما كان ابن ايبك ينتمى هو الاخر لأسرة شاركت فى الأحداث ، فقد كان جده أميرا مملوكيا يحكم صرخد ، وكان ابوه مهمندارا(٣) فى دمشق وكان ينقل عن ابيه وعمن كان يتصل بهم بحكم وظيفته من رسل المغول او رسل سلاطين المماليك المترددين بين القاهرة وعواصم المغول فى ايران وبلاد القفجاق ، ولذلك كان كثيرا ما يقول : « حدثنى الملك الكامل ... قال .. »(٤) ، « قال الشيخ عمر للوالد وأنا اسمع ... »(٥) ، « كان الأمير

---

(٢) رشيد الدين الهمدانى : جامع التواريخ م ٢ ج ١ ص ٥ ، ٨١، ٨٩ ، ٩٦ .

(٣) المهمندار هو الشخص الذى يتلقى الرسل الواردين على السلطان، وينزلهم دار الضيافة ، ويتحدث فى القيام بأمرهم . انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٢٢ ، سعيد عاشور : العصر المملوكى فى مصر والشام ، ص ٤٥٦ .

(٤) ابن ايبك الدوادارى : كنز الدرر ، ص ٩ ص ١٤٩ .

(٥) المصدر السابق ص ٩ ج ١٥٣ .

حسام الدين ازدمر المجيرى .. عند التتار حتى هلك غازان وتملك خدا بندا ، وعاد وحضر عنده فى داره الوالد رحمه الله وانا معه اسمع »(٦) . وكان ابن حبيب (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) ايضا من اسرة كانت تعمل فى ديوان الرسائل لسلاطين المماليك ولذلك كان هذا المؤرخ ينقل مباشرة عن وثائق الدولة الرسمية وعن المشاركين فى صنع الأحداث .

وهناك غير هؤلاء من الذين لم ينقلوا عن احد بل ذهبوا الى مواقع الأحداث نفسها ورأوا بأعينهم وسمعوا بآذانهم ووصفوا ما رواه ودونوا ما سمعوه فى كتب تعتبر وثائق تاريخية نادرة . مثال ذلك الرحالة العربى ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) فقد ذهب هذا الرحالة العظيم الى بلاد المغول بنفسه عام ٧٢٦هـ/١٣٣٦م وانتقل من بلد لآخر ومن مملكة لأخرى حتى طاف بممالك المغول الأربعة ، ووصف لنا حياة المغول فيها واشار الى مظاهر الحياة الاسلامية التى كانت تغمر بلادهم وحياتهم ، واعطانا اوصافا دقيقة لسلوكياتهم وحسن اسلامهم وحرصهم على اداء شعائر دينهم مما لا نكاد نجده فى مصدر آخر .

واذا كان ابن بطوطة قد اعطانا هذه الصورة لممالك المغول فى عهد الجنكيزخانيين فان كاتبا آخر اعطانا وصفا لهذه الممالك فى عهد التيموريين ، الا وهو شهاب الدين احمد بن محمد الدمشقى الانصارى المعروف بعرب شاه (ت ٨٥٤هـ/١٤٥٠م) صاحب كتاب « عجائب المقدور فى اخبار تيمور » . وكتابه يعتبر هو الاخر وثيقة تاريخية نادرة ، ذلك ان كاتبه رحل الى بلاد القفجاق وأقام بها مدة كبيرة من الزمن ، وتعلم هناك على ايدى علمائها المسلمين ووصف لنا بعض مظاهر الحياة الاسلامية فى الدولة وفى العاصمة سراى وصفا شيقا ممتعا دقيقا يدل على ازدهار كبير فى تاريخ الاسلام فى هذه البلاد(٧) .

وقد استعنا فى هذه الدراسة ايضا بعدد من المخطوطات القيمة التى اعطتنا تاريخ المغول مؤرخا حسب السنين ضمن تاريخ الدولة الاسلامية ، ولا

---

(٦) المصدر السابق ، ص ٧١ .

(٧) الرمزى : تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار فى وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ، ج ١ ، ص ٤١١ حاشية (١) ، ج ٢ ص ٤٩ .

يخفى على القارىء ان اصحاب هذه المخطوطات وكلهم مشهورون مثل النويرى (ت ٧٣٢هـ/١٣٢٩ م) صاحب مخطوطة نهاية الأرب فى فنون الأدب » ، وابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) صاحب مخطوطة « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » والعينى (ت ٨٥٥هـ/١٤٥٠م) صاحب مخطوطة « عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان » ، فقد اعطونا تاريخ المغول على اعتبار ان ممالكهم داخلة ضمن نطاق العالم الاسلامى ، وهو شىء له مغزاه ، لا سيما وان النويرى والعمرى كانا معاصرين للعصر المغولى الاسلامى فى بلاد المشرق الاسلامى ، مما يعطى لكتاباتهم اهمية كبيرة . وكان العمرى بالذات يتولى وظيفة كاتب السر نيفا وثلاثين سنة لأحد عشر سلطانا من بنى قلاوون ، فجاءت كتاباته دقيقة موثقة ، اذ كان يستقيها من وثائق الدولة مباشرة او من الرسل والتجار الذين كان يلتقى بهم(٨) .

وقد استعنا أيضا بعدد من المصادر الفارسية والتركية المعربة وهى لا تقل شأنا عن المصادر العربية ، وهناك العديد من المراجع العربية الحديثة التى تناولت تاريخ المغول فى زاوية من زواياه ، ولكنها لم تهتم بالزاوية التى نعنيها فى هذا الحديث فيما عدا دراسة وحيدة يتيمة قام بها الدكتور مصطفى بدر بعنوان « مغول ايران بين المسيحية والاسلام » ولكنها دراسة لا تتحدث عن العوامل التى دفعت بمغول ايران الى التحول الى الاسلام ، ولا تتحدث أيضا بصورة مكتملة عن مظاهر الحياة الاسلامية التى اقترن بها هذا التحول او نتجت عنه ، فضلا عن انها لم تشر ولو بحرف واحد عن تحول مغول بلاد القفجاق أو مغول آسيا الوسطى الى الاسلام ، لأنها دراسة كانت قاصرة فقط على مغول ايران ، وتحدث المؤلف فى جزء كبير منها (فى ٥٠ صفحة من ١٢٥ صفحة هى كل صفحات الكتاب) عن الحروب التى قامت بين هؤلاء المغول وبين سلاطين المماليك .

وقد اعتمدنا أيضا على بعض المراجع الأجنبية ، ولكنها تناولت هى الأخرى تاريخ المغول بشكل عام ولم يكن يعنيها موضوع انتشار الاسلام بين ...

---

(٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ١٠٢ .

المغول بقدر ما كان يعنيها الحديث عن ضرب هؤلاء المغول للاسلام وتحطيم بلاده وممالكه ، وان كنا قد وجدنا فيها بعض الأحداث التى استمدوها من مراجع لا نجدها بين أيدينا ونددين لهم بها . وهناك غير هذه المصادر والمراجع التى اشرنا اليها فى هذه العجالة الكثير مما أثبتناه فى قائمة المصادر والمراجع الملحقة بهذا الكتاب .

وبعد ، أرجو ان اكون قد وفقت فيما ذهبت اليه فى هذه الدراسة التى اود ان تسد فراغا فى مكتبة التاريخ الاسلامى ، ولا ادعى الكمال فيما قمت به من عمل أو فيما اتيت به فى هذا الكتاب لتحقيق هذا الهدف ، فالكمال لله وحده ، واذا كان هناك من توفيق او سداد فمن الله ، عليه توكلت واليه أنيب .

رجب محمد عبد الحليم

تمهيـــد تاريـخى

المغول وغزوهم لبلاد المشرق الاسلامى

يرتبط اسم المغول أو التتار فى التاريخ الاسلامى بذكرى نكبة هائلة حلت بالاسلام والمسلمين على يد هذا الشعب الوثنى عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، عندما استولت قواته على بغداد فى ذلك العام وأسقطت الخلافة العباسية ووضعت معظم بلاد الشرق الاسلامى فى يد حكام من المغـول لا يعـرفون حضارة ولا رقيا اجتماعيا مثلما كان موجودا فى العالم الاسلامى وقتذاك . وقد ساعد على ذلك كله ظروف سياسية واقتصـادية سـيئة المت بالعـالم الاسلامى منذ نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر للميلاد ، عنـدما تعرض لتلك الهجمة الأوربية الصليبية الشرسة التى اتته من ناحية الغـرب ونجحت فى احتلال بلاد الشام واقامت عدة امارات صليبية هناك ، وفصلت شرق العالم الاسلامى عن مغربه واستنزفت قواه الاقتصادية لمدة قرنين من الزمان . يضاف الى ذلك أن العالم الاسلامى كان يمر فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر للميلاد وقبيل سقوط الخلافة العباسية بمحنة الانقسام والتفكك السياسى وقيام العـداء والصراع بين معظـم دوله وممالكه وحكامه ، مما هيأ الفرصة تماما لهؤلاء المغول الذين وفدوا من الشرق فقاموا بذلك الغزو العاصف والمـدمر لشرق العـالم الاسلامى وعصـفوا بالاسـلام والمسـلمين .

فيا ترى من هم هؤلاء المغول ؟ ومن أين اتوا ؟ وكيف نجحوا فى غزو بلاد المشرق الاسلامى وغيره من بلاد آسيا وشرقى أوربا ؟ ولن نتوســع فى الاجابة على هــذه التسـاؤلات ، فكتب الأقدمين والمحدثين مليئة بكثير من التفصيلات والحقائق والأحداث التى تفسر هذا الموضوع ، ولكننـا فقط نشير اليها فى أيجاز لعله يكون مفيدا فى التقديم لموضـوعنا الأصلى وهـو انتشار الاسـلام بين المغـول .

وفى هذا الصدد نشير الى أن المغول اساسا طائفـة من التتـار ، والتتار شعب كبير من الأمة التركية ، ومنه تتفرق معظم بطونها وافخاذها ،

وهو مرادف للترك عند الافرنج حتى انهم يعدون قبائل الأتراك كافة مثل العثمانيين والتركمان وقرمان وغيرهم تترا . ومؤرخو الترك ونسابوهم يقولون ان احد ملوك الترك فى الأزمنة القديمة ولد له ولدان توأمان هما تتارخان ومغل خان نحو ربيعة ومضر بالنسبة لعرب الشمال او نحو قحطان وعدنان بالنسبة للعرب قاطبة .

وعلى ذلك فالمغول والتتار والترك أصلا من جنس واحد هو جنس الترك الذى انشعب الى شعوب كثيرة وقبائل شتى ، واشتهر من بينهم فى عصور عديدة قبائل وشعوب بعينها مثل السلاجقة والخوارزمية والتتار والمغول والقفجاق والخزر والأويغور والآفار وكيرايت ونايمان والمجر والبلغار والقرغيز الى غير ذلك من القبائل والشعوب التى عد كل واحد منها قوما مستقلا بذاته حتى وقعت الشبهة فى كونهم من الترك واحتيج فى اثبات ذلك الى البحث والتنقيب . وكان مصدر هذه الشبهة هو أن هذا الانتشار الواسع الذى جعل عنصر الترك يصبح اغلبية فى النصف الشمالى من قارة آسيا جعل بين الأقوام التركية بعض التفاوت والاختلاف الحضارى . وعلى سبيل المثال كان هناك تفاوت واختلاف حضارى بين المغول — وهم محور حديثنا — وبين أتراك اواسط آسيا ، وذلك بسبب اختلاف الظروف البيئية والثقافية التى عاش فيها كل منهما(١) . فبينما استقر هؤلاء الترك فى اواسط

---

(١) يشير كثير من المؤرخين القدامى المحدثين الى الأصل المشترك للمغول والترك ، والى تداخل اللغتين التركية والمغولية والى أن ثلاثة ارباع الألفاظ فى اللغتين واحدة عموما ، وأن اللسان المغولى هو احد السنة التركى ، وان المغول والترك يشتركون فى طبائع وسجايا متشابهة فى كل منهما تشابها بينا ، ويختلفون فى بعض العادات والتقاليد بسبب بداوة المغول ، حتى سماهم البعض بأنهم أعراب الترك . ولمعرفة المزيد عن هذا الموضوع ، انظر :

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٣٦١ ، رشيد الدين الهمدانى جامع التواريخ ، المجلد الثانى ج ١ ص ٢١٢ ، ابن خلدون : تاريخه ، ج ٥ ص ٢٢٨ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١ ص ٣٦٦ ،

=

آسيا وعلى حدود العالم الاسلامى من الشمال الشرقى واحتك الكثيرون منهم بالاسلام والمسلمين نتيجة للجوار ونتيجة لغزو بعض بلادهم ايام بنى امية وبنى العباس ، ونتيجة لاستخدامهم فى الجيش العباسى حتى استولوا فى النهاية على السلطة فى بغداد فيما يعرف بالعصر العباسى الثانى وذلك بعد أن اسلموا وحسن اسلامهم ، نرى اخوانهم من المغول على النقيض من ذلك تماما، فقدنشأوا بعيدا فى الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صحراء جوبى ، وهى تمتد فى أواسط آسيا جنوبى سيبريا وشمال التبت وغربى منشوريا وشرقى التركستان بين جبال التاى غربا وجبال ختجان شرقا ، وهى منطقة جدباء موحشة عاش فيها المغول عيشة بؤس ، لا يظفرون باهتمام احد من جيرانهم ، حتى ان اسمهم ظل غير معروف قرونا طويلة ، بينما كان ذوو قرباهم من الاتراك يتحكمون فى بلاد آسيا الغربية أى فى بلاد المشرق الاسلامى(٢) .

وقد ظهر اسم المغول او التتار بشكل قوى وملفت للنظر منذ بداية القرن السابع الهجرى/الثالث عشر للميلاد عندما استطاع احد زعمائهم المسمى (تيموجين) أن يوحد منغوليا وينتصر على قبيلة كرايت المغولية

=

العينى : عقد الجمان ، ج ٢٢ ورقة ١٢٩ ، ١٣٠ ، الديار بكرى : الخميس فى احوال انفس نفيس ، ج ٢ ص ٢٦٨ ، مجهول : كتاب فى التاريخ ، ورقة ٣٣١ ، محمد الخضرى : تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة العباسية) ص ٤٦٧ ، بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص ١٥٢ ، ١٦٣ ، ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ، ج ٤ ص ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٦١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، الرمزى : تلفيق الاخبار وتلقيح الاثار ، ج ١ ص ٢٢ ، ٢٦ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ .

(٢) الصياد (فؤاد عبد المعطى) المغول فى التاريخ : ، جا ص ٣٠، ٣١
ستودارد : نفس المرجع ، ج ٤ ص ١٧٣ .
فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٦١ .

Saunders : The history of the Mongol Conquests, p. 9.

السيحية عام ٦٠٤هـ/١٢٠٦م وعلى بعض خوانين الصين المعادين له ويوحد المغول تحت لوائه ويتلقب بلقب جنكيزخان أى الملك الأعظم او شاهنشاه او ملك الملوك ، ويزحف على شمال الصين عام ٦١٢هـ/١٢١٥ م ويستولى عليه ويتخذ من مدينة قراقورم عاصمة له ، ويصدر اليساق(٣) او الياسة التى كانت كتاب المغول ودستورهم ، اليه يرجعون فى احكامهم وفى تنظيم مجتمعهم ، وكان عندهم كالقرآن عند المسلمين لا يحلون لأنفسهم ان يخرجوا عن نصوصه ، ومن فعل ذلك من الحكام كان نصيبه العزل والخلع حتى ولو كان الخان الأعظم(٤) .

وبعد أن نظم جنكيزخان دولته الواسعة والزم حكامها باتباع اليساق وتنفيذ احكامه ، اتجه بعد ذلك بعامين غربا الى آسيا الوسطى . وكانت آسيا الوسطى فى ذلك الوقت تمثل بوابة العالم الاسلامى من الشمال الشرقى ،

---

(٣) اليساق او اليسق اصله سى يسا ، وهو لفظ مركب من كلمتين : (سى) بمعنى ثلاثة بالفارسى ، و (يسا) بمعنى الترتيب بالمغولى . وعلى ذلك فمعنى كلمة اليساق هو التراتيب الثلاثة ، وسبب ذلك فيما يقول ابو المحاسن ابن تغرى بردى ان جنكيز خان كان قسم ممالكه فى اولاده الثلاثة واوصاهم بوصايا لم يخرجوا عنها مع كثرتهم واختلاف اديانهم ، فصاروا يقولون سى (يسا) ثم حرفوها الى (يسق) .

انظر ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٨٣ .

ولمعرفة المزيد عما جاء باليساق من أوامر ونواهى ، انظر ، القلقشندى جـ ٤ ص ٣١١ ، محمد الخضرى : نفس المرجع ، ص ٤٦٨، ٤٦٩ .

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

ابو الفدا : تاريخه ، جـ ٣ ص ١٢٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١١٨ .

بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٥٤ ، الصياد : نفس المرجع ، ص ٥٣ ، ٥٤ ، الرمزى : جـ ١ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، عبد العزيز جنكيزخان : تركستان قلب آسيا ص ٥٩ — ٦٣ .

ولم يكن يحجز بين جنكيزخان وبين اقتحام تلك البوابة الا دولةالقراخطائيين(٥) وكانت هذه الدولة قد زالت قبل ذلك ببضع سنوات على يد النايمان المغولية المعادية لها والتى هاجمتها من ناحية الشرق ، وعلى يد خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش الذى هاجمها من ناحية الغرب وانتصر عليها وأسر سلطانها عام ٦٠٦هـ/١٢٠٩م ، وفتحها وتبدد شعب القرا خطاى ولم يبق منه الا من اعتصم بالجبال او استسلم وانضم الى جيش خوارزم شاه . وبذلك فتح الباب على مصراعيه امام تدفق المغول الى بلاد الاسلام بعد ان استطاع جنكيز خان ان يدحر قبائل النايمان وان يستولى على بلادها عام ٦١٥هـ/١٢١٨م ، وأصبحت جيوشه تطل على بلاد ما وراء النهر وخوارزم(٦) .

---

(٥) القرا خطاى قوم من المغول الترك ، اقاموا دولة قوية فى بداية القرن العاشر للميلاد فى منشوريا وشمال الصين (بلاد الخطا) ، ولما انقضى عهد هذه الدولة فى تلك البقاع ، ذهب الفارون من فلولها واقاموا بين الصين وتركستان ، واتخذهم ملوك الأويغور فى تركستان حماة لحدودهم مع الصين نظير جرايات واقطاعات ، ولما ساءت العلاقات بين هؤلاء القرا خطاى وبين ملوك تركستان المسلمين ، زحف القراخطاى على بلادهم وقضوا على الدولة الخاقانية (الأويغورية) عام ٥٣٦هـ/١١٤١م واستولوا على كاشغروختن ، ثم زحفوا على بلاد ما وراء النهر واستولوا عليها من يد السلاجقة ، وامتدت دولتهم من بلاد القرغيز شمالا الى مدينة بلخ جنوبا ، ومن خوارزم غربا الى صحراء جوبى شرقا . وكان هؤلاء القراخطائيون غير مسلمين ، ولذلك لم يكن التعاون بينهم وبين الرعية المسلمة فى تركستان قائما ، مما سهل من القضاء على دولتهم .

انظر : ابن خلدون العبر ، ج ٥ ص ١٣٧ — ١٤١ ، ١٩٢ .

القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٤٧ .

بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص ٥٦ .

عبد العزيز جنكيزخان : تركستان قلب آسيا ، ص ٥٨ — ٦٠ .

(٦) ابن الأثير : نفس المصدر ، ج ١٢ ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

ابن العبرى : نفس المصدر ص ٣٩٨ ، ابو الفدا : نفس المصدر ، ج ٣ ص ١١٦ .

العمرى : مسالك الأبصار ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٤٤٥ ، ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ١٣٧ — ١٤١ .

الديار بكرى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦٧ .

مجهول : كتاب فى التاريخ ، ورقة ٣٣٠ ، بارتولد ، نفس المرجع ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

Saunders : op. cit., p. 55.

وفى فترة قصيرة اكتسحت جيوش جنكيزخان تلك البلاد وقضت على دولة خوارزم العظيمة نتيجة لهذا الخطأ الذى ارتكبه سلطانها ، بالاضافة الى عدة أخطاء اخرى ادت الى استيلاء جنكيزخان على بلاده . فبالاضافة الى انه شارك فى القضاء على دولة القرا خطاى التى كانت حاجزا بينه وبين جنكيزخان الذى أصبحت جيوشه تجاور بلاده وتهددها ، فقد امر خوارزم شاه كثيرا من سكان بلاد ما وراء النهر المجاورين لبلاد الخطا وخاصة سكان فرغانة والشاش وأسبيجاب بالجلاء عنها والرحيل الى بخارى وسمرقند خوفا عليهم من التتار(٧) . وبذلك أخلى هذا السلطان الأرض من سكانها الذين كان يمكن ان يدافعوا عنها اذا ما تعرضت لهجوم جنكيزخان ، ويا ليته اكتفى بذلك بل أمر ايضا بتخريب البلاد التى جلى عنها سكانها خوفا من ان يملكها المغول ويهددوه منها ويستفيدوا من امكانياتها(٨) ، فانعدمت المقاومة للمغول تقريبا عندما اكتسحوا تلك البلاد .

وقد أخطأ هذا السلطان ايضا عندما امر حاكم مدينة اترار — وهى احد ثغور خوارزم على ساحل نهر سيحون الذى يسمى الان سرداريا بقتل اربعمائة من التجار الذين كان جنكيزخان قد ارسلهم الى تركستان وما وراء النهر . وكان هذا الخان قد ارسل قبل ذلك الى خوارزم شاه فى عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م يطلب مسالمته ، فاستجاب له الشاه ، فأرسل جنكيزخان هؤلاء التجار الى بلاد ما وراء النهر يحملون الأقمشة الحريرية وغيرها ، فتعرض لهم حاكم اترار وطمع فى اموالهم وارسل الى خوارزم شاه يخبره بأن جواسيس جنكيزخان قدموا اليه فى زى تجار ، فأمره بقتلهم ومصادرة اموالهم ، فغضب جنكيز خان وأرسل يهدد الشاه ويطلب منه تسليم هذا الحاكم ، فأمر الشاه

---

(٧) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٣٩٨ ، ابن خلدون ، جـ٥ ص ١١٠٢ .

الديار بكرى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ .

مخطوط كتاب فى التاريخ ، ورقة ٣٣٠ .

(٨) المصادر السابقة ونفس الصفحات .

بقتل الرسل ايضا . وقد ادى هذا العمل الى ازدياد غضب جنكيزخان واعطاه مبررا لغزو بلاد ما وراء النهر وخوارزم فى العام التالى(٩) .

ومن الملفت للنظر ما يقوله بعض المؤرخين من أن الخليفة العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥ — ٦٢٢ هـ/١١٨٠ — ١٢٢٥ م) هو الذى كاتب التتار وأطعمهم فى البلاد بسبب ما كان بينه وبين سلطان خوارزم علاء الدين محمد بن تكش من عداء ، وذلك كى يشغله عن القيام بغزو بغداد وبلاد العراق ، وهى البلاد التى كانت باقية فى حوزة الخليفة فى ذلك الحين(١٠) . وكان علاء الدين محمد قد عقد مجلسا من الفقهاء والعلماء واستصدر منهم فتوى بخلع هذا الخليفة العباسى ، واسقط اسمه من الخطبة فى بلاده فعلا منذ عام ٦١٤هـ/١٢١٧م واتجه الى بغداد يريد غزوها ، ولكنه لم يتمكن من ذلك بسبب كثرة الثلوج وسوء الأحوال الجوية التى تعرضت لها جيوشه فى ذلك الحين(١١) .

وقد أدى الصراع والعداء الذى قام بين الخلافة العباسية وبين سلطنة خوارزم الى اضعاف كل منهما امام ضغط المغول المتزايد بعد احتلالهم

---

(٩) ابن العبرى : نفس المصدر ص ٤٠٠ — ٤٣ .
ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٤٤ ، ابن خلدون ج ٥ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ ، ١١٠٤ .
الديار بكرى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦٨ ، مخطوط كتاب فى التاريخ ورقة ٣٣٠ — ٣٣٧ .
فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٥٨ ، براون : نفس المرجع ، ص ٦٥٦ — ٥٦٠ .
الرمزى : نفس المرجع ج ١ ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .

(١٠) ابن ايبك الدوادارى : كنز الدرر ، ج ٧ ص ٢١٧ .
أبو الفدا : تاريخه ، ج ٣ ص ١٤٣ ، العمرى : مسالك الأبصار ج ١٦ ق ٣ ورقة ٤٨٥ .

(١١) ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ج ٧ ص ١٨٨ — ١٩٠ .
ابن الوردى : تاريخه ، ج ٢ ص ١٣٤ ، ابن خلدون : تاريخه ج ٥ ص ٢٣٢ — ٢٣٣ ، على حسنى الخربوطلى : غروب شمس الخلافة ، ص ١٣٦ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٤٩.

لبلاد القرا خطا وتركستان ، لأن كلا منهما واجهت المغول منفردة . وقد دعم هذه الفرقة وزاد من هذا التناحر السياسى ما قام به الاسماعيلية او الباطنية(١٢) من صراع مع الخلافة . وكان هذا الفريق المتطرف المغالى من الشيعة قد سكن شمالى ايران واتخذ من قلعة الموت حصنا منيعا يفرض منه ارهابه وعدوانه على بلاد الخلافة العباسية وعلى الخلفاء وسلاطين الترك السلاجقة والخوارزمية الذين تم قتل بعضهم على أيدى هؤلاء الباطنية(١٣) .

ويفيدنا بعض المؤرخين بأن هؤلاء الشيعة اتصلوا سرا بالمغول الذين كانوا قد غزوا بلاد ما وراء النهر وخوارزم وأطمعوهم وبينوا لهم ضعف الخلافة العباسية ضعف السلطان جلال الدين منكبرتى (٦١٧ — ٦٢٨هـ/١٢١٩ — ١٢٣١) الذى كان قد خلف أباه علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ — ٦١٧ هـ / ١٢١٩م) ، وهزم على يد صاحب الشام وصاحب الروم السلاجقة عام ٦٢٧هـ/١٢٢٩م ، وكان هؤلاء الباطنية يرون فى غزو المغول لبغداد تحقيقا لامالهم فى القضاء على الخلافة العباسية السنية وعلى اهل السنة بوجه عام، بنى العباس فى بغداد ، والى ما قام به من دور فى تسهيل غزو المغول لبغداد . وكان هذا الوزير شيعيا ويرى نقل الخلافة الى العلويين ، فكاتب فيخلو الجو للشيعة وللباطنية منهم بوجه خاص(١٤) ، ولذلك كان هؤلاء

---

(١٢) سموا بالاسماعيلية لانتساب دعوتهم لاسماعيل بن جعفر الصادق ، وسموا بالباطنية لأنهم كانوا يبطنون دعوتهم ويدعون لها سرا ، كما سموا بالملاحدة لأن مغالاتهم وصلت بهم الى الالحاد ، وسموا بالفداوية لأنهم كانوا يأخذون فدية أنفسهم نظير من يسلطون عليه ويقتلونه وقد يقتلون به فى غالب الأحيان ، انظر ابن خلدون : جـ ٥ ص ٥٤.

(١٣) ابن كثير : نفس المصدر ، جـ ١٣ ص ١١٧ .
ابن خلدون ، جـ ٥ ص ١٠٣ ، ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦، ٢٧٨، ٣٢٦.
محمد الخضرى : نفس المرجع ، ص ٤٣٤ — ٤٤٠ ، ٥٠٣ .

(١٤) ابن خلدون : تاريخه ، جـ ٥ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ١١١٤ ويشير ابن خلدون أيضا الى ان الباطنية كانوا يتصلون من قبل بالصليبيين فى بلاد الشام ويساعدونهم ضد صلاح الدين الأيوبى الذى كان قد قضى على الخلافة الفاطمية الشيعية ، ويشير أيضا الى ان بعض الحكام المسلمين كانوا يستأجرونهم لقتل خصومهم السياسيين سواء كانوا من المسلمين ام من اعداء الاسلام . انظر ، ابن خلدون : تاريخه جـ ٥ ص ٣٢٩ ، ٦٣٩ ، ٦٨٥ ، ٧١٣ ، ٨٦٧ ، ميور : نفس المرجع ص ٥٠ .

الباطنية « من أكبر العون على المسلمين لما قدم التتار الى تلك البلاد ، وكانوا اضر على الناس منهم »(١٥) .

وفى هذا الصدد تجدر الاشارة أيضا الى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى ، وزير المستعصم (٦٤٠ — ٦٥٦هـ/١٢٤٢ — ١٢٥٨م) آخر خلفاء بنى العباس فى بغداد ، والى ما قام به من دور فى تسهيل غزو المغول لبغداد . وكان هذا الوزير شيعيا ويرى نقل الخلافة الى العلويين ، فكاتب المغول وزين لهم فتح بغداد وأطمعهم فى امتلاك البلاد وخدع الخليفة وما زال به حتى جعله يسرح عددا كبيرا من جنده بحجة توفير رواتبهم ودفع قدر منها للمغول وقاية من غزوهم لبغداد ، مستغلا فى ذلك حب ذلك الخليفة للمال واكتنازه ، وارسل فى نفس الوقت الى المغول يستحثهم على الزحف الى بلاد العراق ، فساروا حتى وصلوا الى بغداد وحاصروها ، واستكمل الوزير خدعته فزين للخليفة الخروج الى معسكر هولاكو حفيد جنكيزخان ليبقى على حياته وليبقيه فى منصبه كخليفة كما أبقى على سلاجقة الروم وغيرهم من الملوك الذين القوا اليه يد التسليم والطاعة(١٦) .

وقد أدت كل هذه العوامل وغيرها من العوامل الأخرى التى تكمن فى شخصية جنكيزخان الطموحة(١٧) والى رغبته ورغبة اولاده من بعده فى الاستيلاء على هذه البلاد الغنية الوفيرة الموارد الزاخرة بالوان الحضارة والامكانيات المختلفة التى ادت باهلها « الى الاستغراق فى التنعم والتشاغل فى اللذات والاسترسال فى الترف »(١٨) والمظاهر الأخرى التى لم يرها المغول

---

(١٥) ابن كثير : نفس المصدر ، جـ ١٣ ص ١١٧ .

(١٦) ابن العبرى : نفس المصدر ص ٤٣٥ ، رشيد الدين الهمدانى ، م ٢ جـ ١ ص ٢٦٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، أبو الفدا : تاريخه ، جـ ٣ .
العمرى : نفس المصدر ، جـ ١٦ ق ٣ ، ورقة ٥٧٧ ، ابن كثير ، جـ ١٣ ص ١٩٦ .
العينى : نفس المصدر ، جـ ٢٢ ورقة ٢٩ ، ابن خلدون : تاريخه جـ ٥ ص ١١٤٩ .
المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ٢ ص ٤٠٠ .
أبو المحسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ٤٧ — ٥٠ .
الديار بكرى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

(١٧) فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٨١ .

(١٨) ابن خلدون : نفس المصدر جـ ٥ ص ٨٠٢ .

ولم يعرفوها فى بلادهم القاحلة الى غزوهم لبلاد ما وراء النهر وخوارزم عام ٦١٦ هـ/١٢١٩م وما تلاها بعد ذلك من بلاد الاسلام فى ايران وآسيا الصغرى وبلاد القفجاق والبلغار حتى وصلوا اخيرا الى بغداد بقيادة هولاكو بن طولى ابن جنكيزخان عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨ وقتلوا الخليفة المستعصم وازالوا الخلافة العباسية وزحفوا بعد ذلك الى بلاد الشام وحاولوا التوغل جنوبا مهددين مصر . ولكن جيوش المماليك فى مصر أوقفت هذا الزحف الكاسح وردت هذا الغزو المدمر عندما هزمتهم فى موقعة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م(١٩) .

وقد نتج عن هذا الزحف الكاسح الى قام به المغول والذى انتهى على هذه الصورة نتائج ثلاث : أولاها الخراب والدمار لمعظم المدن والأقاليم التى مرت بها جيوش جنكيزخان وأولاده من بعده ، وثانيها قيام امبراطورية مغولية ضخمة شملت معظم انحاء آسيا تم توزيعها على أبنائه ،وثالثها قيام الصراع

---

(١٩) لمعرفة المزيد عن غزو المغول لبلدان آسيا وشرقى أوربا ، انظر :

ابن الأثير : نفس المصدر ، جـ ١٢ ص ٣١٨ ، ٣٥٩ — ٣٩٩.
أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، ص ١٩٨ .
ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٠٧ — ٤١٢ ، ٤٨٢ — ٤٩٠.
رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر م ٢ جـ ١ ص ٢٩٢ — ٢٩٣، ٣١٠ — ٣١٦ ، ٣٣٠ .
أبو الفدا : نفس المصدر ، جـ ٣ ص ١٢٩ — ١٣٥ ، ٢٠٢،٢٠٣.
ابن الوردى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٥٠،١٩٥ — ٢٠٢ .
ابن كثير : نفس المصدر ، جـ ١٣ ص ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٦—٨٩.
ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٤٤ ، ٢٤٥ .
ابن خلدون : نفس المصدر ، ص ٧٩٥ ، ١١٠٦ — ١١١٧ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٤٨ — ١١٥٤ .
الديار بكرى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٦—٣٧٩
الصياد : نفس المرجع ، ص ١١١ — ١٣٨ ، ٢٦٤ ، ٣٠٨ .
براون : نفس المرجع ، ص ٥٥٢ — ٥٦٠ ، ٥٧٦ — ٥٨٩ .
فامبرى ، نفس المرجع ، ص ١٦٤ — ١٧٦ .

بين الأديان التى احتوت عليها هذه الامبراطورية ، وهى البوذية والمسيحية والاسلام ، نحو اكتساب هؤلاء السادة الجدد الى احدى هذه الديانات .

وبخصوص النتيجة الأولى فقد ضرب المغول كثيرا من البلاد والمدن وابادوا ألوفا مؤلفة من سكانها ، واسترقوا اعدادا هائلة من نسائها واطفالها ورجالها وأسروا اعدادا كبيرة من جنودها اجبروهم على الالتحاق بجيوشهم ، وأجبروا الوفا كثيرة من الحرفيين والصناع والزراع على الرحيل الى عواصم بلادهم فى بلاد الصين والخطا مثل خان باليق وقراقورم حتى يزينوا حدائقها وينعشوا صناعاتها ويخدموا أهلها(٢٠) .

وقد اصاب المسلمين من الفزع والهول ما جعل احد المؤرخين المشهورين وهو ابن الأثير يتردد فى وصف احداث ذلك الغزو نظرا لبشاعتها واغراقها فى القسوة والوحشية حتى انه يقول : « لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا اقدم اليه رجلا وأؤخر اخرى ، فمن الذى يسهل عليه ان يكتب نعى الاسلام والمسلمين ؟ » ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيا ليت امى لم تلدنى ، ويا (ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا)(٢١) الى ان حثنى جماعة من الاصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ، ثم رأيت ان ترك ذلك لا يجدى نفعا ، فنقول : هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها ، عمت الخلائق وخصت المسلمين . فلو قال قائل منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم والى الان لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها . ومن اعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببنى اسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس . وما البيت المقدس بالنسبة الى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التى كل مدينة منها اضعاف البيت المقدس ؟ وما بنو اسرائيل بالنسبة الى من قتلوا ؟ فان اهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى اسرائيل . ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة»(٢٢)

---

(٢٠) المصادر السابقة .

(٢١) القرآن الكريم ، سورة مريم ، آية ٢٣ .

(٢٢) ابن الأثير : نفس المصدر ، ج ١٢ ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤.

وهذا الوصف المحزن الذى جاء عند ابن الأثير لم يكن الا لما سمع به فقط عن غزو المغول لبلاد ما وراء النهر وخوارزم وخراسان ، ولم يعش هذا المؤرخ كى يرى غزوهم لبقية بلاد المشرق الاسلامى وعلى راسها بغداد عاصمة الخلافة وقلب العالم الاسلامى وقتذاك وفى الغالب فانه لم يكن ليكتب لنا شيئا لأنه لن يجد من الكلمات ما يعبر به عن هذا المصاب الفادح والكارثة العظمى التى المت بالاسلام والمسلمين والخلافة . واغلب الظن انه كان سيلقى حتفه هما وكمدا وحزنا من هول ما حدث منذ ظهور جنكيز خان وحتى غزو بغداد .

وعلى سبيل المثال فقد انتقم جنكيزخان من مدينة اترار فدمرها تدميرا وقتل سكانها من الرجال وسبى النساء والذرية ، وتعرضت مدينة بخارى الزاهرة بلد الامام العالم محمد بن اسماعيل البخارى اشهر من جمع احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لنفس المصير ، فقد غزاها جنكيزخان عام ٦١٧هـ/١٢٢٠م وقتل عشرين الفا من سكانها ثم احرقها ، وضرب كذلك مدن سمرقند وترمذ وبلخ واصفهان والطالقان وباميان التى قتل أهلها وهدم كل منازلها ، كما قتل من اهل مدينة قزوين اربعين الفا(٢٣) . ولما تمكن هولاكو من بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م اباحها لجنوده اربعين يوما فعلوا بأهلها الاهوال، وأخيرا اشعل فيها النار وهدم مساجدها والقى بالكتب فى نهر دجلة وضرب الدور وهدم القصور ووضع السيف فى رقاب اهلها ورقاب اهل العراق حتى بلغ من قتل منهم اربعة وعشرين الفا من رجال العلم فقط ، ناهيك بغيرهم من العامة والجند الذين بلغوا قرابة المليونين على راسهم الخليفة نفسه واولاده واهل بيته . وقد اصاب مدن الجزيرة الفراتية وبلاد الشام مثل حلب ودمشق وغيرهما مثلما أصاب بغداد ، فكان مصاب الاسلام فادحا ورهيبا(٢٤) .

---

(٢٣) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٠٧ — ٤١٢ .

(٢٤) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٨٢ — ٤٩٠ ، ابن بطوطة ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

ابن الوردى : تاريخه ، جـ ٢ ص ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٥٠،١٥٥،١٩٩ — ٢٠٢ .

المقريزى : السلوك : جـ ١ ق ٢ ، ص ٤٠٩ ، ٤١٠ ،٤٢٢—٤٢٥ .

ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٥٠ — ٥٤ .

الديار بكرى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٣٧١ ، الخربوطلى : نفس المرجع ١٣٧ ، ١٣٨ .

اما النتيجة الثانية التى نتجت عن غزوات جنكيزخان واولاده من بعده فى قارة آسيا واوربا الشرقية فهى ظهور امبراطورية مغولية امتدت شرقا الى الصين ومنشوريا وغربا الى بلاد الشام والبحر المتوسط وحتى نهر الدانوب وشمالا الى بلاد الروس والبلغار وحتى نهاية العمورة التى تنحدر الى بحر الشمال ، وجنوبا الى بلاد السند والهند ، وبذلك ضمت هذه الامبراطورية الواسعة أمما وشعوبا وبلادا كثيرة مثل تركستان وما وراء النهر وخوارزم وغزنة وايران والعراق وآسيا الصغرى وبلاد القفجاق والبلغار والروس . وقد انقسمت هذه الامبراطورية بين أبناء جنكيزخان الأربعة : جوجى وجغطاى وتولى واوكداى الى اربعة اقسام او اربعة ممالك كبرى(٢٥) . فاختص جوجى ببلاد القفجاق وبلاد الداغستان وخوارزم وبلغار والقرم وبلاد الروس والجركس وما يفتح بعد ذلك غربا ، وقد أطلق على مغول هذه البلاد اسم مغول القبيلة الذهبية نسبة الى خيام معسكراتهم ذات اللون الذهبى ، وكان غالب سكانها ينتمون الى الأتراك والتركمان ، وكانت حدودها تمتد من ايرتش شرقا الى أرض البلغار غربا ، ومن القرم وآسيا الصغرى والعراق وايران جنوبا الى بلاد الروسيا ونهاية المعمورة شمالا ،وكانت عاصمة هذه المملكة الواسعة والتى كانت تسمى أيضا باسم المملكة الشمالية مدينة سراى Serai وكانت تقع على الضفة الشرقية لنهر (الفلجا) الذى كان يسمى بنهر اتل(٢٦)

وكان من نصيب طولى (تولى) بن جنكيزخان بلاد ايران وأرمينيا وآسيا الصغرى وما يفتح بعد ذلك من بلاد العراق والشام . وقد توارث أبناء طولى هذه البلاد واتخذوا من مدينة تبريز عاصمة لدولتهم التى كانت تسمى فى

---

(٢٥) ابن الأثير : نفس المصدر ، ج ١٢ ، ص ٣١٨ ، ٣٥٩—٣٩٩ .
أبو الفدا ، تاريخه ، ج ٣ ص ١٢٩ — ١٣٥ .
الخضرى : نفس المرجع ، ص ٤٧٤ ، الرمزى : نفس المرجع ، ١ ص ٣٥٨ .

(٢٦) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٣٤ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٣٠٨ ، ٤٥٣ — ٤٦٥ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ٩٢٤ ، ١٠٨١ .
Saunders : op. cit., pp. 73-75.

العادة ايلخانية(٢٧) مغول فارس ، وكان على أيديهم سقوط الخلافة العباسية كما سبق القول . وكان من نصيب جغطاى بن جنكيزخان وبنيه من بعده تركستان وبلاد ما وراء النهر وغزنة ، واتخذوا من مدينة سمرقند عاصمة لهم . أما الابن الرابع اوكتاى (اكداى) بن جنكيزخان ، فقد كان من نصيبه بلاد الصين ومنغوليا والخطا ، واتخذ من قراقورم عاصمة له وللامبراطورية المغولية بممالكها الثلاث الأخرى التى أشرنا اليها ، ذلك ان الخان الذى كان يجلس على عرش قراقورم كان هو الخان الأعظم الذى يدين له حكام الممالك المغولية الثلاث الذين كانوا يسمون بالايلخانات (اى نائب الخان) بالطاعة والولاء ويشتركون مع سائر امراء المغول وخواتينهم فى تنصيب الخان الجديد فى مجمع يعرف بالقوريلتاى كان يعقد لهذا الغرض فى عاصمة الامبراطورية كلما خلى منصب الخان الأعظم سواء بالموت او القتل او العزل(٢٨) .

وقد ظلت ممالك المغول الثلاث تحافظ على الرباط الذى يربطها بقراقورم حتى مات الخان الأعظم منجوخان عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وبموته انتهت وحدة الامبراطورية المغولية من الناحية الفعلية وبدأ الصراع يدب بين ايلخاناتها او ملوكها ، وبدأت الممالك الغربية وهى ممالك جغطاى والقبيلة الذهبية وايلخانية ايران تدير شئونها بنفسها وكأنها دول مستقلة ، وبدأت الطبقة الحاكمة فى كل منها تندمج فى السكان المحليين من الترك والفرس(٢٩) ، وبدأنا نصل بذلك الى النتيجة الثالثة والأخيرة ، ذلك ان الاسلام بدأ ينتشر بين المغول الذين سكنوا هذه الممالك الثلاث واستقروا فيها وكونوا فيها أسرات حاكمة ، وبدأ الصراع بين الاسلام والبوذية والنصرانية

---

(٢٧) ايلخانية نسبة الى كلمة ايلخان بمعنى نائب الخان ، وعلى ذلك فالايلخانية هى المملكة التابعة للخانية التى يحكمها الخان الأعظم .

(٢٨) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٣٢ — ٤٣٤ ، العمرى : نفس المصدر ج ١٦ ق ٣ ورقة ٥٠ ، القلقشندى : نفس المصدر ،ج ٤ ص ٣٠٩ — ٤٣١ — ٤٤٣ ، ٤٧٧ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١٠٨١ ، الصياد نفس المرجع ، ص ١٦٥ ، فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٧٩ ، الرمزى ، نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٥٨ .

(29) Saunders : op. cit., p. 116.

لجذب هؤلاء السادة الجدد ، لأن من ينجح فى جذبهم اليه والى ديانته سوف تصير له الغلبة النهائية على غيره ، علاوة على انه سوف يكتسب شعبا جديدا يضم الى قائمة الشعوب الأخرى التى اعتنقت ديانته مما يدعم موقفه ويزيد من قوته . وقد اندلع هذا التنافس او هذا الصراع بين هذه الأديان الثلاثة سواء فى قراقورم ام فى سمرقند وتبريز وسراى ، فما هى مظاهر هذا الصراع ،وما هى النتيجة التى انتهى اليها . والاجابة على هذين التساؤلين هما موضوع الفصل الأول من هذا الكتاب .

الفصل الأول

تنافس الأديان نحو اكتساب المغول

انتهز أصحاب كل من الديانتين المسيحية والبوذية فرصة ظهور المغول الذين كان معظمهم يدين بالوثنية(١) على مسرح الأحداث واكتساحهم لمعظم بلدان آسيا وشرقي اوربا وقضائهم على الخلافة العباسية وعلى الدول الاسلامية التى كانت قائمة فى بلاد المشرق الاسلامى فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر للميلاد ، وعملوا على نشر ديانتهم بين هؤلاء المغول تحقيقا لأهداف معينة ، منها ان مسيحيى آسيا من الأرثوذكس والنساطرة أرادوا ان يردوا الصاع للاسلام صاعين ، ذلك لأن انتشار الاسلام فى بلاد كثيرة من آسيا كان على حساب المسيحية الأرثوذكسية ، ولذلك كان هدف هؤلاء المسيحيين هو تحويل هؤلاء الحكام الجدد الى المسيحية الأرثوذكسية ونشرها بين غيرهم من القبائل التركية والمغولية التى كانت لا تزال على الوثنية ، والتبشير بالمسيحية أيضا بين المسلمين المهزومين فى ذلك الوقت . وعلى ذلك فقد كانت اهداف مسيحيى آسيا هى الفوز بهذا الشعب الذى صار متحكما فى مصائر آسيا ، ضربا للاسلام من جهة ودعما للقسطنطينية وغيرها من الدول المسيحية الشرقية مثل جورجيا (الكرج)

---

(١) كان المغول يدينون بالوثنية فيما يعرف بالديانة الشامانية البدائية التى تقوم على عبادة الكواكب والأصنام وأرواح الأجداد القدامى ، والقليل منهم كان يدين بالنصرانية ، ومنهم من كان لا يتدين بدين معين . انظر :

القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٣١٠ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٢٠ .

ارنولد : الدعوة الى الاسلام ، ص ٢٥١ .

الرمزى : تلفيق الأخبار ، ج ١ ص ٣٥٤ ، ٣٥٦ .

وارمينيا فى مقاومتها امام ضغط سلاجقة الروم المسلمين والتركمان والأيوبيين وسـلاطين المـماليك مـن جهـة اخـرى(٢) .

اما مسيحيو اوربا فقد ارادوا من وراء جهودهم فى نشر المسيحية بين المغول ان يعيدوا سيطرتهم على الممالك الصليبية التى فقدوها فى بلاد الشام على يد الأيوبيين وسلاطين المماليك ،وان ينتقموا من هؤلاء المسلمين الذين اوقعوا بملوكهم الهزيمة فى حطين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م وأن ينشروا مذهبهم الكاثوليكى فى بلاد آسيا تدعيمـا لنفوذهم فى تلك البلاد من جهـة وضمانا لرواج تجارتهم وتأمينا لتجارهم الذين كانوا يذرعونها جيئة وذهابا عبر الطريق التجارى البرى القديم الذى كان يسمى طريق الحرير والذى كان يخترق آسيا من أقصى الشرق الى اقصى الغرب(٣) .

وقد انتهز كهنة البوذية هذه الفرصة أيضا وارادوا نشر ديانتهم ونفوذهم فى كل آسيا وليس فى شرقيها فقط ، وارادوا ان يوقفوا انتشار الاسـلام وان يحدوا من ضغطه الذى كانت تتعرض له معاقل البوذية فى بلاد الهند وجنوب شرقى آسيا بصفة عامة . ولذلك أظهر هؤلاء المنافسون للاسلام من البوذيين والمسيحيين شرقيين وغربيين التقرب والمودة نحو المغول ونجحوا فى اكتساب عطف الكثيرين من خوانينهم وايلخاناتهم منذ عهد جنكيزخان ، كمـا نجحوا فى تحويل بعض المغول وبعض أمرائهم وبعض وزرائهم الى المسيحية والى البوذية ، مما زاد من حدة المنافسة مع الاسلام نحو اكتساب هؤلاء الغـزاة الجـدد .

(أ) العوامل التى ادت الى التنافس بين الأديان الثلاثة :

ويمكننا ان نحصر العوامل التى أججت المنافسة بـين الأديان الثلاثة لاكتساب المغول فى ثلاث : اولاها هو أن البعض من زوجات خوانين المغول وايلخاناتهم وأمرائهم كن مسيحيات وكان لهذا العامل تأثيره فى ميل ازواجهن الى المسيحية واضطهاد الاسلام واشتعال المنافسة بينه وبـين المسيحية والبـوذية .

---

(2) Saunders : op. cit., pp. 117, 185.

(٣) الرمزى : نفس المرجع ، جـ ١ ص ٣٦٦ ، ٣٧٧ ، Saunders : op. cit., p. 95-97.

أما العامل الثانى فيعود الى جهود بعض الوزراء والموظفين الذين كانوا على المسيحية او البوذية ، وكذلك جهود الرهبان المسيحيين والبوذيين وتأثيرهم على بعض الخوانين والأمراء والمغول للانحياز الى دياناتهم والعطف على رجالها مما اشعل المنافسة بين هاتين الديانتين وبين الاسلام . أما العامل الثالث والأخير فيعود الى نشاط البابوية وملوك أوربا فى التبشير بالمسيحية بين المغول وفى محاولة التحالف معهم ضد المسلمين ومساعدتهم فى غزواتهم لبلاد الاسلام . هذه هى أهم العوامل التى اشعلت المنافسة بين كل من البوذية والمسيحية من جانب وبين الاسلام من جانب آخر لاكتساب المغول وتحويلهم الى احدى هذه الديانات الثلاث . وسوف نتحدث عن كل عامل من هذه العوامل على حدة ونبين اثره سواء فى عاصمة الامبراطورية المغولية أم فى عواصم الممالك المغولية التى كانت تضمها هذه الامبراطورية .

١ — تأثير الزوجات المسيحيات :

يعود هذا التأثير الى أن بعض زوجات الخوانين والايلخانات والأمراء من المغول كن مسيحيات نتيجة لتلك المصاهرات التى نشأت بين هؤلاء وبين القبائل المسيحية المغولية التى كانت تعيش داخل حدود الامبراطورية . فزوجة جنكيزخان (٥٩٦ — ٦٢٤هـ/١١٩٩ — ١٢٢٧م) كانت من قبيلة كرايت المسيحية التترية(٤) وبجانب ذلك فقد تنبأ له أحد الرهبان المسيحيين بعظم ملكه كما سيجىء فى حينه ، ولذلك صار جنكيزخان ، يميل الى النصارى ويحسن الظن بهم ويكرمهم(٥) وكانت زوجة ابنه اوكتاى(٦٢٦ — ٦٣٩هـ/ ١٢٢٩ — ١٢٤١م) مسيحية ومن نفس الأسرة التى تنتمى اليها امه(٦) . ولذلك فعندما اشتكى اهل جورجيا عام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م الى اوكتاى من عدم عدالة حكامه ومن استجابتهم لتحريض المسلمين لهم ضد المسيحيين فى جورجيا وأرمينيا ، ارسل هذا الخان احد الرهبان النساطرة الى ارمينيا فى العام

---

(٤) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤١ ، ارنولد : نفس المرجع، ص ٢٥٢ .

(٥) الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٥٣ .

(٦) الصياد : نفس المرجع ، ج ١ ص ١٩٨ — ٢٠١ .

التالى يحذر الحكام المغول هناك ويأمرهم بأن يحموا الكنائس ويرعوا مصالح المسيحيين(٧) .

وقد زاد العطف على المسيحيين فى عهد كيوك خان بن اوكتاى (٦٤٤ — ٦٤٧هـ/١٢٤٦ — ١٢٤٩ م) . فقد كانت أمه تورجين ووزيره وأحد كتابه واتابكه يدينون بالمسيحية واكتظ بهم بلاطه ،وتوافد عليه رسل البابا انوسنت الرابع ، كما وصل رسول ذلك البابا ايضا الى تبريز يطلبون التحالف مع مغول ايران ضد الأيوبيين(٨) .

وقد اثمرت كل هذه الجهود وادت الى ارتفاع شأن الطوائف المسيحية التى كانت تعيش فى الامبراطورية المغولية من الفرنج والروس والسريان والأرمن ، ووصلت القبائل المسيحية من المغول والترك الى مراكز السلطة ، واعطيت الفرصة لرجال الدين النساطرة لبث المسيحية فى شرقى آسيا وللتاثير على قواد المغول وزعمائهم من خلال النساء المسيحيات اللائى شققن طريقهن بين حريم الخوانين والأمراء حتى اصبح كيوك نفسه على وشك التحول الى المسيحية مما اثار آمال المسيحيين فى الشرق والغرب ، ودفع بهم لارسال بعثات جديدة الى قراقورم لجذب الخوانين الى المسيحية(٩) .

وقد أدى ازدياد النفوذ المسيحى فى بلاط قراقورم على هذا النحو الى اعلاء شأن القسيسين والرهبان والى التصدى للمسلمين والعمل على اذلالهم، والعدوان على فقهائهم حتى لو كان هؤلاء الفقهاء فى حضرة كيوك خان نفسه . فقد حدث ان انتصر فقيه مسلم على فريق من احبار المسيحية والبوذية فى

---

(7) Saunders : op. cit., p. 79.

(٨) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٥٠ .
أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٢ ، الصياد : نفس المرجع ج ١ ص ١٩٨ — ٢٠١ .
Saunders : op. cit., pp. 97, 181.

(٩) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٥٠ ، براون : نفس المرجع ، ص ٧٥٤ ، اربرى : نفس المرجع ، ص ٤٣٦ ،
Saunders : op. cit., pp. 91, 97-98.

مناظرة جرت فى بلاط كيوك خان ، فما كان من هؤلاء الأحبار الا ان تعرضوا لهذا الفقيه بالعدوان والايذاء والسخرية اثناء قيامه بالصلاة(١٠) . وعندما غر بعض المسلمين من هذا الاضطهاد الى باطوخان ملك القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق ، اغرى هؤلاء الأحبار كيوك خان بالتصدى لهذا الملك ، وقامت الحرب فعلا بين كيوك خان وباطو خان عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م او بعدها بقليل(١١)

ويستمر التأثير المسيحى فى عهد منكوخان (٦٤٩ — ٦٥٨هـ/١٢٥١ — ١٢٥٩م) الذى اعتلى العرش بعد وفاة كيوك خان . وقد حكى لنا العينى بأن هذا الخان الجديد كان « يتمذهب بمذهب النصرانية ويميل اليها ومات عليها»(١٢) . والغالب أن العينى الذى توفى عام ٨٥٥هـ/١٤٥٠م كان يقصد بكلامه الخان السابق الذى قيل انه تنصر فعلا ؛ اما منكو خان فقد كان يميل الى المسيحيين بتأثير امه المسيحية التى كانت تنتمى الى قبيلة كرايت المسيحية(١٣) . ومعروف انه فى عهد هذا الخان وصل العداء للاسلام الى ذروته حيث حدث الغزو الرهيب لبغداد ، وتم قتل الخليفة العباسى واهل بيته ، وتم اسقاط الخلافة العباسية وضاع الكثير من مفاخر الاسلام وذخائره من مكتبات ومساجد وعمائر وقصور ومدن بأكماها .

أما قوبيلاى خان (٦٥٨ — ٦٩٢هـ/١٢٦٠ — ١٢٩٤ م) فرغم ان امه كانت مسيحية الا انه لم يتأثر بها ورفض ان يتحول الى المسيحية عندما دعاه اليها بعض التجار الايطاليين وعلى رأسهم ماركو بولو عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م وفضل عليها اعتناق البوذية . وربما يعود ذلك الى ان قوبيلاى خان كان يراعى مشاعر الصينيين والخطائيين البوذيين الذين كان يعيش بينهم ، وتقع عاصمته فى بلادهم ، ولأن هؤلاء الناس كانوا ينظرون الى المسيحية على انها ديانة أجنبية لم تجذب اليها عندهم الا اتباعا قليلين . ولذلك كان تحمس قوبيلاى الشخصى مقسما بطريقة متساوية بين البوذية والمسيحية ، ولكن مراعاة لجانب والدته المسيحية وتدليلا على سماحته الدينية ، فقد عين ماركو

---

(١٠) أرنولد : نفس المرجع ، ٢٥٧ .
(١١) الرمزى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٨٩ — ٣٩١ .
(١٢) عقد الجمان ، ج ٢٢ ، ورقة ١٥٣ .

(13) Saunders : op. cit., p. 181.

بولو ورفاقه الذين كانوا قد وصلوا الى بـلاطه فى بعض المناصب المدنيـة فى الصين المغولية ، كما سمح لهم بأن يستقدموا الى بلاده وبلاطه مائة من القسس لنشر المسيحية ، كما سمح بفتح الكنائس فى العاصمة ، واسـتمر تعيين المسيحيين فى المناصب العالية ، وكان مـن بين هـؤلاء المسـيحيين نسطورى يدعى عيسى ، عين مديرا لمرصد الأوردو ، ثم عين وزيرا للدولة ، كما عين ثلاثون الفا من المسيحيين الالان Alans الاغريق حراسا فى خان بائيـــق(١٤) .

وفى عواصم الايلخانيات أو الممالك المغولية الثلاث الأخرى كانت هـذه السياسة متبعة نتيجة لنفس المؤثر وهو الزوجات المسـيحيات . فهـولاكو (٦٥٤ — ٦٦٤هـ/١٢٥٦ — ١٢٦٥م) ايلخان مغول ايران وتوابعها كانت امه مسيحية ، وكانت زوجته دوقوز خاتون Dokus Khatun مسـيحية نسطورية وكان المسيحيون ينظرون الى هولاكو رغم عـدم اعتناقه المسيحية — والى زوجته كما لو كانا قنسطنطين الجديد وهيلينا ، وقد دفعته زوجته بما كان لها من نفوذ الى أن يظهر عطفا شديدا على المسيحيين وعلى النساطرة منهم بوجه خاص ، ومن ثم اعتنق بعض المغول وخاصة الذين احتلوا بـلاد ارمينيا وجورجيا الدين المسيحى ، كما تحمس هولاكو لغـزو بغـداد عـام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م بعد أن امده مسيحيو الأرمن والكرج بالمساعدات اللازمة(١٥) وبعد أن نجح هولاكو فى تدمير بغداد وفتح بلاد الشام كان نائبه فيها المسـمى كتبغا يميل الى النصرانية ولكنه لم يعتنقها حتى لا يكون خارجا على اليساق مثله فى ذلك مثـل هولاكو(١٦) .

---

(14) Prawdin : The Mongol Empire, pp. 333-334 ; Saunders : op. cit., pp. 125-127, 188.

(١٥) رشيد الدين المهدانى : نفس المصدر م ٢ ج ١ ص ٢٢٠ ، ابن العبرى : نفس المصدر ص ٤٦١ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ج ٧ ص ٢٢٠ ، العينى : نفس المصدر ، ج ٢٢ ، ورقة ٢٥٧ ، الديار بكرى : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ ، أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .
Saunders : op. cit., p. 129.

(١٦) العينى نفس المصدر ، ج ٢٢ ، ورقة ١٥٦ .

وقد استمر بعض خلفاء هولاكو الذين حكموا مملكة ايران وتوابعها فى اتباع هذه السياسة . فيذكر لنا ابن العبرى المعاصر لتلك الأحداث والذى نراه يغالى فى حديثه عن تأثير المسيحية على المغول وعن ارتفاع شأنها بينهم ، ان اباقا خان بن هولاكو والذى يعرف فى المصادر العربية باسم (ابغا) والذى خلف اباه على عرش ايران (٦٦٤ — ٦٨٠هـ/١٢٦٥ — ١٢٨١م) انه دخل البيعة فى همذان فى يوم عيد النصارى عام ٦٨١هـ/١٢٨١م وانه عيد معهم(١٧) ، فقد كانت امه مسيحية وكانت زوجته أيضا مسيحية ، فهى ابنة امبراطور القسطنطينية . ورغم انه لم يعتنق المسيحية ، فقد امتلأ بلاطه بالقسيسين من المسيحيين وأرسل السفراء الى بعض ملوك اوربا ، فكان يراسل القديس لويس ملك فرنسا ، وشارل ملك صقلية ، وجيمس ملك ارغونة ، يطلب التحالف ضد المسلمين . كما ارسل لهذا الغرض ايضا بعثة من ستة عشر سفيرا من المغول الى مجمع ليون عام ٦٧٣هـ/١٢٧٤م حيث دخل كبير أولئك السفراء فى المسيحية وعمد مع بعض رفاقه هناك(١٨) .

وقد سار ابنه ارغون Arghun (٦٨٣ — ٦٩٠هـ/١٢٨٤ — ١٢٩١) الذى تولى عرش ايران بعد مقتل عمه احمد تكودار المسلم عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م على سياسة ابيه ابغا فى العطف على المسيحيين الذين استردوا مكانتهم من جديد بعد القضاء على هذا الخان المسلم،ولاقى المسلمون فى عهد أرغون كثيرا من انواع الاضطهاد حيث صرفوا عن مناصبهم التى كانوا يشغلونها فى القضاء والمالية ، كما حرم عليهم الظهور فى بلاطه(١٩) . وتعود هذه السياسة فى الغالب الى أن هذا الخان قد تربى تربية مسيحية ، فقد كانت امه مسيحية ، كما كانت زوجته مسيحية نسطورية ، فهى بنت اخ دوقوز خاتون زوجة هولاكو النسطورية . ولذلك ربى ابن هذا الايلخان كوالده ارغون تربية مسيحية وعمد باسم نيقولا فى عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩ تيمنا باسم البابا نيقولا

---

(١٧) تاريخ مختصر الدول ، ص ٥٠٥ .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٤٩٧ ، رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، م ٢ جـ ٢ ص ١٢٤ ، ارنولد : نفس المرجع : ٢٦٠ .
Haworth : op. cit., v. 2, p. 1012.

(١٩) المرجع السابق ، ص ٢٥٧ ، ٢٦٣ .

الرابع(٢٠) . وكان من المالوف فى ذلك العصر أن يربى بعض ابناء الايلخانات تربية مسيحية ، وأن يربى بعضهم الآخر تربية اسلامية(٢١) .

وفى ايلخانية القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق حيث تقترب الامبراطورية البيزنطية بتاثيرها المسيحى وثقافتها المسيحية من هذه البلاد ، كان نفوذ المسيحية هناك ليس قليلا ، ولكن هذا النفوذ لم يكن مرجعه الى زوجات مسيحيات كن فى عصمة الحكام المغول ، لأن هؤلاء الحكام اعتنقوا الاسلام قبل الحكام المغول فى جميع أنحاء الامبراطورية ومنذ وقت مبكر يعود الى منتصف القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد ، اى بعد فتح المغول لهذه البلاد بحوالى عشرين عاما . وعلى ذلك ففترة الحكم الوثنى لهذه البلاد تعتبر أقصر فترة فى تاريخ ممالك المغول الوثنية قاطبة .

وقد سار ايلخانات بلاد القفجاق على سياسة التزوج من مسلمات ، وقد حدث أن تزوج احدهم ابنة امبراطور القسطنطينية فأصر على تحويلها الى الاسلام(٢٢) . وقد تزوج ايضا بعض الأمراء المغول بزوجات مسيحيات ، ولكن عدد هؤلاء الأمراء كان قليلا جدا ، وليس هناك من مثل يمكن ان نضربه لهم الا الأمير نوغاى (نوجاى) قائد جيوش بركة خان (٦٥٤ — ٦٦٥هـ/١٢٥٦ — ١٢٦٦م) الذى تزوج من ابنة الامبراطور البيزنطى باليولوجوس Paloeologus حتى يحتمى به الامبراطور من اطماع سلاطين مغول القفجاق الذين كان يتحكم فى تعيينهم وعزلهم او قتلهم هذا القائد طيلة عشرين عاما(٢٣) ، كما اراد هذا الامبراطور ايضا ان يحتمى به من ضربات سلاجقة الروم الذين استولوا على معظم انحاء آسيا الصغرى وأصبحوا خطرا يهدد القسطنطينية ذاتها .

وقد اخبرنا ابن بطوطة انه كان بين زوجات السلطان محمد أزبك خان (٧١٢ — ٧٤٢هـ/١٣١٣ — ١٣٤٢م) زوجة مسيحية هى ابنة امبراطور

---

(20) Saunders : op. cit., p. 141.

(٢١) بارتولد : نفس المرجع ص ١٩٥ .

(22) Saunders : op. cit., p. 164.

(23) Ibid : p. 159.

القسطنطينية تكفور ، وقد زارها ابن بطوطة وسافر معها لزيارة القسطنطينية عندما أرادت تلك الزوجة ان تضع حملها هناك عند ابيها ، ويستفاد من كلام ابن بطوطة ان هذه الزوجة كانت تتظاهر بالاسلام عندما كانت فى سراى ، ولما وصلت الى القسطنطينية اظهرت دينها ، وظهر ذلك لمن كان فى صحبتها من المغول فعادوا الى سراى وتركوها(٢٤) . ولذلك لم يكن تأثير الزوجات المسيحيات على مغول بلاد القفجاق كبيرا مثلما كان الحال عليه عند مغول ايران . ولذلك كان الصراع بين المسيحية والاسلام فى بلاد القفجاق صراعا محدودا انتهى بسرعة لصالح الاسلام عام ٦٥٣هـ/١٢٥٦م عندما تولى عرش تلك البلاد بركة خان الذين كان يدين بالاسلام(٢٥) .

وفى ايلخانية جغطاى فى تركستان وبلاد ما وراء النهر ، كان هذا الايلخان (٦٢٤ — ٦٤٠هـ/١٢٢٧ — ١٢٤٢م) الذى تولى حكمها بعد وفاة ابيه جنكيز خان من ألد أعداء المسلمين من بين خوانين وايلخانات المغول كافة . وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين انه لم يكن يجب ان ينطق احد بكلمة مسلم فى حضرته الا اذا اريد بذكرها التحقير والحط من شأنها(٢٦) ، كما انه كان يعاقب بالقتل كل من يذبح الماشية على الطريقة الاسلامية(٢٧) . ولا ندرى أيرجع سر هذا العداء الى تأثير امه المسيحية ام الى ديانته الشامانية البدائية التى كانت تتناقض مبادؤها مع اى دين سماوى .

وفى الواقع كان الصراع فى بلاد جغطاى يقوم أساسا بين الشامانية والبوذية من ناحية وبين الاسلام من ناحية اخرى ، ولم يكن للمسيحية نشاط تبشيرى كبير كما حدث فى ايلخانية ايران ، ذلك ان بلاد جغطاى كانت اقربه الى بلاد الصين والخطا حيث تسود الشامانية والبوذية والكنفوشيوسية.

---

(٢٤) رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ .

(٢٥) العينى : نفس المصدر ، جـ ٢٢ ورقة ١٩ ، المقريزى : نفس المصدر ، جـ ١ ق ٢ ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، الرمزى : نفس المرجع ، جـ ١ ص ٤٠٤

(٢٦) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٢٧) القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٣١١ .

ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٥ .

وكان هذا القرب يؤثر على ايلخانات بلاد جغطاى ، فظلوا على دين جنكيزخان مدة طويلة حتى تركوا سكنى الجزء الصحراوى الرعوى من دولتهم ونزلوا الى بلاد ما وراء النهر وسكنوا فيها وتأثروا هناك بالحضارة الاسلامية ، فأسلموا منذ بداية الربع الثانى من القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر للميلاد(٢٨) .

وحتى فعل هؤلاء الحكام ذلك كان سابقوهم فى حكم هذه البلاد يدين معظمهم بالبوذية ويناهضون الاسلام . فالغو (الكو) بن بيدار ابن جغطاى (٦٥٩ — ٦٦٤هـ/١٢٦١ — ١٢٦٥م) كان يسير على سياسة جده فى اضطهاد المسلمين(٢٩) ، وأتى بعده ابن عمه مبارك شاه بن قرا هولاكو بن توغان بن جغطاى الذى اعتنق الاسلام كما يظهر من اسمه(٣٠) ، ولكن ابن عمه براق خان غير المسلم ثار عليه وقتله(٣١) ، وتوالت هذه العملية بين الايلخانات المسلمين وغير المسلمين من البوذيين فى بلاد جغطاى وظل الصراع قائما فيها بين البوذية والاسلام حتى عصر السلطان طرماشيرين (٧٢٦ — ٧٣٤هـ/١٣٢٦ — ١٣٣٤م) الذى اعتنق الاسلام ونشره بين مغول هذه البلاد وانهى ذلك الصراع لصالح الاسلام ، وتغيرت الأحوال لصالح المسلمين منذ ذلك الحين(٣٢) .

٢ — جهود بعض الوزراء والموظفين والكهان من المسيحيين والبوذيين :

من المعروف ان جنكيز خان وأولاده من بعده اتخذوا فى فترة الحكم الوثنى لدولهم وزراء وحكام وموظفين من جميع الأديان : بوذيين ومسيحيين ومسلمين . وقد انتهز الوزراء المسيحيون والبوذيون فرصة تواجدهم فى بلاط المغول سواء فى العاصمة قراقورم أم فى عواصم ممالك المغول الأخرى فى تبريز وسراى وسمرقند ، وفرصة وجود زوجات مسيحيات لبعض الخوانين

---

(28) Saunders : op. cit., p. 171.

(٢٩) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٩٦ .

(٣٠) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٤٩ ، بارتولد : نفس المرجع ص ١٨٨ ، فامبرى : نفس المرجع ص ١٩١ .

(٣١) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٨٨ .

(32) Saunders : op. cit., p. 172.

والايلخانات ومارسوا دورا هاما فى التاثير على الحكام المغول فى ناحيتين : الناحية الأولى هى دعوتهم للتحول الى الديانة البوذية او الديانة المسيحية ، والناحية الثانية هى تشجيعهم على ضرب الاسلام وغزو بلاده وممالكه ما أمكن، وقام رهبان هاتين الديانتين بدور بارز فى هذا المضمار . فهذا راهب نصرانى يشجع جنكيزخان على غزو العالم الاسلامى ويقول له « لا تخف ، افعل ما شئت فانك مؤيد(٣٣) »، وذاك راهب بوذى يقص على أوكتاى بن جنكيزخان الذى خلف اباه على عرش الامبراطورية (٦٢٦ — ٦٣٩هـ/١٢٢٩ — ١٢٤١م) بان جنكيزخان ظهر له فى المنام وطلب منه ان يبلغ ابنه اوكتاى بضرورة العمل على القضاء على المسلمين فى جميع انحاء الأقطار(٣٤) .

وقد دعم من هذا النشاط للرهبان المسيحيين ان بعض القبائل المغولية كانت تعتنق المسيحية قبل ظهور جنكيزخان نفسه وظلت على هذه الديانة مدة طويلة . مثال ذلك قبائل النايمان التى كانت تقيم فى غرب منغوليا ، وقبائل الكرايت التى كانت تقيم فى شرقها ، وقبائل الأنغوت التى كانت تقيم فى جنوبها . وكذلك كان الأيغوريون الذين يقيمون فى شرقى تركستان وفى بلاد الخطا يشتركون فى الترويج للمسيحية بجانب المبشرين الأوربيين والنساطرة طوال القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد(٣٥) .

وقد استند الوزراء والموظفون المسيحيون الى هذه القوى من قبائل مغولية مسيحية ومن رهبان مسيحيين وزوجات مسيحيات وقاموا بدورهم فى التأثير على بعض خوانين وايلخانات المغول . وقد سبقت الاشارة الى أن كيوك خان كان وزيره وأتابكه يعتنقان المسيحية ، واستطاعا بمالهما من مكانة عنده ان يؤثرا عليه ، فأخذ يعطف على المسيحية والمسيحيين واصبح بلاطه مكتظا بالقساوسة النسطوريين وبرجال الدين القادمين عليه من أوربا(٣٦) .

---

(٣٣) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤١ ، الرمزى : نفس المرجع جـ ١ ص ٣٥٣ .

(٣٤) الصياد : نفس المرجع ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٢٤ .

(٣٥) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٢٨ .

(٣٦) انظر ، ص ٢٨ ، براون : نفس المرجع ، ص ٧٥٤ .

وهكذا نرى أن التبشير بالدين المسيحى كان مركزا غاية التركيز ومنصبا على قراقورم عاصمة الامبراطورية المغولية لاعتقاد المبشرين بهذا الدين انه إذا اعتنق الخوانين هذه الديانة اعتنقها المغول فى كافة انحاء الامبراطورية ، ولذلك ليس امامنا مثل نضربه على نجاحهم خارج قرارتوم الا الأمير (صرتق Sartak) بن باطو الذى تولى حكم ايلخانية القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق عقب موت والده عام ٦٥٣هـ/١٢٥٦م والذى تحول الى المسيحية وأعلن ذلك ، ولكن القدر لم يمهله فقد توفى كما سنعرف أثناء عودته من قراقورم ليعتلى عرش بلاده(٣٧) . والمدهش ان المسيحية لم تنشط فى بلاد القبيلة الذهبية بسبب اعتناق هذا الأمير لها ولكن بسبب التسامح العظيم الذى أبداه بركة خان الذى تولى الحكم عقب موت صرتق ، وكان هذا الخان أول من اسلم من خوانين المغول كافة(٣٨) .

وقد وقع رهبان البوذية فى نفس الخطأ فكان نشاطهم منصبا على خانية المغول العظمى أى فى بلاد الصين والخطا حيث تبعد هذه البلاد عن مجال التأثير الاسلامى وتقترب من التأثير البوذى الذى كان يسود هذه البلاد وجنوب شرقى آسيا بصفة عامة . ولذلك فقد تمتعت البوذية بالعطف والمساندة من جنكيزخان الذى كان يستمد الحكمة من وزيره البوذى تشانج تشون Ch'ang Ch'un ، كما استطاع موكالى Mukali أحد قواد جنكيزخان أن يحصل منه على فرمان باستثناء رهبان البوذية من الضرائب . واشتد نفوذ البوذية فى قراقورم وخاصة بعد أن غزا خلفاء جنكيزخان هضبة التبت معقل البوذية بعد عام ٦٣٨هـ/١٢٤٠م وتحولت قيادة المغول الى البوذية ، وأعطى تورجين Toregene نائب الخان (٦٣٩ — ٦٤٤هـ/١٢٤١ — ١٢٤٦م) رهبان البوذية ورجالها الأفضلية على منافسيهم من أصحاب الأديان الأخرى ، واعطى طولى بن جنكيزخان ابنه اسما بوذيا فسماه قوبيلاى ، وعندما تولى هذا الابن حكم الامبراطورية (٦٥٨ — ٦٩٣هـ/١٢٦٠ — ١٢٩٤م) أصبح

---

(٣٧) الرمزى : جـ ١ ص ٣٧٨ ، ٤٠٢ .

Saunders : op. cit., pp. 118, 169.

(38) Ibid., pp. 118, 169-170.

[illegible] Phags-pa) مكانة سـامية ومركزا رسميا فى الامبراطورية ، وفى النهاية اصبح قوبيلاى خان بوذيا متعصبا)(٣٩) . وقـد حكم اولاده واحفاده حكم تلك البلاد (الصين والخطا) حتى انتهت دولتهم فيها وكانوا خلال حكمهم لها يدينون بالبوذية(٤٠) .

وفى ايران كان هولاكو (٦٥٤ — ٦٦٤هـ/١٢٥٦ — ١٢٦٥ م) مثل اخيه قوبيلاى الخان الأعظم يعتنق البوذية ، وكان ابنه ابغـا (ابـاقا خان) (٦٦٤ — ١٢٦٥/٦٨٠ — ١٢٨١ م) يميل الى البوذية ، وكان مغرما بها(٤١). وسار ارغون بن ابغا على سياسة ابيه وجده فى تعضيد البوذية ومساندتها ، وكثرت المعابد البوذية فى بلاد ايران ، واستقدم رهبانها من الهند ، ونظـر المسلمون واليهود فى خوف وفزع من هذا الانتشار السريع للوثنية البوذية(٤٢). وقام سعد الدولة اليهودى وزير هذا الايلخان باضطهاد المسلمين وسـامهم الخسف والهوان ، وأراد ان يحول الكعبة الى معبد بوذى(٤٣) ، كما تحول غازان ابن هذا الايلخان والذى كان حاكما لاقليم خراسان الى البوذية ، ويقال انه بنى معابد بوذية فى هذا الاقليم قبل أن يتحول الى الاسلام(٤٤) مما يدل دلالة مؤكدة على مدى النشاط الواسع للبوذيين فى ايران والذى اثار المنافسة بينهم وبين دعاة الاسلام ، تماما كما حدث فى بلاد جغطاى فى تركستان وما وراء النهـر .

٣ — نشـاط البابوية وملوك أوربا :

ونشاط البابوية وملوك أوربا من العوامل الهامة التى اشعلت المنافسة الى حد بعيد بين المسيحية والاسلام فى امبراطورية المغول . وقد ظهر هذا النشاط فى ناحيتين : الناحية الأولى هى التبشير بالمسيحية الكاثوليكية بين

(39) Saunders : op. cit., pp. 118, 179-180.

(40) Ibid., p. 97.

(41) Ibid., p. 132.

(42) Ibid., p. 180.

(43) Ibid., p. 133.

(٤٤) مصطفى بدر : مغول ايران بين المسيحية والاسلام ص ١٤

المغول ، والناحية الثانية هى محاولة التحالف مع المغول ضد دولة الاسلام فى مصر وبلاد الشام فى عهد بنى أيوب وفى عهد سلاطين المماليك . وكان الايوبيون والمماليك قد اذاقوا الصليبيين فى بلاد الشام هزائم مريرة وانتزعوا منهم بعض الامارات الصليبية واعادوا لها شكلها الاسلامى ، كما تصدوا للمغول الذين كانوا قد نجحوا فى احتلال معظم بلاد الشام عقب سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، وهزموهم فى موقعة عين جالوت بعد ذلك بعامين ، وكانت اول هزيمة ساحقة تلحق بجيوش المغول العاتية(٤٥) ، ولذلك كان التحالف بين المغول وبين الصليبيين فى بلاد الشام وفى بلاد أوربا آمرا متوقعا .

واذا كان سقوط دولة خوارزم ثم سقوط الخلافة العباسية قد مهد الطريق امام اطماع المغول فى بلاد الشام ، فانه مهد الطريق أيضا للاطماع الأوربية التى كانت تتجه الى أواسط آسيا وغربها ، واصبح فى امكان مسيحيى الشرق والغرب ان يكثفوا نشاطهم فى التبشير بالمسيحية بين المغول وامم الشرق جميعا ، وان يقيموا علاقات مع القبائل التركية المسيحية فى اقصى انحاء آسيا ، كما اصبح التحالف المغولى المسيحى أمرا ممكن التحقيق ، وظهرت بوادر هذا التحالف فعلا أثناء الغزو المغولى لبلاد العراق والشام وفى تهديد مصر(٤٦) .

ولتحقيق هذه الأهداف نشطت البابوية من ناحية وملوك اوربا من ناحية اخرى فى ارسال البعوث والرسل وفى تكثيف الاتصالات بقراقورم وبعواصم ممالك امبراطورية المغول ، فلم يكد يمضى على غزو المغول للمشرق الاسلامى زمن قصير حتى بلغت مسامع الغرب الأوربى شائعة تقول بأن هؤلاء المغول اعتنقوا المسيحية ، ولهذا قرر البابا انو سنت الرابع Innocent IV

---

(٤٥) ابو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ص ٢٠٧ ، رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر م ٢ ج ١ ص ٣١٠ — ٣١٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ٩٣ ج ١٣ ، ص ٢٢٠ .

(٤٦) المقريزى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٨٤ ، ج ١ ق٣ص٦٩٢
Saunders : op. cit., p. 80.

عام ٦٤٣هـ/١٢٤٥م أن يبذل مافى وسعه لتحقيق هذا الحلم ولحصر العـالم الاسلامى بين قوتين مسيحيتين تتمثلان فى هؤلاء المغول الذين اشرفوا — فى نظره على الدخول فى النصرانية ، وفى اوربا المسيحية التى كانت فى صراع مع الاسلام قبل ظهور المغول بزمن طويل ، ولذلك ارسل هذا البابا فى العام التالى بلانو دى كاربينى وراهبا آخر من رهبان الفرنسسكان الى بلاط الخان الأعظم فى قراقورم ليشهدا حفل تنصيب كيوك خان . وقد نجح هذان الراهبان فى التأثير على وزيرين من وزراء كيوك فاعتنقا الديانة المسيحية واثرا بدورهما على ذلك الخان ، فاخذ كما اشرنا سابقا يبدى مظاهر العطف على المسيحيين ولكنه لم يعتنق المسيحية ، ولم يتم التحالف بينه وبين ملوك اوربا ، لأن كيوك طلب من كاربينى ان يبلغ البابا وملوك اوربا ان عليهم ان يعلنوا خضوعهم له أولا(٤٧) .

ويبدو ان المسيحيين جميعا كانوا على استعداد للتغاضى عن الأمـور الشنيعة التى ارتكبها المغول ضد ابناء دينهم فى روسيا وبولندا طالما ان هؤلاء المغول سوف يسيرون معهم فى الطريق التى تؤدى الى تحطيم ما بقى من قوة الاسلام والمسلمين ، ذلك لأننا نجد انه بالرغم من الفشل الجزئى لبعثـة كاربينى فاننا نرى بعثات اخرى مسيحية تتوافد على قراقورم وعلى عواصـم الممالك المغولية الاخرى . ففى عام ٦٤٥هـ/١٢٤٧م وفدت على أيران بعثـة دومنيكية أرسلها البابا انوسنت الرابع وعلى راسـها راهب يدعى اسلين Ascelin حيث واجهت نفس المصير الذى انتهت اليه رحلة كاربينى . وقد عاد هذا الراهب ومعه رسولين مغوليين من المحتمل انهما كانا مسيحيين نسطوريين وقابلا موظفى البابا فى ايطاليا(٤٨) .

---

(٤٧) اربرى : نفس المرجع ، ص ٤٣٦ ، براون : نفس المـرجع ، ص ٧٥٤ ، ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٩٤ .
Saunders : op. cit., pp. 91, 94, 188.

(٤٨) الرمزى ج ١ ص ٣٦٦ ، ٣٧٧
Saunders : op. cit., pp. 95-97.

وقد واصلت اوربا اتصالاتها بالمغول ، فأوفد لويس التاسع ملك فرنسا في عام ٦٤٧هـ/١٢٤٩م بعثة من نيقوسيا عاصمة جـزيرة قبـرص كان على رأسها مبشر آخر هو الراهب الفرنسسكي وليم روبروك ، ولكن هذه البعثة لم تصل الى قراقورم الا في نهاية عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م حيث كان كيوك خان قد مات وتولى بعده منكوخان (منجو خان)(٤٩) . ولم تحقق هذه البعثة أيضا نجاحا يذكر لاشتراط منكوخان ان يدخل ملوك اوربا في طاعته اذا ما أرادوا التحالف معه ، ولكن هيثوم ملك ارمينيا المسيحي نجح فيما فشل فيه لويس التاسع ، اذ قدم الى قراقورم عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤ م وقدم نفسه كتـابع للخان الكبير ، فاحسن الخان استقباله واقتنع بوجهة نظره في غزو بغداد ، وكلف اخاه هولاكو بتنفيذ هذه المهمة ، وتم ذلك فعلا وسقطت بغداد في يد هولاكو عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وابتهج المسيحيون في كل مكان بتدمير بغداد وبرزت أوجه التعاون بين هولاكو وبين المسيحيين في آسيا أثنـاء غزوه لبـلاد العراق ؛ فقد ضمت جيوشه وحدات عسكرية من الأرمن والكرج المسيحيين الذين كانوا اول من اقتحم اسوار بغداد واشتهروا بشدتهم وقسوتهم في التخريب والتدمير واستمر هذا التعاون أثناء غزو هولاكو لبلاد الشام . فقد دخل هيثوم ملك ارمينيا المسيحي ومعه حليفه وزوج ابنته بوهيمند السادس ملك أنطاكيـة الصليبي في حلف مع هولاكو ورسموا خطة الغزو في لقـاء جمـع بينهمـا ، وانضمت جيوش هيثوم الى هولاكو وقدم البطريق الأرمني لمنحه البركة ، مما اعطى صفة الطابع الصليبي لحملة حفيد جنكيزخان المغولية الأرمنية على بلاد الشام ؛ وانتهز هذه الفرصة البابا اسكندر الرابع فأرسل الى هولاكو بعثـة تحبب اليـه اعتنـاق المسيحية(٥٠) .

---

(٤٩) اربرى : نفس المرجع ، ص ٤٣٦ ، بـراون : نفس المـرجع ، ص ٥٧٥ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٩٥

Saunders : op. cit., pp. 95-96.

(٥٠) النويرى : نهاية الارب ، ج ٢٨ ورقة ١٠ ، مصطفى بدر : مغول ايران بين المسيحية والاسلام ، ص ٧ ، ارنولد ، نفس المرجع ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٠ ، الصياد : نفس المرجع ، ص ٢١٠ ، ٢١٥ ، ٢٨١ — ٢٨٢ ، ٢٩٤ — ٢٩٤ ،

Saunders : op .cit., pp. 79-80, 98.

ورغم عدم اعتناق هولاكو للمسيحية الا ان مظاهر التعاون والتحـالف إستمرت قائمة بين اوربا وصليبيى الشام وملوك ارمينيا وجورجيا (ألكرج) من جهة وبين المغول فى ايران من جهة اخرى ، وخاصة بعد هزيمة المغول فى عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ا وقيام النزاع والصراع بين هولاكو وبين بركة خان سلطان المغول فى بلاد القفجاق ، مما أضعف من مغول ايران وزود سلاطين مصر بحليف جديد تمثل فى بركة خان المسلم ، فقوى المسـلمون فى بلاد الشام ومصر على التصدى لهجمات مغول ايران ، ووجـدوا الفرصـة سانحة للقضاء على بقايا الصليبيين فى بلاد الشام ، مما اثار مخاوف جماعات المسيحيين الشرقيين مثل الأرمن والمارون والقبط والنساطرة ، ولذلك فقـد عاضدوا اخوانهم فى الدين من المسيحيين الغربيين كما عاضدوا المغـول فى زحفهم على بلاد الشام أيام هولاكو حتى يستعيدوا اورشليم مـرة اخـرى ويوجهوا ضربة قاضية للاسلام ويعيدوا ديانة المسيح الى بـلاد الشرق الأدنى كما كانت قبـل ظهـور الاسـلام(٥١) .

استمر التعاون بين المسيحيين فى الشرق والغرب وبين المغول بعـد وفاة هولاكو وقيام ابنه ابغا فى حـكم ايـران (٦٦٤ — ٦٨٠هـ/١٢٦٥ — ١٢٨١م) ودعم هذا التعاون المغولى المسيحى بابوات روما ، فقد ارسل اربعة منهم وهم كليمنت الرابع عام ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م وجريجورى العاشر عام ٦٧٣هـ/

=

وتجدر الاشارة هنا أن الأرمن كانوا يقدمون مساعداتهم ايضا للصليبيين منذ ان قدموا فى حملتهم الأولى على بلاد الشام عام ٤٩٠هـ/١٠٩٧م ، فهم فى عداء مع المسـلمين عـلى الـدوام .

انظر : السيد الباز العرينى : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ج ١ ص ٢١٤ اما الكرج فهم شعب نصرانى كانت يسكن المنطقة التى تقـع شمال ارمينية وتجاور بحر قزوين من الشرق وحدود دولة الروم البيزنطيين من الغرب ، وكانت عاصمتهم مدينة تفليس ، وقد خضعوا للمغـول وصاروا يحاربون معهم ضد المسلمين . وبلادهم تسمى الآن كرجستان او جورجيا . انظر : ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٣٠٦ ، ٤٤٦ ، ابن خلدون : تاريخه ج ٥ ص ١١٠٦ ، ١١٠٧ .

(51) Saunders : op. cit., pp. 117, 185.

١٢٧٤م ويوحنا السادس والعشرون عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م ونيقولا الثالث عام ٦٧٧هـ/١٢٧٨ وفودا ورسائل الى ابغا بن هولاكو يحببون اليه اعتناق المسيحية ومساعدة الصليبيين فى بلاد الشام(٥٢) ، مما اثار المعارك الطاحنة بينه وبين الظاهر بيبرس سلطان مصر والشام ، تلك المعارك التى كان يشارك فيها الفرنج . وقد أشار المؤرخون الى هذه المشاركة مرات عديدة ، منها ما اشار اليه النويرى والعينى من ان الأخبار وصلت الى الظاهر بيبرس عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩ « بتحرك التتار وانهم تواعدوا مع فرنج الساحل وانهم اغاروا على الساجور قرب حلب واستاقوا مواشى العربان »(٥٣) ، وفى واقعة حمص عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م كان جيش التتار مكونا من ثمانين الفا منهم خمسون الفا من التتار والمغول والباقى من الكرج والروم والأرمن والفرنج(٥٤) وكان ملك الأرمن يحارب بنفسه مع جيوش المغول فى تلك الموقعة التى هزم فيها هؤلاء الحلفاء ، ومات ابغا غما وكمدا بسبب هذه الهزيمة(٥٥) .

وقد انفصمت مؤقتا عرى التحالف الذى كان قائما بين مغول ايران ومسيحيى الشرق والغرب حينما آلت السلطة فى ايران الى الخان المسلم وكان ملك الأرمن يحارب بنفسه مع جيوش المغول فى تلك الموقعة التى سلاطين مصر وراسلهم يطلب ودهم ومساعدتهم حتى ينجح فى نشر الاسلام

---

(٥٢) مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ٧ ، ٩ ، محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ٩٥ .

(٥٣) النويرى : نفس المصدر ، جـ ٢٨ ورقة ٥٢ ، العينى : نفس المصدر جـ ٢ ورقة ٣٠٩ ، المقريزى : نفس المصدر ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٥٨٤ .

(٥٤) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٥٠٤ ، النويرى : نفس المصدر جـ ٢٩ ورقة ٨ ، العمرى : مسالك الأبصار ، جـ ١٦ ، ق ٣ ورقة ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، المقريزى : نفس المصدر جـ ١ ق ٣ ص ٦٩١ — ٦٩٥ .

(٥٥) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٥٠٤ ، ابن حبيب : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، جـ ١ ص ٦٢ — ٦٣ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ، جـ ٧ ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٦ ، ٣٤٨

Saunders : op. cit., p. 131.

بين مغول ايران وحتى لا راق دم المسلمين فى كلا البلدين : مصر وايران(٥٦) .

ولكن هذا الخان سرعان ما قتل وتولى العرش بعده ارغون بن ابغا بن هولاكو (٦٨٣ — ١٢٨٤/٦٩٠ — ١٢٩١م) ، وكان الخان الجديد يطمع فى تحقيق السيطرة على بلاد الشام بمساعدة أوربا ، فاتجه الى البابوية يطلب التحالف معها وارسل الى البابا أونريوس الرابع Honorius IV فى عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م يقترح القيام بهجوم مشترك ضد سلاطين المماليك فى بلاد الشـــام ، وعادت رسله بخطابات ووعود ولم تعد كما كان يأمل بجيوش تساعده فى طرد عدوه وعدوهم من بـــلاد الشـــام(٥٧) .

وقد قام هذا الخان بآخر محاولة مع الغرب المسيحى فى هذا المجال ، ولم ييأس من النتيجة السلبية التى عادت بها السفارة السابقة ، فأرســـل سفارة اخرى على راسها رجل من اهل جنوة يعلن نيته وتصميمه على مهاجمة دمشق فى بداية عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م كى يسترد اورشليم ويسلمها للفرجة ، وانه سوف يزود جيش الغرب عند هبوطه أرض سوريا بثلاثين الف حصان . ولكن هذا المشروع فشل هو الاخر ، وتاكد هذا الفشل عندما نجح المماليك فى الاستيلاء على آخر حصن للصليبيين فى عكا فى اول ربيع الأول عام ٦٩٠هـ/٣ مارس ١٢٩١م ، ومات أرغون نفسه بعـــد ذلك بســـتة ايام بعـــد مرض طويل(٥٨) . كما فشلت محاولات التحالف فى عهـــد خلفـــه وابنه غـــازان (٦٩٤ — ٧٠٤هـ/١٢٩٥ — ١٣٠٤م) لأن غازان تحول الى الاسلام واصبحت خانية ايران اسلامية منذ ذلك الحين(٥٩) .

---

(٥٦) النويرى : نفس المصدر ، ج ٢٩ ص ٢٨٠ ، ابن حبيب : نفس المصدر ج ١ ص ٧٢ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٢٣٧ — ٢٤٢ ، المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٢ ص ٧٠٧ ، ٧٠٨ ج ١ ق ٣ ص ٧١١ ، ص ٩٧٨ —٩٨٤ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٣٦٢ .

(٥٧) المقريزى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٧١٤

Saunders : op. cit., p. 134.

(58) Ibi., p. 134.

(٥٩) ابن حبيب : نفس المصدر ، ج ١ ص ١٨٣ ، أبو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٨ ص ٧١ ، ٢١٣ .

ولكن التعاون والتقارب الذى تم فى المرحلة السابقة بين مغول ايران وبين مسيحيى الشرق والغرب خلف نتائج لابد من الاشارة اليها . فقد ارتفع شأن المسيحيين الشرقيين كثيرا فى امبراطورية المغول ، وظهر عطف المغول عليهم واضحا عندما فتح هولاكو بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، فقد قتل أهلها من المسلمين عدا القليل ، ولم يفعل ذلك بالنصارى ، بل ساعدهم وعين لهم من يحرسون بيوتهم ، فلجأ اليهم عدد كبير من المسلمين يطلبون الحماية فى هذه البيوت الآمنة(٦٠) . وعندما فتح المغول مدينة دمشق عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م عينوا فى حكمها اميرا مغوليا يميل الى المسيحية ويدعى ايل سنان ، فانتهز مسيحيو دمشق هذه الفرصة واجتمع أساقفتهم بهذا الحاكم الذى اعلى من شأنهم وزار كنائسهم ، وصارت لهم بذلك صولة وجولة على المسلمين ، وارسلوا وفدهم الى هولاكو محملا بالهدايا لتأكيد هذه الصولة ، وفعلا عاد هذا الوفد الى دمشق يحمل فوق رأسه صليبا كبيرا واخذ يصيح بذم المسلمين ، وقام نصارى دمشق يدقون نواقيسهم ويرشون وجوه المارة من المسلمين بالخمر ، ويأمرون كل من يمرون به منهم فى الطرقات والأسواق بالوقوف تحية لهم واحتراما لصليبهم ، واحتدت مشاعرهم حتى دخلوا بعض المساجد بخمورهم وعقدوا العزم على هدمها ان طال بقاء المغول فى بلاد الشام ، ولما اشتكى فقهاء دمشق الى ايل سنان هذا السلوك المشين اهانهم وطردهم . ولذلك كان رد الفعل عنيفا عندما هرب المغول من دمشق عقب هزيمتهم فى عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ، فقد اتجه الناس الى دور النصارى وكنائسهم ينهبونها ويخربون منها ما استطاعوا ، كما اعتدوا بالقتل على بعض المسيحيين حتى لاذ كثيرون منهم بالفرار والاختفاء(٦١) .

ويبدو أن النصارى فى الموصل قد أساءوا الى المسلمين ايضا عندما احسوا بزحف المغول عليها عام ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م ،ولذلك قتلت جيوش الظاهر بيبرس كثيرا منهم ونهبوا أموالهم ، ولما استعاد المغول مدينة الموصل عام

---

(٦٠) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ، ص ٣٢٩ .

(٦١) ابو الفدا : نفس المصدر ، جـ ٣ ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، العمرى : نفس المصدر ، جـ ١٦ ق ٣ ورقة ٥٩٣ ، العينى : نفس المصدر ، جـ ٢ ، ورقات ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٠ .

٦٦٠هـ/١٢٦١م قتلوا من ساعد على قتل نصاراها ، وولوا عليها حاكما نصرانيا عندما فتحوها للمرة الثانية عام ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م وتركوا معه شحنة(٦٢) من المغول ، وفعلوا نفس الشيء في جزيرة ابن عمر(٦٣) .

وفي بغداد استطال أمر النصارى بعد غـزو هولاكو لهـا ، واهان الجاثليق النصراني سكانها من المسلمين وافسد أمورهم « وسـكن مواطن الخلافة » . ولذلك دبر الظاهر بيبرس حيلة جعلت ابغا بن هولاكو يقتله عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م ، كما أمر الظاهر بيبرس ايضا بنهب اموال نصارى قيسارية وسبي اولادهم عندما خلصها من حكم المغول عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م(٦٥) ، مما يدل دلالة مؤكدة على مدى الصلة التي كانت تربط هؤلاء النصارى سواء في بلاد الشام او في العراق بالمغول ، هذه الصلة التي دعمتها البابوية وملوك أوربا ببعوثهم التي كانوا يرسلونها تباعا الى تبريز .

وكما ظهر نشاط البابوية وملوك اوربا واضـحا في ايران وادى الى ما اشرنا اليه من عطف على مسيحيي الشرق والى تحالف مع مغـول ايران ضد سلطنة المماليك في مصر والشام ، وخاصة في عصر هولاكو وابنه ابغا ، فقد ظهر نشاط البابوية وأوربا ايضا في خانية القبيلة الذهبيـة في بـلاد القفجاق . فقد ارسلت البابوية برجالها من الفرنسسكان الى تلك البلاد منذ وقت مبكر ، فمنذ عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وصلت بعثـات كان هدفهـا نشر المسيحية وبناء الكنائس ، ونتج عن ذلك أن قوى نفوذ الكاثوليك وتكاثف باشتداد نشاط تجار جنوة الذين ازدادت اعدادهم في تلك البلاد وخاصة في المراكز التجارية التي اقاموها على سواحل شبه جزيرة القرم ، وارسل البابوات الى خوانين القبيلة الذهبية يعلنون مساندتهم للمبشرين الـكاثوليك

---

(٦٢) شحنة لفظ تركي معناه رئيس الشرطة والموكل بالامن في بلد من البلاد . انظر : المقريزي : السلوك جـ ١ ق ٣ ص ٩٧٩ حاشية (٣) ، سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ٤٢٧ .

(٦٣) ابن الفوطي : نفس المصدر ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٦١ .

(٦٤) النويري : نفس المصدر ، جـ ٢٨ ورقة ٤٤ .

(٦٥) ابن الفوطي : نفس المصدر ، ص ٣٨٩ .

ويطلبون السماح لهم بمد نشاطهم الى اقصى ما يستطيعون حتى ايران وآسيا الوسطى وبلاد الصـــين(٦٦) .

وقد نتج عن هذا النشاط التبشيرى الاوربى فى بلاد القفجاق ان ازداد التواجد المسيحى فيها وتدعمت المدن ذات الأغلبية المسيحية وخاصة فى شبه جزيرة القرم مثل مدينة الكفا التى كان يسكنها تجار جنوة النصارى والذين كانوا يشكلون أغلبية السكان فيها ، ومثل مدينة صوداق (سرداق) التى كان يتقاسمها الترك المسلمون والروم المسيحيون(٦٧) . والمعروف ان خانية بلاد القفجاق كانت تضم بين سكانها اعدادا كبيرة من الجركس والروم والروس ، وكان كل هؤلاء يدينون بالنصرانية ، وكان بابوات روما لا يفتأون يدعمون هذا الوجود النصرانى فى دولة القفجاق(٦٨) ، مستغلين فى ذلك السماحة الدينية التى تميز بها خوانين القبيلة الذهبية والتى يأمر بها الاســـلام ، ورغم ذلك فقد كان الاسلام ينتشر فى هذه المدن بالتدريج ، وعندما زارها ابن بطـــوطة عام ٧٢٦هـ/١٣٢٥م وجد فيها مساجد خاصة بالمسلمين ، كما لاحظ ازدياد التواجد الاسلامى بازدياد عدد سكانها المسلمين الذين كان يحدث بينهم وبين سكانها من المسيحيين بعض النزاع والمشاحنات(٦٩) لخوف هؤلاء المسيحيين من ازدياد اعداد المســـلمين .

وفى مملكة المغول فى بلاد جغطاى (تركستان وما وراء نهر وغزنة (كانت البوذية كما أشرنا غالبة على حكامها قبل تحولهم الى الاسلام ، ولذلك لم يظهر نشاط مسيحى اوربى ذو بال فى هذه البلاد الا فى فترات بســـيطة منها تلك الفترة التى اعقبت موت طرماشيرين عام٧٣٥هـ/١٣٣٤م والذى كان قد اعتنق الاسلام واراد ان يحول مغول بلاده كلهم الى هذا الدين ، ولكن ابن اخيه الذى تولى عرش البلاد بعده بقليل وهو جنكشى خان كان بـــوذيا

---

(66) Saunders : op. cit., pp. 118, 169-170.

(٦٧) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٢٩ .

(٦٨) المصدر السابق ، ص ٢٣٧ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٧٥ .

(٦٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٤ ، ٢٢٩ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٦١ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

وكان يميل الى المسيحيين فطغى نفوذ النساطرة على المسلمين فى سمرقند وتوهجت حركة التبشير بالمسيحية فى عهده(٧٠) ولكنها انتهت بثورة قام بها المسلمون وقتلوا المطران فى المالق عام ٧٤٠هـ/١٣٣٩م(٧١) .

ورغم هذه الهزيمة فقد واصل بابوات وملوك أوربا ارسال المبشرين الى دولة المغول وحتى اقصاها فى بلاد الصين ، ونجح احد المبشرين المسيحيين هناك فى ان يحول الى المسيحية خلال سنوات قليلة عشرة آلاف مغولى ، كما حول امير قبيلة عنقوت Ongut من النسطورية الى الكاثوليكية ، وترجم الصلوات المسيحية الى اللغة المغولية ، فكافأه البابا كليمنت الخامس بأن عينه مطرانا لمطرانية خان بالق الجديدة عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م(٧٢) .

هذه فى ايجاز هى العوامل الثلاث التى دعمت جانب النصرانيـــة والبوذية فى منافستها للاسلام نحو اكتساب المغول فى ممالكهم الثلاث التى يعنينا الحديث عنها ، وهى مملكتهم فى بلاد ايران والعراق وآسيا الصغرى ، ومملكتهم فى بلاد القفجاق وخوارزم ، ومملكتهم فى تركستان وبلاد ما وراء النهر وغزنة . وقبل ان نتحدث عن العوامل التى رجحت كفة الاسلام فى هذا التنافس لا بد أن نشير الى بعض العوامل التى ادت الى فشل النصرانية والبوذية فى هذا الصراع او هذا التنافس فى هذه الممالك الثلاث .

(ب) عوامل فشل النصرانية والبوذية فى اكتساب المغول :

أول ما نشير اليه فى هذا الصدد هو موقف المغول الرسمى من الأديان اذ ان هذا الموقف — كما سنرى — سوف يساعد على فشل النصرانية والبوذية فى منافستها للاسلام فى تبريز ، وسراى ، وسمرقند ، وما رأيناه من ميل بعض الايلخانات وخاصة فى تبريز وسمرقند الى المسيحيين أو البوذيين

---

(٧٠) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٥٤ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٠٩.

Saunders : op .cit., pp. 172-173.

(71) Ibid., p. 172.

(72) Ibid : p. 153.

فى بعض الأحيان ، وقيام بعضهم باعتناق البوذية ، لم يؤثر كثيرا فى هذا الموقف الذى سوف نراه ، ولم يكن ميل بعضهم الى المسيحيين واعتناق بعضهم للبوذية الا أمرا شخصيا ولم يكن اتجاها عاما كما وضح من احداث التاريخ ، اذا انهم لم يحملوا الناس على ما ذهبوا اليه من مسيحية او بوذية ، ولأن هذا الميل كان لأهداف سياسية سوف نشير اليها فى نهاية هذا الحديث .

وموقف المغول الرسمى من الأديان وسياتهم العامة تجاه أصحابها يتلخص فى أنهم وقفوا موقف الحياد بينها ولم ينحازوا الى دين معين منها . وقد أشار الى هذا الموقف المحايد الكتاب المسلمون وغير المسلمين ، وقالوا ان جنكيزخان ومعظم اولاده واحفاده الذين تولوا حكم الامبراطورية قبل تحولهم الى الاسلام ، كانوا يقدرون العلماء والمتدينين من سائر المذاهب والأمم سواء كانوا من الوثنيين ام من النصارى ام من المسلمين ، وانهم اسقطوا عنهم « جميع المئونات والأوزان والتكاليف » وأحسنوا اليهم(٧٣) . وامتاز جنكيز خان على وجه الخصوص بمساواته بين الأديان جميعا دون ان يعتنق واحدا منها(٧٤) ،وظل على عقيدته الشامانية التى لم يفرضها على الاخرين ، ومنح كل الحرية لجميع العقائد والملل والنحل ، وتمتع المسيحيون والمسلمون واليهود والبوذيون بكامل حريتهم فى اقامة شعائرهم الدينية(٧٥) ، وجرى خلفاؤه على هذه السياسة وعلى اقامة المساواة بين الناس جميعا بصرف النظر عن اختلاف عقائدهم وطبقاتهم(٧٦) ، فهم « لا يتعصبون لمذهب » ، « وكان من عادتهم ان كل من انتحل منهم مذهبا لم ينكره الآخر عليه »(٧٧) . ولذلك كان المغول أحرارا فى اعتناق ما يرونه او يميلون اليه من الأديان دون خوف من الخوانين او الحكام الذين كانوا على غير دين الاسلام .

---

(٧٣) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٥٩ ، ٤٩١ ، ابن الفوطى نفس المصدر ، ص ٣٥٣ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص٤١١ .

(٧٤) براون : نفس المرجع ، ص ٥٦١ .

(75) Saunders : op .cit., p. 68.

(٧٦) فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٨١ ، ١٨٢ براون : نفس المرجع ، ص ٥٦١ .

(٧٧) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٣١٠ ، ٣١٢ .

هذا وقد اعطت هذه السياسة وهذا الموقف الحيادى للدولة تجاه الأديان وتجاه اصحابها والداعين لها الفرصة كاملة للمنافسة الحرة بين الاسلام دين الأغلبية فى النصف الغربى من الامبراطورية الذى نعنيه بحديثنا ، وبين غيره من الاديان التى كانت تنافسه فى اكتساب المغول فى هذا الجزء من الامبراطورية ،كما اضعفت هذه السياسة من غلواء بعض الخوانين والأمراء والحكام من المغول الذين كانوا واقعين تحت تأثير زوجاتهم المسيحيات او تحت تأثير وزرائهم المسيحيين ، كما انها اتاحت الفرصة لاقامة المناظرات الدينية بين علماء الاسلام وعلماء المسيحية او البوذية او الشامانية فى حضرة الخوانين والحكام من المغول . وكان لهذه المناظرات تأثيرها فى تحول بعض المغول الى الاسلام ، اذ كان النصر فى هذه المناظرات من نصيب علماء الاسلام ، وكان يعقب هذا النصر فى غالب الأحيان تحول الكثيرين الى هذا الدين(٧٨) .

وفى الوقت الذى وقف فيه معظم خوانين المغول وملوكهم من الأديان على هذا النحو . نرى المبشرين المسيحيين شرقيين وغربيين لا يدركون هذا البعد فى سياسة المغول ، ويظنون خطأ انهم على وشك التحول الى المسيحية فاخذوا يركزون نشاطهم فى معظم الأحيان على قراقورم عاصمة الامبراطورية وعلى الخوانين العظام انفسهم ،ر بما لاعتقادهم انه اذا اعتنق احد الخوانين هذه الديانة ، لاعتنقها المغول فى جميع انحاء الامبراطورية ، ولم يدروا أن هذه الامبراطورية قد انقسمت فى الواقع الى ممالك أربع لكل منها بيت يحكمها ، ولا بد ان يراعى هذا البيت الحاكم مصالحه الذاتية أولا ثم مصالح الامبراطورية ثانية . وكانت هذه المصالح لا بد ان تتلاقى يوما ما مع الاسلام دين الأغلبية العظمى للشعوب والبلاد التى قامت فيها ثلاث من دول المغول فى تبريز وسراى وسمرقند . وعلى ذلك لم ينجح المبشرون خارج قراقورم فى تنصير احد من خوانين او ملوك المغول فيما عدا صرتق Sartak ابن باطو خان ، وفى قراقورم ذاتها لم ينجحوا فى تنصير خان واحد رغم نجاحهم فى تنصير بعض الوزراء والزوجات(٧٩) .

---

(٧٨) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥١ ، فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٨١-١٨٢ .

(79) Saunders op. 181-182.

ويرجع السر فى ذلك الى أن المبشرين المسيحيين لم يكونوا فيما بينهم على وفاق . فقد كانت البعثات التبشيرية الأوربية تنظر الى النساطرة على انهم هراطقة ، ولذلك تنافسوا فيما بينهم فى أن يجذب كل منهم اتباع الاخر نحو مذهبه اكثر من ان يجذبوا معا المغول الوثنيين الى المسيحية . وقصة المنجوت او التتار البيض الذين استطاع جون مونتى كاربينى ان يقنع اميرهم جورج بترك النسطورية والتحول الى الكاثوليكية(٨٠) تعلن بجلاء عن هـــذا الصراع الداخلى الذى كان دائرا بين المبشرين الغربيين والشرقيين مما اضعف كلا الفريقين امام نشاط الدعاة من المســـلمين .

يضاف الى ذلك أن هذه البعثات التبشيرية الأوربية لم تتصف فى عملها او فى دعوتها للخوانين بالحيـــلة والدهاء(٨١) الذى تتصـــف به فى الوقت الحاضر . فقد كانت تطلب من الخوانين باسم البابا التحول الى المسيحية ، وهذا التحول معناه انهم سوف يخضعون للبابا الذى كانت له سلطة زمنية فى أوربا فى ذلك الحين ، فهو الذى كان يضع التاج على رءوس ملوكها واباطرتها كما هو معروف ، ولم تفهم هذه البعثات ان نفسية هؤلاء الحكام الذين حكموا اكثر من نصف العالم المعروف وقتذاك كانوا يأنفون من أن يخضعوا لأحـــد ، بل كانوا يأنفون من مصاهرة الملوك الاخرين ولا يزوجونهم من بناتهم المغوليات على اعتبار انهم اقل منهم شأنا ، وعلى اساس أن هؤلاء الملوك لابد انهـــم سيدخلون فى طاعتهم يوما ما فيصبحون اتباعا لهم ، ولا يصح فى نظرهم أن تقوم مصـــاهرة بين التابع والمتبوع على هذا النحـــو(٨٢) .

ولذلك فضل خوانين المغول فى قراقورم اعتناق البوذية ، وكذلك فعل معظم ايلخانات المغول فى سمرقند وتبريز قبل تحولهم الى الاسلام . وبذلك قضى نهائيا على أمل المسيحيين فى تحويل شعب المغول الى المسيحية وفشلت بعثاتهم فى ذلك فشلا ذريعا ، ولم تنجح الا فى استدرار عطف الخوانين على

---

(80) Saunders : op. cit., pp. 152-153, 182.

(٨١) براون : نفس المرجع ، ص ٥٦٢ .

(٨٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ١ ص ٢٠٤ ، محمد جمال الدين سرور دولة بنى قلاوون فى مصر ، ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .

المسيحيين القليلين الذين كانوا يعيشون فى كنفهم(٨٣) ، كما فشلت بعثاتهم أيضا فى ايجاد تحالف بين المغول واوربا ضد الاسلام والمسلمين ، ذلك ان خوانين المغول فى قراقورم أخبروا رجال تلك البعثات بأن عليهم ان يبلغوا البابوات وملوك اوربا وأمرائها ان يعلنوا الطاعة للمغول قبل ان يطلبوا التحالف معهم(٨٤) . اما التحالف الذى ابرم بين الصليبيين وبين مغول ايران بالذات فقد اصبح ضعيف الأثر بعد هزيمة المغول فى عين جالوت عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م وفيما تلى ذلك من معارك نشبت بينهم وبين الظاهر بيبرس الذى تحالف مع مغول القبجاق الذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام ، مما دفع بمغول ايران الى الاهتمام بمصالحهم الخاصة وانصرفوا الى حد كبير عن تأييد المسيحية(٨٥) .

ويعود فشل هذه البعثات ايضا الى عوامل اخرى منها انها لم تكن عديدة وكافية ، فلم نسمع الا عن بعثة كاربينى وبعثة روبروك وبعض المبعوثين الآخرين القليلين ، ولم يكن من السهل تزويد هذه البعثات بمتطوعين جدد يصلحون لذلك العمل الشاق ، ونادرا ما كانت تجد مساندة من حاكم الدولة أو الاقليم الذى كانت تعمل فيه . يضاف الى ذلك ان هذه البعثات كانت فى تنافس شديد مع اثنتين من الديانات المنافسة وهما البوذية والاسلام وكانت البوذية يدين بها اغلبية الناس فى شرقى الامبراطورية المغولية ، وكان الاسلام يدين به غالبية الناس فى غربى تلك الامبراطورية ، وكان حكام المغول يعلمون تماما عدم الحكمة فى معاداة الغالبية العظمى من سكان هذه الشعوب التى اصبحوا يحكمونها(٨٦) . ولذلك اعتنق هؤلاء الحكام البوذية فى شرقى الامبراطورية والاسلام فى غربيها ، ولاقت المسيحية هزيمة قاسية لم تفق منها أبدا ، ولم تفشل فقط فى فتح ميادين جديدة لها فى شرقى آسيا ، بل أنها فقدت الأرض التى كانت تقف عليها فى العالم الاسلامى ، حيث ضعفت الكنائس

---

(٨٣) براون : نفس المرجع ، ص ٥٦٢ ،
Saunders : op. cit., p. 181-182.

(84) Saunders : op. cit., pp. 94-96.

(٨٥) ارنولد : نفس المرجع : ص ٢٥٤ .

(86) Saunders : op cit., p. 182.

التى كانت ذات يوم مزدهرة ، ونزل اتباعها الى مستوى الاقليات الصغيرة وخاصة بعد أن تحول خوانين المغول الى الاسلام(٨٧) .

ومن الأمور التى ادت الى هذه النتيجة ايضا ما قام به المسيحيون فى غربى آسيا من فظائع فى دمشق وغيرها من مدن الشـــام وايران والعراق ووسط آسيا ضد المسلمين ابان غزوات المغول لتلك البلاد وابان حكمهم لها . فقد أساء هذا العمل الى هؤلاء المسيحيين والى سمعتهم كثيرا ، وادى الى تعرضهم لرد الفعل المضاد عقب انسحاب المغول من بلاد الشام ، أو عقب تحول هؤلاء المغول الى الاسلام فى البلاد التى بقيت تحت حكمهم مثل ايران وبلاد القفجاق وآسيا الوسطى ، مما اضعف من كيان المســيحية فى تلك البلاد وادى الى فشلها فى جذب المغول اليهــا(٨٨) .

يضاف الى ذلك ايضا ان كثيرا من رجال الدين النساطرة انشغلوا عن نشر المسيحية بتكالبهم على بيع المناصب الدينية وبانحرافهم عن تعاليم المسيحية . وقد وصفهم بذلك وليم روبروك الذى كان قد ارسله القــديس لويس سفيرا من قبله الى الخان الأعظم فى قراقورم عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م لحثه على نشر المسيحية فى بلاده بعد ان كانت اخبار كاذبة قد وصلت من قبل الى اوربا تفيد باعتناق هذا الخان للمسيحية . وقد قال هذا المبشر أكثر من ذلك ورمى النساطرة هناك بالجهل بتعاليم دينهم وبشرب الخمر والفسق والجشع وعدم الاكتراث الا بجمـــع المـــال(٨٩) .

والأمر المثير للدهشة هو فشل المسيحية فى بلاد القفجاق حيث كانت تلك البلاد قريبة من مواطن النصرانية سواء فى بيزنطة أم فى اوربا والحدود بينهما مشتركة،والتلاصق شديد،وشعوب بأكملها ممن كانت تدين بالطاعة لمغول القفجاق كانت شعوبا نصرانية مثل الجركس والروس وبلغار الدانوب ومعظم سكان شبه جزيرة القرم ، ورغم ذلك فقد فشلت النصرانية فى جذب مغــول

---

(87) Ibid., p. 182.

(٨٨) انظر ما سبق ، ص ٤٨ — ٤٩ .

(٨٩) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

القفجــاق اليها(٩٠) ، ويعود هذا الفشل الى ان خوانين هــؤلاء المغــول كانوا اول من اعتنق الاسلام من خوانين المغول كافة وعملوا على نشره فى بلادهم ، كما ان المستوى الثقافى للسكان المحليين من المسـيحيين فى تلك البلاد لم يكن كافيا لاثارة احترام المغول وجذبهم الى هذه الديانة ، فى الوقت الذى كان المسلمون يحظون فيه بمستوى ثقافى واجتماعى ارقى وافضل ، وفى الوقت الذى كان ضغط الاسلام يتدفق قويا ومؤثرا على هؤلاء المغول من ثلاث نواح : من الشرق حيث خوارزم وتركستان الاسلامية(٩١) ، ومــن الشمال حيث شعب البلغار (بلغار الفولجا) المسلم ، ومن الجنــوب حيث سلاجقة الروم المسلمون . كما ان تحالف القفجاق مع مصر قوى من الحركة الاسلامية واضعف من التبشير المسيحى فى تلك البلاد ، وكان هذا التحالف مبكرا وذا اثر عظيم من هذه الناحية التى سوف نتناولها بتفصيل عندما نتحدث عن مظاهر انتشار الاسلام بين المغول فى فصل قادم من هذا الكتاب .

هذا عن المسيحية وفشلها فى جذب المغول اليها فى ممالكهم الاربع ، أما البوذية فقد حققت نصرا فى دولة واحدة من دول المغول الأربعة ، وهى دولتهم فى بلاد الصين والخطا ومنغوليا حيث يدين اغلبيـــة الناس هناك بالبوذية وغيرها من الأديان الوثنية المنتشرة فى تلك البقاع مثل الشـــامانية والهندوسية والكونفوشيوسية . أما فى باقى انحاء الامبراطورية فقد فشلت البوذية فى جذب المغول اليها مثلها فى ذلك مثل المسيحية ، ذلك لأن البوذية انقسمت على نفسها الى فرق متنافسة ، ولم تقو هذه الفرق المتنافسة على الصمود امام الاسلام كديانة يعتنقها معظم السكان فى غربى ووســـط آسيا . ورغم انتشار البوذية المحدود فى تلك المناطق ايام هولاكو ومن اتى بعده من الايلخانات البوذيين ، فقد انتهى هذا المد البوذى فى ايران باعتلاء غازان بن ارغون بن ابغا بن هولاكو العرش عام ٦٩٤هـ/١٢٩٥م حيث اعتنق الاسلام وعمل على نشره بين قومه من المغول(٩٢) . كما فشلت البوذية أيضا

---

(٩٠) القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ .

(91) Saunders : op. cit., pp. 182-183.

(٩٢) ابن حبيب ، نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٨٣ .
ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٢ ،
Ibid., pp. 179-181

فى بلاد القفجاق ، لأن الاسلام كان قد استقر فى قلوب سكانها وحكامها من المغول ، فهم أول من اعتنقوا الاسلام بين المغول كافة كما سبق القول ، وكان ذلك بعد مضى حوالى عشرين عاما من فتحهم لتلك البلاد ، فاضمحلت البوذية وهجرت معابدها هناك واختفى كهنتها وعاد معتنقوها الى دياناتهم السابقة وتحولوا الى الاسلام فى النهاية(٩٣) .

واذا كانت المسيحية والبوذية قد فشلتا فى جذب المغول اليهما فيما عدا مغول الصين والخطا الذين تحولوا الى البوذية ، فبماذا نفسر مظاهر العطف الذى اظهره المغول على المسيحيين المقيمين فى امبراطوريتهم ، والتعاون الذى ظهر بين مغول ايران ومسيحيى الشرق والغرب ؟ وتفسير ذلك ليس بالامر العسير اذا عرفنا ان المغول اساسا كانوا يهدفون من وراء ذلك الى اقامة توازن — بقدر المستطاع — بين الاسلام الذى يدين به غالبية سكان لامبراطورية فى نصفها الغربى ،وبين البوذية التى يدين بها غالبية سكان نصفها الشرقى ، وبين المسيحية ذات الفعالية فى أجزاء كثيرة من الامبراطورية وخاصة فى ارمينيا وجورجيا وبلاد الروس والجركس والبلغار . وربما اراد المغول ان يضربوا معتنقى هذه الديانات ببعضهم حتى يستقر سلطانهم ويتوطد حكمهم فى تلك البلاد الشاسعة المتعددة الجنسيات والألوان والديانات،فكانوا يقربون المسلمين والمسيحيين فى قراقورم حيث تسود البوذية وكانوا يقربون المسيحيين والبوذيين فى تبريز وسمرقند حيث يسود الاسلام ، كما اقام مغول سراى فى بلاد القفجاق هذا التوازن بين المسلمين والمسيحيين نظرا لكثرة عدد الأخيرين فى بعض اقاليم دولتهم التى تدخل فى نطاق اوربا الشرقية المسيحية فى ذلك الوقت .

اذن فهذا العطف الذى أبداه المغول تجاه بعض الديانات فى اقاليم بذاتها كان هدفه هو توفير الاستقرار الداخلى باقامة نوع من التوازن بين عناصر السكان وطوائفهم وأديانهم . أما توفير الأمن الخارجى لدولتهم وخاصة فى مملكة ايران ، فقد اضطرهم الى اقامة بعض الاتصالات مع بابوات وملوك أوربا لاستغلال تلك القوى الكارهة والمعادية للاسلام فى ضرب سلاطين مصر والشام الذين كانوا قد تصدوا للمد المغولى وقضوا عليه فى موقعة عين

---

(93) Saunders : op. cit., p. 180.

جالوت ووقفوا له بالمرصاد بعد ذلك عندما حاول ان يعيد الكرة عـدة مرات طوال النصف الأخير من القرن السابع الهجرى / النصف الأخير من القرن الثالث عشر للميلاد(٩٤) . وبعكس ذلك فقد رأى مغول القفجاق ان تحقيـق امن بلادهم يكمن فى التحالف مع مصر لأن هؤلاء المغول كانوا قد اسلموا ورأوا فى اخوانهم من مغول ايران الوثنيين ما يهدد امن بلادهم وعقيدتهم .

اذن فتحالف مغول ايران مع الغرب الأوربى ومسـيحيى الشرق فى جورجيا وارمينيا والامارات الصليبية فى بلاد الشام،لم يكن نابعا عن كراهيتهم للاسلام بقدر ما كان نابعا من الخوف من التحالف الذى تم بين مصر ومغـول القفجاق . وقد رأى مغول ايران بعد ذلك ان اعتناق الاسلام سوف ينقذهم من هذا الوضع الذى اصبحوا فيه يقعون بين سطوة الاسلام فى الشمال حيث مغول القفجاق المسلمون ، وفى الغرب حيث سلاطين المماليك فى مصر والشام . وقد حدث هذا التحول اخيرا عام ٦٩٤هـ/١٢٩٥ م عندما اعتنق ايلخان ايران السلطان غازان الاسلام وتعاقب بعده فى حكم ايران سلاطين من المغول المسلمين منذ ذلك التاريخ وحتى نهاية دولتهم(٩٥) .

وتطورت الأحوال فى مملكة جغطاى فى تركستان وما وراء النهر ايضا على هذا النحو بعد أن اشتد ضغط الاسلام عليها من الجنوب بعد تحول مغول ايران الى الاسلام ، ومن الشمال والغرب حيث مملكة مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق الذين كانوا أول من اعتنق الاسلام بين المغول كافة . وانتهى الأمر بدخول ملوك الجغطائيين فى الاسلام منذ عام ٧٢٥هـ/١٣٢٥م عنـــدما

---

(٩٤) عن محاولات غزو المغول لبلاد الشام ، انظر : ابن حبيب : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٦٢ — ٦٣ ، ٢٢٠ ، ٢٣٣ ، ٢٤٤ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٣٠ — ٤٣١ ، ٢٤٢ ، ٦٢٩ ، جـ ١ ق ٣ ص ٦٩١ — ٦٩٥ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٨٦ ، ٨٨٨ ، ٨٩٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ص ٣٩ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ، جـ ٧ ص ٧٩ — ٨٠ ، ٢٩٨ — ٣٠٦ ، جـ ٨ ص ٩٦ ، ٩٧ ، ١٣٦ — ١٣٩ .

(٩٥) ابن حبيب : نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٨٣ ، المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ٢ ص ٨٠٥ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٧١ .

اعتنق طرماشيرين الاسلام وتعاقب فى حكم بلاد جغطاى مغول مسلمون منذ ذلك التاريخ(٩٦) .

وهكذا حقق الاسلام نصرا ساحقا فى هذه الممالك الثلاث ، ولم يكن ذلك الا نتيجة لفشل النصرانية والبوذية الذى اشرنا اليه فى كسب مغـــول تلك الممالك ، ولعوامل اخرى معينة ادت الى نجاح الحركة الاسلامية فى كسب هؤلاء المغول والى ضمهم لمعسكر الاسلام . فيا ترى ما هى هــذه العوامل التى أدت الى هذه النتيجة ؟ انه لحق علينا ان نتحدث عن هـــــذه العوامل بعد ان تحدثنا من قبل عن العوامل التى ادت الى عطف بعض حكام المغول على المسيحية والى اعتناق بعضهم للبـــوذية ، والى رفـــع حـــرارة المنافســـة بين هاتين الديانتين وبين الاسلام فى هذه الممالك الثلاث .

---

(٩٦) المقريزى : السلوك جـ ٢ ق ٢ ص ٣٨٩ .

الفصل الثانى

عـوامل انتشـار الاسـلام بـين المغـول

هناك عوامل عديدة ادت الى تغلب الحركة الاسلامية فى ممالك المغول الثلاث : فى بلاد ايران وآسيا الصغرى والعراق ، وبلاد القفجاق وخوارزم ، وفى بلاد تركستان وما وراء النهر وغزنة ، بمعنى أن مغول هـذه الممالك أعتنقوا الاسلام بعد صراع طويل ومنافسة شديدة طال زمنها مع البـوذية والنصرانية حتى تراوح ما بين العشرين عاما الى المائة عام ، وهى الفتـرة التى يمكن ان نطلق عليها فترة الحكم الوثنى المغولى لهذه الممالك الثلاث ، لأن اغلب حكامها كانوا من الوثنيين : بوذيين او شامنيين وان تخللها بعض الحكام المسلمين الذين لم يستطيعوا الصمود امام المنافسة وامام مؤامرات البـلاط التى كانت تدفع بحاكم الى العرش وبآخر الى القبر . ولكن الاسلام تغـلب فى النهاية على الجميع ، ولم يكن ذلك الا نتيجة لعوامل عديدة ، اولاها احوال المغول الدينية والحضارية وتدنيها وما كان لذلك من اثـر فى قبولهم للاسلام وحضارته ، وثانيها زواجهم من مسلمات وما كان لذلك من اثر فى اسلامهم ، وثالثها استخدامهم لوزراء وموظفين من المسلمين فى معظم مناصب الدولة العليا وادارتها فى العاصمة والأقاليم ، ورابعها ما كان من اثر الأغلبيـة المسلمة من الفرس والترك الذين عاش المغول بينهم ، وخامسها هو تأثير الطرق الصوفية البالغ فى تحويل خوانين المغول وامرائهم الى الاسـلام ، وسادسها ما كان للتجارة والتجار من اثر لا ينكر فى هذا التحول الهام والانقلاب العظيم فى حياة المغول فى هذه الممالك الثلاث .

ولا بد لنا من افراد كل ناحية من هذه النواحى ، او كل عامل من هـذه العوامل بحديث خاص نجلو به ما غمض فى كيفية تحول هؤلاء المغـول الى الاسلام ، وكيفية تغلب الاسلام على البوذية والنصرانية فى هذا المجال .

١ — أحوال المغول الدينية والحضارية :

سبقت الاشارة الى ان المغول كانوا بصفة عامة قبائل من البدو الرحل ، وحياة البادية كما هو معروف لا توفر للناس حياة الاستقرار وما تؤدى اليه هذه الحياة من ظهور انماط من المدنية والحضارة كانت لا تظهر عادة فى تلك العصور الا فى احواض الأنهار وأوديتها حيث يسود الاستقرار ويزدحم العمران ، وعلى ذلك فلم يعرف المغول شيئا ذا قيمة عن الحضارة سواء فى مظاهرها المادية او الفكرية كما عرفها المسلمون وقتذاك سواء كانوا عربا ام فرسا ام تركا ، ذلك ان المغول أتوا من اقليم جدب موحش لا يتحمل مزيدا من السكان ولا تطيب الحياة للناس فيه بسبب فقره وعدم توفيره لما يقيم أود الناس وما يكفيهم من طعام وشراب(١) . ولذلك كانوا دائما فى حل وترحال ، لا يقر لهم قرار ، ولا يرتفع لهم جدار ، لا يعرفون للحضارة معنى .. أميون اغبياء ، يتمرنون على ركوب الخيل منذ نعومة اظفارهم .. ليس عندهم طقوس دينية ولا شرائع قضائية (٢) .

ولذلك وقفوا مذهولين اماه حضارة الاسلام بعد ان هدأت فورة فتوحاتهم وغزواتهم ، شدتهم حياة الاستقرار وجذبتهم مدن الاسلام بما فيها من قصور ودور وحمامات ومدارس ومساجد وحدائق لم يعرفوها من قبل ، رأوا حياة اجتماعية واساليب معيشية راقية لم يسمعوا بها فى حياة البادية المليئة بالشظف والمعاناة ، رأوا مثلا وقيما اسلامية فاقت ما كان لديهم من قيم ومثل لا تعبر الا عن الهمجية والوحشية والقسوة وسفك الدماء ، وتغلب القوى على الضعيف وخضوع الأصغر للاكبر وطاعته له دون منافسة والا كان مصيره القتل . فما بالك بقوم يتزوج الابن منهم نساء أبيه بعد وفاته ، ولا يرون غسل ثيابهم البتة حتى تبلى ، ولا يميزون بين طاهر ونجس ، ويقتتلون

---

(١) فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٦١

Saunders : op. cit., p. 776.

(٢) باسيليوس خرباوى : تاريخ روسيا ، ص ٥٩ .

من أعطى بضاعة وخسر فيهــا ، ويقتلون الأســير ومن اطعمه او سقاه او كساه بغير اذنهــم(٣) .

فاذا اتينا الى الاسلام نجده ينهى عن ذلك كله ، فهــو دين الرحمــة والعدالة والمساواة ، فلا فرق عند الحاكم المسلم بين قوى وضعيف او صغير وكبير ، والحاكم نفسه لا ميزة له على الناس وليس بخيرهم وانما هو رجل يحمل عبء سياستهم ويسهر على مصالحهم ، وطاعة الناس له مرتبطــة ومشروطة بطاعته وتنفيذه لأوامر الله وسنة نبيه ، وللمسلمين عزله اذا خالف ذلك او اذا لم يحسن عمله(٤) ، والاسلام يجعل النظافة من الايمان ويجعل الطهارة شرطا اساسيا لأداء بعض الشعائر الدينية كالصلاة ، ولا يأمر بقتل الأسرى ويجعل معاملتهم حسبما جاء فى الآية الكريمة التى تشير بالمن عليهم باطلاقهم او قبول الفدية نظير ذلك(٥) .

وما بالك بأقوام يتباهون ويعلنون فى كتبهم ورســائلهم التى كانــوا يبعثون بها الى ملوك الاسلام انهم أبادوا الأمم واهلكوا الشعوب واحرقوا المدن ، ولا ينجو منهم احد حتى ولو صعد الى السماء او نزل الى اعمــاق الأرض ، وانهم لا يرحمون من بكى ولا يرقون لمن شكى وانهم اخربوا البلاد وافنوا العباد وايتموا الأولاد وتركوا فى الأرض الفساد(٦) . وكانوا فعــلا ينفذون تهديداتهم ويقتلون جميع السكان سواء قاوموهم او استسلموا لهــم لا فرق عندهم بين طفل وكبير وامراة ورجل ، وشيخ هرم وشاب فتى(٧) .

---

(٣) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ٦ ، ٧ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ١٧٠ ، التلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٣١١ ، ٣١٢ ، ابن كثير : نفس المصدر ، ج ١٣ ص ١١٨ ، ١١٩ .

(٤) ابن قتيبة الدنيورى : الامامة والسياسة ، ج ١ ص ١٦ .

(٥) القرآن الكريم ، سورة محمد ، آية رقم ٤ .

(٦) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٨٤ ، المقريزى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٢٢ ، ٤٢٨ .

(٧) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٨٨ ، باسيليوس خرباوى : نفس المرجع ، ص ١٠ .

وما بالك باقوام لم يكتفوا بذلك بل اقدموا على اطفاء شعلة المدنيـــة والحضارة بقتلهم لآلاف العلماء والفقهاء وتخريبهم للجوامع والمساجد والمشاهد واحراقهم للمكتبات والقاء ما لم تلحقه النار مما كان بها من كتب فى الأنهار ، كما حدث لمكتبات بغداد وغيرها ، وكما حدث لعلمائها وعلماء المدن الاسلامية الأخرى من قتل وذبح حتى فر منهم الالاف الى مصر والهند وغيرها يلتمسون المأوى والأمان من هذا الطوفان الوثنى الذى طم وعم ونكب الاسلام بما لم يحـــدث من قبـــل(٨) .

هذا فى حين ان الاسلام وحضارته ينهى عن ذلك كله ويأتى بما يناقضه تماما . ففى القتال يقول سبحانه وتعالى : « وقاتلوا فى ســـبيل الله الذين يقاتلوكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »(٩) فالقتال للدفاع وليس العدوان ، وأثناء القتال لا يصح للمسلمين ان يقتلوا شيخا او عجوزا او طفلا او امراة ، وعليهم الا يتعرضوا بسوء للكتابيين الذين فرغوا انفسهم للعبادة فى اديرتهم ومعابدهم .وعيلهم الا يهدموا منزلا ولا يقتلعوا زرعا ولا يحـــرقوا نخلا ، كما جاء فى وصايا الخلفاء الراشدين لجيوشهم جندا وقوادا(١٠) .

ولذلك اعتنق الناس الاسلام فى كل بلد دخله هـــذا الدين ، والتحم المسلمون الجدد فى هذه البلاد بالمسلمين الوافدين من شبه جزيرة العـــرب وتعاونوا سويا فى اقامة صرح الحضارة الاســـلامية ، وضربت شـــعوب الاسلام بصفة عامة من عرب وفرس وترك ومصريين ومغاربة وأندلســـيين بسهم وافر فى هذا الميدان فى العصور الوسطى . وكان على المغـــول ان يتأثروا ، وكان عليهم ان تلين قلوبهم التى قدت من الصخر ، وكان عليهم أن يتعلموا او يتثقفوا بثقافة الاسلام ويلتحفوا بحضارته ، وكان عليهم فى النهاية ان يتحولوا الى دين هذه الحضارة التى بهرتهم وجعلتهم يلقون سلاحهم لأول مرة ، والى دين هذه الأغلبية المسلمة المتحضرة التى عاشوا بينها وحكموها ،

---

(٨) المقريزى : نفس المصدر : ج ١ ق ٢ ص ٤١٠ ، ٤٢٢.

(٩) سورة البقرة آية رقم ١٩٠ .

(١٠) الكاندهلوى : حياة الصحابة ج ١ ص ٢١٣ — ٢١٤ .

والتى جعلتهم يضعون يدهم على ما فى ديانة الاسلام من قيم ومثــل ونظم اجتماعيــة راقيــة(١١) .

ولذلك لم يكن تحول المغول الى الاسلام الا مسألة وقت ، خصــوصا وأن ديانة المغول وهى الديانة الشامانية كانت ديانة بدائية وثنية لا تقوم على اسس اخلاقية ولا تستطيع أن تقاوم طويلا جهود الاسلام صاحب الاتباع والأنصار وصاحب الأعداد الكبيرة من الفقهاء والعلماء الذين يملكون قــوة الاقناع وسد حاجات العقل . فكيف يقف المغولى الذى يعبــد الشمس او الأصنام او ارواح الأجداد القدامى امام ديانة الاســــلام(١٢) ، وكيف تقف الشامانية أمام هذا الدين الذى كان دينا عالميا ولم يكن قاصرا على جنس او شعب بذاته والذى يتلاءم مع كافة العناصر والشعوب والأمــم والبلدان ، والذى كانت شعوبه متفوقة على الأقل من الناحية المادية والمعنوية على غيرها من كل البلدان المتقدمة فى ذلك الحين(١٣) .

ولذلك فان جموع المغول المخربة لم تضطهد دين الاسلام الا فى بعض الأحيان التى أشرنا اليها ونتيجة لعوامل سياسية ، ولم تلبث تلك الجموع ان تأثرت به فى النهاية وتحولت اليه وانفعلت بالحضارة الاسلامية التى عاشت فى ديارها وتذوقت ثمارها وتحولت الى بناة للمدنية التى ازدهرت على ايديهم ازدهارا ملحوظا حتى أن كثيرا من المؤلفات الاسلامية ظهرت وترجمت فى عصر ايلخانات فارس(١٤) ، ومن عجب ان هولاكو الذى حطم الخلافة العباسية فى بغداد والذى يعتبر أكبر عدو للاسلام كان يشمل برعايته اثنين من كبار الكتاب

---

(١١) رشيد الدين الهمدانى : ج ١ م ٢ ص ٨٤ ، مصطفى بدر : نفس المــرجع ، ص ١٢ .

Saunders : op. cit., pp. 182-183.

(١٢) ابن الأثير : نفس المصدر ، ج ١٢ ، ص ٣٦٠ ، القلقشــــندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٣١٠ — ٣١١ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٤ ، ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥١

Saunders : op. cit., p. 68.

(١٣) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٧٠ ، محمد عبد المنعم الشرقاوى : افغانستان ، ص ٤٠ .

(١٤) محمد عبد المنعم الشرقاوى : نفس المرجع ، ص ٤٠ .

المسلمين فى زمانه ،احدهما نصير الدين الطوسى والآخر عطا ملك الجوينى(١٥) .

وقد سبقت الاشارة الى ما تميز به المغول بصفة عامة من سماحة دينية وعدم انحيازهم لدين معين ، وأن ذلك اتاح حرية المنافسة بين الاسلام وبين المسيحية والبوذية ، وأدى ذلك فى النهاية الى تغلبه على هاتين الديانتين اللتين كان مبشروهما يتجهون بنشاطهم الى الطبقة العليا من المجتمع المغولى ، بينما كان دعاة الاسلام يتجهون الى هؤلاء والى غيرهم من طبقات المغول الأخرى ، فاخذ الاسلام ينتشر بينهم دون أن يشعر به الناس . وقد ساعد على ذلك عامل آخر هو اختلاط المغول بالفرس والترك المسلمين ومصاهرتهم ، وهنا يبرز اثر الزوجات المسلمات .

٢ — اثر الزوجات المسلمات :

ذلك أن كثيرا من خوانين وايلخانات وامراء وقواد المغول تزوجوا بتركيات وفارسيات مسلمات ، واتخذوا من الأسيرات المسلمات سرارى وحظيات ، وكان لذلك بالطبع اثره الكبير فى بلاط المغول وفى الأسرات المغولية بصفة عامة ، فقد أصبح البلاط المغولى يموج بالعديد من النساء المسلمات اللائى كان لهن تاثير كبير على رجال هذا البلاط ، فتحول كثير من الأمراء الى الاسلام قبل ان يصبح هذا الدين هو الدين الرسمى للمغول . كما ان البيت المغولى ضم العديد من المسلمات اللاتى كن يشرفن على تربية الأولاد ويقمن بشئون الخدمة فى البيت ، وكان لهذا اثره أيضا فى انتقال اساليب الحضارة الاسلامية فى المعيشة والعادات والتقاليد الى هذه الأسر المغولية البدائية ، وكان هذا — بجانب العوامل الأخرى — ممهدا لتحولها الى الاسلام .

وقد ذكر لنا المؤرخون ان جنكيزخان بعد ان تغلب على خوارزمشاه عام ٦١٧هـ/١٢٢٠م ، أسر أمه وبناته وتزوج ابنه جوجى واحدة منهن ، وتزوج بعض امراء المغول باقيهن . وينبغى الا ننسى أن جوجى هذا هو جد بركة خان سلطان القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق ، والذى كان اول من اسلم من ملوك

---

(١٥) ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٣٥٣ ، براون : نفس المرجع ص ٥٦٤ .

المغول كافة حوالى عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م ، وغضب لغزو هولاكو لبغداد وتوعده بالقتال جزاء ما اصاب خليفة المسلمين وبغداد من دمار وقتل وتخريب(١٦) .

ويخبرنا ابن العبرى المؤرخ المعاصر لتلك الاحداث وكذلك رشيد الدين الهمدانى أن هولاكو عندما فتح بغداد ووقع الخليفة العباسى المستعصم فى يديه ، تظاهر فى البداية بالابقاء على حياته وسمح له باختيار مائة من نسائه السبعمائة ، وأخذ هولاكو باقيهن . ثم صار كل هذا العدد الكبير من النسوة بأجمعه تحت حوزة هولاكو وتصرفه بعد قتل ذلك الخليفة . ويخبرنا رشيد الدين الهمدانى بأن ابغا (اباقا خان) الذى خلف اباه هولاكو على عرش ايران كانت احدى زوجاته مسلمة ، وأن احمد تكودار بن هولاكو والذى كان اول من اسلم من ايلخانات ايران كانت زوجاته مسلمات ، كما كانت احدى زوجات ارغون خان بن ابغا خان بن هولاكو مسلمة ، وربما كانت هذه الزوجة المسلمة هى المحظية الى أشار اليها رشيد الدين الهمدانى باسم قولتاق ايكاجى والتى كانت اما لابنه غازان الذى اسلم ، واسلم باسلامه معظم المغول ، وقد اتخذ الابن الثانى لأرغون وهو اولجايتو خان زوجاته ايضا من المسلمات(١٧) بل ان هذا الخان نفسه الذى أسلم وتسمى باسم السلطان محمد خدا بنده وحكم ايران وما يتبعها من بلاد الاسلام (٧٠٣ — ٧١٦ هـ/ ١٣٠٤ — ١٣١٦م) لم يعتنق الاسلام الا بتثير زوجته المسلمة . وكان هذا الايلخان قد شب على المسيحية بتأثير امه المسيحية ، وعمد فعلا باسم نيقولا، ولكن زوجته تمكنت من التأثير عليه بعد وفاة أمه(١٨) ، وكانت هذه الزوجة ابنة لصاحب ماردين الملك المنصور غازى بن قرا ارسلان(١٩) .

واستمر خوانين المغول بعد اسلامهم فى طلب الزواج من بنات الملوك المسلمين . مثال ذلك السلطان اوزبك خان سلطان القبيلة الذهبية فى بلاد

---

(١٦) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، المجلد الثانى ، ج ١ ص ٣٣٢ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٠٦ ، ١١٢٤ .

(١٧) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٧٥ ، رشيد الدين الهمدانى ، نفس المصدر م ٢ ج ١ ص ٢٩٢ ، م ٢ ج ٢ ص ٦ ، ٩٨ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٧٠.

(١٨) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(١٩) ابو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٦١ .

القفجاق (٧١٢ — ٧٤٢هـ/١٣١٣ — ١٣٤٢م) الذى تبادل المصاهرة مع سلطان مصر الناصر محمد بن قلاوون ، والسلطان أبو سعيد بهادر خان بن السلطان محمد خدا بنده (٧١٦ — ٧٣٦هـ/١٣١٦ — ١٣٣٥م) الذى أرسل رسوله الى سلطان مصر الناصر محمد يطلب منه أن يشرفه بأن يزوجه باحدى بناته(٢٠) .

وهكذا أصبح البيت المغولى الحاكم يدين بالاسلام مما ادى الى نشأة جيل جديد من حكام المغول من اب مسلم وأم مسلمة . وقد عمل هذا الجيل على تقوية الروابط بينه وبين حكام المسلمين فى البلدان الاسلامية الأخرى كما سنرى فى حينه ، مما دفع بالحركة الاسلامية بين المغول دفعا شديدا .

واذا كانت قمة السلطة المغولية قد تزوجت من مسلمات فلا شك أن زواج الجنود المغول كان اكثر واشد ، خاصة وان هؤلاء الجنود قد حازوا آلاف السبايا المسلمات اللائى وقعن فى أيديهم اثناء المعارك وبعدها ، وقامت هؤلاء السبايا مع المغول بنفس الدور الذى قامت به السبايا الفارسيات والروميات فى صدر الاسلام ، فكما قربت سبايا الفرس العنصرين العربى والفارسى ودعمت الصلة بينهما مما ساعد على نشر الاسلام فى ايران، قربت السبيات المسلمات بين المغول وبين المسلمين ونتج عن زواج هؤلاء السبيات بالمغول جيل جديد من المغول اعتنق الاسلام تدريجيا حتى عم جميع المغول تقريبا فى أقل من قرن من الزمان(٢١) .

ويؤكد القلقشندى هذه الحقيقة بقوله : « ان أهل مملكة ايران من التتر كانوا قد داخلوا العجم وزوجوهم وتزوجوا منهم ، وخلطوهم بالنفوس فى الأمور ، فتفخمت قواعدهم ، وجرت على عوائد الخلفاء والملوك فى غالب الأمور قوانينهم »(٢٢) . ويحدثنا السير توماس أرنولد ان وليم

---

(٢٠) ابو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٦١ ، المقريزى : السلوك ج ٢ ق ٢ ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

(٢١) ارنولد : نفس المرجع ، حاشية (١) ص ٢٦٥ .

(٢٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٢٦ .

روبروك مبعوث البابا الى خان المغول فى منتصف القرن السابع الهجرى / منتصف القرن الثالث عشر للميلاد شاهد بنفسه تأثير احدى النساء المسلمات على زوجها وكيف وقف هذا التأثير عقبة امام تحوله الى النصرانية ، اذ بعد ان تم شرح العقيدة المسيحية لهذا الزوج واعدت العدة لتعميده ، امتطى صهوة جواده على حين غرة ، قائلا،انه لا بد من ان يذهب الى داره لاستشارة زوجته التى اقنعته بعدم الدخول فى المسيحية(٢٣) .

وكان المغول بصفة عامة يحتفظون لزوجاتهم بقدر كبير من الاحترام والمنزلة السامية ، لدرجة ان خوانين المغول وملوكهم كانوا اذا كتبوا امرا أو فرمانا(٢٤) (يارليغا) كانوا يقولون فيه « عن امر السلطان والخواتين »(٢٥). وكانت كل خاتون(٢٦) تمنح عددا من البلاد التى كانت تجبى لحسابها ، أو تمنح راتبا سنويا كبيرا لا يقل عن راتب بكلارى بك ، أى امير الأمراء ونائبه الخان ، ويزيد عن راتب الوزير ، اذ كان راتب الأول ثلاثمائة تومان ، وراتب الثانى مائة وخمسون تومانا ، اما راتب الخاتون فكان مائتى تومان ، والتومان عشرة آلاف درهم(٢٧) .

وبلغ من علو شأن الخواتين ان مجمع القوريلتاى(٢٨) كان لا يتم انعقاده

---

(٢٣) أرنولد : نفس المرجع ، حاشية (١) ص ٢٦٥ .

(٢٤) الفرمان ، وجمعه فرمانات : ما يصدره السلطان أو الملك من الكتب للولاة والوكلاء والقصاد يعلن فيها تقليدهم مناصبهم او تعيينهم فيها .
انظر : سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٤٣٧ .

(٢٥) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٥٤ .

(٢٦) خاتون لقب لقبت به الملكات والأميرات .
انظر : سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٤١٠ .

(٢٧) ابو الفدا : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٩٣ ، القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٢٥ ع ٤٢٦ .

(٢٨) القوريلتاى فى الاصطلاح المغولى عبارة عن مجلس عظيم حافل يضم جميع الأمراء واركان الدولة ، وينعقد عند تنصيب احد اعضاء الأسرة المالكة امبراطورا اعظم على جميع المغول .
انظر : رشيد الدين الهمدانى : جامع التواريخ ، م ٢ جـ ١ ، حاشية (١) ص ٢٣٤ .

الا بحضورهن ، كما كن يتدخلن فى عزل بعض الخوانين ويساعدن البعض فى ارتقاء العرش ، وتاريخ المغول حافل بذلك(٢٩) وكن يتمتعن بمظاهر الملوكية ، فكان للخاتون الكبرى ، أى زوجة الخان المفضلة ، طبل يدق عقب طبل الخان نفسه ،ثم تدق سائر طبول الخواتين ، ثم طبل الوزير وبقية الوزراء(٣٠) . وقد زار ابن بطوطة هذه البلاد وأشار الى ما كانت تتمتع به النساء عند المغول من علو شأن حتى انه تعجب من ذلك وقال انهن اعلى شأنا من الرجال ، ووصف لنا نساء الخوانين والأمراء وصفا مذهلا يدل على مدى الحظوة التى كانت لهن ، وأشار الى نساء العامة من المغول وقال انهن يتمتعن بنفس القدر من المنزلة عند ازواجهن ، وقال انهن كن يذهبن الى السوق تحيط بهن الجوارى والعبيد وتتزين بالحلى والجواهر ، وربما كان مع المرأة زوجها فيظن من يراه انه احد خدامها نظرا لما كان يرتديه من ملابس لا تتناسب مطلقا مع ملابس زوجته(٣١) .

ولك أن تتخيل مدى التأثير الذى كانت تتمتع به زوجات المغول اللائى كن على هذا القدر من علو المنزلة ورفعة الشأن عند أزواجهن ، واللائى كن فى الغالب مسلمات . فلا شك انه كان لهن اثر كبير فى تحويل ازواجهن الى الاسلام ، وما سقناه فى هذا السبيل ليس الا مجرد امثلة ذكرها المؤرخون ، وما لم يذكروه لا شك انه اكبر واعظم لأنهم لم يهتموا الا بالاشارة الى زوجات الخوانين والأمراء ، اما زوجات العامة من المغول واللائى كن بالطبع اكثر عددا لم يظفرن من هؤلاء المؤرخين بشىء يذكر .

٣ — تأثير الوزراء والموظفين المسلمين :

كان معظم وزراء المغول وكتابهم وموظفيهم من المسلمن نظرا لبداوة المغول وافتقارهم لمعرفة وسائل الادارة المالية لهذه البلدان المفتوحة خصوصا وان كثيرا من زعماء المسلمين ومثقفيهم وفقهائهم أبدوا الرغبة فى التعاون مع المغول على اعتبار ان الحكم المغولى لبلادهم أصبح أمرا واقعا ، ولأن

---

(٢٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .
(٣٠) المصدر السابق ، ص ١٥٥ .
(٣١) المصدر السابق ، ص ٢١٩ — ٢٢٠ ، ٢٢٢ — ٢٢٤ .

تعاونهم مع هؤلاء الغزاة قد يخفف من غلوئهم فى معاملة المسلمين ويكبح جماحهم ، ويجنح بهم فى النهاية الى سياسة المسالمة والتعايش السلمى مع هذه الأغلبية المسلمة فيستفيد الطرفان حكاما ومحكومين . وقد تحقق هذا الهدف فعلا وانتعشت احوال المسلمين فى النهاية وصمدوا امام تغلغل الدين المسيحى بين بعض زعماء المغول وأمرائهم ، وأصبح لهؤلاء الموظفين المسلمين نفوذ كبير فى دولة المغول بعد أن استخدمهم الخوانين فى وظائف الحكم والادارة والمالية ، وقد أدى هذا اومر الى تحول الكثيرين من المغول الى الاسلام(٣٢) .

ففى ايران استفاد ايلخاناتها من البيروقراطية الفارسية استفادة كاملة ، فعين هولاكو مؤسس دولة المغول فى ايران والعراق وآسيا الصغرى نصير الدين محمد الطوسى مستشارا ووزيرا له ، وكان هذا الرجل قد دخل فى خدمة هولاكو وكان مسموع الكلمة عنده ، وكان من العلماء البارزين فى شتى العلوم فى عصره وخاصة علم الفلك ، ولذلك سمح له هولاكو ببناء مرصد ضخم فى مدينة مراغة باذربيجان ، نقل اليه عددا كبيرا من كتب ووثائق الأوقاف التى لم يصبها التلف ببغداد ، كما بنى هذا الوزير العالم دار حكمة وعين فيها بعض الفلاسفة ورتب لكل واحد منهم راتبا مقداره ثلاثة دراهم فى اليوم ، كما بنى دار طب عين فيها الأطباء ورتب لكل واحد منهم درهمان ، ومدرسة رتب لكل فقيه فيها درهما ، ودار حديث رتب لكل محدث فيها درهما أيضا(٣٣) . وقد امتدت سلطة هذا الوزير العالم حتى صار تحت حكمه جميع الأوقاف فى جميع البلاد التى كانت تحت حكم المغول فى ايلخانية ايران(٣٤) .

ولا شك ان هذا الرجل الذى امتد به العمر حتى عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م كان له تاثيره على هولاكو وعلى ابنه ابغا (اباقاخان) ، وقد سبقت الاشارة

---

(٣٢) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ .
Saunders : op. cit., p. 140.

(٣٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ق ٢ ، ص ٤٢٠ ، ٤٢١ ، العينى : نفس المصدر ج ٢٢ ورقة ١٠٩ .

(٣٤) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٥٠٠ .

الى حبهما للعلماء ورجال الدين من كافة الملل والنحل ، كما ان ما قام به هذا العالم فى مراغة(٣٥) قد اثار نهضة فى العلوم الاسلامية التى كانت قد تعرضت لضربة شديدة عقب القضاء على عدد كبير من العلماء والفقهاء اثناء غزو هولاكو لبغداد وغيرها من مدن الاسلام فى ايران والعراق والشام .

ولم يكن نصير الدين الطوسى هو المستشار المسلم الوحيد الذى استعان به هولاكو ، فقد عين هذا الملك المغولى معين الدين بروانة وزيرا له فى بلاد سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى بجانب حكامها من السلاجقة الذين كانوا قد اعلنوا الطاعة والخضوع للمغول ، كما عهد هولاكو ، بحكم بغداد الى الأمير على بهادر ، وعين معه مؤيد الدين بن العلقمى وزيرا له ، ولما توفى هذا الوزير تولى ابنه عز الدين ابى الفضل الوزارة فى بغداد ، اما منصب صاحب الديوان بها فقد عين فيه هولاكو المؤرخ الصاحب علاء الدين عطا ملك الجوينى صاحب كتاب « تاريخ جهانكشاى » أى تاريخ فاتح العالم ، والمقصود به جنكيز خان ، كما عين هولاكو أخاه شمس الدين محمد الجوينى فى منصب صاحب الديوان للبلاد كلها واطلق يده فى حل الأمور وعقدها(٣٦) .

وقد استمر هذان الأخوان فى منصبيهما فى عهد أبغا بن هولاكو (٦٦٤ — ٦٨٠ هـ/١٢٦٥ — ١٢٨١م) ، وأمر بأن يكون علاء الدين الجوينى حاكما مطلقا فى بغداد(٣٧) . ولما عزل هذا الرجل عن منصبه نتيجة لتآمر

---

(٣٥) مراغة مدينة مشهورة فى بلاد أذربيجان كثيرة السكان غزيرة الأشجار كثيرة الأنهار كانت مشتى لايلخانات ايران ، وهى مدينة محدثة اتخذت اسمها هذا ايام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية . انظر ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ، حاشية(١) ص ٢٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٣٦) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، المجلد الثانى ج ١ ص ٣٣٨ ، ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ابن الوردى : تاريخه ، ج ٢ ص ٢٢٩ ، الصياد : نفس المرجع ، ص ٢٧٦—٢٧٧ ، ٣٢٤ .

(٣٧) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٩٧ .

شحنة بغداد ونائبه اسحاق الأرمنى ضده ، عين أبغا فى هذا المنصب واحدا من نفس اسرة الجوينى(٣٨) ، كما عين حكاما مسلمين فى باقى انحاء مملكته : فى فارس وديار بكر وأصفهان ومعظم ولايات العراق العجمى وقزوين وديار ربيعة وكرجستان ، وانعم على ما يقرب من مائة عالم كبير من تلاميذ نصير الدين الطوسى ممن كانوا مقيمين فى تبريز ، كما اتخذ قائدا مسلما يسمى عبد الله آقا ضمن قواده الاخرين(٣٩) .

استمر ايلخانات ايران فى اسناد منصب الوزارة والمناصب العليا الاخرى الى المسلمين وخاصة فى عهد الايلخان المسلم احمد تكودار ابن هولاكو (٦٨٠ — ٦٨٣هـ/١٢٨١ — ١٢٨٤م) ، ولما اسند ارغون بن ابغا بن هولاكو (٦٨٣ — ٦٩٠هـ/١٢٨٤ — ١٢٩١م) الوزارة الى اليهودى سعد الدولة اضطهد هذا الوزير المسلمين اضطهادا كبيرا ، ولكن هذا الاضطهاد انتهى بموت هذا الوزير وذلك الايلخان ، واستانف المسلمون توليهم لمنصب الوزارة فى عهد الايلخان الجديد المسمى كيخاتو بن ابغا (٦٩٠ — ٦٩٤هـ / ١٢٩١ — ١٢٩٥ م) . فقد تولاها الخواجا(٤٠) صدر الدين احمد بن عبد الرزاق الخالدى الزنجانى الذى لقبه كيخاتو بلقب (صدر جهان) ، اى صدر العالم ، كما عين اخاه قطب الدين احمد قاضيا للقضاة ، وولاه نظارة أوقاف الممالك التابعة لخانية ايران ، ولقبه بلقب قطب جهان ، اى قطب العالم ، واسند اليه حكم مدينة تبريز عاصمة الدولة واسند الى ابن عمه حكم العراق ولقبه بلقب قوام الملك .وبلغ نفوذ صدر الدين حدا جعله يستبد بالسلطة السياسية والادارية والعسكرية فى الدولة دون الأمراء والقواد ، مما حملهم على التآمر ضده والوشاية به عند كيخاتو ، الذى سرعان

---

(٣٨) ابن الوردى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٢٢٩ .

(٣٩) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، م ٢ جـ ٢ ،ص١٢، ٤٠، ٤٢ .

(٤٠) الخواجا (الخوجة) لفظ معناه المعلم والتاجر والكاتب . انظر سعيد عاشور : نفس المرجع ص ٤١٣ .

لما اكتشف المؤامرة واصدر فرمانا يتضمن وضع البلاد كلها تحت تصرف صدر جهان ، وفوض اليه تدبير شئون الدولة تفويضا كاملا(٤١) .

وقد كان لاسناد هذه الوظائف العليا وغيرها من الوظائف الدنيا الى المسلمين اثر كبير فى نقل الثقافة الاسلامية الى الموظفين الآخرين من المغول وفى انتشار الاسلام بينهم وبين خوانين المغول وأمرائهم نتيجة للاحتكاك والمعايشة المستمرة والاتصال الدائم بين الموظفين المسلمين وبين زملائهم وسادتهم من المغول ، فمن الأمراء الذين أسلموا نتيجة لهذه السياسة الأمير احمد اوغول بن بوري بن جغتا الذي كان قائدا من قواد ابغا بن هولاكو ، والأمير حسن بن بوقو الذى كان صديقا لكيخاتو منذ الطفولة وهناك بعض الايلخانات الذين أسلموا أيضا نتيجة لتأثير الموظفين المسلمين المتصلين بهم ،مثل احمد تكودار والسلطان محمود غازان الذى تولى حكم ايران (٦٩٤ — ٧٠٣هـ/ ١٢٩٥ — ١٣٠٤ م) واعتنق الاسلام وجعله دين الدولة الرسمى نتيجة لتأثير وزيره وقائده المسلم حاجى نوروز . وكان هذا القائد الداهية قد نصح غازان بترك البوذية والتحول الى الاسلام كى يحصل على عرش ابيه ، مما يدل على ازدياد نفوذ الاسلام فى بلاط المغول فى ايران . ولما نجح غازان فى ارتقاء العرش اعلى شأن هذا القائد وجعله قائدا عاما للجيش واميرا للأمراء ، كما عهد بمنصب الوزارة الى صدر جهان احمد الزنجانى ، وارتفع شأن الاسلام واقبل المغول بالآلاف على اعتناقه اقبالا شديدا حتى ان الأمير فيروزكوه أسلم هو وثمانون الفا من اتباعه وصناديد قومه وأكابرهم من المغول(٤٢) .

وهكذا كان للوزراء والموظفين المسلمين اثر كبير فى تحويل المغول فى ايران الى

---

(٤١) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر م٢،ص ١٥٠،١٥٧،١٧٩، شرفخان البدليسى : نفس المصدر ، ج٢ص١١ ، ١٢ ، ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٤٧٢ .

(٤٢) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ١٨٦ ، شرف خان البدليسى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٥ ، ١٦ ، مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ١٤ — ١٨ ، آرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٣ .

Saunders : op .cit., p. 135.

الاسلام حتى قال ابو الفدا عن احدهم وهو على شاه وزير السلطان ابى سعيد (٧١٦ — ٧٣٦هـ/ ١٣١٦ — ١٣٣٥م) انه « هو الذى نسج المودة بين الاسلام والتتر » ، وانه هو الذى انشأ بتبريز الجامع الذى لم يكن له نظير(٤٣) فقد كان هؤلاء الوزراء والموظفون — كما رأينا — ينشئون المساجد والمدارس والمراصد والمستشفيات وغيرها من المرافق العامة التى بثت الروح فى جسد الثقافة الاسلامية من جديد . واستمر هؤلاء الوزراء فى هذا الاحياء الثقافى حتى نهضت الثقافة الاسلامية وتسللت الى عقول المغول وقلوبهم ، ساعد على ذلك ان منصب الوزارة كما رأينا كان يتعاقبه الأبناء عن الاباء مثل اسرة الجوينى وصدر جهان الزنجانى ورشيد الدين بن فضل الله الهمدانى(٤٤) وغيرها من الأسرات التى تعهدت هذا العمل العظيم وكان لها فضل كبير فى تحويل كثير من المغول الى الاسلام .

وفى دولة المغول فى تركستان وما وراء النهر حدث نفس الشيء ، فقد اتخذ ايلخانها جغطاى لنفسه طبيبا مسلما يسمى مجد الدين رغم ان هذا الايلخان كان يكره المسلمين كرها شديدا ، كما اتخذ من أحد اثرياء التجار المسلمين وزيرا له ، وكان هذا الوزير يسمى قطب الدين حبش عميد ، وهو مواطن من منطقة اوترار قرب بخارى ، وكان له نفوذ ومكانة بارزة عند المغول لدرجة أنه جعل لكل واحد من ابناء جغطاى رفيقا له من ابنائه هو . ولك أن تتصور مدى التاثير الذى يمكن ان يحدث من هذه الرفقة، خاصة اذا عرفت ان حفيد هذا الايلخان اعتنق الاسلام وتسمى باسم مبارك شاه . واستمر تاثير هذا الوزير بعد موت جغطاى عام ٦٤٠هـ/١٢٤٢م فى عهد خلفه وحفيده (قرا هولاكو) (٦٤٠ — ٦٤٥هـ/١٢٤٢ — ١٢٤٧م) والذى كان تحت وصاية (أيوسكون) ارملة جغطاى ، حتى توفى فى بداية عهد الفو بن جغطاى عام ٦٥٩هـ/١٢٦٠م ، باحدى مدن ولاية المالبق ، ودفن هناك بالخانقاه التى كان قد بناها(٤٥) .

---

(٤٣) تاريخه ، ج ٤ ص ٩٦ .

(٤٤) شرف خان البدليسى : نفس المصدر ؛ ج ٢ ص ٢٠ ، ٣٠ ، ٣١ ؛ أربرى : نفس المرجع ، ص ١٨٤ .

Saunders : Op. cit., p. 141.

(٤٥) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٩٧ ، ١٩٩ ، فامبرى : نفس المرجع ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

ولما فلت زمام الأمور من يد الخاتون (أيوسكون) ازاء التنازع على العرش نصب الخان الأعظم كيوك خان (ييسو مانجو بن جغطاى) رئيسا لأسرة جغطاى وحاكما لتركستان وما وراء النهر (٦٤٥ — ٦٥٠هـ/ ١٢٤٧ — ١٢٥٢ م) ، ولم يلبث هذا الحاكم الجديد ان اتخذ من الامام والعالم الورع الخواجا بهاء الدين المرغلانى (المارغينانى) (الذى أشاد بذكره الجوينى وأثنى عليه كل الثناء ، وزيرا له وناصحا وجعله نائبا عنه فى حكم بلاد ما وراء النهر ، وصار بيت هذا الوزير العالم مقصدا لكل العلماء المبرزين المعاصرين ، وكان هذا الوزير نفسه يجمع فى ثقافته بين العلوم الدينية والدنيوية ، وكان أبوه يتولى منصب شيخ الاسلام فى فرغانة قبل الفتح المغولى ، لذلك لا عجب ان استعادت العلوم الاسلامية مكانتها وتم احياؤها من جديد أثناء فترة حكم هذا الوزير ، كما تأثر بنشاطه ذاك عدد كبير من الموظفين غير المسلمين من المغول واعتنقوا الاسلام ، وخير مثال نضربه على ذلك هو كورجوز Korgus نائب الايلخان فى خراسان الذى كان ايغوريا تركيا من بش باليق ، وكان يدين بالبوذية ولكنه اعتنق الاسلام قرب نهاية حياته ، واعاد طبقة الموظفين الفرس المسلمين الى اعمالهم ، واعاد بناء مدينة طوس ، وحمى السكان المسلمين من عسف المغول(٤٦) . كل ذلك كان بتأثير الوزير المرغلانى وتأثير اسرته واتباعه .

وهناك أسرة اخرى كان لها فضل عظيم فى التأثير على المغول وفى نشر الاسلام بينهم وفى احياء الحركة الاسلامية وتنشيط الثقافة الاسلامية فى بلاد ما وراء النهر وتركستان . تلك الأسرة هى أسرة تاجر خوارزمى يدعى محمود يلواج ، كان جنكيز خان قد وثق به وجعله سفيرا له الى محمد خوارزم شاه عام ٦١٥هـ/١٢١٨م ، ثم عينه واليا على خان باليق (بكين) ثم جعله نائبا عنه فى حكم بلاد ما وراء النهر ، وظل محمود يلى هذا المنصب فى عهود أبناء جنكيز خان الذين خلفوه على عرش الخانية ، وبذل جهودا كبيرة فى تعمير ما خربه المغول وفى اصلاح ما فسد من أحوال الناس وتخفيف آلام الضربة القاسية التى أوقعها

---

(٤٦) فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٨٩

Saunders : op. cit., p. 107.

Barthold : Turkestan down the Mongol Invasion, pp. 467, 477 ;
The Cambridge History of Iran, v. 5, pp. 337-338.

المغول بالرعايا فى تلك المنطقة اثناء غزوهم لها ، فشعر الناس بالطمأنينة والامان(٤٧) .

وقد صعد نجم هذا الوزير المسلم فى عهد كيوك خان خليفة جنكيز خان ، اذ نصبه حاكما على مملكة الخطا ، كما تم تعيينه فى عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م حاكما على بلاد الصين فى عهد منجو خان الذى قسم الامبراطورية بين اخيه هولاكو الذى اختص بالبلاد الغربية وبين محمود يلواج وابنه مسعود الذى تم تعيينه حاكما لتركستان وما وراء النهر وبلاد الأويغور وفرغانة وخوارزم. وبذلك اصبح النصف الشرقى من امبراطورية المغول والذى يمتد من شواطىء جيحون الى منتهى بلاد الخطا والصين تخضع لحكم « الصاحب المعظم يلواج وولده مسعود بيك » واستمر محمود يلواج فى مباشرة مهامه السياسية فى حكم البلاد الموكولة اليه حتى وفاته عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م رغم التغييرات السياسية المتعددة ، واستطاع ايضا ان يترك هذا الحكم لأبنائه من بعده ، فظل ابنه مسعود فى حكم آسيا الوسطى حتى وفاته عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م واستمر أخوة مسعود فى الحكم فى عهد قايدو حفيد اوكتاى والمتغلب على اولاد جغطاى فى بلاد ما وراء النهر وتركستان وفى عهد بعض ايلخانات بنى جغطاى انفسهم(٤٨) .

وقد قام محمود يلواج وابنائه من بعده بأداء مهمتهم خير قيام ونهضوا بتلك البلاد نهضة مباركة ، فازداد العمران وانتشرت المدارس التى اسسها مسعود من ماله الخاص فى بخارى وكاشغر وغيرهما ، والتى سميت باسم المدارس المسعودية نسبة الى بانيها . وقد قامت هذه المدارس بدور كبير فى نشر الثقافة والعقيدة الاسلامية بين المغول الفاتحين وحافظت على التراث الاسلامى من الضياع وذخرت بالأئمة ومشايخ الاسلام والمدرسين الذين أغدقت عليهم العطايا والمنح(٤٩) .

---

(٤٧) الصياد : نفس المرجع ، ص ١٥٣ — ١٥٥ ، ١٩٨ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٤٥ ، ١٨٥ ، ١٨٦ .

(٤٨) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٤٤٩ ، رشيد الدين : نفس المصدر م ٢ ج ٢ ص ٢٢ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، الصياد: نفس المرجع ص ٢١٠ ، ٢١١

Saunders : op. cit., p. 177.

(٤٩) الصياد : نفس المرجع ، ص ٢١٠ ، ٢١١ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٨٦ ، فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٨٤ .

وفى ايلخانية القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق كان اول ايلخاناتها هو باطو Batu بن جوجى بن جنكيز خان (٦٢٤ — ٦٥٤هـ/١٢٢٧ — ١٢٥٦م) وقد أعقبه فى الحكم لبضع شهور ابنه صرتق Sartak ، وكان هذا الابـــن مسيحيا كما سبق القول ، ويبدو ان والده كان يميـــل الى المسيحيين لأن الأخبار تقول بأنه أعفى الكنائس من الضرائب(٥٠) . ولا ندرى نوعية الموظفين الذين استخدمهم باطو او ابنه صرتق ، ولكن الغالب انهما اتخذا موظفين من بين سكان البلاد ، وكان القفجاق والبلغار المسلمون يشكلون اغلبية السكان ، بل ان الايلخانية نفسها اتخذت اسمها من اسم القفجـــاق الذين كانوا أهم عنـــاصر الســـكان فيهـــا(٥١) .

ولا شك ان ادارات الدولة ومناصبها أعطيت للمسلمين عقب تـــولى بركة خان العرش (٦٥٤ — ٦٦٥هـ/١٢٥٦ — ١٢٦٧م) ، اذ كان هـــذا الخان كما سبق القول مسلما ، وكان أول من أسلم من خوانين المغول كافة ، وعمل بكل جهده على صبغ الدولة بالصبغة الاسلامية ، واتخذ فى سبيل ذلك من احد المسلمين وزيرا له يسمى شرف الدين ، وهو احد مواطنى مدينة قزوين . وكان هذا الوزير يتقن العربية والتركية(٥٢) ، وفى عهده وعهـــد من اتى بعده توافد على بلاد القفجاق الكثير من العلماء والفقهاء فرارا من بطش هولاكو وابنه أبغا ، وتم تعيينهم فى مناصب الدولة المختلفة . وقد اشار ابن بطوطة فيما بعد الى كثير من الفقهاء والعلماء الذين وفدوا على هذه البلاد من ايران والعراق والشام ومصر ، وتولوا مناصب علمية وقضائية وكان لهم تأثيرهم الكبير فى تحويل مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق الى الاسلام(٥٣) ، لاننا وكما سنرى نجد أن الحركة الاسلامية فى تلك البلاد كانت حركة دافقة وقوية لدرجة ان مسلمى مغول القفجاق اظهروا موالاتهم منذ البداية للخليفة المستعصم آخر خلفاء بنى العباس ، وظلوا على ولائهم للخلافة العباسية بعد

---

(50) Howorth : op .cit., v. 2, pp. 92-93.

(51) Ibid : vol. 2, p. 17.

(52) Ibid : vol. 2, pp. 105-117.

(٥٣) رحلة ابن بطوطة ، ص ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٣٨ — ٢٤٠ .

انتقالها الى القاهرة(٥٤) . واذا كان هذا هـو تأثير الوزراء والمـوظفين والفقهاء المسلمين على المغول فى ممالكهم الثلاث فى تبريز وسمرقند وسراى، فما بالك بتاثير السكان المحليين من فرس وترك وعرب .

٤ — تاثير السكان المحليين على المغول :

يعتبر هذا العامل من اهم العوامل التى اثرت فى المغول ودفعت بهم الى تشرب الحضارة الاسلامية ثم الى اعتناق الاسلام . ذلك ان المغول بعد ان اتموا فتح معظم البلاد الاسلامية فى آسيا وجدوا انفسهم يختلطون بأناس يفوقونهم بكثير فى الحضارة والثقافة والفكر(٥٥) . وهؤلاء الناس اما فرس او ترك . فالفرس كان لهم تاريخ حضارى عظيم سواء قبل فتح الاسلام لبلادهم ام بعد ذلك الفتح . وقد تسربت مظاهر الحضارة الفارسية تدريجيا الى بقية انحاء الدولة الاسلامية وخاصة ايام الدولة العباسية واثرت فى الأتراك الذين حلوا محل الفرس فى الاستئثار بالنفوذ فى دولة الاسلام منذ العصر العباسى الثانى . ولما جاء المغول استسلموا كما استسلم العرب والترك امام السحر الفارسى ولم يستطيعوا مقاومته ، وامتزجوا امتزاجا تاما بروح هذا الشـعب التى تفيض حيوية ونشـاطا(٥٦) .

وقد نقل الكتاب والموظفون المسلمون الى المغـول البـرابرة الذين استخدموهم فى ادارات الدولة وفى بلاطهم ، النظم والخبرات والتقاليـد الحضارية التى كانت تزخر بها الثقافة الفارسية الاسلامية والتى كانت قـد ذاعت بعيدا فيما وراء حدود ايران ، واصبحت الفارسية تقريبا هى اللغـة الرسمية للبلاط المغولى . والدليل على ذلك ان رسالة كيوك خان التى أرسلها ردا على رسالة البابا انو سنت الرابع ، ورسالة منجوخان للويس التاسع

---

(٥٤) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٤٧ .
القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٣٠٩ ، ٣١٠ .
Howorth : op cit., vol. 2, p. 118.

(55) Saunders : op .cit., p. 184.

(٥٦) اربرى : نفس المرجع ، ص ٣٩
Saunders : op. cit., p. 177.

كانتا مكتوبتين باللغة الفارسية . ولا ننسى ان كيوك ومنجوخان من الخوانين العظام الذين كانوا يقيمون فى قراقورم فى بلاد الخطا والصين وليس فى ايران او فى آسيا الوسطى حيث تسود الثقافة الفارسية ، مما يدلنا على مبلغ تأثير هذه الثقافة القوى ، حتى ان التجـــار المســـلمين فى كافة أنحاء الامبراطورية المغولية كانوا يستخدمون اللغة الفارسية فى عملياتهم التجارية حتى أصبحت هى اللغة المتداولة فى آسيا(٥٧) ، وحتى قال احد كتـــاب الغرب بأن الاسلام الذى غزا المغول فى النصف الغربى من امبراطوريتهـــم وخاصة بعد اسلام غازان عام ٦٤٩هـ/١٢٩٥م ، وأوزبك فى عام ٧١٢هـ/١٣١٢ م كان اسلاما فارسيا ، لأن مجد العرب — فى نظره — وسمو شأنهم كان قد انتهى بمذبحة بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، تلك المذبحة التى هوت على أثرها سلطة العباسيين ودولتهم وهوت معها مراكز الثقافة العربية واللغة العربية التى تراجعت من بغداد الى القاهرة حيث ازدهرت هناك من جديد . أما فى بلاد العالم الاسلامى الشرقى فقد نهضت الفارسية نهضـــة ملحوظة وفعل الشاعر الفردوسى — فى عصر سيطرة المغول — ما فعله دانتى فيما بعد للايطالية ولوثر للالمانية(٥٨) .

وقد تجاوب المغول مع تلك النهضة الفارسية وتأثروا بها ، فاتخـــذوا الفارسية لسانا لهم فى البلاط كما أشرنا ، وتركت الثقافة الفارسية الاسلامية انطباعها عليهم وعلى قوادهم ، لأن اللغة المغولية لم تكن أبدا أداة للثقـــافة والعلوم والآداب ، ولم تنتشر ابدا وراء مهدها الأصلى ، وهزمت بسهولة فى تنافسها مع الفارسية والأويغورية التركية ، وكان هـــذا مما ســـاعد على دخول المغول فى الاسلام ، نتيجة لاستخدامهم هذه اللغة الاســـــلامية فى بلاطهم وفى تثقيف أنفسهم ، ونتيجة لمعايشة اهلها المسلمين فى ايران ، واختلاطهم بهم واندماجهم سويا عن طريق المصاهرة حتى ذاب المغول فى النهاية فى هذا المحيط الفارسى العظيم(٥٩) .

---

(57) Saunders : op cit., p. 184.

(58) Ibid : p. 184.

(٥٩) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر م ٢ ج ١ ص ٨٤

Saunders : op. cit., pp. 116, 190

وكما كان للفرس وثقافتهم تأثير كبير على المغول وخاصة مغول ايران وعلى تحولهم الى الاسلام ، فقد كان للترك أيضا تأثير عظيم فى هذا المضمار وخاصة فى مملكة المغول فى بلاد القفجاق ومملكتهم فى آسيا الوسطى (تركستان وما وراء النهر) . ذلك أن مغول هذه البلاد وجدوا انفسهم يعيشون بين قبائل تركية قديمة العهد بالاسلام ، ويشتركون معها فى نفس الوقت فى الأصول العرقية ، ويتشابهون معها فى كثير من العادات والتقاليد والميول والنزعات(٦٠) . وكان عنصر الترك هو الذى يحكم العالم الاسلامى الشرقى منذ أن استولى السلاجقة على بغداد عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م واستولى سلاطين المماليك — وهم أصلا من الترك القفجاق — على مقاليد السلطة فى مصر وبلاد الشام منذ عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، وظل هذا العنصر يحكم عالم الاسلام منذ ذلك الحين وحتى الحرب العالمية الأولى(٦١) .

وكان معظم الترك قد دخلوا فى الاسلام قبل العصر المغولى بكثير وتشربوا حضارة الاسلام وصارت الأمم التركية بصورة عامة فى مستوى حضارى أعلى بكثير من مستوى المغول الحضارى(٦٢) ، ولذلك كان تأثيرها كبيرا على هؤلاء المغول الذين حكموا وعاشوا فى بلاد آسيا الوسطى وبلاد القفجاق ، خاصة وان هؤلاء المغول كانوا اقلية بالنسبة لجمهرة السكان الذين كان معظمهم من الترك . ذلك ان المغول لم يهاجروا الى البلاد الاسلامية التى فتحوها كاملة كما فعل السلاجقة الترك عندما استولوا على غربى آسيا ، بل مكث المغول فى البلاد التى فتحوها على شكل حاميات عسكرية كبيرة تسند حكمهم لها وتضمن خضوعها لهم ، وبقيت جمهرتهم فى منغوليا(٦٣) .

ولم تعش هذه الحاميات المغولية بمعزل عن السكان المحليين ، فقد اختلطت بالجند الآخرين من الترك والأويغور المسلمين . ذلك ان المغول اعتمدوا على هذه العناصر فى تزويد جيوشهم بالجند الى حد كبير ، وهذا

---

(٦٠) انظر ، ص ١٤ ، ١٥ ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٧٠ .

(161) Sauners : op cit., pp. 176-177.

(62) Ibid, : p. 176.

(٦٣) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٦٥ .

الاعتماد يعود الى عصر جنكيز خان نفسه . فقد اعتمد هـذا الخـان فى تزويد جيشه بالرجال والجند على القبائل التركية التى تحولت من العداء الى الولاء له . وأصبحت قبائل الترك فى الشرق مثل قبائل الكرايت Keraits ، والنايمان Naiman ، والأويرات Oirats ، والأويغور Uighurs فى خدمته ، وصارت مثالا نسج عليه الأتراك الآخرون فى الغرب مثل قبائل القـرلوق Karluks والقرغيز والبلغار والقبجاق Kipchaks ، وبذلك تفوق العنصر التركى كثيرا فى العدد على المغول الأصليين فى آلـة الحرب المغولية أو فى الجيش المغولى(٦٤) .

وكانت معظم هذه القبائل التركية التى خدمت فى جيش جنكيز خان وفى جيوش ابنائه من بعده ، تعتنق الاسلام ، ولذلك اصبحت جيوش المغول تضم عددا كبيرا من الجند المسلمين الترك بالاضافة الى كتائب من مسـلمى قاباليق عاصمة القرلوق ، والماليق — احدى مدن تركستان الشرقية(٦٥) ، وأيدى قوت أمير الأويغور الشرقيين . وكان هذا الأمير قد خضع هو وقومه جميعا من تلقاء انفسهم للمغول ، وكان أغلبهم من المسلمين . واتخـذ جنكيز خان من هذا الأمير حليفا له فى حـروبه فى بلاد الصـين وفى بلاد ما وراء النهر(٦٦) . كما ان بخارى استسلمت لجنكيز خان عام ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م على يد قائد تركى مسلم يدعى طاهر بهادر ، مما يدل على مدى التحام التـرك المسـلمين بهـذا الفـاتح الجـديد ، ولذلك فانه عنـدما سـقطت بخارى فى العام التالى بعد تجدد المقاومة بها(٦٧) ، لم يفت جنكيز خان ان يعهد الى حرس نصفه من الأتراك والنصف الآخر من المغول بأن يقـوم على حراسة أعيان المدينة حتى لا يلحق بهم ضرر أو أذى(٦٨) .

---

(64) Saunders : op. cit., p. 176.

(٦٥) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٦٢ ، ١٦٣

(٦٦) فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٦٣ .

(٦٧) لم يحرق جنكيزخان مدينة بخارى ويقتل سكانها جميعا الا عندما ظهر فيها بعض جند السلطان محمد خوارزم شاه الذين كانوا مسـتترين وايدهم اهالى المدينة فى تصديهم للمغول ، فانتقم المغول من هؤلاء الجند ومن سـكان المدينة جميعـا .

انظر : فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٧١ .

(٦٨) فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٦٩ ، ١٧١ .

وهكذا ظهر اعتماد المغول على الجنس التركى منذ عصر جنكيز خان نفسه ، وتزايد هذا الاعتماد حتى ذاب المغول فى هذا البحر التركى وخاصة فى بلاو آسيا الوسطى وبلاد القفجاق ، كما حلت اللغة التركية محل اللغة المغولية فى آسيا الوسطى واصبحت التركية هى لسان البلاط والمجتمع فى تلك البلاد(٦٩) .

وحدث نفس الشىء فى بلاد القبيلة الذهبية (بلاد القفجاق) ، فقد ذاب المغول فى سكانها من الترك ، وحلت اللغة التركية محل المغولية أيضا وصارت لغة التخاطب بين الناس ، ونقشها خوانين المغول على عملاتهم التى صكوها قبل نهاية القرن السابع الهجرى / نهاية القرن الثالث عشر للميلاد ، واكتشف التجار والرحالة فى بلاد القفجاق بسرعة ان التركية اكثر فائدة لهم من المغولية سواء فى حياتهم العادية ام فى عملياتهم التجارية(٧٠).

ولما كانت معظم قوات المغول من الناطقين بالتركية على هذا النحو ، فقد تقدمت هذه اللغة — وهى احدى لغات الاسلام الثلاثة : العربية والفارسية والتركية — عبر آسيا مع الجيوش المغولية وسادت مناطق الاستبس الأوربية الآسيوية وفيما وراء ذلك . وبذلك دفع المغول دون ان يشعروا ورغم كونهم وثنيين فى تلك المرحلة ، وهى مرحلة الفتوحات ، الاسلام الى أرض جديدة لم تطأها قدمه من قبل ، وتأثروا هم فى النهاية بهذا المحيط التركى الاسلامى الذى كانوا يعيشون فيه ، وتقلصت لغتهم وارتدت الى مواطنها الأولى فى منغوليا ، وسادت اللغة التركية بينهم وتحدثوها(٧١)، بل واخذوا اسم دولتهم من قبائل القفجاق التى عاشوا بينها ، فصارت تعرف باسم دشت قفجاق او خانية القفجاق ، وعرفها كتاب اوربا باسم القبيلة الذهبية(٧٢) .

---

(٦٩) المرجع السابق ، ص ٢٠٥ .

Saunders : op .cit., p. 190.

(70) Ibid : p. 158.

(71) Ibid : p. 176.

(72) Howorth : op. cit., p. 2, pp. 1, 17

وبذلك صار الضغط الاسلامى على مغول تلك البلاد مركزا وقويا ، ورغم أن خلفاء بركة خان المسلم المباشرين كانوا فى الغالب وثنيين ، الا ان التأثير الاسلامى كان يأتى متدفقا من بلاد ما وراء النهر وخوارزم ، ومن بلاد سلاجقة الروم ، ومن بلاد البلغار المسلمين الذين كانوا يسكنون وادى الفلجا الأوسط،حيث كان هذا الوادى يمثل العمود الفقرى لمغول القبيلة الذهبية(٧٣) . فاللغة السائدة — وهى اللغة التركية — لغة اسلامية ، لأن متحدثيها من الترك كانوا مسلمين،والسكان معظمهم من الترك المسلمين والمغول بالنسبة لهم اقلية ، والعادات والتقاليد بين المغول والترك متشابهة نظرا لاشتراكهما كما اشرنا فى الجنس والأصل ، ولذلك فليس اسلام المغول فى تلك البلاد وغيرها من البلاد الاسلامية التى حكموها واقاموا فيها بمستغرب ، بل كان امرا متوقعا ، ولكن المسألة كانت مسألة وقت لا غير . وقد ساعد على ذلك عامل آخر هو نمو الطرق الصوفية وانتشارها فى جميع الممالك الاسلامية التى حكمها المغول .

٥ — تأثير الطرق الصوفية :

نمت كثير من الطرق الصوفية وانتشرت فى كافة أنحاء العالم الاسلامى وخاصة منذ ان اصيب هذا العالم بالغزو الصليبى فى اواخر القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلاد ، وأصيب ايضا باستبداد حكامه وظلمهم للرعية ثم أصيب اخيرا بكارثة الكوارث وهى سقوط الخلافة العباسية فى بغداد على ايدى المغول عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وما صاحب ذلك من قتل مئات الألوف من المسلمين ، ومن تخريب العديد من المدن والأقاليم . واثناء هذه الظروف السيئة التى أحاطت بالعالم الاسلامى من الداخل والخارج لجأ كثير من المسلمين الى التصوف يلوذون به كأسلوب من اساليب المقاومة السلبية(٧٤) ، ثم تحول هذا الدور السلبى الى دور ايجابى مشهود حينما حمل كثير من الصوفيين السلاح لمقاومة المغول بقدر ما يستطيعون ، وبعد أن اخضع المغول

---

(٧٣) العمرى : نفس المصدر ، جـ ١٦ ، ق ٣ ورقة ٥٠ ،
Saunders : op. cit., p. 158.

(٧٤) بطروشوفسكى : الاسلام فى ايران ، ٣٣٤ .

بلاد الاسلام فى المشرق لنفوذهم وحكمهم ، بذل الصوفيون جهـــدهم كـلـه لتحويل هؤلاء الغزاة المدمرين الوثنيين الى الاسلام .

ومما شجعهم على ذلك ان المغول كانوا يكنون احتراما كبيرا للصوفيين ولا يلحقون بهم شيئا من الأذى الا اذا اظهــروا مقاومة للغــزو او الاحتلال المغولى . وربما كانت هذه سياسة اتبعها المغول دهاء منهم ومكرا حتى يبعدوا هؤلاء الرجال الذين اشتهروا بالتقوى والورع الشديد عن التفاف جماهير الناس حولهم ، وحتى لا يتعرض حكمهم للمقاومة واثارة القلاقل على يد هؤلاء الصوفيين واتباعهم ومريديهم . وهذا هو تفسير موقف جنكيز خان من الصوفى الكبير الشيخ نجم الدين الكبرا أحمد بن عمر مؤسس الطريقة الكبراوية حينما ارسل اليه يطالب منه أن يخرج من خوارزم حتى لا يتعرض للاذى اثناء غــزو المغول لها . وقد فوت هذا الشيخ على جنكيز خان غرضه فرفض طلبــه واشترك فى مقاومة الغزو المغولى لخوارزم واستشهد عام ٦١٨هـ/١٢٢١م عندما هزم خوارزم شاه وسقطت دولته فى يد جنكيز خان فى ذلك العام(٧٥) .

وقد استغل بعض الناس احترام المغول للصوفيين فكانوا يلبســون خرقة الصوفية ويتشبهون بهم حتى لا ينالهم أذى المغــول . وكان البعض الاخر يودعون اموالهم عند هؤلاء الصوفيين حتى لا تتعرض تلك الأموال لنهب المغول وسلبهم ، مثال ذلك ما فعله الشاعر كمال الدين اسماعيل الــذى لبس خرقة الصوفية وتشبه بهم وأقام فى زاوية خارج مدينة اصفهان عندما اغار المغول على هذه المدينة عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م ، فلم يتعرض له هؤلاء المغول بأذى ، وأودع اهل اصفهان اموالهم عنده ، ولما اكتشف المغول هذا الأمر اخذوا الأموال وعذبوه حتى الموت(٧٦) .

وقد استغل البعض الاخر اسم الصوفية لمقاومة المغول فثاروا عليهم تحت رداء الصوفية واعلامها . مثال ذلك تلك الحركة التى قام بها رجل يعرف بأبى الكرم الدارانى . وكان هذا الرجل فى حقيقة أمره مشعوذا يرى الناس

---

(٧٥) الديار بكرى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦٩ ، مخطوط كتــاب فى التاريخ ، ورقة ٣٣٢ ، براون : نفس المرجع ، ص ٦٢٦ .

(٧٦) براون : نفس المرجع ، ص ٦٨٧ ، ٦٨٨ .

منه الاعاجيب ، ولكنه ادعى التصوف والولاية وتلقب بالمهدى وجمع الناس حوله عام ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩ م وأمر بقتل النصارى واليهود فى مدينة بخارى وبنهب أموالهم ، كما اقنع رجاله والمحيطين به انه قادر على قتال المغول وهزيمتهم بقدرة الله سبحانه وتعالى دون احتياج الى سلاح ، فتبعه لذلك عدد كبير من العامة والدهماء ، وقاموا بقتل شحنة بخارى ومن معه من جند المغول ، واستفحل امر هذا الصوفى المشعوذ ، فتصدى له المغول وهزموه هو واتباعه الكثيرين وقتلهم شر قتلة(٧٧) . حينئذ ادرك الصوفيون ومن يدور فى فلكهم انه لا فائدة من المقاومة العسكرية أو العلنية ووجهوا جهودهم كلها الى ناحية اخرى ، وهى العمل باصرار وباستماتة على قهر الشر والوثنية عند هؤلاء المغول بتحويلهم الى الاسلام .

ومن أشهر الطرق الصوفية التى كان لها دور كبير فى هذا المضمار طريقة الخوجان التى اسسها يوسف همدانى (ت ٥٣٥هـ/١١٤٠م) والتى انتشرت بسرعة فى خراسان ، والطريقة الكبراوية التى أسسها نجم الدين الكبرا (ت ٦١٨هـ/١٢٢١م) والتى كان لها نفوذ كبير فى منطقة بخارى ، والطريقة القادرية التى اسسها عبد القادر الجيلانى (ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م) فى بغداد ، والطريقة الرفاعية التى اسسها احمد الرفاعى (ت ٥٧٩هـ/١١٨٣م) فى البصرة ، والطريقة السهروردية التى اسسها فى بغداد عبد القادر السهروردى (ت٥٦٣هـ/١١٦٧م) والطريقة الشستية التى اسسها معين الدين الشستى (ت ٦٣٤هـ/١٢٣٦م) والتى انتشرت فى شرق ايران وافغانستان وبلاد السند ، الى غير ذلك من الطرق التى عددها بطروشوفسكى فى كتابه «الاسلام فى ايران » ، فكانت اربعة عشر طريقة انتشرت فى ايران وخارجها(٧٨) .

وكان رجال هذه الطرق الصوفية يقومون بدور المدرسين فى المدارس والوعاظ فى المساجد ، وكانوا يقودون الناس لمقاومة الظلم والاضطهاد والاستغلال الذى كانوا يتعرضن له على ايدى الحكام واعوانهم ، وكان دورهم الأساسى يتمثل فى مقاومة النشاط التبشيرى المسيحى المدعم

---

(٧٧) ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٧٨) بطروشوفسكى : نفس المرجع ، ص ٣٣٦ — ٣٤١ ؛

Barthold : op cit., p. 469.

من ملوك اوربا وبابوات روما والذى كان يلقى عطفا من بعض خوانين المغول وايلخاناتهم قبل أن يتحولوا الى الاسلام . وكما تصدى الصوفيون للغزو المغولى بقدر ما امكنهم التصدى ووقع منهم شهداء مثل نجم الدين الكبرا ، وركن الدين امام زادة اللذين استشهدا اثناء دفاعهما عن جرجان وبخارى ، فقد تصدوا ايضا لهذا النشاط التبشيرى النصرانى ونجحوا فى ذلك النجاح كله ، وتوج نجاحهم بانتشار الاسلام بين المغول انفسهم فى ايران ، وتركستان وما وراء النهر ، وبلاد القفجاق(٧٩) .

وكان لأتباع طريقتين صوفيتين دور كبير فى اسلام كثير من المغول فى شرق الدولة حيث كان يعمل رجال الطريقة الكبراوية ، وفى غربها حيث كان يعمل رجال الطريقة السهروردية . اما الطريقة الكبراوية فقد سبقت الاشارة الى انها تنسب الى شيخ العارفين ابى الجناب احمد بن عمر الخيوقى الخوارزمى المشهور باسم نجم الدين الكبرا . وكان هذا الشيخ قبل ان يستشهد اثناء غزو المغول لخوارزم عام ٦١٨هـ/١٢٢١م قد طار صيته وارتفع ذكره واصبح يتبعه عدد كبير من المريدين والأتباع والتلاميذ مثل الشيخ صفى الدين الباخرزى ، والشيخ نجم الدين الرازى ، والشيخ جمال الدين الجيلانى ، والشيخ مجد الدين البغدادى ، وبابا كمال الجندى ، وغيرهم كثير(٨٠) .

وقد ارسل الشيخ نجم الدين الكبرا عددا من مريديه الى البلاد المختلفة للدعوة الى الاسلام واظهار شعائره بها . من هؤلاء سعد الدين الحموى الذى ارسله الى خراسان ، وكمال الدين السرباقى الذى ارسله الى تركستان ، ونظام الدين الجندى الذى أرسله الى بلاد القفجاق ، وسيف الدين الباخرزى الذى ارسله الى بخارى(٨١) . وقد استقر هؤلاء المريدون فى هذه النواحى بعد استشهاد شيخهم على يد المغول ، وكرسوا حياتهم للوعظ والارشاد

---

(79) Ibid : p. 470

(٨٠) العينى : نفس المصدر ، جـ ٢٢ ، ورقة ٧ ، الديار بكرى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٣٦٩ ، براون : نفس المرجع ، ص ٦٢٥ — ٦٢٨ ، بطروشوفسكى : نفس المرجع ، ص ٣٣٨ .

(٨١) العينى : نفس المصدر ، جـ ٢٢ ، ورقة ٧ .

وتلقين مبادىء الاسلام لهؤلاء الغزاة المتوحشين أنفسهم ، وعمل بعضهم فى البلاط المغولى لتحقيق هذا الغرض ، ونجحوا فى ذلك نجاحا عظيما . ومما يدل على ذلك أن اول من اسلم من خوانين المغول كافة ، وهو بــركة خان سلطان المغول فى بلاد القفجاق ، اعتنق الاسلام على يد احد اتباع الشــيخ الباخرزى . ذلك ان هذا التابع او المريد كان قد ارسل تلميذا لمقابلة بركة أثناء مروره ببخارى ، فاجتمع به هذا التلميذ ووعظه وحبب اليه الاسلام وأوضح له منهاجه المستقيم ، فأسلم بركة على يده ، واستمال عامة اصحابه ورجال بلاطه وجنده من المغول الى الاسلام ، ورأى ان يبر هذا الشيخ نظير هدايته له الى الاسلام ، فأرسل يهديه بعض المال ، ولما رفض الشيخ استلام هذا المال توجه بركة خان بنفسه الى منزله وأقام ببابه ثلاثة ايام حتى سمح له بالدخول ، ولما حظى برؤيته والجلوس اليه جدد اسلامه على يديه(٨٢) ؛ وعاهده الشيخ على الدعوة الى الاسلام وأن يحمل عليه سائر قومه(٨٣) ؛ وحثه على التمسك بطاعة الخليفة العباسى المستعصم ومكاتبتــه ومبايعتــه ومهاداته(٨٤) . واستمرت الطريقة الكبراوية تؤدى واجبها فى هداية المغول الى الاسلام ، واستمرت سلالة رأس هذه الطريقة الشيخ نجم الدين الكبرا فى قيادة هذه الطريقة فى عهد الجنكيز خانيين وفى عهد التيموريين الذين ظهر فى عهدهم « مولانا حسين كبرا » حفيد الشيخ نجم الدين كبرا والذى اشـــتهر كشاعر ، وكصوفى كتب شرحا على كتاب (مثنوى) لمولانا جلال الدين الرومى صاحب الطريقة المولوية(٨٥) .

وقد ظهر فى تركستان فى عهد الحكم المغولى لها جماعات الخــوجان المتصوفين ، وقام هؤلاء الخوجان بدور هام فى نشر الاسلام بين المغول . ومن أشهر هؤلاء الخوجان ، الخواجة محمد بن محمد بهاء الدين البخارى

---

(٨٢) المصدر السابق ، ج ٢٢ ، ورقة ٧ ، ٨ ، ٢٢٠ .

(٨٣) ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ، ج ٢ ص ٢٢٥ .

(٨٤) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٣٠٩ ، ابن خلدون نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٢٣ ، ١١٢٤ .

The Cambridge History of Islam, vol. 5, p. 547.

(٨٥) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٨٨ .

النقشبندى (٧١٧ — ٧٩١هـ/١٣١٨ — ١٣٨٩م) مؤسس الطريقة النقشبندية التى سيطرت على ساحة العمل الصوفى وظهرت بمظهر القوة والنفوذ فى القرن الرابع عشر للميلاد . وقد قضى هذا الصوفى الداعية حياته فى نشر الاسلام وفى خدمة سلطان سمرقند وفى نشر طريقته التى عمت جميع انحاء تركستان وايران واذربيجان واصبحت خانقاواتها وزواياها(٨٦) نقاط تجمع لأتباعه العديدين الذين كانوا يعملون فى تعليم الناس وفى نشر الاسلام بين المغول والترك الوثنيين(٨٧) ، ونشطوا فى ذلك نشاطا كبيرا مستمدا من طبيعة هذه الطريقة التى كان اتباعها ينكرون الانزواء والزهد والعزلة ويشغلون حياتهم وانفسهم « بجهاد الكفار » وبالعمل المفيد المربح للمال ، فقد كان شيخها ، اى شيخ الطريقة ، نقشبنديا اى يعمل فى نقش الفلزات والأدوات المعدنية ، فكلمة نقشبند كلمة فارسية تطلق على من يعمل فى هذه المهنة او الحرفة التى كانت حرفة مؤسس هذه الطريقة وحرفة ابيه من قبله(٨٨) . ونظرا لنشاط هذا الشيخ المؤسس واتباعه فى نشر الاسلام فقد اعتبره الناس اعظم اولياء بخارى حتى يقال خطأ ان من زار ضريحه ثلاثة مرات فكانه حج الى بيت الله الحرام(٨٩) . كما ان من تلاميذه من صار من العلماء البارزين فى علوم اللغة والتفسير والتصوف ، مثال ذلك الخواجا عبيد الله الذى كان متصوفا وعالما ذائع الصيت حتى تخاصم علماء عصره بسببه نتيجة لاختلاف آرائهم فيه(٩٠) .

---

(٨٦) الخانقاوات او الخوانق مفرده خانقاه ، وهى بيت ينقطع فيه الصوفية للعبادة والذكر . أما الزوايا فمفرده زاوية ، وهو اسم اطلق قديما على كل مسجد صغير ، فيه احد الرجال المعروفين بالتقوى والزهد ، ويقوم بوعظ وارشاد من يتردد على زاويته من الناس . وقد تطور معنى زاوية فى أواخر العصور الوسطى فاصبح يقصد به الخانقاه او منزل الصوفية .

انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٤١١ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ .

(٤٧) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٧٠ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢١٠ .

(٨٨) بطروشوفسكى : نفس المرجع ، ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

(٨٩) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٥٦ .

(٩٠) المرجع السابق ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

ومن الخوجان الذين ظهروا بعد ذلك وكان لهم ايضا فضل كبير فى نشر الاسلام فى تلك البلاد ، الخواجة ابو فير بارسا (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م ، والخواجة عبيد الله احرار (ت ٨٩٤هـ/١٤٨٩م) وزميله الشيخ احمد اليسوى الذى كان الترك يرون فيه وليا قوميا لدرجة ان المدينة التى دفن فيها سموها تركستان . كما احاط بقبره قبور كثير من خوانين وخوانين الأوزبك الترك الذين حكموا آسيا الوسطى بعد عصر التيموريين الذين اعقبوا الجغطائيين المغول(٩١) . وهناك ايضا ذلك الصوفى الداعية السيد على الهمدانى الذى جاب كثيرا من انحاء البلاد اكثر من ثلاث مرات يعظ الناس ويهديهم الى الاسلام . وقد مات هذا الداعية بناحية ختلان على ضفاف نهر جيجون عام ٧٨٦هـ/١٣٨٤م وترك لنا مؤلفات عديدة فى مواضيع اخلاقية وصوفية(٩٢) . كما ظهر فى زمن متأخر يعود الى نهاية القرن السادس عشر للميلاد صوفى او درويش(٩٣) يسمى (اسحاق ولى) قضى اثنى عشر عاما فى تحويل كثيرين الى الاسلام فى كاشغر وياركند وختن ، كما عنى أيضا بنشر الاسلام بين القرغيز والقازاق حتى اسلم على يديه مائة وثمانون ، وهدم ثمانية عشر هيكلا من هياكل الوثنيين(٩٤) .

وقد نتج عن جهود هؤلاء الصوفيين والوعاظ والعلماء الاخرين ان دخل مغول آسيا الوسطى فى الاسلام وأصبحوا يحافظون على حدوده ويتمسكون بتعاليمه . وقد لاحظ ذلك احد علماء اوربا الذى زار آسيا الوسطى بعد ذلك

---

(٩١) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(٩٢) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٩٣) درويش لفظ فارسى بمعنى فقير ، وكلمات درويش وفقير كانت تستخدم بمعنى أوسع لمفهوم الكلمة المرادفة وهى كلمة صوفى . وكان كثير من الدراويش يعيشون بصورة دائمة او مؤقتة فى منزل مشترك ، وكان لهذا المنزل اسماء مختلفة مثل خانقاه (كلمة فارسية) ، وزاوية ، وتكية ، وملاذ ، ورباط . وكان الشباب يخضع لرئاسة الشيخ الذى يترأس الخانقاه عادة ويسمى الشيخ او البير (وهى كلمة فارسية) ، والشيخ هو مرشد المريدين والأتباع .
انظر : بطروشوفسكى : الاسلام فى ايران ، ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

(٩٤) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٩ .

بمدة كبيرة تعود الى منتصف القرن الماضى متنكرا فى زى صوفى ، ولاحظ ان مسلمى تلك البلاد يتمسكون فى اخلاص بمبادىء الاسلام وتعاليمه(٩٥) .

أما آسيا الصغرى فقد عجل الغزو المغولى بانتشار الصوفية فى معظم انحائها ايضا حيث حظيت الطريقة المولوية التى اسسها « مولانا جلال الدين الرومى » (٦٠٤ — ٦٧٢هـ/١٢٠٧ — ١٢٨٣م) هناك بمكانة سامية . وكان والده بهاء الدين محمد عالما مشهورا فى بلخ ، وهرب فرارا من اضطهاد علاء الدين محمد خوارزم شاه ومن الغزو المغولى الى آسيا الصغرى ومات بقونية عام ٦١٦هـ/١٢٢١م ، وقام ابنه جلال الدين بالسير على منهاج ابيه فى الدعوة الى الاسلام ، فتعلم فى حلب ودمشق وعاد الى قونية(٩٦) ، واتخذ مدرسة يعلم فيها الناس واتبعه عدد كبير منهم وصاروا ينتمون اليه ويعرفونه باسم الجلاليه نسبة الى اسمه (جلال الدين) وباسم المولوية نسبة الى لقبه الذى اشتهر به وهو مولانا او مولوى .وقد قام هؤلاء التلاميذ المولوية بتجميع ما قاله شيخهم فى الصوفية بالشعر الفارسى ووضعوه فى كتاب سموه « المثنوى المعنوى » وهو دائرة معارف للصوفية يعظمه اهل هذه البلاد ويعلمونه لأولادهم ويقرءونه فى زواياهم فى ليالى الجمعات(٩٧) .

وكان معظم اتباع مولانا جلال الدين الرومى من الطبقات الدنيا والصناع، وتميزوا بمداراتهم المستمرة والمفرطة للمسيحيين واليهود حتى لا يثيروهم او يثيروا المغول الذين كانوا يعطفون عليهم ، ونتج عن ذلك أن انبثت تعاليم المولوية بين الناس فى هدوء ، وازداد نشاطهم فى نشر الاسلام بين المغول فى سرية تامة ، وقامت زواياهم بدور ملحوظ فى هذا السبيل . وكانت هذه الزوايا منتشرة فى معظم المدن والقرى بآسيا الصغرى وكانت مركزا للنشاط الاسلامى التعليمى هناك(٩٨) .

---

(95) Vamberg (A.) in E.R.E., vol. 8, pp. 885-887.

(٩٦) براون : نفس المرجع ، ص ٦٥٤ — ٦٥٧ .

(٩٧) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

بطروشوفسكى : نفس المرجع ، ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٧ .

(٩٨) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ ، براون : نفس المرجع ، ص ٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ .

وقد دعم من هذا النشاط الاسلامى ما قام به اتباع الطريقة الرفاعية او الأحمدية ، أتباع الشيخ احمد الرفاعى (ت ٥٧٩هـ/١١٨٣م) ، وكانت طريقته قد انتشرت فى كثير من انحاء العالم الاسلامى فى افريقيا وآسيا . وقد نزل ابن بطوطة اثناء تجواله فى آسيا الصغرى فى بعض زوايا الأحمدية فى مدينة ازمير وبرغمة حيث وجد أمير ازمير ومشايخها يقومون بمساعدة الفقراء والمتصوفين ، كما لاحظ نفس الشيء عندما زار زوايا الأحمدية فى بلاد القفجاق حيث وجد فى احداها بمدينة الماجر سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم ، وكان سلطان تلك البلاد يأتى ومعه الخواتين لزيارة شيخ هذه الزاوية والتبرك به ولتقديم الهدايا والمعونات له ولأتباعه(٩٩) .

وبجانب هذه الطرق الصوفية التى ظهرت فى آسيا الصغرى وقامت بدور هام فى نشر الاسلام بين المغول وغيرهم من الترك الوثنيين ، برزت الطريقة البكتاشية فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه الطريقة المولوية . ويبدو ان مؤسسها حاجى بكتاش كان قد هاجر هو الاخر من خراسان الى الأناضول اثناء الغزو المغولى لخراسان ودخلت طريقته فى تنافس مع الطريقة المولوية فى القرن الثامن الهجرى خاصة وان الطريقة المولوية كانت طريقة سنية ؛ بينما كانت البكتاشية تشتهر بتعاليمها القريبة من تعاليم غلاة الشيعة(١٠٠) .

كما ظهر فى آسيا الصغرى نوع آخر من الدعاة المسلمين يعرفون باسم الأخية الفتيان ، والأخية جمع (أخى) ، على لفظ الأخ اذا اضافه المتكلم الى نفسه ، والفتيان جمع فتى ، نسبة الى الفتى على على بن ابى طالب الذى كانت جماعات الأخية الفتيان تقتدى به فى شجاعته وفتوته . ولذلك لم تكن هذه الجماعات من المتصوفين المنقطعين للعبادة ، وانما كان لكل جماعة منهم حرفة يعملون بها وما تدره عليهم من مال كانوا يعطونه لرئيسهم الذى كانوا يسمونه بـ (الأخى) لينفق منه على الزاوية وعلى ما يلزمها من الفرش والسرج والأوانى ونفقات الطعام والشراب اللازم لهم وللضيوف الذين كانوا يحلون بزاويتهم ، والذين كان الأخية الفتيان يتهافتون على الفوز بضيافتهم

---

(٩٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢١٩،٢٠٤ .

(١٠٠) بطروشوفسكى : نفس المرجع ، ص ٣٣٧ ، ٣٣٩

Berge : The Bektashi Order of Derwishes, pp. 65-72.

ويتشاحنون فى بعض الأحيان لهذا السبب مع أخية الزوايا الأخرى(١٠١) . ولذلك امتدحهم ابن بطوطة وقال انه لم ير فى الدنيا أجمل افعالا منهم ، وانه ليس فى الدنيا من هم اشد احتفاء بالغرباء واسرع الى اطعامهم وقضاء حوائجهم . وكان من تقاليدهم ايضا الضرب على يد الحكام الظالمين من المغول وقتل اهل الشر ومن يساندهم من هؤلاء الحكام ، ولذلك وثق الناس بهم ومالوا اليهم وانتشر صيتهم وعلا شأنهم حتى أصبح منهم الأشراف والأمراء والحكام(١٠٢) .

ومن أمثلة هؤلاء الأمراء والأشراف (اخى) زاوية مدينة (اقصرا) الذى كان نائبا للامير ارتنا المعين من قبل خان العراق وايران لحكم هذه المدينة ، و (جاروق) اخى زاوية مدينة نكدة والذى كان أميرا على هذه المدينة ايضا . و (امير على) اخى زاوية مدينة قيسارية الذى كان هو الاخر اميرا على هذه المدينة التى كان وجوهها يتبعونه فى طريقته وفى نشاطه(١٠٣) . ويرجع تولى هؤلاء الأخية الفتيان لتقاليد السلطة فى تلك المدن وغيرها الى العادات التى كانت تسير عليها هذه البلاد وهى « انه ما كان منها ليس به سلطان فـ (الأخى) هو الحاكم به .. وترتيبه فى أمره ونهيه وركوبه ترتيب الملوك »(١٠٤) ولذلك لم يكن الأخية الفتيان صوفية ، فلباسهم السراويل بينهما كان لباس الصوفية الخرقة المعروفة ، كما انهم كانوا يحترفون المهن ولا ينعزلون عن العبادة انعزال كثير من الصوفية ، ولكنهم كانوا يساندون رجال الطرق الصوفية فى نشر الاسلام وخاصة بين اصحاب الحسب والجاه والسلطان من المغول حتى أصبح حكام بعض المدن من اتباع الأخية الفتيان(١٠٥) .

وقد انتشرت زوايا الأخية الفتيان من بلاد سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى فى عهد سيطرة المغول عليها الى بلاد القفجاق أثناء حكم مغول

---

(١٠١) ابن بطوطة : نفس المرجع ، ص ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٥ .
(١٠٢) المصدر السابق ، ص ١٩٠ ، ٢٠٩ .
(١٠٣) المصدر السابق ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .
(١٠٤) المصدر السابق ، ص ١٩٧ .
(١٠٥) المصدر السابق ، ص ١٩٥ ، ٢١٢ ، ٢١٣ .

القبيلة الذهبية لها . ولكن زوايا بلاد القفجاق لم يعمرها الأخية الفتيان فقط ، بل نافسهم فى ذلك الخوانين والأمراء والخواتين ، وكذلك الفقهاء والأثرياء والصوفيون . وكان كل هؤلاء يرصدون كثيرا من الأوقاف للانفاق على الزوايا التى كانوا يقيمونها فى هذه البلاد(١٠٦) .

وقد سبقت الاشارة الى أن اول خان اعتنق الاسلام فى بلاد القفجاق كان اسلامه على يد احدالصوفيين ، ولذلك فان الصوفية كان لها انتشار واسع هناك ، ونتج عن ذلك ان كثرت الزوايا التابعة للطرق الصوفية المختلفة التى زار بعضها الرحالة المعروف ابن بطوطة ، وكان لها نشاط كبير فى نشر الاسلام بلغ من تاثيره ان احد خوانين مغول القبيلة الذهبية مال الى الصوفية . هذا الخان هو تدان منكو Tod-Monke (٦٧٩ — ٦٨٦هـ/١٢٨٠—١٢٨٧م) الذى لم يكن مسلما فقط بل كان ايضا صوفيا كبيرا وكرس حياته للعبادة والزهد وترك اعمال الدولة يديرها قواده الكبار ، وأحاط نفسه بالمشايخ والفقهاء والصوفيين ، ولم يلبث هذا الخان الصوفى ان تنازل طواعية عن العرش لابن اخيه (طولى بوقا) حتى يتفرغ للعبادة والزهد دون ان يشغله عنهما شىء أو أمر أمور الحكم(١٠٧) .

وفى بلاد ايران كان التصوف قد انتشر منذ القرنين الثالث والرابع للهجرة ، اى قبل الغزو المغولى لها بزمن طويل ، وكانت خراسان من المناطق الأساسية فى ذلك ، وكان فيها فى القرنين الرابع والخامس للهجرة اكثر من مائتى تكية وزاوية . وفى الفترة الممتدة من القرن الخامس الهجرى حتى القرن التاسع الهجرى كان التصوف قد انتشر انتشارا كبيرا فى المدن الايرانية خاصة ، وصار التصوف أو لقب الصوفى على الأقل مظهرا او علامة على حسن الطوية ، ولم تقتصر طائفة المريدين على افراد الطبقات الدنيا من سكان المدن أو الفلاحين فى القرى ، بل انضم اليهم كذلك ملاك الأراضى

---

(١٠٦) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ ، ٢٤٢ .

(١٠٧) العمرى : نفس المصدر ، جـ ١٦ ق ٣ ورقة ٦٤٨ ، ابن الوردى: نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٢٣٤ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٥ ص ١١٣٥ المقريزى : نفس المصدر جـ ١ ق ٣ ص ٧٣٨

Saunders : op .cit., pp. 161-162.

الزراعية والتجار وغيرهم ، فكان معظم سكان مدينة اردبيل — على سبيل المثال — مريدين للشيخ صفى الدين اسحاق الأردبيلى الذى توفى عام ٧٣٥هـ/١٣٣٤م ، وهو الجد الأكبر او البعيد للاسرة الصفوية التى حكمت ايران منذ مطلع القرن السادس عشر للميلاد(١٠٨) .

وهكذا كان التصوف منتشرا فى انحاء ايران ، وكانت الزوايا او الخانقاوات لا حصر لها هناك ، فكان كل قبر منسوب لأحد الأولياء الصالحين او لأحد الصحابة الذين قدموا الى هذه البلاد اثناء الفتوحات الاسلامية وتوفوا بها ، كانت عليه زاوية عامرة ، فيها الصالحون والصوفيون المنقطعون للعباده ، هذا بالاضافة الى الزوايا التى كان ينشئها الفقهاء والصالحون والصوفيون والأمراء . وكانت هذه الزوايا تحيط بها المساجد والمدارس ، فكانت ثالوثا ذا نفع كبير فى الحفاظ على شعائر الاسلام وعلومه من الاندثار أثناء غزوات التتار التى اتت على بعض المدن وخربتها تماما(١٠٩) .

ويلاحظ من قراءة ابن بطوطة ان كل قرية وكل مدينة كان لها شيخها ولها وليها الذى كان يتبرك به الناس(١١٠) ، وكان تأثير هؤلاء الأولياء والمتصوفين كبيرا على المغول وملوكهم منذ حكمهم لتلك البلاد(١١١) . فيذكر لنا الديار بكرى أن طائفة الأحمدية الصوفية كان لها تأثير كبير على هولاكو الذى عاش ومات على الوثنية والذى حطم بغداد وازال الخلافة العباسية كما هو معروف . ويظهر تأثير الأحمدية الرفاعية فى أن بعض رجالهم دخلوا بابنه تكودار النار بين يدى والده ، وهى حيلة من الحيل التى يلجأ اليها بعض الصوفية ، فوهبه لهم وسماه احمد ، فأسلم وهو صبى وتسلطن بعد موت اخيه ابغا عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م ، وكان اول من اسلم من خوانين مغول

---

(١٠٨) بطروشوفسكى : نفس المرجع ، ص ٣٠٢ ، ٣١٠ ، ٣١٨ ، ٣٣٤

(١٠٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(١١٠) رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٥٤ — ٢٥٩ .

(١١١) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر م ٢ ج ٢ ص ٣٥ ، ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣٧ .

ايران(١١٢) . كما يذكر ابن بطوطة ان السلطان خدا بندة بن ارغون بن ابغا قد أثر عليه فقيه صوفى وجعله يعلن اسلامه « وأسلمت باسلامه التتر »(١١٣)

ومما يدل على عظم نفوذ الصوفيين فى تلك البلاد ان الأمير جوبان الذى انفرد بالسلطة فى عهد السلطان ابى سعيد (٧١٦–٧٣٦هـ/١٣١٦–١٣٣٥م) صار من أعظم واخلص المريدين للشيخ صفى الدين اسحاق الأردبيلى ، مما جعل اكثر اعيان وزعماء المغول ينخرطون فى سلك هذا الشيخ ويتعلقون به تعلقا تاما ، فزاع صيته وشاع امره واصبح له فى انحاء البلاد ولا سيما بلاد ايران مريدون واتباع كثيرون يفدونه بالمهج والأرواح . ومما يدل على كثرتهم ان الأمير جوبان سأل هذا الشيخ يوما عن ايهما اكثر ، جنود السلطان ام اتباعه ومريدوه ، فأجابه الشيخ بأن عدد مريديه فى ايران وحدها يبلغ ضعف عدد جنود السلطان (١١٤) .

وقد أدى هذا كله الى شدة احترام سلاطين المغول لهؤلاء الأولياء والصوفيين ورجال الدين . وقد زار ابن بطوطة شيراز عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م فوجد ملك شيراز السلطان ابا اسحاق جالسا بين يدى قاضيها الشيخ مجد الدين صاحب الكرامات ممسكا بأذن نفسه ، وكان هذا العمل يدل على منتهى اظهار الأدب والاحترام عندالمغول،وكان لا يفعلهالناس الا اذا جلسوا بين يدى الملك او الخان او السلطان . وكان سلاطين المغول فى تلك البلاد ، أى فى ايران ، قد حسن اسلامهم وتعمق فى قلوبهم الشعور الدينى فصاروا يقدمون الفقهاء فى صدر مجالسهم ويجلسون هم عن يمينهم اظهارا لمدى احترامهم لهؤلاء الفقهاء . وكان بعض هؤلاء السلاطين لا يفارقهم قراء القرآن حيث جلسوا ، وكانت أعطياتهم للفقهاء والصوفيين تفوق الوصف والحصر(١١٥) ، مما يدل دلالة مؤكدة على شدة احترامهم لهم وعلى تأثير علماء الفقه والصوفية على هؤلاء الناس ، هذا التأثير الذى كان له اثر كبير فى تحول المغول الى الاسلام .

---

(١١٢) الخميس ، ج ٢ ص ٣٨٠ .

(١١٣) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣٧ .

(١١٤) شرف خان البدليسى : نفس المصدر ، ص ٢٠ ، ١١٨، ١١٩ .

(١١٥) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣٨ ، ١٤١ ، ٢٠٠، ٢٠١ .

وقد انتشرت زوايا الصوفية أيضا فى بلاد افغانستان والسند والهند أثناء حكم المغول لها . وقد نزل ابن بطوطة بكثير منها اثناء تجواله فى تلك البلاد ووصف لنا بعضا منها ، وذكر ان الناس هناك كانوا يعتقدون فى مشايخها ويأتون لزيارتهم والتبرك بهم من البلاد والقرى المجاورة ، وكذلك كان يفعل السلاطين والخواتين(١١٦)،مما يدل على مدى تأثير الصوفية فى تلك البلاد وفى حكامها من المغول . اما العامل الأخير الذى كان له تأثير أيضا فى هذا المجال فهو التجارة والتجار .

٦ ـ أثر التجارة والتجار فى اسلام المغول :

والمعروف أن الدعوة للاسلام كانت تسير جنبا الى جنب مع النشاط التجارى فى كل البلاد التى دخلها الاسلام . وكان للتجار المسلمين اثر كبير فى تحويل المغول الى هذا الدين نظرا لأن المغول كانوا يعتبرون النشاط التجارى العمود الفقرى للحياة الاقتصادية فى بلادهم لقلة الموارد الأخرى بها . وكان جنكيز خان يعرف هذه الحقيقة ويعمل كل ما فى وسعه لتشجيع حركة التجارة العالمية التى كانت تمر عبر امبراطوريته البعيدة الأطراف . وفى سبيل ذلك وضع الطرق التجارية تحت الحراسة المشددة ، ونظم البريد ووضع القوافل التجارية تحت الحماية المسلحة وحصن الواحات والمزارع التى يزرعها الفلاحون ، وتم القضاء فى عهده على اللصوص وقطاع الطرق(١١٧) ، خصوصا وانه وضع قانونا صارما لمقاومة اللصوصية مفاده ان من سرق شيئا عليه أن يعيده ومعه تسعة امثاله ، فان لم يجد ذلك أخذ منه اولاده رقيقا لصاحب الشىء المسروق ، فان لم يكن له أولاد ذبح السارق ذبح الشاه . ولذلك كان الناس يتركون دوابهم دون راع أو حارس ، بعد ان يسم كل واحد منهم دوابه فى أفخاذها بميسم خاص(١١٨) .

وهكذا اصبحت آسيا أكثر امانا تحت حكم المغول اكثر من اى وقت مضى بسبب قوتهم العسكرية الهائلة ، وبسبب الرعب الذى زرعوه فى نفوس

---

(١١٦) المصدر السابق ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(117) Saunders : op. cit., pp. 68, 69.

(١١٨) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٦٠ .

الناس ، وبسبب قوانينهم التى أشرنا اليها ، وبسبب ضمهم لمعظم دول آسيا ووضعها تحت حكمهم وسيطرتهم . ولذلك نشطت التجارة وتقدم التجار الى عاصمة الامبراطورية وحصلوا من الخوانين العظام فى قراقورم على امتيازات كثيرة ، منها الاعفاء من الضرائب ، وقاموا برحلات منتظمة عبر آسيا من الصين الى ايران وما وراءها فى بلاد الشرق الأدنى واوربا ، وباركوا السلام المغولى الذى حققه الغزاة المغولى فى البلاد الآسيوية التى كانت ممزقة لا يتوافر فيها السلام والأمان بسبب كثرة الحروب والغزوات والمنازعات التى كانت تقوم بين حكامها قبيل الغزو المغولى لها(١١٩) .

وقد حقق المغول شيئا آخر بعد ان هدأت فورة الغزو المغولى . ذلك ان جنكيز خان وخلفاءه من بعده قاموا باعادة تعمير كثير من المدن التى كان قد أصابها الخراب والدمار ، ونشأت مدن جديدة وازدهرت المدن القديمة ، فتشجع التجار على ممارسة عملياتهم التجارية(١٢٠) ، وتوافدوا على مدن الامبراطورية من شتى انحاء العالم : من بلاد الاسلام ، وبلاد اوربا المسيحية وبلاد الهند والصين ، واصبحت مدينة مثل تبريز مزدحمة السكان لدرجة أن عدد سكانها وصل تعدادهم فى عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م الى ثلاثمائة الف نسمة ، واصبحت هذه المدينة محطة تجارية هامة وسوقا تجاريا كبيرا على الطريق الرئيسى للتجارة الدولية والذى كان يربط اوربا بوسط وشرقى آسيا(١٢١) . كما ربطت مدينة سلطانية التى بناها السلطان اولجايتو محمد خدا بندة عام ٧٠٤هـ/١٣٠٤م منطقة البحر المتوسط وسواحل البحر الأسود بوسط آسيا والشرق الأقصى(١٢٢) .

وقد صاحب هذا النشاط التجارى العظيم دعوة حثيثة لنشر الاسلام بين المغول ، وكان كثير من التجار دعاة للاسلام فى نفس الوقت ، ولذلك كانوا سببا فى دخول كثير من المغول والترك فى الاسلام ، وتمكن التجار

---

(119) Saunders : op. cit., p. 69.

(120) Ibid : pp. 69, 137, 141, 188.

(121) Ibid., pp. 132, 143.

(122) Ibid : p. 143.

المسلمون من أن يرفعوا المستوى الحضارى فى منغوليا وبين المغول بصـــفة عامة بأكثر مما استطاع التجار المسيحيون . وكان مياسير التجار المسلمين يشيدون فى العهد المغولى المدارس والخانقاوات والمساجد(١٢٣) ، ويدخلون بلاط الخوانين والايلخانات ويقدمون ما عندهم من حلى وجواهر وفراء وعطور وغير ذلك من الملابس الحريرية وغيرها الى الخواتين ونساء الطبقة الحاكمة من المغول ، ولذلك كان تأثيرهم على البلاط المغولى كبيرا ، خصوصا وأن بعض وزراء المغول كانوا اساسا من التجار الأثرياء . فوزير جنكيز خان محمود يلواج والذى سبق الحديث عنه والذى كان حاكما على بكين ، وكان ابنه مسعود حاكما لبلاد ما وراء النهر وآسيا الوسطى ، كان تاجرا خوارزميا مسلما تمكن من أن يقبض على ازمة الحكم فى آسيا الوسطى طوال حياته ، وان يورثها لأبنائه من بعده ، وأن يعمل مافى وسعه لتأمين المســلمين من بطش المغول الذين كانوا وثنيين فى ذلك الوقت ، وأن يعيد الروح الاسلامية الى البلاد بانشاء المدارس والمساجد ورعاية العلماء(١٢٤) .

وهناك تجار مسلمون آخرون احتلوا نفس مكانة محمود يلواج ، مثال ذلك التاجر المسلم عبد الرحمن الذى حل محل تشو تساى (Chu-tsai) كمستشار لجنكيز خان وأوكتاى من بعده(١٢٥) ، والتاجر المسلم قطب الدين حبش عميد الذى كان وزيرا لجغطاى ايلخان تركستان وما وراء النهر والذى سبق الحديث عنه وعن نفوذه فى تلك البلاد(١٢٦) . وقد بلغ من نفوذ التجار المسلمين أن أجبروا قوبيلاى خان على تعديل سياسته بالنسبة للمسلمين الذين كان قد قتل احد مشايخهم وأجبرهم على عدم ذبح الحيونات عــلى الطريقة الاسلامية ، مما نتج عنه ان امتنع تجار المسلمين من الذهاب الى قراقورم وبلاد الصين ، ولما بلغ قوبيلاى خان هذا الأمر الغى تعليماته السابقة باضطهاد المسلمين وعدل من سياسته نحوهم(١٢٧) .

---

(١٢٣) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(١٢٤) المرجع السابق ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

(125) Saunders : op. cit., p. 93.

(١٢٦) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٩٧ .

(127) Prawdin : op. cit., p. 332.

وقد استمر هذا النفوذ وهذا التأثير حتى نجح تجار المسلمين فى تحويل بعض ايلخانات المغول وملوكهم الى الاسلام .مثال ذلك بركة خان سلطان القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق ، فيقال انه دخل فى الاسلام وهو خان على يد تاجرين وافدين من بخارى خلا بهما بعض الوقت وسألهما عن عقائد الاسلام فشرحاها له شرحا مقنعا انتهى به الى اعتناق هذا الدين والاخلاص له كل الاخلاص ، هذا بجانب رواية اخرى سبقت الاشارة اليها وتفيد بأن اسلام بركة خان كان على يد بعض مشايخ بخارى المتصوفين قبل اعتلائه العرش ببضع سنوات(١٢٨) . ولما كانت عاصمته سراى تقع على الطريق الذى يمر به المسلمون القادمون من أيران وآسيا الصغرى وخوارزم وآسيا الوسطى، فقد امتلأت بلاده بالتجار من كل حدب وصوب ، من ايران والعراقين ومصر والشام وغيرها ، وكانوا يسكنون فى أحياء خاصة بهم رعاية لهم وحفاظا عليهم وعلى اموالهم(١٢٩) ، وكانوا ينقلون نشاطهم التجارى شمالا عبر نهر الفولجا (نهر اتل) حتى مدينة بلغار التى تقع على هذا النهر تقريبا عند منتصفه . وهناك كان يتم التبادل التجارى بينهم وبين تجار البلغار والروس ، يدل على ذلك هذا العدد الكبير من النقود العربية التى وجدت فى وادى الفولجا وفى روسيا وفى اقصى المناطق الشمالية منها(١٣٠) . وكان سلاطين المغول يشجعون هذه المراكز التجارية التى كانت تعود عليهم بالخير العميم ، وفى نفس الوقت كان هؤلاء التجار وسيلة هامة لنقل المؤثرات الحضارية الاسلامية الى هؤلاء المغول عن طريق مخالطتهم ومعايشتهم والاحتكاك بهم وتزويدهم بمنتجات تلك الحضارة من سلع تجارية وعلوم اسلامية كان التجار المسلمون ينشرونها فى كل مكان يصلون اليه ، مما ترك اثرا قويا على هؤلاء المغول وانتهى الأمر بتحولهم الى الاسلام وتشربهم للحضارة الاسلامية نتيجة

---

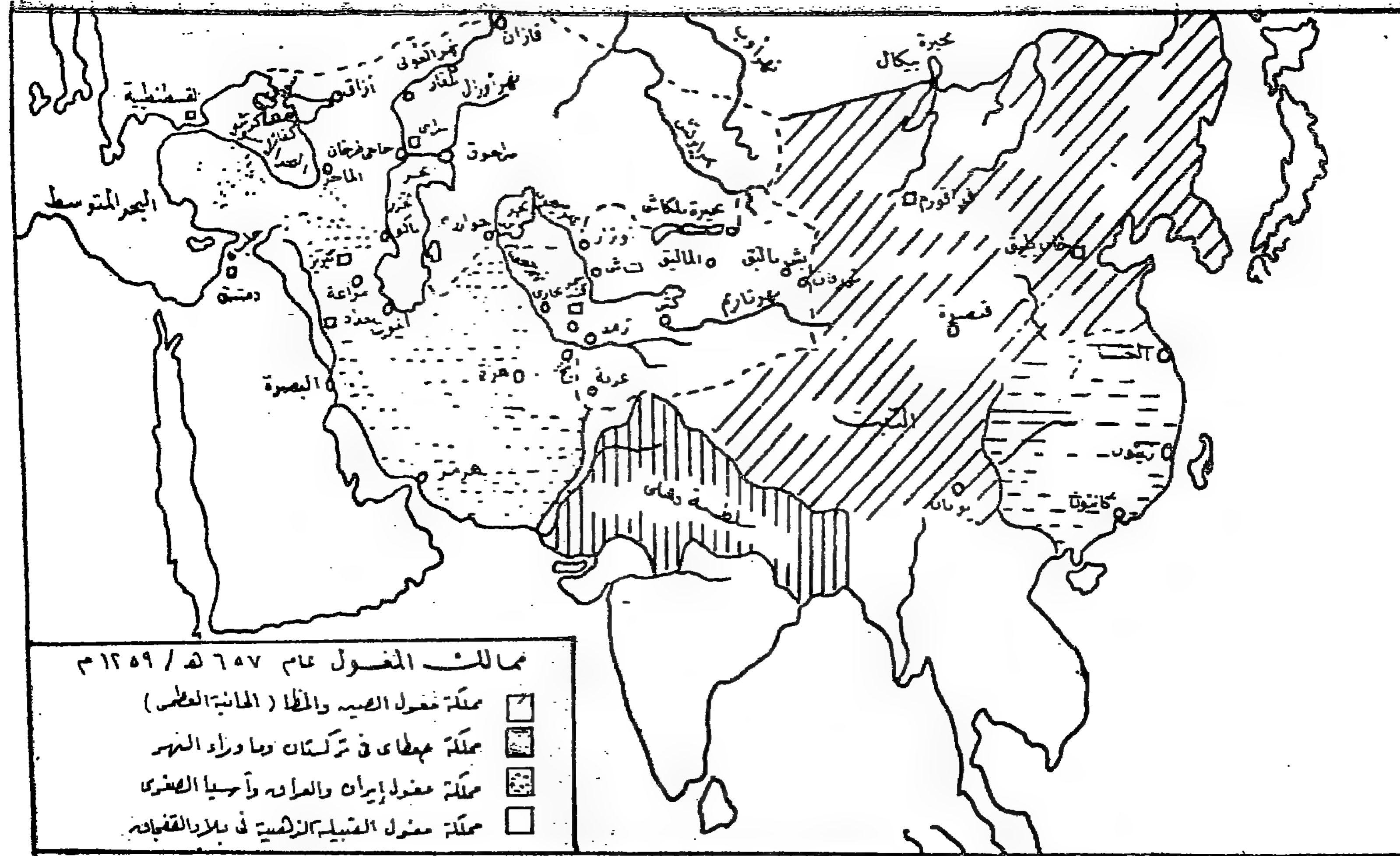
(١٢٨) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٧٧ ، ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٩ ،
Howorth : op. cit., vol. 2, p. 105.

(١٢٩) ابن بطوطة : نفس المصر ، ص ٢٣٨ ،
Howorth : op cit., v. 2, p. 125.

(١٣٠) هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ج ١ ص ٧٦ — ٧٩ .

لهذا المؤثر الهام ونتيجة للمؤثرات الأخرى التى تعرضوا لها والتى عرضنا لها حتى الان .

وهكذا تغلب الاسلام على عقبتين هامتين : اولاهما التبشير البوذى المسيحى الذى تكاثف عقب الغزو المغولى لبلاد الاسلام،وثانيهما همجية المغول وبداوتهم وشراستهم ووثنيتهم ، فقد قضى على العقبة الأولى تماما فى ممالك المغول الثلاث : فى ايران وبلاد القفجاق وبلاد ما وراء النهر وتركستان ، وتغلب أيضا على العقبة الثانية فى هذه الممالك الثلاث وطوع المغول فيهـا لثقافته والى اعتناقه فى النهاية ، واكتسب الاسلام بذلك شعبا جديدا اضافه الى الشعوب الاسلامية التى دخلته من قبل والتى اعطته من قوتها وفتوتها عمرا جديدا ومتجددا . ولكن كيف تم ذلك وكيف تحول هؤلاء المغول القساة الوثنيون الى الاسلام ؟ ومتى ؟ وما هى المظاهر التى صاحبت ذلك وترتبت عليـه ؟



Saunders : The history of the Mongol Conquests, P. 91. : معربة عن

الفصل الثالث

تحول مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق

الى الاســـلام

من البداية نود أن نشير الى أن انتشار الاسلام فى مملكة مغول القفجاق وفى مملكتى المغول الأخريتين فى ايران ووسط آسيا قد مر بمرحلتين : المرحلة الأولى هى مرحلة التمهيد والتهيئة ،وفيها اسلم بعض خوانين المغول وبعض حكامهم وبعض جندهم وقبائلهم ، وظل البعض الاخر على الوثنية واعتنـق فريق الديانة المسيحية أو الديانة البوذية . وكان الصراع بين الاسلام وبين هذه الأديان ظاهرا وواضحا وشديدا ، وقد سبق عـرض العـوامل التى اججت من هذا الصراع فى الفصلين السابقين : وأتى الآن الدور لكى نبين مظاهر هذا الصراع وما وصل اليه من نتيجة : والمرحلة الثانية ، وهى مرحلة التحول النهائى والتام لمعظم المغول الى الاسلام ، وفيها أصبح الاسلام هو الدين الرسمى للدولة ، وتعاقب على الحكم خوانين وملوك مسـلمون حتى النهاية . ولا بد أن يتبع ذلك مظاهر معينة تدل على مدى انفعال هؤلاء المغول بالاسلام ومدى تأثيره فى حياتهم السياسية والاجتماعية والثقافية .

وعلى ذلك فسوف نتبع فى حديثنا عن كل مملكة من الممالك الثلاث هذه الخطوات ، وهو الحديث عن مرحلة التمهيد والتهيئة لانتشار الاسلام ، ثم مرحلة التحول النهائى والتام للاسلام ، ثم مظاهر هذا التحول وهذا الانتصار الذى حققه الاسلام فى كل مملكة من ممالك المغول الثلاث . وقبل ان نبـدأ حديثنا عن مملكة المغول فى بلاد القفجاق نود أن نعطى فى عجالة نبـذة عن موقعها وعن حدودها وعن الشعوب التى كانت تسكنها ومدى انتشار الاســلام بـين هـذه الشـعوب .

٢ — موقع مملكة مغول القفجاق وحدودها وشعوبها :

سبقت الاشارة الى أن مملكة المغول فى بلاد القفجاق كانت تحتل منطقة واسعة تمتد من نهر ايرتش شرقا الى أرض البلغار غربا ، ومن روسيا وبلاد الصقالبة فى الشمال الى ممالك المغول فى ايران وآسيا الصغرى وبلاد ما وراء النهر وتركستان فى الجنوب ، وانهم عرفوا هناك باسم مغول القبيلة الذهبية نسبة الى خيام معسكراتهم ذات اللون الذهبى ، وأن غالب سكان دولتهم كانوا ينتمون الى الأتراك والتركمان(١) وكان كثير من هؤلاء السكان يعتنقون الاسلام مثل أهل خوارزم وبلاد الخزر(٢) والبلغار (بلغار

---

(١) أنظر ، ص ٢٥ ، وانظر ايضا : عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٥٥ ، فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٤٣ ، بارتولد : نفس المرجع ص ١٦٦ ، ١٦٧

Saunders : op. cit., p. 157-158.

(٢) الخزر امة من الترك ، سموا بهذا الاسم لصغر عيونهم ، وكانت مساكنهم او دولتهم تسيطر على الأرض المعروفة بصحراء حاجى طرخان والتى تقع بين بحر الخزر (مصب نهر الفولجا) والبحر الأسود وكانوا موجودين فى هذه المنطقة منذ القرن الثالث للميلاد ، وقامت الحروب بينهم وبين أكاسرة الفرس ثم بينهم وبين العرب بعد ظهور الاسلام ، وكانت ديانتهم النصرانية واليهودية والوثنية ، وبعد احتكاكهم بالمسلمين انتشر بينهم الاسلام وصارت اكثر جيوش الخزر من المسلمين ، وصار نصف عاصمتهم يخص المسلمين والنصف الثانى يخص غيرهم وفيه يسكن الملك الذى بقى على اليهودية هو وحاشيته ، ثم قامت الحروب بينهم وبين الروس منذ عام ٢٧٢هـ/٨٨٥م وتحالف الروس مع اباطرة بيزنطة على القضاء على دولة الخزر ، وتم ذلك عام ٤١٠هـ/١٠١٩ ، وكان انقراض الخزر كشعب او كأمة عند غزو المغول لبلادهم عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م فقد ذاب الخزر فى المغول بحكم تأثير الغالب على المغلوب . وفى الفترة التى انقضت بين سقوط دولتهم وبين غزو التتار لبلادهم كان القفجاق من الترك قد انساحوا فى بلادهم وأقاموا لهم دولة فى الجزء المحيط بنهر الفولجا من الجنوب حتى شبه جزيرة القرم .

انظر :ابو الفدا : تاريخه ، جـ ٣ ص ١٣٣ — ١٣٥ ، الديار بكرى : الخميس جـ ٢ ص ٣٦٩ ، الرمزى : تلفيق الأخبار ، جـ ١ ص ١٦٨ — ١٧٠ ، ١٨١ ، ١٨٩ ، ١٩٠ — ١٩٥ .

الفولجا) والآص(٣) ، وكان بعضهم يدين بالمسيحية مثل الروس والجركس منذ القرن العاشر للميلاد على يد المبشرين البيزنطيين(٤) .

ونود هنا أن نشير فى عجالة الى شعبين بالذات من هذه الشعوب ، وهما شعبا القفجاق والبلغار نظرا لأهميتهما بالنسبة لمملكة المغول التى قامت فى تلك البلاد . فالقفجاق كانوا شعبا او قبائل من الترك البـدو الرحـل الوثنيين فى غالبيتهم ، تزايدت اعدادهم فى القرن الحادى عشر للميـلاد فانتشروا فى أماكن واسعة واستقروا فى حوض نهر الفولجـا الأدنى وفى صحراء الغز التى كانت تقع فوق بلاد ما وراء النهر وخوارزم والتى كانت تمتد غربا حتى نهر الفولجا والبحر الأسود وتمتد شمالا لتصل الى جنوب روسيا ، ولذلك سميت صحراء الغز منذ ذلك الحين باسم صحراء أو برية القفجاق أو دشت قفجاق او دشت قبجاق حسبما نطقها الترك والفرس(٥) .

ومعنى ذلك أن هذا الشعب كان اكثر عددا واكثر اهميـة من باقى الشعوب التى كانت تسكن هذه المنطقة الواسعة ، فأصبح اسمه علما عليها ، وكون مملكة كانت عاصمتها مدينة سوداق بشـبه جزيرة القـرم(٦) وكان القفجاق بجانب غالبيتهم التى تدين بالوثنية ، كان فريق منهم يدين بالاسلام ، لتعرضه للتأثير القادم عليه من بلغار الفولجا ، وفريق آخـر كان يـدين

---

(٣) الآص شعب مسلم ، كان يسكن منطقة مرتفعة شمال شبه جزيرة القـــرم .

أنظر : ابن بطوطة : رحلته ، ص ٢٣٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ص ٤٦٥ .

(٤) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص٢١٤ ، عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٢٣ ، حسنين ربيع : نفس المرجع ،ص ١٦١ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١١٢ — ١١٥ ، باسيليوس خرباوى : نفس المرجع ، ص ٢٩ — ٣١ .

(٥) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٤ ، القلقشـــندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ، ص ٢٥٦ ، عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٢٣ ، الرمزى : نفس المرجع ، جـ ١ ص ٢٠٦ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١١٢ — ١١٥ .

(٦) الرمزى : نفس المرجع ، جـ ١ ص ٢٠٦

Howorth : op. cit., v. 2, p. 23.

بالمسيحية لتعرضه للتأثير المسيحى الوافد عليه من روسيا وبيزنطة وغرب أوربا(٧) . وظل آخرون على ديانتهم الوثنية حتى بعد غزو المغول لبلادهم وحتى عصر ابن بطوطة الذى زار بلادهم عام ٧٢٦هـ/١٣٢٥م ولاحظ ذلك أثناء تجواله فى شبه جزيرة القرم وغيرها من بلاد القفجاق(٨) ، بل ان عرب شاه يقول انه كانت هناك بقية من القفجاق يعبدون الأصنام الى عهده ، أى حوالى منتصف القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر للميلاد(٩) ، ويقرر بارتولد أن شبه جزيرة القرم لم يكن بها مسلمون قبل عهد المغول(١٠) ، ولكن الاسلام انتشر بين غالبيتهم بعد أن فتح المغول بلادهم(١١) .

ونظرا لقرب بلاد القفجاق من جنوب روسيا فقد وقعت الحروب بينهما منذ عام ٤٥٣هـ/١٠٦١م وحتى مجيء المغول عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م وكانت الحروب سجالا بينهما ،واضطر الروس الى مصاهرتهم اتقاء لخطرهم ، واضطروا أيضا الى محالفة الروم البيزنطيين الذين كانوا قد غضبوا لهجوم القفجاق على مدينة القسطنطينية عام ٥٩٩هـ/١٢٠٢م ، فسارع القفجاق بالاغارة على ولاية كييف ونهبوها ووضعوا السيف فى رقاب أهلها عام ٦٠٠هـ/١٢٠٤م ،و استولوا على سواحل البوسفور وسواحل بحر أوزاق (بحر ازوف) حتى يمنعوا التقاء الروس بالبيزنطيين .ولكن هذه الحروب المتعددة التى قامت بين الروس والقفجاق اضعفت كلا الفريقين مما اعطى للمغول الفرصة للانتصار عليها حينما جاءوا لغزو هذه البلاد منذ عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م وعندما تمكن باطو بن جوجى من اتمام غزو بلاد القفجاق وجنوب روسيا عام ٦٣٦هـ/١٢٣٨م هرب خان القفجاق الى بلاد المجر ، وانقرضت دولة القفجاق نهائيا منذ ذلك التاريخ ، وامتزج هذا الشعب بالمغول امتزاجا كبيرا حتى استحال التمييز بينهما ، وصاروا جنسا واحدا ودخلوا معهم فى الاسلام،

---

(٧) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٧٦

Saunders : op. cit., p. 18, 118.

(٨) رحلة ابن بطوطة ص ٢١٤ .

(٩) عجائب المقدور فى أخبار تيمور ، ص ٥٣ .

(١٠) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص ١٤٧ .

(١١) الرمزى : نفس المرجع ج ١ ص ٢٢١ .

واشتركوا معهم فى الملك والسلطة حتى تسمت دولة المغول هناك باسم سلطنة القفجاق ودولة القفجاق(١٢) ، فى حين ان مغول هذه السلطنة كانوا يعرفون باسم مغول القبيلة الذهبية نسبة الى لون خيامهم الذهبى كما اشرنا من قبل او مغول الشمال على اعتبار ان خانيتهم او سلطنتهم كانت تقع شمال خانية تركستان وما وراء النهر ، وخانية ايران والعراق وآسيا الصغرى(١٣) ، كما كانوا يسمون أيضا باسم الكومان Cumans عند البيزنطيين ، وباسم Polovtsians عند الروس (١٤) .

أما شعب البلغار(١٥) ، فهم قوم من الترك او قوم مولدون من الترك والصقالبة ، ويقال ان هذا الاسم اطلق عليهم نسبة الى رجل صالح مسلم يسمى بلار كان قد عالج ملكهم الماس او الموس Almus وزوجته من مرض

---

(١٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .
Saunders : op .cit. ,p. 18.

(١٣) العينى : نفس المصدر ، ورقة ١٩ ، أبو الفدا ، ج ٤ص٦٨
Howorth : op cit., v. 2, p. 23-24.

(14) Saunders : op. cit., p. 81.
Howoorth : op. cit., v. 2, p. 17

(١٥) المقصود بالبلغار هنا هم بلغار وادى الفولجا (اتل) الأوسط ، وليس بلغار الطونة والدانوب ، وان كان الاثنان من أصل واحد ومن الشعوب الرعوية التركية الأصل (انظر : الرمزى : نفس المرجع ج ١ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ، حسنين ربيع : نفس المرجع ، ص ٧٦) . غير ان بلغار الدانوب كانوا قد أقاموا لأنفسهم دولة او مملكة تسمى مملكة بلغار فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى عند الأطراف الشمالية لبيزنطة وعلى طول ضفاف الدانوب الأدنى . ويبدو أن بلغار الدانوب كانوا قد انفصلوا عن اخوانهم بلغار الفولجا منذ ذلك التاريخ نتيجة ضغط من الخزر واتجهوا غربا من مناطق الاستبس المجاورة لبحر آزوف شمالى البحر الأسود واستقروا عند مصب الدانوب ، ثم تحولوا الى النصرانية عام ٣٥٠هـ/٩٦١م واختلطوا بالسلاف الموجودين هناك وأخذوا السنتهم وعاداتهم حتى اصبحوا يعدون الآن منهم .
انظر : الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٨٤ ، حسنين ربيع : نفس المرجع ، ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٩٢ .

واشترط عليهما الدخول فى دين الاسلام ، ان شفيا ، فأجاباه الى ذلك . ولما شفيا دخلا فى الاسلام وأسلم جميع البلغار باسلام ملكهم وتسمى شعبهم باسم هذا الرجل الصالح الذى عرب بعد ذلك الى بلغار ، وأطلق هذا الاسم ايضا على العاصمة وعلى المملكة التى كانت تقع فى وادى الفولجا الأوسط وتمتد بين جبال الأورال ونهر الفولجا(١٦) .

وقد اتصل ملك البلغار الماس هذا بالمسلمين تجاريا وسياسيا فأرسل رسله الى الخليفة العباسى المقتدر بالله عام ٣٠٩هـ/٩٢١م يطلب ارسال بعض الفقهاء والعلماء ليفقهوه فى الدين وليعلموا قومه شعائر الاسلام وعلومه وليساعدوه فى انشاء المساجد وفى تعيين سمت القبلة فى عاصمته وفى بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له فى الدين مثل ملك الخزر وملك الروس والقفجاق الذين كانوا يحيطون بدولته . وقد استجاب له الخليفة المقتدر وأرسل سفارة كان احمد بن فضلان من بين أفرادها . ووصلت هذه السفارة او البعثة الى مدينة بلغار فى العام التالى ، وكان الملك الماس قد خرج لاستقبالها ونثر عليها العملات الذهبية ، ولبس لباس السواد ، وهو شعار العباسيين ، وتعمم وغير اسمه الى اسم اسلامى ، وهو جعفر بن عبد الله على اسم الخليفة المقتدر نفسه ، وامر ان يخطب له بذلك على المنابر ، وان يذكر اسم الخليفة العباسى فى خطبة الجمعة ، وينقش أيضا على العملة(١٧) . وانتشر الاسلام بين البلغار منذ ذلك الحين واتصلوا بمصر ، وكان ملكهم يخاطب فى الرسائل التى كانت ترد اليه منها بأنه « سيف الاسلام والمسلمين ، ناصر الغزاة والمجاهدين . . . ذخر أمير المؤمنين »(١٨) . واخذ البلغار فى نشر الاسلام بين الأقوام التركية المجاورة لهم مثل الباشقرد (الباشكير) الذين كانوا يسكنون فى شرقيهم ، وكان غالبهم نصارى ، وأرسل البلغار اليهم سبعة دعاة من المسلمين ، فسكنوا بينهم وتلطفوا فى

---

(١٦) الرمزى : نفس المرجع جـ ١ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤،٢٦٩ .

(١٧) المرجع السابق ، جـ ١ ص ٢٨٧ — ٢٩٠ ،

Howorth : op cit., v. 2, pp. 172, 439.

(١٨) العمرى : التعريف ، ص ٥١ .

تعريفهم بدين الاسلام وسعائره ، فأسلم كثير منهم ، وصاروا سنة على مذهب الامام أبى حنيفة(١٩) .

وبجانب ذلك أخذ البلغار فى جهاد امم الكفر من الخزر والروس والروم البيزنطيين ، فأغار ملكهم الماس على القسطنطينية فى خمسين الف فارس ، ثم لم يلبث ان اخذ فى جهاد الروس ، وكانت اكثر حروب البلغار منذ اسلامهم مع الروس حيث صادف ذلك اول ظهور قوة المملكة الروسية وانتشار الروس من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ، واستمرت الحروب بينهما منذ ذلك الحين حتى أتى الغزو المغولى لتلك البلاد عام ٦٣٥هـ/١٢٣٧م ، فأعلن ملك البلغار خضوعه للمغول لعجزه عن مقاومتهم وصالحهم على أن يضرب السكة باسمهم ويزودهم بالجند وقت الحاجة . وبذلك صارت بلاد البلغار جزءا من مملكة المغول الشمالية ، وان كانت تتمتع بالحكم الذاتى حيث كان البلغار يختارون ملوكهم ويديرون أمورهم الداخلية بأنفسهم(٢٠) .

وقد تعاون هؤلاء البلغار المسلمون مع خوانين المغول الذين أسلموا بدءا من عهد بركة خان المسلم (٦٥٤ — ٦٦٥هـ/١٢٥٦ — ١٢٦٧م) فى نشر الاسلام سواء بين المغول او بين غيرهم من الأقوام الداخلة تحت طاعة هؤلاء المغول . وهكذا أصبح مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق محاصرين بقوى اسلامية من الشمال حيث البلغار المسلمون(٢١) ومن الجنوب حيث بلاد ما وراء النهر وخوارزم وايران وسلاجقة الروم بآسيا الصغرى المسلمون الذين كانوا قد غزوا الساحل الجنوبى للبحر الأسود منذ نهاية القرن الحادى عشر للميلاد(٢٢) . وكان اثر بلاد البلغار وخوارزم أشد قوة فى تحويل مغول القفجاق الى الاسلام، اذ كانتا ضمن املاك هؤلاء المغول وكانت بلاد البلغار بالذات اقرب الى العاصمة سراى حيث كانت تقع فى شمالها على نهر

---

(١٩) الرمزى : نفس المرجع ، ص ٢٣٠ — ٢٣٣ .

(٢٠) المرجع السابق ، ج ١ ص ٦٥ ، ٢٩٨ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(٢١) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٧٦ .

(٢٢) حسنين ربيع : نفس المرجع ، ص ٢٦٧ .

الفولجا ، ومعنى ذلك ان هذا النهر كان يربط بين عاصمتى البلغــار(٢٣) ومغول القفجاق ، وبذلك كان البلغار اقرب الشعوب الاسلامية الى هــؤلاء المغول من غيرهم من شعوب الاسلام فى خوارزم وايران وآسيا الصغرى . واذلك كان تأثيرهم قويا ومباشرا(٢٤) .

وقد التقت جهود هؤلاء البلغار المسلمين وجهود خوانين مغول القبيلة الذهبية على هدف واحد وهو نشر الاسلام داخل مملكتهم فى بلاد القفجاق ، ومن حسن الحظ ان الخوانين الوثنيين لم يتعددوا ولم يطل حكمهم فى تلك البلاد ، ذلك انه لم يحكم هناك الا خان وثنى واحد ، وهو اول حكامهــا من المغول ويسمى باطو بن جوجى بن جنكيز خان (٦٢٤ — ٦٥٤هـ/١٢٢٧ — ١٢٥٦م) .

٢ — مرحلة التمهيد والتهيئة لتحول مغول القفجاق الى الاسلام :

كانت خانية المغول فى بلاد القفجاق من نصيب جوجى بن جنكيز خان ، ولما توفى جوجى قبيل وفاة أبيه بستة أشهر عام ٦٢٤هـ/١٢٢٧م تم تقسيم بلاده بين اولاده ، فخص ابنه باطو القسم الغربى من الخانية ، وتولى ابنــه الأكبر (أوردا) حكم القسم الشرقى من هذه الخانية ولكن معظم مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق كانوا يميلون الى باطو فأعلنوه ملكا عليهــم وعلى

---

(٢٣) كانت عاصفة مملكة البلغار تسمى أيضا بلغار او بلار او بلغار . وكانت اشهر مدينة فى بلاد القبيلة الذهبية بعد عاصمتها سراى ، وكانت تقع على بعد نصف فرسخ من الشاطىء الشرقى لنهر الفولجا ، وعلى بعد حوالى عشرين مرحلة شمالى سراى التى كانت تقع على نفس الشاطىء قرب بحــر قزوين (بحر الخزر) . وقد زار ابن بطوطة مدينة بلغار فى شهر رمضان عام ٧٢٦هـ/١٣٢٥م ولاحظ مظاهر التدين عند أهلها ، وقال القلقشندى انهم مسلمون على المذهب الحنفى .

أنظر : ابن بطوطة : رحلاته ، ص ٢٢٥ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ص ٤٥٧ ، ٤٦٢ ، الرمزى : تلفيق الأخبار ، جـ ١ ص ٢٦٣ ،
Sounders : op .cit., p. 81.
Howorth : op. cit., v. 2, p. 172, 439.

(٢٤) العمرى : التعريف ، ص ٥١ .

مغول القبيلة الذهبية كلها ، واعترف جنكيز خان بهذا العمل قبيل وفاته ، فانكمش سلطان اوردا واقتصر حكمه على مقاطعة صغيرة فى القفجاق الشرقية ، وعرف مغول هذه المقاطعة باسم القبيلة البيضاء ، بينما عرف مغول باقى المملكة باسم القبيلة الزرقاء او السوداء ، وقد خلط الكتاب الروس بينهما فأطلقوا احيانا اسم القبيلة الزرقاء على القسم الشرقى الخاص بأوردا واولاده وقبيلته ، لأنهم كانوا يعيشون بجوار بحر أرال او البحر الأزرق(٢٥) .

وقد توسع باطو خان الذى كانت مملكته تتركز حول نهر الفولجا (نهر اتل) فامتدت فى عهده غربا حتى وصلت فى الفترة الواقعة بين عامى ٦٣٥ — ٦٤٠هـ/١٢٣٧ — ١٢٤٢م الى جبال الكربات وتوغل فى روسيا وبولندا والمجر ودلماشيا ، فطغت شهرته على أخيه الأكبر اوردا وصار يلقب منذ ذلك الحين بخان القبيلة الذهبية واصبح يعدل فى العظمة والسلطان خان المغول الأعظم ، واهمل التاريخ شأن اخيه(٢٦) .

حكم باطو خان مدة تقرب من الثلاثين عاما ، وكان فيما يبدو يميل الى المسيحية وان لم يعتنقها ، وكان ابنه صرتق Sartak مسيحيا ولكنه لم يوفق فى الجلوس على عرش والده ، اذ كان لحظة وفاة هذا الوالد موجودا فى قراقورم حيث عين هناك خلفا لوالده ، ولكنه مات فى الطريق الى سراى عاصمة مغول القبيلة الذهبية ، فعين عمه بركة Berke على عرش تلك البلاد بدلا منه (٦٥٤ — ٦٦٥هـ/١٢٥٦ — ١٢٦٧م)(٢٧) . وبتعيين

---

(٢٥) القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ٢ حاشية (٤) ص ٢٩٤ — ٢٩٥ ، فايد عاشور : العلاقات السياسية بين المماليك والمغول ، ص ٢٠٦ ،
Howorth : op. cit., v. 2, pp. 1, 2, 216.

(٢٦) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ٢ ص ٢٩٤ — ٣٩٥ حاشية (٤) ، حسنين ربيع : نفس المرجع ، ص ٢٨١ ، ٢٨٢ ، فايد عاشور : نفس المرجع ، ص ٢٠٦ ،
Howorth : op. cit., v. 2, p. 216.

(٢٧) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٢٩٤
Saunders : op. cit., p. 156.
الرمزى : نفس المرجع جـ ١ ص ٤٠٢ .

بركة خانا لبلاد القفجاق تحولت هذه البلاد تدريجيا الى الاســلام فأصـبح الاسلام دين الدولة الرسمى منذ ذلك الحين ويعود الفضل فى نجاح الحركة الاسلامية على هذا النحو الى شخصية بركة خان نفسه . فقد كان بـركة مسلما منذ طفولته ، ولما شب وبلغ سن التعليم حفظ القرآن الكريم على يد احد فقهاء مدينة خوقند(٢٨) .ومعنى ذلك انه اسلم قبل توليه عرش مغول بلاد القفجاق ، يؤكد ذلك ما رواه لنا القلقشندى وغيره من أن بركة ذهب الى قراقورم لحضور حفل تنصيب منجو خان على عرش الامبراطورية المغولية ، والمعروف أن منجو خان هذا قد تم تنصيبه عام ٦٤٩هـ/١٢٥١م ، وبعد ان تم ذلك واثناء عودة بركة الى بلاده مر وهو فى طريقه ببخارى بالشيخ شـمس الدين الباخرزى احد مريدى الشيخ نجم الدين كبرا ، واجتمع به وأسـلم على يديه ، فكان أول خوانين المغول الذين اعتنقوا الاسلام(٢٩) .وقد اكـد هذه الحقيقة وليم روبروق الذى يفهم مما رواه لنا ان بركة كان مسلما عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م ،وهى السنة التى مر فيها روبروق ببلاد القفجاق فى طريقه الى قراقورم سفيرا اليها من قبل لويس التاسع ملك فرنسا ، كما افاد هذا المبعوث الأوربى أيضا بأن لحم الخنزير لم يكن يؤكل فى اوردا (معسـكر) بركة(٣٠) . وهناك رواية اخرى لا نرجحها تقول بأن بركة خان أسلم بعد ان تولى عرش الخانية على يد تاجرين وافدين من بخارى(٣١) .

وسواء كان اسلام بركة خان قبل توليه العرش ام بعد توليه ، فقـد اخذت خانية القبيلة الذهبية تأخذ شكلها ووضعها فى عهده كدولة اسلامية . خاصة بعد ان بنى لها عاصمة اسلامية تسمى سراى الجديدة التى سـميت فيما بعد باسم سراى بركة والتى كانت قريبة او مجاورة لسراى القديمة التى

---

(٢٨) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٩ .

(٢٩) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٣٠٩ ، العينى : نفس المرجع ج ٢٢ ، ورقة ٢٢٠ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٧٧ ، الرمزى : ج ١ ص ٤٠٤ — ٤٠٧ .

(٣٠) براتولد : نفس المرجع ، ص ١٧٧ ، ارنولد ص ٢٥٩ ،
Howorth : op. cit., v. 2, p. 105.

(٣١) عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٥٦ ، العينى : نفس المصدر ، ج ٢٢ ورقة ٦ ، ٧ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٧٧ .

أنشأها اخوه باطو من قبل(٣٢) ، والمدينتان تقعان على الضفة الشرقية لنهر الفولجا (اتل) قرب بحر قزوين (الخزر) ، وربما كانتا مدينة واحدة بدأ باطو فى بنائها وأتم بركة هذا البناء ، ثم نمت وازدهرت كمركز للتجارة العالمية ملىء بخليط من السكان المغول والترك والروس(٣٣) .

وقد تركزت أعمال بركة فى الدفاع عن الاسلام الذى كاد يطيح به جده جنكيز خان وابن عمه هولاكو ، بل انه عادى ابن عمه هذا لذلك السبب ، وكرس حياته كلها لنشر الاسلام سواء بين قومه فى بلاد القفجاق او بين

---

(٣٢) ورد اسم سراى بصور مختلفة . فقد ذكرها ابو الفدا (جـ ٤ ، ص ٤) باسم صراى ، وذكرها العمرى (جـ ١٦ ق ٣ ورقة ٦١٧) والقلقشندى (جـ ٤ ص ٤٥٧) بنفس الاسم . اما ابن بطوطة (ص ٢٤٢ من رحلته) . فقد ذكرها باسم السرا ، وأيضا باسم السرى (ص ٢٤٢ من رحلته) . وذكرها عرب شاه (ص ٥٦) باسم سراى ، وهو الاسم الذى كتبت به عند الأوربيين ، فهم يكتبونها Sarai أو Serai ويقول بارتولد (ص١٧١) ان كلمة سراى كلمة فارسية اخذها المغول والترك منذ زمن بعيد ، وكان المغول يطلقونها على مقام الخان اى على مقر سكنه او على قصره ، ثم اتسع معناها ومدلولها فأطلقه ايضا على المدينة التى تنشأ حول السراى . ومن ذلك مثلا قرية سراى الواقعة شمال ترمذ على نهر جيحون ، وسراى الواقعة على الفولجا ، ثم باغجة سراى الواقعة بالقرم ، وهناك (يكى سراى) أى سراى الجديدة وهى سراى بركة بخلاف سراى الأولى القديمة التى اسسها اخوه باطو ، والثانية تقع شمال الأولى على الضفة الشرقية لنهر الفولجا ، ويعتقد بارتولد أنه ليس هناك مدينتان تحملان اسم سراى ، والأرجح فى نظره أن كلمة (يكى) كانت تطلق على الأحياء الجديدة على اعتبارها مدنا .

انظر : بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ويلاحظ أن لفظ سراى كان يطلق فى مصر على قصور بعض الحكام من اسرة محمد على ، فكان يقال مثلا سراى عابدين او سراى رأس التين ، وهكذا . وقد حرف العامة هذا اللفظ الى كلمة سراية ويقصدون بها المبنى الضخم او العمارة الكبيرة الفخمة .

(٣٣) عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٥٦ ، الرمزى : نفس المرجع ، جـ ١ ص ٤١٠ ، ٤١١ .

Saunders : op. cit., p. 157.

الأقوام الأخرى الخاضعة لسلطانه ، فأظهر شعائر الاسلام فى بلاده ، وحمل امم القفجاق على الدخول فى هذا الدين ، وأخذ به جل عشيرته وقومه ، واسلمت زوجته ججك خاتون واتخذت لها مسجدا من الخيم يحمل معها حيث اتجهت وتضرب حيث نزلت ، واعتنق جيش بركة الاسلام وكان كل فارس يحمل معه سجادة للصلاة حتى اذا حان وقتها ادى الفريضة على اكمل وجه ، كما امتنع الجند عن تعاطى المسكرات . وأخذ بركة خان يستقدم العلماء والفقهاء ويبنى المساجد والمدارس لتعميق الثقافة الاسلامية بين شعبه من المغول والترك(٣٤) ولذلك ليس عجيبا ان يصفه المؤرخون بأنه كان من « اعظم ملوك التتر » وليس عجيبا أيضا اذا مانسبت اليه بلادالقفجاق فصارت تعرف بعد وفاته بزمن طويل باسم دشت بركة بدلا من دشت القفجاق ، كما سمى مغول القفجاق بعد موته بحوالي قرن باسم تتار بركة ، كما سميت العاصمة باسم سراى بركة(٣٥) .

ولكن هذا المد الاسلامى الرائع الذى سوف نفصل فيه القول عند حديثنا عن مظاهر انتشار الاسلام ، أصيب بانحسار مؤقت عندما توفى هذا الخان وخلفه على العرش ابن اخيه منكوتمر Mangu Timur Khan ابن طغان بن باطو خان (٦٦٥ — ٦٧٩هـ/١٢٦٧ — ١٢٨٠م) . وكان هذا الخان غير مسلم فيما يبدو . وقد صمت المؤرخون جميعا قدامى ومحدثين عن ذكر اى شىء يتعلق باسلامه ، وساق معظمهم خبر توليه العرش وخبر وفاته وبعض الأحداث التى تمت فى عصره ، ولم يرد ذكر لأى شعارات اسلامية

---

(٣٤) ابن كثير : نفس المصدر ، ج ١٣ ص ٢٤٩ ، عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٥٦ ، ٥٧ ، المقريزى : السلوك ج ١ ق ٢ ، ص ٣٩٥ ، العينى : نفس المصدر ، ج ٢٢ ورقة ٧٠ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٢٢٢ ، الرمزى : نفس المرجع ج ١ ص ٤١٤ — ٤١٨ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٩ .

(٣٥) ابو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٤ ، ١٧ ، العمرى : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦١٧ ، عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٥٣ ، ٥٦

Saunders : op. cit., p. 159.

Howorth : op. cit., v. 2, p. 125.

على العملة التى تم صكها فى عهده(٣٦) ، وان كان الأستاذ الرمزى التركى الأصل قد ذكر لنا أن الفاضل المرجانى رأى درهما مضروبا فى بلغار عـام ٦٧٣هـ/١٢٧٤م وآخر مضروبا عام ٦٧٨هـ/١٢٧٩م وعلى الأخير عبارة « حمدا لله ، لااله الا الله وحده لا شريك له » ويستشهد بذلك على اسلامه(٣٧) ، غير أن عدم ذكر اسم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على هـذا الدرهم وصمت المؤرخين جميعا عن أى شىء يتعلق باسلامه يدل على انه لم يعتنـق الاسلام وان كان لم يعاديه ، والدليل على ذلك هو موصلة السياسة التى اتبعها عمه السلطان بركة فى محالفة مصر المملوكية .

فقد تبادل منكوتمر هذا وسلاطين مصر الرسـل والرسـائل وفيهـا يتواصون بمقاتلة أبغا بن هولاكو وجنوده ومساعدة كل منهما الاخر على ذلك، واثرت هذه العلاقة الوطيدة والمنتظمة مع مصر فى حمل الاسلام والتأثيرات الثقافية الاسلامية الى بلاد القفجاق والى بلاد روسيا ومنـاطق الأسـتبس الشمالية . فانشئت المساجد والقصور فى شبه جـزيرة القـرم على يـد المعماريين المصريين ، وحملت الفسيفساء ورسوم الحوائط الى قصور سراى، وامتلأت هذه المدينة بالتجار والرحالة والحرفيين ، وتناقص العنصر البدوى بين مغول القفجاق(٣٨) .

---

(٣٦) المصادر السابقة ، وانظر أيضا : ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ٨٦٠ ، ١١٣٣ — ١١٣٦ ، المقريزى : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٦١ ، ٥٨٨ ، ٧١١ .

Saunders : op. cit., pp. 160-181.
Howorth : op. cit., v. 2, pp. 126-127, 134.

(٣٧) الرمزى : تلفيق الأخبار ، ج ١ ص ٤٦١ .

(٣٨) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٣٥ ، المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٦٨٠ ، ٧٣٨ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٤٥٦ — ٤٦٧ ، فايد عاشور : نفس المرجع ، ص ٢١١

Saunders : op. cit., p. 160 ; Haworth : op. cit., v. 2, pp. 126, 127, 134.

وقد أثمرت هذه السياسة فى اسلام بعض امراء المغول مثـال ذلك الأمير بيسو نوغاى Besu Nogai الذى ارسل رسالة الى السلطان قلاون يخبره فيها باعتناقه الاسلام وانه هو وقومه مع سلطان مصر كالأنامل لليد يوافقون من يوافقه ويخالفون من يخالفه(٣٩) ، مما يدل على أن التحول الى الاسلام كان ظاهرة مستمرة ، وكانت الغيرة والحمية له تدفع بمسلمى المغول الى قتل من يتفوه بأى لفظ يسىء اليه ، وقد حدث مرة ان تفوه احـد الروس بعبارة تسىء الى الاسلام ، فما كان من الأهالى الا أن سلخوه وملؤوا جـلده بالتـبن(٤٠) .

غير أن هناك اشارة الى ان منكوتمر قد سالم مغول ايران ، والى انه صادق امبراطور بيزنطة(٤١) ، والى نشاط شامانى مسيحى ضد الاسلام ، مما يدل على مدى التنافس الذى ظهر فى عهد هذا الخان بين هذه الأديان . وفيما يبدو فان الظروف السياسية أجبرت هذا الخـان على اتبـاع هـذه السياسة وعلى السماح للمبشرين المسيحيين بممارسة نشاطهم فى بلاده . ذلك أنه هزم فى بداية حكمه هزيمة ساحقة امام ابغا بن هولاكو(٤٢) ، فاضطر لمسالمته نتيجة لهذه الهزيمة او نتيجة لضغط اتاه من قبل قوبيـلاى الخان الأعظم(٤٣) .

أما مصادقة القسطنطينية فقد جاءت ايضا بعد قتال بينهما عام ٦٦٨هـ/ ١٢٨٩م ،(٤٤) وبعد زواج قائد جيشه المسـمى نوغاى من ابنة امبـراطور القسطنطينية ميخائيل باليولوجوس(٤٥) . وكان لهذه الصداقة بالطبع اثرها

---

(٣٩) المقرزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٢ ص ٥٩٠ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٤٦٣ .

(٤٠) الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٤٦٢

(41) Saunders : op. cit., p. 160.

(٤٢) الرمزى : نفس المرجع ، ص ٤٥٦

(43) Saunders : op. cit., p. 160.

(٤٤) المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٢ ص ٥٨٨

(45) Saunders : op. cit., p. 159 ; Howorth, op. cit., pp. 146, 1012.

لا سيما اذا عرفنا ان هذا القائد كان مشكوكا فى اسلامه ، اذ كان يتظاهر بالاسلام ويخفى فى نفس الوقت عقيدته الشامانية التى كان يدين بها(٤٦) . وربما كان هذا القائد الطموح يتبع هذه السياسة حتى يكسب ود الجميع مسلمين وشامانيين وحتى يخفى اطماعه التى مكنته من السيطرة على الأنحاء الشمالية من البلاد فى جنوب روسيا واتخاذها مقرا له ولأسرته ولمن لاذ به من المغول الذين تسموا فيما بعد باسمه واصبحوا يعرفون باسم شعب النوغاى Nogais ونشروا الاسلام فى تلك الأنحاء ثم انتشروا بعد القضاء على خانية القبيلة الذهبية فى المناطق الجنوبية ووصلوا الى القرم والقوقاز وخوارزم وبخارى ، وعرفت بعض قبائل نوغاى هناك باسم الكراكالباكس أو المانجوت ، ونشروا الاسلام اينما ساروا(٤٧) . وبذلك اسهم نوغاى فى نشر الاسلام من حيث لا يدرى .

والواقع أن الحركة الاسلامية كانت اقوى من الجميع ، فقد ثبت ان ابنة نوغاى نفسه اعتنقت الاسلام بعد فترة من زواجها ، ولما اساء اليها زوجها الوثنى لاصرارها على التمسك بدينها ، طلب ابوها عقابه وحارب الخان الذى لجأ اليه هذا الزوج كى يحتمى به من بطش نوغاى . كما أن نوغاى لم يكترث بالمسيحية رغم زواجه من ابنة امبراطور بيزنطة كما سبق القول ، وقام بغزو بعض البلاد المسيحية فى أوربا الشرقية فى عهدى بركة ومنكوتمر ومن اتى بعدهما(٤٨) .

وازاء ذلك كثف المبشرون المسيحيون من نشاطهم فى تلك البلاد ، وخاصة فى بلاد القرم وحوض الفولجا ، واستغلوا السياسة المغولية التقليدية فى التسامح نحو الأديان وعدم اكراه الناس على التحول عن دينهم، وزادوا من نشاطهم منذ عهد بركة خان الذى كان قد سمح للرهبان الفرنسسكان وتجار جنوة وغيرهم بالظهور فى بلاد القفجاق منذ عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ،وسمح لهم ببناء بعض الكنائس الكاثوليكية فى كافا وتانا وفى سراى

(46) Howorth : op. cit., v. 2, pp. 135, 1013, 1015.

(47) Ibid : v. 2, pp. 1011, 1013, 1015, 1049, 1056, 1060.

(48) Saunders : op. cit., p. 159 ; Howorth : op. cit., v. 2, pp. 138, 1011, 1015, 1049.

العاصمة ، واستخدم الأساقفة كسفراء بينه وبين بيزنطة(٤٩) . وقد رأى ابن بطوطة بعض هذه المؤسسات الدينية المسيحية فى شـبه جزيرة القرم اثناء زيارته لها عام ٧٢٦هـ/١٣٢٥م(٥٠) .

ويبدو ان مغول دشت قفجاق كانوا مضطرين فى هذه الفترة الى اتباع هذه السياسة حتى يتمكنوا من جذب التجار من أى مكان ومن اى ملة ودين ، نظرا لأن التجارة كانت تمثل العمود الفقرى لاقتصاد بلادهم التى كانت تكثر فيها الصحراوات ، ولأن معظم سكانها كانوا بدوا رحلا لم يمارسوا الزراعة بطريقة منتظمة ، ولذلك امتلأت بلادهم بالتجار من جنوة ومصر والعراق وبلاد الشام وغيرها(٥١) . وهذا هو سر نهضة القوى المسيحية ومقاومتها للاسلام فى هذه المرحلة التى لم يتمتع فيها الاسلام باستقرار كامل ، منتهزين فى ذلك فرصة وجود قائد مثل نوغاى وخان غير مسلم مثل منكوتمـر . غير انه اذا كان الاسلام لم يتمتع فى عهد هذا الخان بنفس الدفعة القوية التى حـدثت فى عهد سلفه وعمه بركة خان ، الا انه لم يرجع القهقرى ، خاصة وان الخان الذى خلف منكوتمر لم يكن مسلما فقط ، بل كان صوفيا أيضا(٥٢) .

وهذا الخان الذى نعنيه هو تدان منكو خان Todu Manqu Khan ابن طغان بن باطو بن جوجى بن جنكيز خان (٦٧٩ — ٦٨٦هـ/١٢٨٠ — ١٢٨٧م) وهو اخو الخان السابق(٥٣) . وفى عهد هذا الخان تضاءل النشاط

---

(49) Saunders : op. cit., pp. 158, 170.

(٥٠) ابن بطوطة : رحلته ، ص ٢١٤

(٥١) عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٥٥ ،
Saunders : op. cit., pp. 158, 170.

(٥٢) القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٧٣ ،
Saunders : op. cit., p. 161.

(٥٣) اختلف المؤرخون فى نسب تدان منكو وفى سنة توليه الحكم . وقد حقق الأستاذ الرمزى ذلك واثبت انه اخ لمنكوتمر كما قال بذلك المقريزى وليس ابنه كما قال بذلك ابن خلدون . كما اثبت ان سنة توليه هى عام ٦٧٩هـ وليس عام ٦٨١ كما قال بذلك المقريزى وابن خلدون والقلقشندى . انظر :
الرمزى : تلفيق الأخبار ، جـ ١ ص ٤٦٨ ، ٤٧٢ ، ابن خلدون : تاريخه جـ ٥ ص ١١٣٥ ، القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٧٣ ، المقريزى : نفس المصدر ، جـ ١ ق ٣ ص ٧١١ ، ٧١٦ .

التبشيرى المسيحى واصيب بالاخفاق كما حدث له فى ايران فى نفس الفترة تقريبا ، وذلك بسبب العداء المقيت الذى كان ناشبا بين النساطرة والأرثوذكس والكاثوليك(٥٤) وبسبب اخلاص الخان الجديد لقضية الاسلام . فلم يكد يتولى هذا الخان العرش حتى أرسل الى مصر فى عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م وفدا من فقهاء القفجاق يتكون من مجد الدين آطا ونور الدين آطا ومعهما كتاب يتضمن ان الخان دخل فى دين الاسلام وأنه جلس على التخت ، اى العرش ، وانه يقيم شرائع الدين ونواميس المسلمين ، وأوصى بمساعدة اعضاء البعثة فى اداء فريضة الحج ، وطلب من سلطان مصر المنصور قلاون تقليد الخليفة ولقبا ينعته به من القاب المسلمين . « وعلما خليفتيا وعلما سلطانيا يقاتل بهما اعداء الدين ... من الكفار »(٥٥) .

وقد بدأ هذا الخان جهاده بأن ارسل قائده الشهير نوغاى على راس حملات عسكرية لغزو بعض البلاد المسيحية فى اوربا مثل هنغاريا عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م وبولندا وترنسلفانيا عا م٦٨٦هـ/١٢٨٧م . وبذلك امتدت الدولة فى عهده عبر سهول القمح فى أوكرانيا وحتى مصب الدانوب والقت بظلالها على سهول هنغاريا وممالك البلقان فى الصرب والبلغار . وكان ملك هنغاريا يشجع هذا الغزو ويباركه وذهب فى هذا السبيل الى حد جعله يعلن تخليه عن المسيحية بتشجيع من أمه القفجاقية الأصل ، فأعلن عليه البابا نيقولا الرابع حربا صليبية عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م ، وانتهى الأمر بقتل هذا الملك بعد ذلك بعامين ، وعادت هنغاريا الى المسيحية(٥٦) .

ورغم فشل الغزو المغولى لأوربا الشرقية فى النهاية الا أنه دلل بوضوح على التباعد الذى حدث بين خانية القفجاق وبين اوربا النصرانية ، كما أنهى على آمال المسيحيين فى الشرق من احتمال تحول مغول بلاد

---

(54) Saunders : op. cit., p. 170.

(٥٥) النويرى : نفس المصدر ، ص ٢٩ ، ورقة ٢٨ ، ابن خلدون : تاريخه ، ج ٥ ص ٨٦٠ ، العينى : نفس المصدر ، ج ٢٢ ورقة ٤٨٠ ، الرمزى : نفس المرجع ج ١ ص ٤٧٣ .

(56) Saunders : op. cit., p. 161-162.
Howorth : op. cit., v. 2, pp. 138.

القفجاق الى المسيحية(٥٧) ، بعد ان ظهر اخلاص هذا الخان للاسلام وانفعل به انفعالا قويا ادرجة انه ارسل حملة الى مغول ايران يؤدب بها من تسبب فى مقتل سلطانها المسلم احمد تكودار المعاصر له(٥٨) ، كما قرر اخيرا ان يتفرغ تماما لحياته الروحية فانقطع لحياة الزهد والتصوف والعبادة ومصاحبة المشايخ والفقراء والصالحين وآثر التنازل عن العرش طواعية لابن اخيه تلا بغا Tula bugha وهكذا كسب الاسلام الجولة فى عهد هذا الخان الصوفى(٥٩) .

اما الخان الجديد تلا بغا (٦٨٦ — ٦٩٠هـ/١٢٨٧ — ١٢٩١م) فانه لم يعمر فى الحكم طويلا ، اذ واجهته مشاكل الصدام مع مغول ايران ومع المنافسين له على العرش ، وانتهى الأمر بقيام حرب اهلية نتج عنها القضاء على هذا الخاء واعتلاء ابن عمه طقطاى Toktu بن منكوتمر العرش (٦٩٠ — ٧١٢هـ/١٢٩١ — ١٣١٢ م)(٦٠) . وكان هذا السلطان شامانيا مارقا عن دين الاسلام ، وظل طوال فترة حكمه الطويل يدين بالشامانية حتى مات عايها ، ولم يظهر من نقش عملته انه اعتنق الاسلام(٦١) ، ولذلك قيل

---

(57) Saunders : op. cit., p. 162.

(58) Howorth : op. cit., v. 2, p. 139.

(٥٩) العمرى : نفس المصدر ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٤٨ ، ابن الوردى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٣٤ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٣٥ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٧٣ ، المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٧٣٨ .

(٦٠) ابو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٢٧ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٣٥ — ١١٣٦ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٧٣ ، المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٢٦ ، الرمزى : نفس المرجع ، ص ٤٧٥ ، ٤٧٨ ،
Saunders : op. cit,. p. 162 ; Howorth : op. cit., v. 2, p. 139.

(٦١) ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج٩ ص ٢٢٦ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٠٠
Howorth : op. cit, v. 2, pp. 141, 147.

انه ناصر المسيحية(٦٢) . وربما اتى هذا القول ايضا بسبب صداقته لبيزنطة، تلك الصداقة التى كانت موجودة بين البلدين قبل مجيئه الى الحكم ، اذ كانت بيزنطة قد اختارت سياسة التواد والتحالف مع مغول القفجاق بمصاهرتهم اتقاء لخطرهم ولخطر الترك العثمانيين الذين كان نجمهم قد ظهر فى ذلك الحين . وقد سبق ان رأينا ميخائيل باليولوجوس يزوج ابنته ايرين لنوجاى قائد جيوش مغول القفجاق الشهير ، والآن نجد اندرو نيقوس امبراطور بيزنطة يرسل ابنته ماريا الى حريم طقطاى(٦٣) .

ولكن صداقة بيزنطة لطقطاى لم تؤثر على موقفه تجاه المسيحية وتجاه اوربا الشرقية المسيحية ، اذ نراه يرسل حملة لغزو بولندا عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م كما نراه يرسل فرقة عسكرية دمرت مدينة كفا وطردت من فيها ومن فى شبه جزيرة القرم من التجار الجنويين ، كما تمت مصادرة اموال الجنويين بمدينة سراى عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م وذلك لأمور نقمها عليهم طقطاى ، منها استيلاؤهم على أولاد التتار وبيعهم فى أسواق الرقيق(٦٤) ، كما انه لم يثبت ان هـذا الخان سمح للمبشرين المسيحيين ببناء الكنائس كما فعل بركة خان من قبل . وعلى ذلك فان طقطاى لم يمـل الى المسيحية كما قيـل ، وكان ميله الى المسلمين ظاهرا وواضحا رغم كونه شامانيا يعبد الأصنام والكواكب . ويبدو أن الظروف السياسية هى التى اجبرته على هذا الميل ، فقد كان المغـول المسلمون يكونون معظم جيشه ، وكان فى حاجة ماسـة لكسب ثقة هذا الجيش الذى كان أداته الرئيسية فى حل مشاكله الداخلية والخارجية ، فقد كان هناك الصدام مع قائده الطموح المستبد نوغاى ، ذلك الصـدام الذى انتهى بمقتل هذا القائد عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م ، وكان هناك الصدام الذى اشرنا اليه مع التجار الجنويين فى مدينة كفا القفجاقية ، ذلك الصدام الذى انتهى بتخريب تلك المدينة عام ٧٠٧هـ/١٣٠٨م وهناك الصراع مع السلاجقة الروم ، هذا الصراع الذى انتهى بافساح الطريق لظهور قوة الأتراك العثمـانيين العظمى منذ ذلك الحين وهناك المشكلة الروسية التى كانت تتلخص فى محاولة

---

(62) Ibid : v. 2, p. 147.

(63) Ibid : v. 2, pp. 146-147.

(٦٤) الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٤٩٨ .

الروس الاستقلال ببلادهم وابعاد التأثير الاسلامى الوافد عليهم من خانية القفجاق(٦٥) .

وقد دفعت هذه المشاكل طقطاى لأن يظهر ميله للمسلمين فى جيشه وفى بلاده ، كما حافظ على سياسة التحالف التقليدى مع مصر ، تلك السياسة التى أسسها بركة خان من قبل وسار عليها خوانين سراى جميعا . وقد اشار المؤرخون الأقدمون الى رسل ورسائل ترددت بين سراى والقاهرة عدة مرات فى عهد طقطاى وكان هدفها تعضيد هذا التحالف والحث على اتخاذ موقف موحد من مغول أيران الذين تحرش بهم هذا الخان ، رغم ان سلطان مصر الناصر محمد بن قلاون أخبره بتصالحه مع مغول ايران الذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام فى ذلك الحين وكفوا عن عدائهم لمصر والاسلام(٦٦) .

ونظرا لسياسة الميل الى المسلمين التى اتبعها طقطاى فقد سارت الحركة الاسلامية قدما الى الأمام حتى أن ابن هذا الخان نفسه اعتنق الاسلام وكان يحب سماع القرآن وان لم يفهم معانيه ، وانتوى ان ملك البلاد بعد ابيه الا يترك فيها دينا غير الاسلام ، ولكنه مات فى حياة ابيه(٦٧) ؛ فتولى العرش بعد وفاة طقطاى ابن اخيه اوزبك خان الذى وصلت الحركة الاسلامية فى عهده الى القمة وانتت بذلك الى مرحلتها التامة والنهائية بعد ان تمكن الاسلام فى هذه المرحلة التى تحدثنا عنها وهى مرحلة التمهيد والتهيئة من أن يكسب ارضا واسعة ، اذ كان قد تحول اليه بعض الخوانين ومعظم افراد الجيش المغولى وكثير من الأمراء والقواد المغول ، وصمد لمنافسة

---

(٦٥) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٥ ص ١١٣٧ — ١١٣٨ ، المقريزى السلوك جـ ١ ق ٣ ص ٨٣٧ ، ٨٧٤ ، ابو المحاسن : نفس المصدر جـ ٩ ص ٢٢٦ ، الرمزى : نفس المرجع ، جـ ١ ص ٤٨٣—٤٨٨ ،
Saunders : op. cit., pp. 163-164.

(٦٦) الرمزى : نفس المرجع ، جـ ١ ص ٤٩٤ — ٤٩٩ ، فايد عاشور : نفس المرجع ، ص ٢١٢ — ٢١٣ ،
Howorth : op. cit., v. 2, p. 146

(٦٧) العمرى : نفس المصدر ، جـ ١٦ ق ٣ ورقة ٦٨٣ ، ابن الوردى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٢٦٢ ، الرمزى : نفس المرجع ، جـ ١ ص ٥٠٠ .

الأديان الأخرى ولنشاط البابوية حتى ان الخوانين الذين لم يعتنقوه لم يظهروا معاداته بل أظهروا تفضيل المسلمين على غيرهم ، واستعانوا بهم فى اجهزة الدولة وفى بعثاتهم الدبلوماسية ، وحافظوا على الاتصال بالقوى الاسلامية وخاصة فى مصر مما سنعرض له بالتفصيل فى حينه .

٢ — مرحلة اكتمال انتشار الاسلام بين مغول بلاد القفجاق :

تبدأ هذه المرحلة بتولى اوزبك Ozbeg بن طغرلشاه بن منكوتمر عرش سراى (رمضان ٧١٢ — شوال ٧٤٢هـ/يناير ١٣١٣ — مارس ١٣٤٢م) وتنتهى بنهاية دولة القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق فى مطلع القرن السادس عشر للميلاد ، ثم تفرقها وانقسامها الى خانيات صغيرة متنافسة تمارس حياتها شامخة قوية لفترة قصيرة ثم تضعف وتتهاوى أمام ضربات الروس واحدة اثر اخرى ، فتختفى تلك الخانيات كدول مستقلة ، وان ظلت شعوبها تدين بالاسلام وتحرص عليه .

وكما رأينا فقد اثرت المرحلة السابقة فى غرس مبادىء الاسلام بين غالبية المغول وان لم تنجح فى تحويل جميع الخوانين الذين تولوا الحكم فى هذه المرحلة الى الاسلام ،ولكن انتشار الروح الاسلامية وانتشار الاسلام بين اغلبية المغول وامرائهم ساعد اوزبك خان على ان يقضى على كل ما يناوىء الاسلام فى بلاده ويجعل منه دين الدولة الرسمى بصفة نهائية ، ويتعاقب على الحكم خوانين مسلمون منذ ذلك الحين وحتى نهاية الدولة ، وانتهى نفوذ المسيحية الغربية والشرقية وقضى على آمال البوذية والشامانية بصورة تامة ، مما جعل عصر هذا الخان هو العصر الذهبى للاسلام فى خانية بلاد القفجاق ،(٦٨) واعتبره البعض ثالث حكام عظام اربعة ازدان بهم عرش القبيلة الذهبية فى هذه البلاد ، وهم باطو وبركة وأوزبك وطقتمش ،

---

(٦٨) ابو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٦٥ .العمرى : نفس المصدر ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٨٣ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٧٩ ،

Saunders :op .cit. p. 164.

والثلاثة الأخيرون كانوا مسلمين ومتحمسين لنشر الاسلام فى بلاد القفجاق ، وكان أوزبك اكثرهم تحمسا ونشاطا فى هذا السبيل(٦٩) .

وهناك روايتان تتعلقان بالوقت الذى اسلم فيه اوزبك خان . وتقول الرواية الأولى بأنه اسلم فى شبابه وقبل توليه عرش الخانية على يد اربعة من الفقهاء الفرس هم سيد شيخ محمد ، والشيخ قولقات والشيخ احمد والشيخ حسن قرقان(٧٠) . وتقول الرواية الثانية انه اسلم بعد توليه عرش الخانية ، وكان قد بايع له نائب السلطنة قطلقتمر بعد أن عاهده اوزبك على انه اذا جلس على العرش فسوف يعتنق الاسلام ويتمسك به ، فلما ساعده قطلقتمر على ذلك دخل فى دين الله راغبا ، واتخذ مسجدا يصلى فيه الصلوات الخمس فى أوقاتها(٧١) . واستند بارتولد على هذه الرواية وقال بأن اوزبك اسلم بعد توليه العرش بحوالى تسع سنوات ، أى فى عام ٧٢٠هـ/١٣٢١م على يد الشيخ سيد آتا التركستانى المدفون فى طشقند(٧٢) . ولكننا لا نستطيع ان نسلم بهذه الرواية خصوصا وأن الشيخ الذى اسلم على يديه هذا الخان لم يكن معلما له كما قال صاحب هذه الرواية ، وانما كان معلما لابنه(٧٣) ، كما ان أصحاب الرواية الأولى سابقون زمنيا على اصحاب الرواية الثانية التى جاء بها ابن خلدون كما ان ابو المحاسن بن تغرى بردى الذى اتى بعد ابن خلدون نفسه كان دقيقا فى تعبيره ، فقد اشار فقط الى مساعدة قطلقتمر لأوزبك على تولى السلطة ، ولم يشر الى أن ذلك سوف يكون ثمنا لاعتناق اوزبك للاسلام(٧٤) ولذلك فاننا نميل الى القول بأن

---

(٦٩) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٩٦ ،
Saunders :op .cit. p. 164.

(٧٠) العمرى : نفس المصدر ، جـ١٦ ق ٣ ورقة ٦٨٣ ، ابن الوردى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٢٦٢ ،
Howorth, op. cit., v. 2, p. 172.

(٧١) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٥ ص ١١٣٩ ، العينى : نفس المصدر جـ ٢٣ ق ١ ورقة ٢٤ ، ٢٥ .

(٧٢) تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ص ١٧٩ .

(٧٣) ابن بطوطة : نفس المصدر : ص ٢٢٥ .

(٧٤) النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ص ٢٢٦ .

اسلام أوزبك خان قبل توليه العرش ، وربما كان هذا الاسلام علـى يـد المشايخ الذين سبقت الاشارة اليهم او على يد نائب السلطنة او على يـد الاثنين معا لأن الحركة الاسلامية كانت فى طريقها الى احراز النصر النهائى لها كما سبق القول . ولذلك فانه بمجرد ان اعتلى اوزبك العـرش اظهر تحمسا شديدا لنشر الاسلام وحرص الحرص كله على تحويل من بقى على الوثنية من المغول فى بلاده الى الاسلام . وفى خلال عام واحد ارسل الى القاهرة يقول انه ليس هناك وثنى واحد فى بلاد القفجاق(٧٥) .

ولكن هذا الأمر لم يتم بسهولة اذ تحرش به بعض امراء المغول الذين كانوا لا زالوا على الوثنية وقالوا له « اقنع بطاعتنا ، وماذا يهمـك من امر ديانتنا ؟ ولماذا تهجر ديانة جنكيز خان وتعتنق ديانة العرب ؟» ولما لم يسلم لهم أوزبك بما قالوا ، دبروا للتخلص منه وتآمروا على قتله ،ولكنه علم بهذا التآمر وقبض على المتآمرين وعلى اتباعهم واعدمهم . وبذلك اجتث البقية الباقية من الوثنية المغولية وخلا له الجو تماما وأصبح مطلق اليدين فى نشر الدين الاسلامى بين المغول وغيرهم من الشعوب التى كانت تحت سلطانه(٧٦) .

وقد اراد السلطان اوزبك خان من البداية ان يجعل من نفسـه ومن اسرته مثالا يحتذى به كافة المغول فى حبهم للاسلام والاخلاص له والعمل على نشره وتطبيق تعاليمه . فقد تمسك هـذا الخان بالشريعة الاسلامية وحافظ على الصلاة . وداوم على الصيام(٧٧) ، واتخذ لنفسه اسـما ولقبا اسلاميا ، يظهر ذلك من العملة التى صكت فى عهده فعلى بعضها نرى اسمه « غياث الدين أوزبك خان » ، وعلى اخرى « محمد أوزبك خان » وعـلى

---

(٧٥) ارنولد : نفس المرجع ، ص ١٧١ ، الـرمزى : نفس المـرجع ج ١ ص ٥١٢ ،
Saunders : op. cit., p. 164.

(٧٦) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٣٩ ، العينى : نفس المصدر ، ج ٢٣ ق ١ ورقة ٢٥ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٠٤ ، ٥٠٥ ،
Howorth : op. cit., v. 2, 148.

(٧٧) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٧٤

جديد ، كانوا يحكمون عليهم بالتنصر قائلين لهم ان هدمهم لمساجدهم علامة على ضعف ايمانهم واعراضهم عن دين الاسلام ويأمرونهم باعتناق المسيحية . وعندما كان المسلمون يمتنعون عن هدم مساجدهم حتي لا يتخذ ذلك ذريعة لاتهامهم بالتخلى عن دينهم كان رجال الحكومة الروسية يهدمونها بأنفسهم ويعتبرون سكوت المسلمين على ذلك أيضا علامة على اعراضهم عن دينهم ورضى منهم بالنصرانية ، التى يجب ان يعتنقوها والا كان نصيبهم القتل أو التعذيب الشديد والاضطهاد البالغ(١٠٩) .

وفى القرن الثامن عشر بذلت الحكومة الروسية جهودا جديدة لتنصير المغول الوثنيين منهم والمسلمين وأمرت الامبراطورة كاترين الثانية فى عام ١١٩٢هـ/١٧٧٨م بأن يوقع الذين يرغمون على التنصر على اقرار كتابى يتعهدون فيه بترك خطاياهم الوثنية وتجنب كل اتصال بالكفار (أى المسلمين) والتمسك بالدين المسيحى وعقائده والثبات عليها ، ولكن هؤلاء المتنصرين الجدد كانوا لا يلبثون أن يتركوا عقيدتهم الجديدة ويعتنقوا الاسلام فى حرية وطواعية ودون اجبار او اكراه او اغراء(١١٠) .

وفى النصف الأخير من القرن الماضى بذلت روسيا النصرانية جهودا اخرى لتنصير هذه القبائل الوثنية والاسلامية عن طريق انشاء مدارس بينهم وخاصة فى القرى حيث يسهل ترويض القرويين وادخالهم فى صفوف المسيحيين ، ووضع القانون الجنائى الروسى عقوبات صارمة لمن يرتد عن المسيحية الى الاسلام ولمن يساعد على ذلك وذلك بتجريده من كافة الحقوق المدنية وبحبسه مع الأشغال الشاقة مدة تتراوح بين ثمانى وعشر سنوات (١١١) .

وهكذا ومنذ سقطت دولة مغول القبيلة الذهبية الاسلامية وسقطت بعدها خانية قازان الاسلامية نشبت معركة صليبية من الدرجة الأولى بين مغول تلك البلاد وسكانها بصفة عامة وبين روسيا النصرانية ، وقد صمد المسلمون فى هذه المعركة بقدر ما وسعهم الصمود رغم عدم النصير والمعين

(١٠٩) الرمزى : نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٨٨ — ١٩٢ ،
(١١٠) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(١١١) المرجع السابق ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

ورغم ان النصرانية كانت مدعمة بقوة الدولة الروسية التى كانت تفــرض سلطانها على تلك الخانية ، وقاوم المسلمون التنصير الذى فرضه الروس عليهم فرضا ولكن بعضهم تنصر وفر آخرون الى الجهات الشرقية والجنوبية حيث يسود الاسلام(١١٢) .

وقد ساعد المسلمين على المقاومة والصمود ان القساوسة الروس لم يفهموا لغة الناس الذين كانوا يريدون تنصيرهم ، كمـــا ان رقى الحيـــاة الاخلاقية فى المجتمع الاسلامى وشعور التآخى الذى كان شائعا فى هـــذا المجتمع والذى جعله اكثر تماسكا وقوة ، إعطى المسلمين زادا جديدا للصمود، وللدعوة للاسلام فرصة للتقدم فى نفس الوقت ، حتى ان كل مسلم امى صار داعية الى دينه ، وعجزت القبائل الفقيرة الجاهلة الأمية من الوثنيين او اشباه الوثنيين عن ان تقاوم هؤلاء الدعاة الذين كانوا يشاركونهم لغـــة الحـــديث ويشتركون معهم فى العادات والتقاليد واساليب الحياة . وفى كثير من القرى التى تم تنصير اهلها كرها او طواعية كان رجالها يذهبون لاحتــراف حرفة الحياكة او غيرها فى القرى الاسلامية ، وهناك يتحولون الى الاسلام ثــم يعودون الى قراهم دعاة يبشرون بدينهم الجديد(١١٣) .

وهكذا نجحت الحركة الاسلامية فى أن تجذب كثيرا من المغول وغيرهم من الذين تنصروا ، فأسلمت قرى روسية بأكملها فى الشمال الشرقى من قازان ، واسلم معظم اهالى قبيلة الفوتياك VotiaKs المسيحية فى القرن الثامن عشر ، وفى القرن التاســع عشر اســلم الــكثير من اهــالى قبيلة الشوفاش chuvash الذين كان عددهم يبلغ المليون ، وكثـــير من أهالى قبيلة الشريميس cheremiss نتيجة اتصالهم بالباشقرد والمغول المسلمين ومصاهرتهم لهم ، واصبح الشريميس بعد اسلامهم على جانب عظيم من الحماسة لنشر دينهم الجديد(١١٤) .وفى بدايةالقرن الحالى تحولت احدى وتسعون أسرة الى الاسلام فى قرية اتومفا Atomva وحـدها عـــام ١٩٠٩م ، كما اسلم حوالى ثلاثة وخمسون الف نسمة بين سنتى ١٩٠٦ ،

(١١٢) الرمزى : نفس المرجع ، جـ ٢ ص ١٨٥ .
(١١٣) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .
(١١٤) المرجع السابق ، ص ٢٨١ ، ٢٨٣ .

ـ ١٣٥٧م) . فقد امر هذا الخان الجديد على ان يلبس جميع التتار فى مملكته عمائم وفرجيات كما يلبسها اهل الاسلام فى مصر والشام ، ولم يكن للتتار قبل ذلك عادة بلبس هذا الزى ، كما انه اظهر حبه للعلماء وحضر مجالسهم وصارت بلاده مأوى للعلماء والفقهاء من كل حدب وصوب حتى امتلأت سراى بهم ، كما حافظ على سياسة آبائه وأجداده فى ضرورة اخضاع الروس لدولة الاسلام ، فجاء كنياز روسيا (أى اميرها او ملكها) ومطرانها الى سراى « لتجديد العهود والمواثيق واظهار العبودية على ما جرت به العادة عند تجدد الخوانين وتبدل الكينازات » كما حافظ على سياسة سراى فى مراسلة سلطان مصر تعميقا لروح الأخوة الاسلامية بين البلدين(٩٠) .

وكان هذا الخان من أعظم الخوانين واعدلهم واعلمهم واكثرهم ورعا ، ولكن خلفه خلف لم يكن على نفس المستوى من العدالة والورع ، فقد كان ابنه محمد بردى بك خان (٧٥٨ — ٧٦٢هـ/١٣٥٧ — ١٢٦١م) ظلوما غشوما قتل الكثيرين من أقاربه واخوته ، فاضطربت البلاد وكثرت الفتن ، وانتهز قواد الجيوش وأمراء الأجناد وولاة النواحى فرصة موت هذا الخان الظلوم واستبدوا بالحكم ، كل فى بلدة من تلك البلاد ، استقل كل منهم باقليم من الأقاليم ، واشتغل كل منهم بمحاربة الآخر أو مدافعته . وظلت هذه الفوضى ضاربة أطنابها فى البلاد مدة عشرين عاما تمكن فيها الروس من هزيمة جيوش (مماى) أحد امراء المغول المتغلبين على عرش سراى — مرتين اخداهما فى عام ٧٨٠هـ/١٣٧٨م ، والثانية فى عام ٧٨٢هـ/١٣٨٠م وذلك لأول مرة منذ ان اخضعهم التتار فى عهد باطو بن جوجى بن جنكيز خان عام ٦٣٥هـ/١٢٣٧م ، واستيقظت فيهم الحمية الدينية واحتشدوا جميعا لقتال التتار وقالوا « نموت ونقتل ولا نعطى وطننا وديننا » حتى تمكنوا من صد جيوش مماى وهزيمته كما راينا ولم ينقذ البلاد من هذا الضعف ومن هذا التمزق والانقسام الا آخر الخوانين العظام وهو طقتمش (توقتاميش) بن بردى بك بن جانى بك (٨٧٢ — ٧٩٨هـ/١٣٨٠ — ١٣٩٥م)(٩١) .

---

(٩٠) المرجع السابق ، ج ١ ص ٥٤٧ — ٥٥٠ ، ٥٥٤ .

(٩١) المرجع السابق ، ج ١ ص ٥٤٩ ، ٥٥٦ ، ٥٥٨، ٥٦١، ٥٦٣ .

وكان هذا الخان قد لجأ أثناء الصراع على العرش فى سراى الى امير مغولى يسمى تيمورلنك كان قد استولى على بلاد ما وراء النهر من يد حكامها من بنى جغطاى بن جنكيز خان ، واسس فيها ملكا لنفسه منذ عام ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م ، وأراد تيمورلنك أن يدفع بهذا اللاجىء الى سراى حتى يقضى به على القائد مماى الذى قويت شوكته ، فساعده حتى استولى على سراى ، واستطاع طقتمش ان يعيد الأمن الى البلاد وان يسترد للدولة قوتها ، ثم سار الى روسيا ودخل موسكو عام ٧٨٣هـ/١٣٨٢م وخربها وقتل آلافا عديدة من سكانها وأحرقها ونهب كنائسها انتقاما لما فعله الروس أثناء تغلبهم على جيوش مماى ، فأسرع سائر كينازات الروس وحكامهم بتقديم الطاعة والولاء(٩٢) .

ولسوء حظ هذه البلاد فقد ساءت العلاقة بين تيمورلنك وبين طقتمش ووقعت الحرب بينهما وتعددت وقائعها منذ عام ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م حتى انتهى الأمر بهزيمة طقتمش وقتله وهروب أولاده الى بلاد الروس عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م ، وقام تيمورلنك بقتل الاف السكان وخرب سراى العاصمة وكثيرا من المدن الأخرى مثل سرايجق وحاجى طرخان وازاق والقرم وغيرها(٩٣) ، فقوى شأن الروس منذ ذلك الحين واصبحت آمالهم فى الاستقلال قريبة المنال وقالوا لأنفسهم « نغرم وندق التتار أعداء النصرانية »(٩٤) .

ورغم الضربة الشديدة التى انزلها تيمورلنك ببلاد القفجاق ، الا أنها سرعان ما استعادت شيئا من قوتها وعادت سلالة جوجى بن جنكيز خان للحكم مرة ثانية منذ عام ٨١٤هـ/١٤١١م بعد أن مات تيمورلنك وضعفت

---

(٩٢) ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ١١ ص ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٦٨ ، ٥٧١ — ٥٨٠ .

(٩٣) عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٥٤ — ٦٢ ، شرف خان البدليسى نفس المصدر ، ص ٥٥ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ١١ ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٩ — ٦٢٤

Saunders : op .cit., pp. 167-168.

Howorth : op. cit., v. 2, pp. 235, 257-258.

(٩٤) الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٦٣١ .

دولته بمجرد موته عام ٨٠٨هـ/١٤٠٥م(٩٥) . ولكن الضربة التى كان تيمورلنك قد كالها لسلطنة المغول فى بلاد القفجاق أثرت كثيرا على الأوضاع هناك ولم تفق تلك البلاد من هذه الضربة ابدا ، فقد عادت الفتنة من جديد ، وقام النزاع بين السلاطين والأمراء المغول للفوز بكرسى السلطنة ، وبدأت خانية القبيلة الذهبية تسير فى طريق النهاية وانقسمت الى خانيات صغيرة منذ عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م فحقق امراء المغول فى القرم استقلالهم وأسسوا لأنفسهم خانية هناك (٨٢٣ — ١١٩٧هـ/١٤٢٠ — ١٧٨٣م) ، وفعل نفس الشىء امراء قازان (٨٤١ — ٩٥٩هـ/١٤٣٧ — ١٥٥٢) ، واستراخان (٨٧٠ — ٩٦١ هـ/١٤٦٥ — ١٥٥٤م) وسيبريا (٨٣٠ — ٩٨٩هـ/١٤٢٧ — ١٥٨١م) وخوارزم (٩٢١ — ١٢٩٠هـ/ ١٥١٥ — ١٨٧٣م)(٩٦) فصاروا مثل ملوك الطوائف فى بلاد الأندلس وملوك الزيلع والصومال فى منطقة القرن الافريقى ، مما شجع الروس على التصدى لهم وتحالفوا مع بعضهم وشجعوهم على قتال بعضهم البعض ، فأصبحوا يتحاربون فيما بينهم ، وازداد الانقسام بعد مقتل آخر خان حاول ان يوحد البلاد تحت لوائه وأن يضع حدا لازدياد نفوذ الروس ، وهو الخان احمد خان بن كجى محمد خان (٨٥٠ — ٨٨٥هـ/١٤٤٦ — ١٤٨٠م) . ولم يكن مقتل هذا الخان الا على أيدى بنو عمومته من بنى شيبان ونوغاى امراء الشمال . ونستطيع القول انه منذ ذلك التاريخ حققت روسيا استقلالها بعد مائتى وخمسين عاما من سيطرة دولة القفجاق عليها ، تلك الدولة التى أصبحت دويلات متنازعة ، تحاربه كل منها الأخرى ويتحالف بعضها مع موسكو ضد البعض الاخر ، حتى انتهى الامر اخيرا بتمكن مكلى كراى سلطان مغول القرم المتحالف مع موسكو من احتلال سراى عام ٩٠٧هـ/١٥٠٢م وقضى نهائيا على حكم القبيلة الذهبية منذ

---

(٩٥) المرجع السابق ، جـ ١ ص ٦٣٩ ،

Saunders : op cit., p. 173.

(٩٦) الرمزى : نفس المرجع ، جـ ١ ص ٦٧٢ ، ٧١١—٧١٣ ،

Saunders : op. cit., pp.167-168.

Zambour : Manueld Genealogio et de chronologie pour l'Histoire de L'Islam, v. 1, p. 249.

ذلك التاريخ وأرسل آخر خوانينها الى مدينة كييف الروسية حيث مات فى سجنه بها ، وبموته انقرض سلاطين القبيلة الذهبية فى سراى الى الأبد وأصبح انقسام الدولة الى خانيات صغيرة امرا واقعا وحقيقة مؤكدة(٩٧) .

وقد تحملت هذه الخانيات الصغيرة عبء المحافظة على الاسلام والدعوة اليه ما امكن ، كما تحملت عبء الدفاع والجهاد ضد الروس الذين علا صوتهم واشتد نفوذهم وارادوا أن يحققوا حلم آبائهم وأجدادهم فى السيطرة على خانيات المغول فى بلاد القفجاق أولا ، وعلى القضاء على الاسلام ثانيا ، لا سيما بعد أن تزوج الأمير ايفان حاكم موسكو من الأميرة صوفيا ابنة آخر اباطرة القسطنطينية ، واعتبر نفسه وريثا لأباطرة الروم واليونان بعد سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م ، واعتبر ان موسكو خلفت عاصمة الروم وانها أصبحت العاصمة الأرثوذكسية الوحيدة فى العالم بأسره ، وانها بذلك قد صار لها حق حماية الأرثوذكس فى الشرق كله ، وأصبح لها حق الانتقام من المسلمين بسبب ما فعلوه عام ١٤٥٣م . واشتد حماسه وحماس خلفائه فى القضاء على المسلمين وخاصة مسلمى خانيات القفجاق التى تجاورهم والتى كانت ذات يوم لها السيطرة الكاملة عليهم(٩٨) فهى حرب صليبية تعرض لها المسلمون فى تلك البلاد كما تعرضوا لها من قبل فى بلاد الأندلس وفى بلاد الزيلع والصومال وفى بلاد الشام . ومن الغريب أن هذه الحروب الصليبية التى تعرض لها الاسلام فى تلك البلاد جميعا كانت على هيئة حلقات ، كل حلقة تسلم الى الحلقة الأخرى . فقد بدأت هذه الحروب اولا فى بلاد الأندلس منذ سقوط طليطلة فى يد ملك ليون وقشتالة عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م(٩٩) ، ثم انتقلت الى بلاد

---

(٩٧) الرمزى : نفس المرجع ، جـ ١ ص ٧١١ — ٧١٢،٧١٤،٧١٥،
Howorth : op. cit., v. 2 ; pp. 346-347.

(٩٨) باسيليوس ضرباوى : نفس المرجع ، ص ١١١ ، ١١٢ .

(٩٩) رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف ، ص ٣٨٠ .

الشام بوصول اول حملة صليبية اليها عام ٤٩٠هـ/١٠٩٧م(١٠٠) ، ثم الى بلاد الزيلع والصومال بأول حملة لملك الحبشة (يكونو املاك) على تلك البلاد عام ٦٧٠هـ/١٢٧١م(١٠١) ثم الى بلاد القفجاق جنوب روسيا بحملات الروس على تلك البلاد منذ بداية القرن السادس عشر للميلاد . اذن فهو حريق هائل أشعلته النصرانية فى العصور الوسطى لتحرق به عالم الاسلام ، وبدأته بداية غير متزامنة ، ثم تواصلت حلقاته والتقت حتى أحاطت بدنيا الاسلام من الشمال فى بلاد القفجاق ، ومن الجنوب فى بلاد الزيلع والصومال ، ومن الغرب فى بلاد الأندلس ، وفى الوسط حيث بلاد الشام ، ومن الشرق حيث المغول الوثنيون الذين جرت محاولات للتحالف معهم ضد الاسلام . وقد نجح المسلمون فى اخماد هذا الحريق فى بعض الأنحاء مثل بلاد الشام حيث اقتلعوا الصليبية من آخر معاقلها فى عكا ١٧ جمادى الأولى عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م(١٠٢)، كما نجحوا أيضا فى الشرق حيث تمكن الاسلام من القضاء على التحالف الصليبى المغولى بتحويل المغول انفسهم الى الاسلام فأصبحوا درعا له وحماة ضد صليبية الروس . ولكن المسلمين فشلوا فى أنحاء اخرى والتهمهم هذا الحريق فى بلاد الأندلس حيث قضى على الدين والدولة بسقوط آخر معاقل المسلمين فى غرناطة عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م وأصابهم هذا الحريق ببعض الحروق فى بلاد الزيلع والصومال ، وظل المسلمون فى تلك البلاد يجاهدون

---

(١٠٠) السيد الباز العرينى : الشرق الأوسط والحروب الصليبية : جـ ١ ص ٢٣١ — ٢٦٠ .

(١٠١) رجب عبد الحليم : العلاقات السياسية بين مسلمى الزيلع ونصارى الحبشة فى العصور الوسطى ص ١٣٨ — ١٣٩ .

(١٠٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٣ ص ٣٢٠ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٥ ص ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، المقريزى : نفس المصدر : جـ ١ ق ٣ ص ٧٦٣ — ٧٦٩ ميور : تاريخ دولة المماليك فى مصر ص ٦٢ .

(١٠٣) الناصرى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، جـ ٢ ص ١٦٣ ، ١٦٨ ،

Scott : A history of the moorish Empire in Europe, pp. 681-685 ;
Lea (Hinry. c) : The Moriscos of Spain, pp. 19-24,
A history of the inquisition of Spain, p. 135.

لانقـاذ الاسـلام وللحفاظ على كيانهم ضد صليبية الأحباش ، وفعل اخوانهم من المغول فى بلاد القفجاق نفس الشىء ونشأ عندهم عصر يمكن ان نطلق عليه عصر الجهاد ضد صليبية الروس .

٤ ــ عصر الجهـاد ضد صليبية الروس :

فى هذا العصر نرى امامنا خانيات مغولية متعددة ، من اهمها خانية مغول القرم وخانية مغول قازان وخانية مغول سيبيريا ، وهى خانيات تلاصق البلاد الروسية وتحيط بها من الجنوب والشرق . وقد عاشت هذه الخانيات مستقلة مدة من الزمن قد تطول وقد تقصر حتى طواها الروس تحت جناحهم واخضعوها فى النهاية لسلطانهم وابقوا على الأسر الحاكمة التى قبلت ببذل الطاعة ودفع الجزية .

والغريب انه رغم هذه الظروف السياسية السيئة التى قضت على وحدة دولة مغول القفجاق ، فقد استمر الاسلام فى الانتشار بين المغـول وغيرهم من القبائل والشعوب والأفراد الذين كانوا لا يزالون على الوثنية ، بل اعتنقه بعض المسيحيين انفسهم . فقد كان مغول القرم رغم خضوعهم للروس يبذلون جهدهم فى القرن السابع عشر للميلاد لحث مواليهم عـلى الدخول فى الاسلام وجذبوا كثيرين منهم بالفعل لاعتناقه بما كانوا يعدونهم به من منحهم الحرية اذا ما استجابوا لدعواهم واسلموا . ولـكن الروس قاموا بنشاط محموم لتحويل هلاء الموالى والعبيـد الى المسيحية بالترغيب والترهيب كما انهم استولوا على هذه الخانية نهائيا عام ١١٩٧هـ/١٧٨٣م مما اضعف من الحركة الاسلامية فى هذا الاقليم لمدة طويلة ولم تنشط الا بعـد ان اصدرت الحـكومة الروسية مرسـوم حرية التـدين عـام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م(١٠٤) .

اما فى خانية قازان فقد نشط فيها الاسلام نشاطا ملحوظا ، فقد كانت تلك المدينة مغولية النشأة ، اسلامية الطابع . وقد بناها المغول فى عهـد

---

(١٠٤) ارنولد : نفس المـرجع ، ص ٢٧٦ ، باسيليوس خرباوى : نفس المرجع ، ص ١١٦ ،

Zambaur : Op. cit., vol. p. 249.

باطو بن جوجى بن جنكيز خان بالقرب من بلاد الروس ليتمكنوا من مراقبتهم ورصد حركاتهم . ولما ضعفت دولة القبيلة الذهبية فى سراى وتمكن الروس من تدمير مدينة بلغار عام ٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م حلت محلها مدينة قازان فى التصدى لهؤلاء الروس وفى رفع لواء الاسلام فى تلك الأصقاع الشمالية النائية ، واستطاع سلطانها الوغ محمد خان ان يجمع حوله اعدادا هائلة من البلغار والمغول وغيرهم من مغول حامى طرخان وسراى والقرم وأزاق الذين كانت قد فشت بينهم الفتن وانعدم الأمن منذ أن خرب تيمورلنك بلادهم عام ٧٩٨هـ/١٣٩٥م ، وتمكن الوغ محمد ان يستقل بخانية قازان عن سراى منذ عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م وازدادت قوته وهاجم موسكو عدة مرات واسر كينازها (حاكمها) (واسيلى) عام ٨٤٩هـ/١٤٤٥م وخرب كثيرا من مدن الروس وصارت كينازية موسكو الروسية المسيحية تابعة لخانية قازان المغولية الاسلامية ، واستمر مغول قازان يسيطرون على دولة الروس ويخضعونها لطاعتهم أكثر من مائة عام(١٠٥) .

ولكن الصراع ما لبث ان نشب بين الفريقين(١٠٦) بعد أن ضعفت خانية قازان بسبب الفتن والحروب التى نشبت بينها وبين الخانيات المغولية الأخرى التى انقسمت اليها دولة القبيلة الذهبية ، وبسبب الفتن التى نشبت أيضا بين خوانين قازان انفسهم ، مما ادى فى النهاية الى تغلب الروس على قازان واستيلائهم عليها نهائيا عام ٩٥٩هـ/١٥٥٢م(١٠٧) .

وقبل ان تسقط هذه الخانية التى كانت قد نشأت على حدود كينازية موسكو من ناحية الشرق وامتد نفوذها الى جبال الأرال والى الشمال

---

(١٠٥) الرمزى : نفس المرجع ، جـ ٢ ص ٥١ — ٥٧ ، باسيليوس خرباوى : نفس المرجع ص ١١٦ .

(١٠٦) للوقوف على تفاصيل الصراع بين خانية قازان وبين موسكو ، أنظر : الرمزى : نفس المرجع ، جـ ٢ ص ٥٥ — ١٤٩ ، باسيليوس خرباوى : نفس المرجع ٢٤ ، ١٢٥ .

(١٠٧) الرمزى : نفس المرجع جـ ٢ ص ١٣٦ — ١٤٩ ، عبد العزيز جنكيز خان : نفس المرجع ، ص ٨٤

Zambaur : op. cit., v. 1, p. 249.

الشرقى من موسكو فى بعض الأحيان ، قامت بدورها فى نشر الاسلام فى هذه المناطق بين من كانوا على الوثنية،ذلك ان هذه الخانية كانت قد ضمت الى جوار سكانها من البلغار والمغول المسلمين ، جماعات اخرى وثنية مثل جماعة جواش الذين كانت مساكنهم تقع فى الجنوب الغربى من ولاية قازان متاخمين للروس ، وجماعة جرمش الذين كانت مساكنهم تقع فى الشمال الغربى من ولاية قازان وفى ولاية نيزنى نوغورد وولاية واتكا ، وجماعة آر الذين كانت مساكنهم تقع فى شمالى قازان وفى ولاية واتكا وبيرم . وقد بدأت هـــذه الجماعات تدخل فى الاسلام بالتدريج خصوصا قوم جواش ، وكانت هنـــاك قرى يعتنق جميع اهلها الاسلام ، واخرى يعتنقه نصف اهلها او اقل ، اما الذين ظلوا على وثنيتهم فقد اخذوا بعض العادات والآداب الاسلامية التى عاشت بينهم حتى بعد تنصرهم فى العصور المتأخرة(١٠٨) .

وكان تيار الاسلام يسير فى طريقه المرسوم ويكتسح مظاهر الوثنية بين تلك الاقوام بالتدريج حتى فوجىء الناس بفاجعة سقوط الدولة الاسلامية فى قازان باستيلاء الروس عليها كما قلنا عام ٩٥٩هـ/١٥٥٢ م وتشكلت هناك جمعية تبشيرية تسمى جمعية المسيونير ، نشط اعضاؤها فى جذب اقوام جواش وغيرهم الى المسيحية ، واخذوا يرغبونهم فى ذلك باعفاء اغنيائهم من الضرائب واعطاء فقرائهم الكثير من الأموال ، وقامت الفتنة بين المسلمين وبين النصارى الجدد والوثنيين الذين كان يشـــجعهم الروس على ذلك ، فاضطر المسلمون الى الهجرة الى اماكن تكون فيهـــا الغلبـــة او الأكثـــرية للمسلمين . وكانت حكومة الروسية منذ القرن السابع عشر تدفع المســـلمين فى هذا الاتجاه دفعا وتنتهز فرصة تنصر ثلاث او اربـــع اسر من اى قـــرية مسلمة ، فتأمر باقى أهل القرية كلهم اما بالتنصر أو الهجرة الى مكان آخر . ولذلك خلت كثير من القرى من سكانها المسلمين وانقلبت قـــرى كثيرة الى النصرانية تحت ضغط الحكومة الروسية وجمعية المسيونير ، التى كانت تأمر الأهالى وخاصة فى الجهات الشمالية لقازان بهدم مآذن المساجد او المساجد نفسها بحجة انها اصبحت قديمة وآيلة للسقوط ويخشى على الناس منهـــا ، وعندما كان المسلمون يستجيبون لذلك ويهدمون مساجدهم على أمل بنائها من

---

(١٠٨) الرمزى : نفس المرجع جـ ٢ ص ١٨٧ ، ١٨٨ ، باسيليوس خرباوى : نفس المرجع ص ١٢٦ .

جديد ، كانوا يحكمون عليهم بالتنصر قائلين لهم ان هدمهم لمساجدهم علامة على ضعف ايمانهم واعراضهم عن دين الاسلام ويأمرونهم باعتناق المسيحية . وعندما كان المسلمون يمتنعون عن هدم مساجدهم حتى لا يتخذ ذلك ذريعة لاتهامهم بالتخلى عن دينهم كان رجال الحكومة الروسية يهدمونها بأنفسهم ويعتبرون سكوت المسلمين على ذلك ايضا علامة على اعراضهم عن دينهم ورضى منهم بالنصرانية ، التى يجب ان يعتنقوها والا كان نصيبهم القتل أو التعذيب الشديد والاضطهاد البالغ(١٠٩) .

وفى القرن الثامن عشر بذلت الحكومة الروسية جهودا جديدة لتنصير المغول الوثنيين منهم والمسلمين وأمرت الامبراطورة كاترين الثانية فى عام ١١٩٢هـ/١٧٧٨م بأن يوقع الذين يرغمون على التنصر على اقرار كتابى يتعهدون فيه بترك خطاياهم الوثنية وتجنب كل اتصال بالكفار (أى المسلمين) والتمسك بالدين المسيحى وعقائده والثبات عليها ، ولكن هؤلاء المتنصرين الجدد كانوا لا يلبثون أن يتركوا عقيدتهم الجديدة ويعتنقوا الاسلام فى حرية وطواعية ودون اجبار او اكراه او اغراء(١١٠) .

وفى النصف الأخير من القرن الماضى بذلت روسيا النصرانية جهودا اخرى لتنصير هذه القبائل الوثنية والاسلامية عن طريق انشاء مدارس بينهم وخاصة فى القرى حيث يسهل ترويض القرويين وادخالهم فى صفوف المسيحيين ، ووضع القانون الجنائى الروسى عقوبات صارمة لمن يرتد عن المسيحية الى الاسلام ولمن يساعد على ذلك وذلك بتجريده من كافة الحقوق المدنية وبحبسه مع الأشغال الشاقة مدة تتراوح بين ثمانى وعشر سنوات (١١١) .

وهكذا ومنذ سقطت دولة مغول القبيلة الذهبية الاسلامية وسقطت بعدها خانية قازان الاسلامية نشبت معركة صليبية من الدرجة الأولى بين مغول تلك البلاد وسكانها بصفة عامة وبين روسيا النصرانية ، وقد صمد المسلمون فى هذه المعركة بقدر ما وسعهم الصمود رغم عدم النصير والمعين

---

(١٠٩) الرمزى : نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٨٨ — ١٩٢ ،
(١١٠) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(١١١) المرجع السابق ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

ورغم ان النصرانية كانت مدعمة بقوة الدولة الروسية التى كانت تفرض سلطانها على تلك الخانية ، وقاوم المسلمون التنصير الذى فرضه الروس عليهم فرضا ولكن بعضهم تنصر وفر آخرون الى الجهات الشرقية والجنوبية حيث يسود الاسلام(١١٢) .

وقد ساعد المسلمين على المقاومة والصمود ان القساوسة الروس لم يفهموا لغة الناس الذين كانوا يريدون تنصيرهم ، كما ان رقى الحياة الأخلاقية فى المجتمع الاسلامى وشعور التآخى الذى كان شائعا فى هذا المجتمع والذى جعله اكثر تماسكا وقوة ، أعطى المسلمين زادا جديدا للصمود، وللدعوة للاسلام فرصة للتقدم فى نفس الوقت ، حتى ان كل مسلم امى صار داعية الى دينه ، وعجزت القبائل الفقيرة الجاهلة الأمية من الوثنيين او اشباه الوثنيين عن ان تقاوم هؤلاء الدعاة الذين كانوا يشاركونهم لغة الحديث ويشتركون معهم فى العادات والتقاليد واساليب الحياة . وفى كثير من القرى التى تم تنصير اهلها كرها او طواعية كان رجالها يذهبون لاحتراف حرفة الحياكة او غيرها فى القرى الاسلامية ، وهناك يتحولون الى الاسلام ثم يعودون الى قراهم دعاة يبشرون بدينهم الجديد(١١٣) .

وهكذا نجحت الحركة الاسلامية فى أن تجذب كثيرا من المغول وغيرهم من الذين تنصروا ، فأسلمت قرى روسية بأكماها فى الشمال الشرقى من قازان ، وأسلم معظم اهالى قبيلة الفوتياك VotiaKs المسيحية فى القرن الثامن عشر ، وفى القرن التاسع عشر أسلم الكثير من أهالى قبيلة الشوفاش chuvash الذين كان عددهم يبلغ المليون ، وكثير من أهالى قبيلة الشريميس cheremiss نتيجة اتصالهم بالباشقرد والمغول المسلمين ومصاهرتهم لهم ، وأصبح الشريميس بعد اسلامهم على جانب عظيم من الحماسة لنشر دينهم الجديد(١١٤).وفى بدايةالقرن الحالى تحولت احدى وتسعون أسرة الى الاسلام فى قرية اتومفا Atomva وحدها عام ١٩٠٩م ، كما اسلم حوالى ثلاثة وخمسون الف نسمة بين سنتى ١٩٠٦ ،

---

(١١٢) الرمزى : نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٨٥ .
(١١٣) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .
(١١٤) المرجع السابق ، ص ٢٨١ ، ٢٨٣ .

١٩١٠م(١١٥) ، مما يقطع بالنجاح المطرد للحركة الاسلامية حتى فى هـذه البلاد التى كانت تحت سيطرة النصرانية .

وكان الأمر فى خانية سيبيريا مشابها لما كان عليه الأمر فى خانية قازان فقد نشأت فى هذه البلاد على يد اولاد شيبان خامس أولاد جوجى بن جنكيز خان خانية مغولية اتخذت من قلعة سيبر التى تسمى أيضا باسم ايسكر عاصمة لها وامتدت لتشمل الأراضى الواقعة بين نهرى ايرتش واوب ، وكان مغولها فى طاعة خوانين القبيلة الذهبية فى سراى ولم يحققوا استقلالهم الا بعد أن ضعف هؤلاء الخوانين وسقطت دولتهم فى بداية القرن السادس عشر(١١٦) .

وقد تعرضت هذه الخانية لتاثيرات عديدة وفدت عليها من الجنوب من دولة المغول فى بلاد ما وراء النهر وتركستان حيث كان يحكم ابناء جغطاى بن جنكيز خان ، ومن دولة مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق والتى كانت تتبعها هذه الخانية ، أعنى خانية سيبيريا .

وكان التجار والعلماء من بخارى وقازان دائمى التردد على سيبيريا اما بقصد التجارة واما بقصد نشر الاسلام وعلومه او الاثنين معا ، ولذلك فما قاله هورث Howorth (١١٧) من أن خوانين سيبيريا كانوا وثنيين عندما غزاهم كوتشم خان عام ٩٧١هـ/١٥٦٣م بعيد عن الصواب والدقة ، فقد بثت أن كثيرا من هؤلاء الخوانين كانوا يدينون بالاسلام قبل هذا التاريخ ، ذلك ان اسماءهم كانت تدل على اسلامهم ، فهى اسماء اسلامية(١١٨) ، كما أن ما يدعيه هذا الكاتب من ان عدم اسلام خوانين سيبيريا يعود الى ان مؤسسى هذه الخانية كانوا من بيت نوغاى الوثنى وأنهم كانوا كذلك عندما اسسوا هذه الخانية(١١٩) غير صحيح ايضا ، لأن شعب النوغاى كان

---

(١١٥) المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

(١١٦) الرمزى : نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٩٥ — ١٩٧ .

(117) Howorth : op. cit., v. 2, p. 1062.

(١١٨) الرمزى : نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٩٥ ، ١٩٦، ١٩٨ .

(119) Howorth : op. cit., v. 2, pp. 1061-1062.

يعيش جنوب روسيا اولا ثم هاجروا فى القرن السادس عشر للميلاد وما يليه الى القرم والى الجزء الشرقى من بلاد القوقاز وكانوا كلهم مسلمين وبدوا رحلا كما يقول نفس الكاتب فى مكان آخر من كتابه(١٢٠) .

وحتى لو كان بيت نوغاى وثنيا فان مؤسسى خانية سيبيريا كانوا من بيت شيبان بن جوجى وليسوا من بيت باطو بن جوجى الذى يتفرع عنه بيت نوغاى ، فالاسلام فيها قديم والدليل على ذلك ايضا وجود بعض القبور لبعض الدعاة الذين استشهدوا أو ماتوا أثناء الدعوة الى الاسلام فى سيبيريا قبل أن يحكمها كوتشم خان . فقد قدم الى تلك البلاد شيخ عجوز من بخارى فى عهد كوتشم خان للبحث عن قبورهم وأعطى اسماءهم ، وكان لأصحاب هذه القبور عيد سنوى يحتفل به الناس هناك ، ولا يزال المغول يحتفلون به فى سيبيريا حتى القرن الماضى ، ولما اجريت هناك بعض الحفريات الحديثة وجدت بالفعل مدافن سبعة منهم أشار اليها مولر Muller وقال انها تبدو وكأنها مقدسة عند الناس(١٢١) .

أما ما يدعيه كتاب الغرب أو الشرق من ان كثيرا من قبائل المغول فى سيبيريا كانوا نصارى او وثنيين ، ما هو الا زعم كان يراد منه العمل على ادخال هؤلاء المغول فى دين غير دين الاسلام بأن يظهروا لهم أن أجدادهم لم يكونوا مسلمين ، وأن هؤلاء الأجداد كانوا نصارى او وثنيين ، فلا داعى لبقاء أحفادهم على دين الاسلام الذى يخالف دين الآباء والأجداد . ولو كان قول هؤلاء الكتاب صحيحا لانتشرت النصرانية بين المغول حين بعث البابوات بعوثا متعددة فى أوائل ظهور دولة المغول لأجل الغرض المذكور ، ورغم هذه البعوث ورغم تنصر بعض المغول الا ان النصرانية لم تنتشر بينهم وغلب عليهم دين الاسلام فى النهاية كما سبق القول(١٢٢) .

نخلص من ذلك الى أن سيبيريا كانت قديمة عهد بالاسلام الى حد ما ، وكان هذا الاسلام قد بدأ ينتشر بين سكانها من المغول وغيرهم قبل سقوط دولة القبيلة الذهبية ، ولكنه لم ينتشر بينهم انتشارا تاما ، ولما ضعفت دولة

---

(120) Ibid : v. 2, pp. 1011, 1049.

(١٢١) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٨٣ Ibid : v. 2, p. 983.

(١٢٢) الرمزى : نفس المرجع ، جـ ٢ ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

القبيلة الذهبية واستقلت اقاليمها وكونت خانيات مستقلة ، أصبحت سيبيريا تدين بالولاء لخوانين قازان الذين مدوا نفوذهم شرقا حتى سيبيريا الغربية .
ولا شك ان خوانين قازان كان لهم تأثيرهم فى نشر الاسلام فى تلك البلاد وخاصة عندما كانوا اقوياء ، ولما ضعفوا واخضعهم الروس لحكمهم خضعت سيبيريا بالتالى لنفوذ الروس ، ولذلك نسمع ان حاكم سيبيريا المسمى ياديجار Yadigar بن قاسم بن ماموك يرسل الى موسكو بالجزية عام ٩٧١هـ/١٥٦٣م(١٢٣) .

وفى تلك الأثناء قام كوتشم ابن مرتضى خان حاكم خوارزم وما وراء النهر وهاجم ياديجار المتخاذل وقتله ، وأصبح كوتشم هذا خانا لخانية سيبريا منذ ذلك العام ولسنوات طويلة(١٢٤) بذل فيها جهودا كبيرة لنشر الاسلام فى تلك البلاد بطريقة منظمة ، فأرسل الى والده فى بخارى والى حكام قازان يطلب دعاة لنشر الاسلام وتعاليمه وعلومه فى سيبريا . وقد وصل اليه من بخارى بعض الملاوات (جمع ملا) والفقهاء ، كما وصل اليه بعض المدرسين من قازان(١٢٥) . ويفهم من كلام هورث Howorth ان هذا الخان كان جادا فى نشر الاسلام وانه كان يستعمل اساليب الترغيب والترهيب لتحقيق هدفه حتى أن البعض من أهل سيبيريا حسبما قال ذلك الكاتب اعتنق الاسلام مضطرا حتى لا تساء معاملتهم(١٢٦) .

وفى عهد هذا الخان توافدت اسرات عديدة من بخارى واستقرت فى توبولسك وتيومان Tiuman وتورنسك وتارا وتومسك Tomsk وما زالت هذه الأسر موجودة فى تلك البلاد وتقول ان اجدادها ذهبوا الى سيبريا مع كوتشم خان ، وأن اسرة من الأشراف استقرت قرب توبولسك فى قرى ساباناك وتادسيم ، وان احد قواد هذه الأسرة والذى كان يسمى (دين على خوجا) كان على صلة بكوتشم خان ، ويقال انه تزوج ابنته التى تسمى نال خانيش ، وكان له ثلاثة من الأبناء يسمون سولتامت خوجا ،

---

(123) Howorth, v. 2, 1063, 1064.
(124) Ibid., v. 2, p. 1064.
(١٢٥) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٨٣ .
(126) Howorth., op. cit., v. 2, p. 983.

وسيد ممت ، واك سيد الذى عاش فى تارا . وكان ابنا سولتامت وهمـا يوسف خوجا ويحيى خوجا ما زالا موجودان عندما كان مولر فى سيبريا(١٢٧) . وبجانب هذه الأسرات المسلمة التى توافدت من بخارى على سيبريا فى عهـد كوتشم خان ، فقد توافد فى عهده أيضا بعض الدعاة من بخارى . وقد أخبرنا أحدهم بأنه خرج مع زميل له من بخارى الى حاضرة كوتشم خان على ضفة نهر ايرتش وقاما بالدعوة الى الاسلام ، ولما مات زميله هذا بعد سـنتين عاد هو الى وطنه بخارى ، ولم يلبث الا قليلا حتى عاد مرة ثانية الى بـلاد كوتشم خان ، فقد توافد فى عهده ايضا بعض الدعاة من بخارى . وقد أخبرنا عاود هذا الخان طلبه بارسال مزيد من الدعاة من بخارى(١٢٨) .

ولا شك أنه كان لوجود هذه الأسر المسلمة وهؤلاء الدعاة فى سيبريا اثر كبير فى انتشار الاسلام بها ، فاذا اضيف الى ذلك جهود كوتشم خان نفسه وأثر التجار فى هذا المجال ، لأصبحت الصورة واضحة ولتوصلنا الى ان الاسلام بدأ يزدهر فى تلك الأنحاء النائية ، ولكن هذا الازدهار لم يلبث ان اصيب بضربة مفاجئة جاءت كالعادة على يد الروس .

فقد هاجم الروس كوتشم خان ولم يجد له معينا او مساعدا فاضطر الى اعلان ولائه لهم عام ٩٧٧هـ/١٥٦٩م ووقع معهم معاهدة يعترف لهم فيهـا بدفع الجزية ، واخذ الروس فى بناء المدن فى سيبريا ، فبنوا مدينة تيومان قرب سيبر عام ٩٩٥هـ/١٥٨٦م وبنوا مدينة توبولسك على الضفة الشرقية لنهر ايرتش ، وبنوا فيها حصنا وكنيسة بعد ذلك بعام ، ولما أحس كوتشم خان بخطر ازدياد النفوذ الروسى على بلاده تمرد على الطاعة ، فحاربه الروس وهزموه عام ١٠٠٧هـ / ١٥٩٨م فى معركة حدثت بينهما على نهر أوب Ob اسر الروس فيها عددا من زوجاته وأبنائه وبناته وامرائه وجنده ، وهـرب كوتشم نارا بنفسه ، واصبح الروس سادة سيبريا ودخلت اسرة الخان الأسيرة موسكو شهر شعبان ١٠٠٧هـ/يناير ١٥٩٩م ، والتحق أحد ابنـائه بالجيش الروسى واعتنق آخر المسيحية وتسمى باسم اندرو Andrew (١٢٩) .

---

(127) Ibid : v. 2, p. 984.

(١٢٨) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٨٤ .

(١٢٩) عبد العزيز جنكيز خان : نفس المرجع ، ص ٨٦ ، ٨٧ ، باسيليوس خرباوى : نفس المرجع ص ١٣٨

Howorth, op. cit., v. 2, pp. 82, 1000, 1001, 1065.

وهكذا اوقف الزحف الروسى النصرانى جهود كوتشم خان فى نشر الاسلام بين من كانوا على الوثنية من مغول سيبريا وسكانها ، ولذلك ظل بعض المغول الذين يقيمون فى المناطق المجاورة لنهر أيرتش على ديانتهم القديمة ، كما استمر بعض المغول الذين يعيشون عند مصب نهر تارا Tara وبين توبولسك ، ودميانسكويام ، وقرب بلدة تورنسك على وثنيتهم ثم تنصروا بعد ذلك(١٣٠) بتأثير الحكومة الروسية التى كانت لا تكل ولا تمل من تنصير المسلمين والوثنيين فى سيبريا متخذة تقريبا نفس الأساليب التى اتبعتها فى قازان . ورغم ذلك فقد دأب الفقهاء والدعاة القادمون من بخارى وغيرها من مدن آسيا الوسطى وكذلك التجار القادمون من قازان على الاستمرار فى الدعوة الى الاسلام فى سيبريا ، وعلى أيديهم اسلمت قبائل المغول والتتار التى كان يطلق عليها اسم Baraba Tatars أو Barabiniski Tartars عام ١١٥٨هـ/١٧٤٥م ، وكانت مساكن هذه القبائل تقع بين نهر ايرتش ونهر أوب . اما بقية هذه القبائل التى كانت لا تزال على الوثنية فقد اسلمت فى مستهل القرن التاسع عشر وظلت على اسلامها حتى الآن(١٣١) .

وفى المناطق التى تقع جنوب سيبريا وشمالى بلاد ما وراء النهر وتركستان كانت توجد شعوب القرغيز والقزاق الذين كانوا يخضعون أيضا لخوانين القبيلة الذهبية ، ولذلك انتشر بينهم الاسلام منذ ان اسلم هؤلاء الخوانين ابتداء من بركة خان (٦٥٥ — ٦٦٥هـ/١٢٥٦ — ١٢٦٦م) . والقرغيز كلمة تعنى الغز الذين يسكنون البرية حسبما جاء فى اللغة التركية، وهم ينتسبون الى أوغوزخان او ذرية بعض مقربيه وامرائه ، ومنه اخذت كلمة غز مخففة من كلمة أورغوز ، ومن هؤلاء الغز انحدرت بعض قبائلهم التى عرفت باسم السلاجقة فى القرن الخامس الهجرى الى بلاد ما وراء النهر واسلموا وحسن اسلامهم وسيطروا على الخلافة العباسية وعلى كثير من بلاد المشرق الاسلامى حوالى قرن ونصف قرن من الزمان(١٣٢) .

---

(130) Ibid : v. 2, p. 983.

(١٣١) ارنولد : نفس المرجع ص ٢٨٤ ،

Howorth : op. cit., v. 2, pp. 983, 1002.

(١٣٢) الرمزى : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٢٥٦ .

اما بقية القرغيز الذين ظلوا يسكنون البرية فقد استقروا فى جبال آلطاغ أو كما يسميها الروس جبال التاى وفى منطقة (يدى صو) وشرق منطقة نهر سيحون ، واسلم كثير منهم على ايدى العلماء والملاوات الذين نشروا الاسلام فيما بينهم فى القرن الثامن عشر ، وحاربوا بالتعاون مع القزاق المسلمين القالموق البوذيين الوافدين عليهم بعد أن دمر الصينيون دولتهم عام ١١٧٢هـ/١٧٥٨م . وكانت الحرب بين القرغيز والقالموق كانهـا حرب دينيةبين البوذية والاسلام كما تصورها ملاحمهم(١٣٣) .

ورغم ذلك فانه فى مستهل القرن الماضى كان كثير من القرغيز الذين يقيمون فى السهول الفسيحة الممتدة جنوبا من مقاطعة تبولسك الى بلاد تركستان لا يزالون على الوثنية ، ولم تهتم الحكومة الروسية فى ذلك الحين بنشر المسيحية بينهم على اعتبار أنهم كانوا على حالة كبيرة من البربرية والهمجية لا تسمح بفهمهم للانجيل فهما جيدا . وسرعان ما انتهز دعاة الاسلام هذه الفرصة واحتلوا هذا الميدان وجذبوا كافة قبائل القرغيز الى الدين الاسلامى ، فاصبحوا كلهم مسلمين وان كان الجهل لا زال فاشيا بينهم(١٣٤). ويشير ارنولد الى تلك الأغانى الشعبية التى يتغناها القرغيز والتى تحتل مكانة كبيرة بين وسائل الدعاية الاسلامية فى الوقت الحاضر . وقد تضمنت هذه الأغانى حقائق الاسلام الأساسية مصوغة فى اسلوب قصصى اسطورى، مما جعل هذه الحقائق تصل الى قلوب عامة الناس فى سهولة ويسر(١٣٥) .

أما القزاق فهم من المغول الخلص الذين لم يختلطوا بغيرهم من الشعوب والأمم مثل اخوانهم من مغول ايران او مغول القبيلة الذهبية او مغول بلاد ما وراء النهر وتركستان ، فقد اقام القزاق فى البرية التى كانت مهد المغل والتتار واصبحت تحكمها القبيلة البيضاء التى تفرعت عن القبيلة

---

(١٣٣) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٧٧،بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(١٣٤) الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٢٥٦ ، ارنولد : نفس المرجع ص ٢٧٨ .

(١٣٥) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٨٤ .

الذهبية التى كانت قد بسطت نفوذها على تلك الانحاء وتركت حكمها لهـذا الفرع من بيت جوجى بن جنكيز خان كما سبق القول(١٣٦) .

وقد وصف الرحالة القطر القزاقى بأنه يحد من الشمال بالباشقرد الذين يسكنون حول جبال اورال ، ومن الشرق بالقلموق السود وطشقند ، ومن الجنوب ببحر ارال والقراكالباكس الذين ينتمون لفرع النوغاى من بيته جوجى مؤسس القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق ، ومن الغرب بالجايك Jaik أو بخانية (قازان)(١٣٧) .

وقد اطلق اسم القزاق على سكان هذا الاقاليم بعد أن ضعفت دولـة القبيلة الذهبية فى سراى وتفرقت كلمة المغول فى تلك الدولة الواسـعة الأنحاء ، اذ كان كثير من ذرية جنكيز خان وذرية ابنه جوجى يخرجون عـن طاعة السلطان ولا ينقادون له ويعلنون استقلالهم عنه ، وكان بعضهم يفعـل ذلك ويتباعد عن مركز السلطنة ويتوغل فى البرية حتى لا تصـل اليه يد السلطان ، فكان يقال لهم قجاق بمعنى الفار او الهارب ، ثم حرف هذا اللفظ الى قزاق ، وصار علما على جميع تلك القبائل وان كان بعضها لم يفعـل ما يستوجب اطـلاق هذا الاسم عليهـا(١٣٨) .

والمهم هنا ان خوانين القبيلة البيضاء حكموا هذا الشعب الذى عرفه باسم القزاق واتخذوا لهم عاصمة تسمى مدينة سغناق Sighnak ثم تحولوا الى مدينة تركستان واتخذوها عاصمة لهم ، وكان اهم مافى هذه العاصـمة الجديدة هو مسجدها الشهير الذى بنى فوق مقبرة الخواجه (أحمد ياسافى) على يد تيمورلنك عام ٨٠٠هـ/١٣٩٧م عندما ذهب الى تركستان . والشيخ احمد هذا هو مؤسس طائفة الجهـرية Jahira ، ومات عام ٥١٤هـ/١١٢٠م ، وهو من أشهر المتصوفين الذين يحتفل بهم فى وسط آسيا(١٣٩) .

---

(١٣٦) الرمزى : نفس المرجع ، جـ ١ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ . .

(١٣٧) المرجع السابق ، جـ ١ ص ٢٣٠ ،

Howorth : op. cit., v. 2, p. 684.

(١٣٨) الرمزى : نفس المرجع ، جـ ١ ص ٢٥٨ .

(139) Howorth : op. cit., v. 2, pp. 274, 681.

وكان القزاق مسلمين ويتمسكون بعقيدتهم الاسلامية(١٤٠) ويدعون بأنهم من سلالة انس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما روج بذلك بينهم بعض الخوجات الذين كانوا يفدون عليهم من تركستان وخوارزم وبخارى وفرغانه(١٤١) ، ورغم ان هذا القول غير صحيح بالمرة ، الا أنه يدل على مدى انفعالهم بالاسلام انفعالا جعلهم يدعون الانتساب الى احد الصحابة الاجلاء ، ولذلك انتشرت بينهم القاب السادة والأشراف والخوجات ، مما سنشير اليه فى حينه .

وكانت روسيا النصرانية حريصة كل الحرص على مقاومة النشاط الاسلامى فى تلك البلاد . وقد رأينا ما فعلته مع مسلمى قازان وسيبيريا ورأينا محاولاتها الدائبة المستمرة فى تنصير هؤلاء المسلمين او اضطهادهم واخراجهم من قراهم وبلادهم. وقد فعلت نفس الشيء مع شعب القزاق المسلم، ففرضت حمايتها عليه منذ عام ١١٤٢هـ/١٧٣٠م ، وحاولت بشتى وسائل الترغيب والترهيب ان تجره الى اعتناق النصرانية الأرثوذكسية ولكن هذا الشعب تمسك بعقيدته الاسلامية ، مما دفع بالروس أخيرا الى الاستيلاء على تلك البلاد عام ١٢٦١هـ/١٨٤٥م عقب وفاة جهانكير الذى اشتهر بنشر العلم واحترام العلماء ، والحرص الشديد على تطبيق احكام الشريعة الاسلامية ، وعلى بناء المساجد والمدارس لتعليم الناس علوم الاسلام وشعائره(١٤٢) .

ومنذ ان اصبحت بلاد القزاق جزءا من امبراطورية روسيا القيصرية النصرانية بدأ الروس يبنون فيها قرى ومدنا كثيرة واصبحوا يزاحمون القزاق فى بلادهم ولا يسمحون لهم ببناء المساجد والمعاهد الدينية والمدارس ، فهاجر كثير منهم الى البلاد الاسلامية القريبة منهم مثل بخارى وخوارزم وأفغانستان وهاجر بعضهم الى الصين(١٤٣) . اما الأغلبية من القزاق الذين

---

(١٤٠) الرمزى : نفس المرجع ، جـ ١ ص ٢٦٠ ،
Howorth, op. cit., v. 2, p. 684.

(١٤١) الرمزى : نفس المرجع ، جـ ١ ص ٥٩ ، ٢٦٠ .

(١٤٢) المرجع السابق ، جـ ١ ص ٢٦٠ ، جـ ٢ ص ٢١٨ ، ٥٢٢ — ٥٢٤ .

(١٤٣) المرجع السابق ، جـ ٢ ص ٥٢٦ — ٥٣٢ ؛

تمسكوا بأرضهم وبلادهم فقد خضعوا للروس خضوعا نهائيا وأصبحوا يشكلون الآن ما يسمى بجمهورية قازقستان (قازاقستان) السوفيتية الاشتراكية وهى احدى جمهوريات الاتحاد السوفيتى الست الاسلامية ، وتعتبر من اكبر جمهوريات الاتحاد السوفيتى الست عشرة قاطبة فى المساحة وأعظمها اختزانا للثروات والمعادن ، وهى تمتد حاليا من دلتا نهر الفولجا الى حدود الصين الشعبية وتحتل مساحة تزيد على المليون من الأميال المربعة(١٤٤) .

ورغم خضوع هذه البلاد للروس فان شعبها لا زال يتمسك بالاسلام وتقاليده ، مما يدل على مدى الدور البارز الذى قام به المغول فى نشر الاسلام والمحافظة عليه ضد صليبية الروس التى برزت واضحة منذ بداية القرن السادس عشر للميلاد ، وكان لتمسك المغول بالاسلام على هذا النحو أثر كبير فى مظاهر حياتهم وسلوكهم منذ أن قامت دولتهم فى بلاد القفجاق حتى انتهت على أيدى الروس ، وتعددت هذه المظاهر وتنوعت لتشمل كثيرا من نواحى حياتهم الاجتماعية والثقافية .

٥ ــ مظاهر الحياة الاسلامية عند مغول القفجاق :

اتخذ خوانين المغول أو سلاطينهم فى بلاد القفجاق كل ما تتميز به الحياة الاسلامية فى أعرق بلاد الاسلام ، وحرصوا الحرص كله على تأكيد الطابع الاسلامى فى تصرفاتهم ومظاهر حياتهم حتى فى حياتهم الخاصة ، حتى فى أسماء اولادهم ، فنرى بركة خان يبتعد فى تسمية أولاده عن الأسماء التركية والمغولية المألوفة لما تتميز به من طابع وثنى ويتخذ لهم اسماء عربية اسلامية ، فهذا حسام الدين وذاك صلاح الدين احمد وثالث سماه بدر الدين محمد ورابع سماه ناصر الدين محمد . ليس هذا فقط بل نراه يرسل بهم الى القاهرة ليعبوا من الثقافة الاسلامية المتأصلة فى هذا البلد الاسلامى العريق ، فشرب الأولاد من هذا المعين الصافى المتدفق من الأزهر ومدارس القاهرة واتقنوا العربية لدرجة ان ثالثهم كان له ديوان شعر بالعربية ، وكتبا فى علم الكلام وتفسيرا للقرآن الكريم ، واستقر هؤلاء الأولاد فى مصر لمواصلة التزود من علوم الاسلام حتى مات الأول بها عام ٦٦١هـ/١٢٦٢م ، وانخرط

---

(١٤٤) ابراهيم أحمد رزقانة : نفس المرجع ، ص ١٥٤ .

الثانى فى سلك امراء المماليك بمصر ، وصار الثالث الى ما صار اليه من الانقطاع للعلم والاغتراف من بحر الثقافة الاسلامية العربية وعلومها(١٤٥) .

ولم يقتصر انفعال هؤلاء الخوانين بالاسلام على هذا النحو فقط ، فكما اتخذوا لأولادهم اسماء عربية ، تسموا هم بأسماء عربية اسلامية واتخـذوا لأنفسهم القابا اسلامية ، فبركة خان يسمى نفسه ابو المعالى ناصر الدين السلطان بركة خان ، وأوزبك خان يسمى نفسه الملك المظفر غياث الدين السلطان محمد اوزبك خان ، وابنه جانى بك يسمى نفسه السلطان جلال الدين ابو المظفر محمود جانى بك(١٤٦) . وهكذا نراهم يتخذون الأسـماء والألقاب والكنى العربية بالاضافة الى أسمائهم الأصلية ، كما يتخذون لقب السلطان وهو لقب اسلامى اشتهر به ملوك الاسلام قبل ان يظهر المغول . ليس هذا فقط بل انهم اتخذوا لأنفسهم القابا اسلامية اخرى معظمها عـربى الاصل مثل لقب سيد ولقب خوجه ولقب شيخ ولقب حاج ولقب عرب . وكان لقب (سيد) يطلق على الذين يدعون انهم من سلالة الخليفتين عثمـان بن عفان وعلى بن أبى طالب من زوجتيهما من بنات النبى صلى الله عليه وسلم ، ولقب خوجه كان يطلق على الذين يدعون انهم من سلالة الخليفتين أبى بـكر الصديق وعمر بن الخطاب من نساء اخريات من غير بنات النبى صلى الله عليه وسلم(١٤٧) . وعلى سبيل المثال فقد اعتلى عرش سراى فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ما سمى بمراد خوجا وكوتلوغ خوجا ، وكان طقتمش الذى هزمه تيمورلنك ابنا لطولى خوجا وحفيدا لطوكول خـوجا اوغلان(١٤٨) . أما لقب شيخ فقد تسمى به بعض خوانين سراى مثل شيخ احمد الذى هزم واخذ اسيرا الى كييف عام ٩٠٧هـ/١٥٠٢ كآخر خان من خوانين سراى(١٤٩) ، كما تلقب بلقب (سيد) عدد كبير من بيت كوتشلوك

---

(١٤٥) المقريزى : نفس المصدر ، جـ ١ ق ٢ ص ٥٠٠ ، ٥٢٠ ، ٥٣٣ ، ٦٤٥ ، ٦٥٠ ، ٦٨٥ ، جـ ١ ق ٣ ص ٦٦٦ ، ٦٧٤ بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٧٩ ، Howorth, op. cit., v. 2, pp. 125, 126.

(١٤٦) الرمزى : نفس المرجع ، جـ ١ ص ٤٠٤ ، ٥٠٢ ، ٥٤٧ ، Howorth : op. cit., v. 2,p.179-180

(147) Howorth : op cit., v. 2, p. 870.

(148) Ibid : v. 2, pp. 202, 226.

(149) Ibid ; v. 2, pp. 226, 346, 347.

محمد خان القبيلة الذهبية ، مثل سيد نادر محمد وابنائه واحفاده واخوته(١٥٠) كما تلقب خوانين خوارزم بهذه الألقاب مضافا اليهـا لقب (حـاج) ولقب (عرب) ، مثل حاجى طولى وسلطان حاجى وحاجى محمد خان ، وعرب شاه ، وعرب محمد خان(١٥١) .

وقد بلغ انفعال خوانين وخواتين المغول درجة انهم كانوا يحرصون على اداء الصلوات فى أوقاتها ويحرصون على اداء صلاة الجمعة فى المساجد الجامعة ، وكانوا يحملون خياما يجعلونها مساجد اذا ما رحـلوا خـارج العاصمة(١٥٢) ، وقد أرسل بركة خان الى سلطان مصر الظاهر بيبرس رسالة فى عام ٦٦١هـ/١٢٦٢م يخبره فيها بأسماء من أسلم من اهل بيتـه وبيوت اخوته وبيوتات المغول وقبائلهم وعشائرهم صـغيرهم وكبـيرهم ، ويحرص فى هذه الرسالة على أن يؤكد ان « كل هـؤلاء بأسرهم قامـوا بالفرائض والسنن والزكاة ، والغزاة والجهاد فى سبيل الله »(١٥٣) ، وقد بلغ حرص هؤلاء المغول على أداء الصلاة فى جمـاعة ان اتخـذ كل خان او خاتون او امير لنفسه اماما ومؤذنا خاصـا به وبمن يلـوذ به(١٥٤) وكان المقصرون من المغول فى أداء صلاة الجماعة يتعرضون للعقاب على يـد امام المسـجد ، فقد كان المؤذنون فى بعض المدن يطوف كل واحد منهم على الدور والمنازل المجاورة لمسجده يخبر سكانها بضرورة حضور صلاة الجماعة ، ومن لم يفعل ذلك كان يحضر أمام المصلين ويقوم الامام بضربه بدرة كانت معلقة بالمسجد لهذا الغرض ، علاوة على تغريمة خمسة دنانير تنفق فى صالح المسجد وفى اطعام الفقراء والمساكين(١٥٥) .

ولم يكن الحرص على اداء الصلاة فى اوقاتها فقط بل كان الحرص

---

(150) Ibid : v. 2, pp. 226, 878.

(151) Ibid : v. 2, p. 977.

(١٥٢) المقريزى : نفس المصدر ، جـ ١ ق ٢ ص ٣٩٥ .

(١٥٣) المصدر السابق جـ ١ ق ٢ ص ٤٩٥ العينى : نفس المصدر ، جـ ٢٢ ورقة ٢١٨ ، Howorth : op. cit., v. 2,p.118

(١٥٤) ابن بطوطة : نفس المصـدر ، ص ١٥٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٠ ، بارتولد ، نفس المرجع ، ص ١٧٨ .

(١٥٥) ابن بطوطة : نفس المرجع ، ص ٢٣٩ .

بنفس الدرجة على أداء الفرائض الأخرى التى كان يؤديها الخوانين والمغول حكاما ورعية(١٥٦) ، مثل الحج الذى كان رسلهم الى مصر يحرصون على أدائه(١٥٧) ، وقد سبقت الاشارة الى حمل بعض الخوانين للقب (حاج) او (حاجى) ، مما يدل على أنهم قاموا بأداء هذه الفريضة والا لما حرصوا على اتخاذ هذا اللقب دون غيرهم من الخوانين الآخرين .

ولم يكن حرص المغول على وضع الشريعة الاسلامية موضع التطبيق فى مجال العبادات فقط ، بل حرصـــوا على ذلك فى مجالاتهـــا الأخـــرى ، فالسلاطين والمغول بصفة عامة بعد اسلامهم كانوا لا يتخذون اكثر من اربع زوجات(١٥٨) ، كما انهم لم يقربوا الخمور او لحم الخنزير(١٥٩) كما كان التقاضى لا يتم بينهم الا أمام قضاة المسلمين وعلى المذاهب الفقهية المعروفة وخاصة مذهبى ابى حنيفة والشافعى ، وكان فى كل مدينة قاض لكل مذهب ، يقضى بين الناس بما يتفق ومذهبه ، وقد أشار ابن بطوطة وغيره الى ذلك كثيرا(١٦٠) . ومعنى ذلك ان الناس اخضعوا حياتهم بما يتفق وما تقضى به هذه المذاهب ، وبذلك حلت الشريعة الاسلامية محل قوانين الياسا (اليساق) المغولية ، وخاصة منذ عصر السلطان محمود أوزبك خان(١٦١) الـــذى لـــم يحكم بعده خان مغولى الا وهو مسلم .

وليس من شك فى ان المغول جميعا لم يستطيعوا أن يتخلصـــوا من بعض قوانينهم وعاداتهم وتقاليدهم السابقة دفعة واحدة ، فقد وجدت بعض العادات التى لا تتفق مع الاسلام فى فترة التمهيـــد والتهيئة وقبـــل عصر أوزبك خان ، وقد اشار الى ذلك بعض المؤرخين نقلا عن تاجر يدعى جمـــال الدين عبد الله الحصنى(١٦٢) ، ولكن بالتدريج حلت التقاليد الاسلامية محل

---

(١٥٦) العينى : نفس المصدر ، ج ٢٢ ورقة ٢١٨ .
(١٥٧) النويرى : نفس المصدر ، ج ٢٩ ورقة ٢٨ .
(١٥٨) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .
(١٥٩) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٩
Howorth, op cit., v. 2, p. 105.
(١٦٠) ابن بطوطة ، ص ٢١٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ .
(١٦١) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٧١ .
(١٦٢) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

هذه التقاليد الوثنية التى حرص الخوانين على تنقية حياة رعيتهم منهـا ؛ باعطائهم المثل الناس فى اتباع الشعائر والتقاليد الاسلامية وحرصهم على ذلك الحرص كله. وقد ازداد هذا الحرص عند أحد خوانينهم (تدان) فترك قيادة الدولة لقواده وأمرائه ، وقصر حياته على التعبد والزهد الشديد ، ومصاحبة الصوفيين والأولياء الصالحين ، وبلغ به الأمر حد التنازل عن العرش لابن اخيه حتى يفرغ تماما لما اختاره لنفسه من زهد وتصوف(١٦٣) ، كما كان خان آخر وهو (بركة خان) ينظم المناظرات الدينية التى كانت تعقد فى قصره بين علماء الاسلام وأصحاب الأديان الأخرى ، وكان يشـترك فى هـذه المنـاظرات بنفسه(١٦٤) . وقد سبقت الاشارة الى ان مجالس الخوانين والخواتين كان لا يتم انعقادها الا بحضور العلماء ورجال الدين الاسلامى(١٦٥) ، مما يدل على أن هؤلاء الخوانين صبغوا حياتهم بصبغة اسلامية واضحة .

ومن المظاهر الدالة على ذلك أيضا احتفال خوانين المغول فى بـلاد القفجاق بالأعياد الاسلامية وبشهر رمضان . وقد حضر ابن بطوطة صـلاة عيد الفطر وصادف ان كان يوم العيد يوم جمعة ، فحضر الصلاتين ووصـف لنا موكب السلطان والخواتين والأمراء اثناء خروجهم لأداء صلاة العيد وصفا رائعا يدل على حرص المغول على اداء هذه الشعائر الدينية ، وحرصهم على تأكيد الطابع الاسلامى فى حياتهم ، وعلى أظهار قوة الاسلام وعظمته ، فقد كانوا يصحبون عندما خرجوا لأداء هذه الصلاة القضاة والفقهاء والمشايخ . يحوطهم الجند الذين كانوا يحملون الطبول والأعلام . وكان عـدد الجنـد الذين حضروا صلاة العيد فى ذلك اليوم مائة وسبعين الفا ، وكان هـؤلاء جند الأمراء والحكام واتباعهم ، اما جند السلطان فكان عددهم اكبر من ذلك بكثير ، مما يدل على كثرة عدد الداخلين فى الاسلام(١٦٦) .

وفى ميدان يتسع لكل هذه الأعداد كانت تنصب خيمة خاصة السلطان تسمى (الباركاة) ، وخيام أخرى للامراء والخواتين ورجال العلم والدين ؛

---

(١٦٣) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٣٥ ، المقريزى : نفس المصدر، ج ١ ق ٣ ص ٧٣٨ .

(١٦٤) توماس أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٩ .

(١٦٥) أنظر ، ص ١٢٦ .

(١٦٦) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٢٦ — ٢٢٨ .

وبعد اداء الصلاة كان السلطان يوزع الخلع والهدايا على الأمـــراء ورجال الدين ، ثم توضع موائد حافلة بأنواع الطعام المختلفة فى أطباق من الذهب والفضة والخشب ، وكان بعض الفقهاء يتورعون عن الأكل الا فى الاطبـــاق المصنوعة من الخشب ، وكان الجميع يأكلون وهم يستمتعون بالغناء والطرب، ثم ينصرفون فى النهاية كل الى خيمته ، وبعد صلاة الجمعة وصلاة العصر يعودون الى منازلهم(١٦٧) . وليس بخاف على احد ان هذا الاحتفال الرائع بالأعياد الاسلامية كان يلفت انظار الباقين على الوثنية الى عظمة الاسلام وقوة المسلمين مما يجذبهم الى هذا الدين فيعتنقونه لا سيما وان الخوانين كانوا يحرصون على ان يولوا وظائف الدولة للمسلمين(١٦٨) ، وذلك فى محاولة منهم لصبغ الدولة كلها بالصبغة الاسلامية .

وكانت هذه الوظائف لا يتولاها بالطبع الا العلماء والأدباء والفقهاء والمشايخ ، وهم الذين كانوا على دراية واسعة بالشريعة الاسلامية وبالادارة واساليبها ، وكانوا يمثلون قمة الثقافة والفكر فى بـــلاد القفجـــاق ، وكان سلاطين المغول يختارون من بينهم كبار الموظفين والسياسيين مثل الوزراء والحكام والقضاة بجانب الموظفين الذين يلون هؤلاء فى الدرجة والمنزلة . ولذلك تمتعت هذه الطبقة — اقصد طبقة العلماء والفقهاء — بمنزلة سامية واحترام كبير عند خوانين مغول القفجاق ، فعرب شاه يخبرنا بأن الســـلطان بركة خان « اقام حرمة العلم والعلماء » ، وعاملهم بكل احترام وتبجيل(١٦٩) ، وعرف لهم قدرهم حتى انه ذهب لمقابلة احدهم فى بخارى كى يجدد اسلامه على يديه وحتى يصله بعد ان كان ذلك العـــالم قـــد رفض صـــلة هـــذا السلطان(١٧٠) ويقص علينا ابن بطوطة الكثير عن تواضع السلطان محمـــد أوزبك خان للعلماء والفقهاء والصالحين وخاصـــة للشـــيخ نعمـــان الدين الخوارزمى الذى كان يأتى اليه السلطان اوزبك زائرا يوم الجمعة ، « فلا

(١٦٧) المصدر السابق ، نفس الصفحات .

(١٦٨) ابن بطوطة : نفس المصدر ص ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٣٨—٢٤٠،
Saunders : op. cit., p. 140.
Howorth : op. cit., v.2,pp105,117.

(١٦٩) عجائب المقدور فى اخبار تيمور ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(١٧٠) تحفة النظار ، ص ٢٣٨ .

يستقبله هذا الشيخ ولا يقوم اليه ، ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه الطف كلام ،ويتواضع له ، والشيخ بضد ذلك ، وفعله مع الفقـــراء والمســـاكين والواردين خلاف فعله مع السلطان ، فانه يتواضع لهم ويكلمهم الطف كلام ويـــكرمهم »(١٧١) .

وطبيعى ان الحكام والأمراء لا بـــد ان يتبعوا ســـياسة خوانينهـــم وسلاطينهم ، فكان احترام العلماء والفقهاء والصالحين سمة او علامة بارزة فى جميع الولايات والاقاليم التابعة لمغول القفجاق ، ويظهـــر هـــذا الاحترام بصورة واضحة عندما كان يستقبل هؤلاء الحكام عالما او فقيها او رحالة من المسلمين ، وعلى سبيل المثال فقد لاقى ابن بطوطة ومن بعده عرب شـــاه وغيرهما من العلماء من مظاهر التكريم الشيء الكثير ، ففى مدينة ازاق التى تقع شمالى البحر الأسود نرى حاكمها محمد خواجه الخوارزمى يخـــرج لاستقباله ومعه الطلبة والقاضى ، ليس هذا فقط ، بل ان الأمير المغولى تلكتمور والى مدينة القرم يتسابق مع هذا الحاكم فى تكريم ابن بطـــوطة ، فيقدمه امامه ، ويجلسه الى جانبه ويأمر ولديه وأخاه وذلك الحاكم واولاده بأن يكونوا فى خدمة ابن بطوطة(١٧٢) .

ويتكرر نفس المشهد فى المدن الأخرى التى مر بها ابن بطوطة وعندما يقترح قاضى احدى المدن ان يذهب مع ابن بطوطة لزيارة أميرها يكون الرد عليه من احد المشايخ « القادم ينبغى له أن يزار ، وان كانت لنا همة نذهب الى امير المدينة ونأتى به ، ففعلوا ذلك وأتى الأمير بعد ساعة فى اصحابه وخـــدامه »(١٧٣) .

وبجانب ذلك فقد افاض خوانين مغول القفجاق من خيرهم وبرهم على العلماء والفقهاء والصالحين والمتصوفين الشيء الكثير ، فغمروهم بالهـــدايا والهبات والصلات سواء كانت مالية او على شكل اقطاعات من الأرض ، وعلى سبيل المثال ، فقد منح احد المشايخ الصالحين من الاتراك قطعة أرض (ترخان) أى معفوة من الضرائب والمغارم فعمرها هذا الشيخ وكان حاجا

---

(١٧١) المصدر السابق ، ص ٢٣٨ .

(١٧٢) المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

(١٧٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .

وصارت قرية ثم تحولت الى مدينة وسميت مدينة الحاج ترخان (طرخان) او حاجى طـرخان ، وكانت من أحسن المـدن المبنيـة على نهـر اتـل (الفولجا)(١٧٤) ومن أشهر المراكز الاسلامية فى بلاد القفجاق .

وكان اغداق الخوانين على العلماء والفقهاء والصالحين يظهر اثنـاء المجالس التى كان يدعو لها هؤلاء الخوانين والتى كانت لا تنعقدالا بحضـور العلماء ، وفى نهايتها كان الخان او السلطان يخلع عليهم الخلـع السنية ويعطبهم الأموال الوفيرة ، كما كان هذا الاغـداق يظهر أيضا عنـد زيارة الخوانين للزوايا والأضرحة والمساجد والمدارس . فضلا عن الأوقاف التى كان يرصدها خوانين وخواتين مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق لهـذه المؤسسات الدينية الثقافية فقد كانوا يداومـون على زيارتهـا ويتبـركون بمشايخها وزهادها ، ويجزلون لهم العطاء الوفير . وقد سبقت الاشارة الى قيام السلطان محمد أوزبك خان بزيارة زاوية الفقيه العالم الشيخ نعمـان الدين الخوارزمى ومداومته على ذلك كل يوم جمعة . وكانت الخـواتين والنساء عامة يكثرن من زيارة هذه المؤسسات ومن أعمال البر ، وكان الأهالى يهدونها من الخيل والبقر والغنم الشيء الكثير(١٧٥) .

وكان بعض الأمراء يتخذون من هذه المؤسسات أماكن لعقد الحفـلات الدينية ، فعلى سبيل المثال كان امير مدينة أزاق المغولى يأتى لزيارة الزوايا الموجودة بتلك المدينة للترحيب بمن فيها من الغرباء وتقديم الهدايا والأطعمة لهم ، ثم يختتم لقاءه بهم بحفل دينى يقوم فيه الخطيب بالقاء خطبة باللغـة العربية يشكر فيها الأمير والسلطان ، وكانت هذه الخطبة تترجم الى اللغة التركية فى نفس وقت القائها ، ثم يقوم القراء بتلاوة آيات من القرآن بترجيع عجيب ، ثم يأخذون بعد ذلك فى الغناء باللغة العربية ويسمون ذلك الغناء « بالقول » ثم يغنون بعد ذلك بالفارسية والتركية ويسمونه « الملمع »(١٧٦) .

ونتيجة لهذه السياسة التى سار عليها المغول فى تبجيـل العلمـاء

---

(١٧٤) المصدر السابق ، ص ٢٢٨ ،
Howorth : op. cit., v. 2, p. 440.

(١٧٥) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٩ ، ٢٣٨ .

(١٧٦) المصدر السابق ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

والفقهاء واحترامهم والاغداق عليهم توافد على بلاطهم فى سراى وفى عواصم بلادهم الأخرى الكثير من علماء المسلمين وفقهائهم وأدبائهم من شتى انحاء العالم الاسلامى . وكان خوانين المغول يستقدمونهم ويحرصون على ذلك « ليوقفوا الناس على معالم دينهم ويبصرونهم طرائق توحيدهم ويقينهم » ، فعل ذلك السلطان بركة خان « وأفاض على الوافدين منهم بحار الهبات »(١٧٧) . وسار خلفاؤه من الخوانين المسلمين وخاصة منذ عصر السلطان محمد اوزبك خان على هذه السياسة ، فامتلأت سراى بكثير من العلماء والفقهاء الوافدين عليها سائحين أو متيمين مثل ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م) ومولانا قطب الدين محمد بن محمد الرازى (ت ٧٦٦هـ/١٣٦٤م)والعلامة الشيخ سعد الدين التفتازانى (ت ٧٩١هـ/١٣٨٨م) ، والشيخ علاء الدين احمد بن محمد السيرامى (ت ٧٩٥هـ/١٣٩٢م) والشيخ نجم الدين عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن نصر الموصلى المعروف بابن النجام (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م) ، والشيخ كمال الدين الخجندى الذى كان من أكابر الصوفية والذى اقام بسراى ، ثم رجع الى تبريز وبها توفى عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م والعلامة الشيخ شهاب الدين احمد بن محمد بن عبد الله بن ابراهيم الشهير بعرب شاه الدمشقى صاحب كتاب « عجائب المقدور فى أحوال تيمور » وغيره من المؤلفات والذى اقام فى مدينة حاجى طرخان واخذ فيها عن الحافظ الرازى وبها توفى عام ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م ، والسيد جلال الدين شارح الحاجبية ، وغير هؤلاء من العلماء والفقهاء والأدباء والأولياء والصوفيين الذين ازدحمت بهم سراى حتى صارت « مجمع العلم ومعدن السعادات » ... واجتمع فيها من هؤلاء العلماء « ما لم يجتمع فى سواها ولا فى جامع مصر ولا قراها »(١٧٨) . يظهر ذلك من اسماء هؤلاء العلماء ، فهذه الزاوية شيخها يسمى فلانا الخراسانى ، وتلك بها من المالكية فلان المصرى ، واخرى للفقيه فلان الخوارزمى ، وهذا مارستان له طبيب شامى ، وتلك الزاوية شيخها فلان السمرقندى ، وما ذلك الا مجرد امثلة من العلماء والفقهاء الذين قابلهم ابن بطوطة وحده فقط ، مما

---

(١٧٧) عرب شاه : نفس المصدر ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(١٧٨) المصدر السابق ، ص ٥٧ ، العينى : نفس المصدر ، ج ٢٢ ورقة ٦ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٤٧ — ٤٩ ،
Howorth : op. cit., v. 2, 125.

يدل على مدى انفتاح بلاد القفجاق لعلماء الاسلام وعلى تغلغل الروح الاسلامية بين مغول هذه البلاد(١٧٩) .

وقد عمل مغول القفجاق على التمكين للثقافة الاسلامية فى بلادهم لا باستقدام العلماء فقط ، بل بايفاد ابنائهم وعلمائهم الى البلاد الاسلامية لينهلوا من معينها وليوطدوا صلة دولتهم بتلك البلاد . ولذلك نلاحظ توافد عدد كبير من ابناء مغول القفجاق سواء كانوا من أبناء السلاطين أم من غيرهم من عامة المغول والقفجاق الى مصر . وقد سبقت الاشارة الى ايفاد ابناء السلطان بركة خان الى القاهرة للدراسة وطلب العلم ، وكانوا هم وغيرهم ممن اتوا الى مصر يدرسون فى الجامع الأزهر سنين طويلة يصلون فيها الى درجة كبيرة فى اتقان علوم الدين واللغة العربية ، حتى ان بعضهم تولى فى مصر ذاتها مناصب القضاء والتدريس ورئاسة المدارس . وبجانب هؤلاء الذين وفدوا الى مصر توافد غيرهم الى بلاد الحجاز وجاوروا بمكة المكرمة ينهلون من علمها وعلمائها(١٨٠) .

كما اتبع مغول القفجاق سبلا أخرى للتمكين للثقافة الاسلامية فى بلادهم منها انشاء الزوايا والمساجد والمدارس سواء فى العاصمة ام فى غيرها من المدن والقرى والنواحى . فالسلطان بركة خان اكثر من بناء المساجد والمدارس حتى يحفظ النشء الجديد القرآن الكريم ويعرف المغول قواعد الدين الاسلامى(١٨١) ، وفى عهد السلطان محمد أوزبك خان غطت الربط والزوايا كل مدينة وقرية ، بل كان فى المدينة الواحدة العديد من الزوايا ، تتبع كل منها احد المشايخ او الصالحين او الأمراء والخواتين . ففى مدينة القرم كانت هناك زاوية الشيخ زادة الخراسانى ، وقرب هذه المدينة كانت هناك زاوية اخرى تابعة لحاكم القرم الأمير تلكتمور فى موضع يعرف بسجان ، وفى مدينة

---

(١٧٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(١٨٠) الرمزى نفس المرجع ، جـ ٢ ص ٣٣ — ٣٧ ، ٤٠ .

(١٨١) العينى : نفس المصدر ، جـ ٢٢ ورقة ٧ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٥ ص ١١٣٣ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٧٨ ، Howorth : op .cit., v. 2, p. 118.

آزاق كانت هناك زاوية لشيخ من اهلها يسمى رجب النهر ملكى ، وفى مدينة الماجر كانت هناك زاوية الشيخ محمد البطائحى وبها نحو سبعين من فقــراء العرب والفرس والترك والروم ، وكان السلطان والخواتين يأتون لزيارة هذا الشيخ والتبرك به ويجزلون له العطاء . وكانت هناك زوايا كثيرة فى مدينة سراى أهمها زاوية الشيخ نعمان الدين الخوارزمى التى اعتاد السلطان على زيارتها كل يوم جمعة ، وفى مدينة سراجوق كانت هناك زاوية لرجل صالح من الترك يدعى أطا . وبخوارزم زاوية الأمير قطلو دمور نائب الســلطان أوزبك ، بالاضافة الى زاوية اخرى بنتها ترابك خاتون زوجة هــذا الأمير ، وكانت تدعو فيهــا الفقهاء ووجوه اهل المدينة للترحيب بالغــرباء من العلماء والتجار الوافدين عليها(١٨٢) .

وقد نالت المساجد اهتماما كبيرا من سلاطين مغول القفجاق وخاصــة السلطان محمد اوزبك ، فقد ازدحمت مدينة سراى فى عهده بالمساجد الكثيرة، حتى كان بها وحدها ثلاثة عشر مسجدا جامعا(١٨٣) ، وطبيعى ان المساجد غير الجامعة كانت تفوق هذا العدد بكثير . كما بنى هذا السلطان عددا كبيرا من المساجد فى مدينة بلغار(١٨٤) كما بنى مدرسة للعلم فى مدينة سراى(١٨٥) وكانت المساجد فى الغالب تقوم بدور المدارس فى تلك العصــور ، ولذلك تبارى الأمراء والخواتين فى اقامتها ، مثال ذلك ما فعلته زوجة الأمير قطلو دمور حاكم خوارزم،فقد بنت مسجدا على نفقتها فى تلك المدينة وعمرته(١٨٦) ، ولا شك ان الكثير من الخواتين قلدنها فى ذلك حبا فى عمل الخير من جهة ، ورغبة فى نشر الاسلام والثقافة الاسلامية من جهة اخرى .

وقد نتج عن ذلك ازدهار كبير للثقافة الاسلامية فى هذا العهد فانتشرت بين المغول بكافة فروعها والوانها ، فالفقه ومذاهبه المختلفة كانت له مدارس رائجة ، وكان له معلمون ومدرسون ومساجد معينة تختص كل منها بتدريس

---

(١٨٢) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٥ — ٢١٩ ، ٢٣٨ — ٢٤٣ .
(١٨٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .
(184) Howorth : op. cit., v. 2, p. 440.
(١٨٥) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٥٧ .
(١٨٦) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٣٩ .

مذهب معين ، ففى مدينة سراى كان للشافعية والحنفية والمالكية مساجد خاصة بكل منها يدرس فيها المذهب الخاص بها ، وكان بها القضاة الذين يتبعون هذه المذاهب ، وكذلك كانت مدينة القرم فكان بها قاض للحنفية وآخر للشافعية(١٨٧) . وعلم الكلام والاعتزال كان رائجا فى خوارزم ، ولكن اهلها كانوا لا يظهرون ذلك خوفا من سلاطين المغول الذين كانوا يدينون بمذاهب السنة ويتعصبون لها(١٨٨) فالسلطان بركة خان كان سنيا مغاليا شديد التمسك بمذهبه ، ولذلك سر كثيرا عندما علم بأن الظاهر بيبرس اقام اماما من آل العباس فى خلافة المسلمين ، فأحيا بذلك الخلافة العباسية السنية التى كان هولاكو قد قضى عليها(١٨٩) وكان السلطان أوزبك ونائبه فى مدينة خوارزم وغيرها يتبعون هذه السياسة ، وكانوا يؤيدون مذهب الحنفية(١٩٠) ، وهو أحد مذاهب السنة الأربعة كما هو معروف .

ولم ترج فى بلاد القفجاق المعرفة بالمذاهب الفقهية فقط بل نبغ كثير من ابنائها وعلمائها فى كثير من العلوم والمعارف الأخرى كالمعانى والبيان والمنطق والأصول والفلسفة والطب ، وكانوا يؤلفون فى هذه العلوم بالفارسية والتركية والعربية التى اتقنها علماؤهم وصاروا ائمة فيها(١٩١) . ومن عجب ان نرى اللغة العربية منتشرة الى حد ما فى هذه البلاد التى لا يتكلم اهلها الا بالتركية أو الفارسية أو المغولية ، ولم يكن ذلك الا نتيجة لانتشار الاسلام فيها ، فأداء الشعائر الدينية وقراءة القرآن لا بد أن تؤدى الى تعلم اللغة العربية ، ومن ثم تعلم كثير من المغول هذه اللغة وقرأوا بها القرآن الكريم . وكان من عادة سلاطين وامراء مغول القفجاق ان يتلى القرآن فى مجالسهم ، بل ويخطب الخطباء امامهم باللغة العربية ، ثم يترجم الخطباء ما يقولونه للسامعين بالتركية ، وكذلك الغناء كان يؤدى أيضا باللغة العربية والفارسية والتركية ، وقد سبقت الاشارة الى ذلك كله . والجدير بالذكر أن

---

(١٨٧) المصدر السابق ، ص ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، الرمزى : نفس المرجع ج ٢ ص ٣٧ .

(١٨٨) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٤٠ .

(١٨٩) العينى : نفس المصدر ، ج ٢٢ ، ورقة ٢١٨ أرنولد : نفس المرجع ، ص ١٥٩ ، Howorth : op. cit., v. 2, p.105.

(١٩٠) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٤٠ .

(١٩١) الرمزى : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٣٧ — ٣٩ .

ابن بطوطة لم يشر اثناء زيارته لتلك البلاد الى وجود مترجمين بينه وبين من زارهم ، وما ذلك الا لوجود كثيرين يعرفون هذه اللغة ، وخاصة من العلماء والفقهاء الذين وفدوا الى هذه البلاد من ديار العروبة والاسلام او من ابناء المغول الذين سبقت لهم الدراسة فى تلك الديار . وان دل ذلك على شىء فانما يدل على توطن الثقافة الاسلامية بين مغول القفجاق وغيرهم من سكان دولتهم ، وقد اتخذ هذا التوطن مراكز معينة انتشرت منها هذه الثقافة فى سائر انحاء الدولة .

وقبل أن نتحدث عن هذه المراكز او هذه المدن التى ازدهرت فيها الثقافة الاسلامية نود ان نشير الى اننا لا نتفق مع ما ذكره سوندرز Saunders من ان دولة القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق لم تصبح ابدا دولة متحضرة لأنها قامت فى منطقة رعوية صحراوية لم تعرف الا الأسواق ومحطات القوافل التجارية ولم تظهر فيها المدن الكبرى(١٩٢) . ذلك لأن ابن بطوطة وعرب شاه وغيرهما زاروا هذه البلاد وراوها رأى العين ووصفوا لنا حياة الناس وذكروا لنا ما رأوه من مدن . فابن بطوطة زار هذه البلاد واقام فيها بضع شهور عام ٧٢٦هـ/١٣٢٥م اثناء حكم السلطان محمود اوزبك ، وعرب شاه زارها بعد ذلك بحوالى قرن واقام فى العاصمة سراى سنين عديدة وتزوج باحدى نسائها وولد له هناك اولاد ، وكلا الرجلين تركا لنا ما رأياه فى كتب لا تزال موجودة حتى الان . وقد اعطانا ابن بطوطة بالذات اسماء عديد من المدن التى زارها مثل مدن الكفا والقرم والماجر والحاج طرخان وأزاق وسرداق وخوارزم وسراى العاصمة(١٩٣) كما ذكر القلقشندى ان مملكة مغول القفجاق كانت تتكون من عشرة اقاليم ووصف لنا هذه الأقاليم وذكر ما تحتوى عليه من مدن(١٩٤) كما ذكر هورث Howorth المدن التى وردت عند ابن بطوطة والقلقشندى وأضاف اليها مدنا اخرى منها بلغارى الجديدة والقرم الجديدة وسراى الجديدة وسيراتشوك واوردو واوردو الجديدة ودربند والشماقى وشبران وباكو ومحمود اباد وكاس دراسان(١٩٥) . وقد ضرب

(192) Saunders : op. cit., p. 170.

(١٩٣) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٢٠ .

(١٩٤) صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٥٣ — ٤٦٧ .

(195) History of the Mongols, v. 2, pp. 172, 258, 268.

سلاطين مغول القفجاق عملتهم فى هذه المدن التى ذكرها هؤلاء الكتاب الثلاثة، فهى مدن رئيسية وليست محطات للقوافل فقط ، كما يلاحظ ان منها ما يطلق عليه انه مدن جديدة مما يدل على مدى النهضة العمرانية والحضارية التى قامت أثناء حكم المغول لهذه البلاد .

اذن هناك مدن كثيرة حفلت بها دولة المغول فى بلاد القفجاق وقد تحول كثير من هذه المدن الى مراكز حضارية كبرى احتضنت الاسلام ورعت الثقافة الاسلامية اتم رعاية . وكانت مدينة سراى عاصمة الدولة من احسن الأمثلة التى يمكن ان نضربها على ذلك . فقد وصفها لنا ابن بطوطة وقال انها كانت من احسن المدن ، كبيرة المساحة كثيرة العمارة مزدحمة السكان ، حسنة الأسواق متسعة الشوارع(١٩٦) واشار ابن بطوطة الى كثرة مساجدها العادية والجامعة والى تنوع سكانها وان اغلبهم كان من المغول ، واطلق عليهم انهم « أهل البلاد والسلاطين » وذكر بجانبهم طوائف اخرى غير اسلامية مثل الجركس والروس والروم ، واشار الى ان كل طائفة منها كانت تسكن حيا خاصا بها فيه اسواقها ومتاجرها واشار الى طوائف التجار الذين وردوا عليها من مصر وبلاد الشام وغيرها ، كما اشار الى كثرة فقهائها ومشايخها واشرافها ، والى فقهاء الشافعية والمالكية والحنفية والى المدرسين والصوفية(١٩٧) . وقد اشار الى ذلك ايضا عرب شاه وقال انها كانت « مدينة اسلامية البنيان بديعة الأركان ، وانها كانت من اعظم المدن وصفا واكثرها للخلق جمعا ، وانها اصبحت فى عهد السلطان محمد اوزبك مجمع العلم ومعدن السعادات واجتمع فيها من العلماء والفضلاء والأدباء والظرفاء ومن كل صاحب فضيلة وخصلة نبيلة جميلة فى مدة قليلة ما لم يجتمع فى سواها »(١٩٨) . واشار القلقشندى الى ذلك ايضا وقال ان قصر الملك بها كان يرتفع فوقه هلال ضخم مصنوع من الذهب الخالص زنته قنطاران ، وقال ان هذه المدينة كانت تزخر بالأسواق والحمامات وخانات التجار(١٩٩) . فهى

---

(١٩٦) رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٣٧ .

(١٩٧) المصدر السابق ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(١٩٨) عجائب المقدور ، ص ٥٦ — ٥٧ ، الرمزى : نفس المرجع، ج ١ ص ٤١١ .

(١٩٩) صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٥٧ .

مدينة اسلامية النشأة والطابع لا تكاد تفرقها عن مدن الاســلام فى البلاد الأخرى ، نهضت فيها الثقافة الاسلامية بمن وفد عليها من علمـاء سـبقت الاشارة اليهم ، وبمن نبغ فيها من ابنائها حتى صارت كعبة للعلم ومحطـة للثقافة والتجارة فى نفس الوقت .

ومن المدن الأخرى التى كان لها نفس الطابع مدينة القرم . وقد زار ابن بطوطة هذه المدينة وأشار الى ما فيها من زوايا كثيرة وقضـاة للحنفية والشافعية وخطباء وفقهاء كثيرين منهم الشيخ زادة الخراسانى الذى كان الناس هناك يأتون لزيارته ، ومنهم قاضى المدينة الأعظم الشيخ شمس الدين السائلى قاضى الحنفية ، والشيخ خضر قاضى الشافعية ، والفقيه المدرس علاء الدين الآصى ، وخطيب الشافعية ابو بكر الذى كان يخطب بالمسـجد الجامع الذى بناه الملك المنصور قلاون على نفقته الخاصة بهذه المدينة عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م ، والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين الذى كان من الـروم واسلم وحسن اسلامه ، والشيخ الصالح العابد مظهر الدين ، وغـيرهم كثـيرون(٢٠٠) .

والقرم قبل ان تكون مدينة فهى اسـم لاقليم كبير يشتمل نحـوا من اربعين بلدا ، (٢٠١) وهذا الاقليم يعرف عادة باسم شبه جزيرة القرم ، وكان سكانه من المغول مسلمين سنيين على حظ كبير من الثقافة والعلم ، فقد وجدت لديهم مدارس فى كل المدن التى حواها هذا الاقليم(٢٠٢) مثل مدينة بركوب (أوركابى) ومدينة جوسليف وأكمجد (سيمفروبول الان) ، ومدينة صلفات وباخشى سراى التى كانت تحتوى على عدد كبير من المساجد الرائعة التى كانت لا تقل عن واحد وثلاثين مسجدا عندما زارها بالاس Ballas عام ١١٨٢هـ/١٧٦٨م ، وكان معظمها مبنى بالحجارة ومحاطة بمآذن جميلة كما وجد فى هذه المدينة ايضا ثلاث مدارس اسلامية بالاضافة الى الحمامات والخانات وكنيسة اغريقية واخرى ارمنية وثلاث معابد يهودية . وقد ظل اسم

---

(٢٠٠) ابن بطوطة : نفس المصـدر ، ص ٢١٥ ، المقـريزى : نفس المصدر ، ج١٠ ق ٣ ص ٧٣٨ .

(٢٠١) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٥٩ .

(202) Howorth : op. cit., v. 2, p. 609.

هذه المدينة يتردد حتى حكم خانية القرم اسلام جيراى الثانى (٩٩٢ — ٩٩٧هـ/ ١٥٨٤ — ١٥٨٨م).(٢٠٣) .

ومن المراكز الثقافية الأخرى التى أزدانت بها شبه جزيرة القرم مدينة يسميها المغول سوداق أو صوداق وتسميها العامة سرداق أو سردق ، وتسمى الان سولدايا Soldaia . وكانت هذه المدينة من أهم الموانى فى شبه الجزيرة ومرساها من أعظم المراسى واحسنها ، ولذلك كانت مقصدا للتجار يأتون اليها وينزلون بها من شتى انحاء العالم(٢٠٤) . وقد أستولى عليها المغول عام ٦١٩هـ/١٢٢٢م ثم طردوا من بها من المسيحيين فى بداية القرن السابع عشر للميلاد(٢٠٥) ، ولعل ذلك يعود الى ما كان يقوم به هؤلاء المسيحيون من فتن اشار الى بعضها ابن بطوطة ، ولكن السلطان اوزبك سمح لهم بالعودة الى مدينتهم عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م ، كما تكاثر بها الجنويون وسيطروا عليها عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م ، مما أدى الى ازدياد نفوذ النصرانية بها حتى ضاق الأتراك ذرعا بذلك واستولوا عليها عام ٨٨٠هـ/١٤٧٥م وحولوا كنائسها لأول مرة الى مساجد وظلت كذلك حتى اتى الاحتلال الروسى لشبه جزيرة القرم فتبدلت الأوضاع فيها لصالح النصرانية ، وغلب الطابع المسيحى عليها منذ ذلك الحين(٢٠٦) .

ومن مراكز الثقافة الاسلامية الزاهرة مدينة ازاق ، وكان شعبها يسمى شعب الأزق ، وكانت تقع على شمال بحر القرم (بحر ازوف الآن) ، ولذلك كانت مدينة تجارية من الطراز الأول ، قصدها التجار من كل مكان مسلمين ونصارى ، فازدادت ثروتها وكثرت زواياها ، وقد سبقت الاشارة الى مدى الازدهار الثقافى والدينى الذى حظيت به هذه المدينة فى ظل

---

(٢٠٣) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٥٩ ،
Howorth : op. cit., v. 2, pp. 609-610.

(٢٠٤) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٢٩ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٦٠ ، Howorth : op. cit., v. 2, p. 622.

(205) Ibid, v. 2, p. 623.

(٢٠٦) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٤ ، ٢٢٩ ، القلقشندى ، ج ٤ ص ٤٦٠ ، Howorth : op. cit., v. 2, pp. 623, 624.

حاكمها محمد خواجة الخوارزمى الذى خرج لاستقبال ابن بطوطة فى وفد كبير من الطلبة والفقهاء والقضاة ، وما تبع ذلك من حفلات دينية قرىء فيها القرآن والقيت الخطب باللغات العربية والفارسية(٢٠٧) والتركية .

وبين مدينة ازاق ومدينة سراى وعلى نهر (تان) الذى يصب فى البحر الأسود بين نهرى الدون (الطونة) وجبال القوقاز ، كانت هناك مدينة تسمى مدينة الماجر(٢٠٨) التى كانت تقع فى الجنوب الغربى من مدينة الحاج طرخان . وقد زار ابن بطوطة هذه المدينة فى عهد السلطان محمد اوزبك خان ووصف لنا ما كانت تزخر به من حياة اسلامية تتمثل فى كثرة زواياها وفقهائها وفى وجود كثير من الصوفية الرفاعية بها ، وأشار إلى ما كان

---

(٢٠٧) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٦١ ، ٤٦٨ .

(٢٠٨) المجر خليط من المغول والفن والباشقرد والترك ، وكانوا يسكنون قرب جبال الأورال ثم سكنوا فى شرقى كييف فى القرن التاسع للميلاد . ولما ضيق عليهم الروس الخناق هاجروا جنوبا الى صحراء حاجى طرخان حيث اقاموا لهم مدينة سميت بمدينة الماجر التى نتحدث عنها الان ، ولما فتح المغول تلك البلاد اصبح الماجر فى طاعتهم ، ولما قام تيمورلنك بغزو بلاد القفجاق خرب مدينة الماجر عام ٧٩٨هـ/١٣٩٥م ففر كثير من أهلها غربا واستوطنوا نهر الطونة وعبر بعضهم نهر الدنيبر واستقروا فى هنغاريا وبلاد المجر الحالية عند اخوانهم الذين كانوا يسكنون فيها من قديم . وكان الماجر من عبدة الأوثان والنار ، ولما استقر الاسلام فى دولة مغول القفجاق اصبحت مدينة الماجر تزخر بالحياة الاسلامية ، مما يفهم منه ان معظم سكانها ان لم يكونوا كلهم قد اعتنقوا الاسلام ، ولما هاجر فريق منهم الى بلاد المجر الحالية اثر غزو تيمورلنك كما سبق القول كان هؤلاء المهاجرون من الماجر على دين الاسلام فنشروه فى مهجرهم الجديد ، ولا يزال الاسلام منتشرا بين حوالى ٢٠ ٪ من سكان جمهورية المجر الحالية ، وان كان هؤلاء المسلمون يتعرضون لاضطهاد شديد فى هذه الأيام ، لتغيير دينهم واجبارهم على استبدال اسمائهم بأسماء أخرى غير اسلامية .

انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ٤٦٨ ، الرمزى : تلفيق الأخبار ، ج ١ ص ٢٢٦ — ٢٣٠ ، ٢٣٨ ، جريدة « المسلمون » ، العدد ٤٣ ص ١٧ .

يتصف به اهل هذه المدينة من حب لهؤلاء الصوفية حيث كانوا يهبونهم الكثير من الخيل والبقر والغنم ، كما كان السلطان نفسه والخواتين يأتون لزيارتهم والتبرك بهم ويجزلون العطاء لهم . وقد أشار ابن بطوطة الى ما كان يمتاز به اهل هذه المدينة من حب للخير ومساعدة للغرباء وخاصة للذين يتهيأون للسفر منهم(٢٠٩) .

ومن مراكز الثقافة الاسلامية الأخرى مدينة الحاج طرخان التى كانت تقع قرب مصب نهر اتل (الفولجا) فى بحر الخزر (قزوين) ، وقد زار ابن بطوطة هذه المدينة ، وكانت محلة السلطان محمد أوزبك خان وخواتينه قد انتقلت اليها ، ولكن ابن بطوطة لم يترك لنا وصفا لمظاهر الحياة الاسلامية بهذه المدينة ، وكان ما صرفه عن ذلك رغبته فى زيارة القسطنطينية فى صحبة الخاتون بيلون زوجة السلطان محمد أوزبك وابنة امبراطور القسطنطينية حيث كانت قد ابدت رغبتها فى زيارة ابيها لتضع حملها عنده ، فأذن لها السلطان بالسفر وانتهز ابن بطوطة هذه الفرصة وسافر معها وفى حمايتها الى القسطنطينية(٢١٠) .

ومع ذلك فقد كانت مدينة الحاج طرخان تحتل مكانة كبيرة فى دولة القبيلة الذهبية حيث كان ينزل بها السلاطين فى فصل الشتاء ولذلك طغت عليها مظاهر الحياة الاسلامية ، وخاصة فى عهد السلطان محمد أوزبك الذى كان قد قصر جهده على نشر الاسلام فى شتى أنحاء دولته الواسعة . وقد تحولت هذه المدينة وما يحيط بها من مدن ونواحى الى خانية تتمتع بالحكم الذاتى أثناء ضعف دولة القبيلة الذهبية ومستقلة تماما بعد ان سقطت تلك الدولة نهائيا عام ٩٠٧هـ/١٥٠٢م ، وظلت كذلك حتى سقطت فى يد الروس عام ٩٦٥هـ/١٥٥٧م(٢١١) .

---

(٢٠٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢١٩ ، ٢٢٠ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١، ص ٢٢٦ .

(٢١٠) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٢١١) الرمزى : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٣ — ٩ .

ومن مراكز الثقافة الاسلامية ذات الأهمية الكبرى مدينة بلغار(٢١٢) . وقد سبق الحديث عنها وعن قدم الاسلام بها وأن ذلك يعود الى القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد ، وعن انها كانت اشهر مدينة فى دولة القبيلة الذهبية بعد عاصمتها سراى . وقد زارها ابن بطوطة فى شهر رمضان عام ٧٢٦هـ/١٣٢٥م وصلى مع اهلها صلاة المغرب والعشاء والتراويح ، وأشار الى قصر الليل بها ، واقام بها ثلاثة ايام(٢١٣) ، وأشار القلقشندى الى ان اهلها كانوا مسلمين على المذهب الحنفى(٢١٤) ، واشار غيره الى انهم كانوا خليطا من المغول والبلغار ، والى ان بلادهم اصبحت موئلا للاسلام وعلمائه وعلومه ، بعد أن أصبحت تلك البلاد داخلة ضمن دولة مغول القفجاق ذات الصلات الوثيقة بمصر وبالخلافة العباسية سواء فى بغداد ام فى القاهرة ، فقد كانت بلاد البلغار قبل غزو المغول لها بلادا نائية منقطعة عن العالم الاسلامى(٢١٥) ، اما بعد هذا الغزو وبعد اسلام مغول القفجاق فقد توافد عليها علماء المسلمين من بخارى وايران ومصر وبلاد الشام وآسيا الصغرى ، كما ان علماء البلغار وطلابها كانوا يذهبون الى تلك البلاد ايضا للاستزادة من علوم الاسلام وثقافته ولغته ، ولذلك ظهر بينهم عدد كبير من العلماء ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر القطب الكبير الخواجة صلاح الدين بن عمر البلغارى الذى كان مريدا للشيخ الصوفى الكبير نجم الدين الكبرا ، صاحب الطريقة الكبراوية . وكان القفجاق قد أسروه وهو ابن ثلاث وعشرين عاما ، واقام بينهم سبع سنين ، وتصوف ولقى مشايخ الصوفية هناك وسكن مدينة بلغار تسع سنين ، ثم رحل الى بخارى وكرمان ومراغة ، ودخل فى سلك دعوته فى بخارى عدد كبير من المريدين ، منهم الشيخ عمر الباغستانى جد الخواجة عبيد الله أحرار الصوفى الكبير المشهور ، وظل الشيخ حسن البلغارى يجمع حوله المريدين والاتباع حتى توفى فى تبريز عام ٦٩٨هـ/١٢٩٨م(٢١٦) .

---

(٢١٢) أنظر ما سبق ان ذكرناه عن البلغار واسلامهم ، ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٢١٣) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٢٥ ه

(٢١٤) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٦٢ .

(٢١٥) الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٣١٦ .

(٢١٦) المرجع السابق ج ١ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

وهناك أيضا باشقرد ناصر الدين الناصرى الذى وفد الى مصر وصار مملوكا لأحد سلاطينها ووصل فيها الى مرتبة الأمراء ، ونال قدرا كبيرا من الثقافة الاسلامية وأتقن اللغة العربية ، وظل عشرين عاما لا يتكلم بالتركية حرصا منه على اتقان العربية ، وقد رحل الى دمشق ومات بها عام ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م . وقد أثنى عليه كثير من علماء الاسلام فى عصره(٢١٧) .

وهناك علماء بلغاريون آخرون مثل الشيخ برهان الدين ابراهيم بن خضر البلغارى صاحب كتاب أصول الحسامى الذى انتهى من تاليفه عام ٧٥١هـ/١٣٥٠م ، والشيخ ابو محمد صدر الدين بن علاء الدين البلغارى الذى كتب اجازة لأحد تلاميذه عام ٧٦٦هـ/١٣٦٤م ، والشيخ محمد البلغارى الذى قال عنه صاحب كشف الظنون أنه خزينة العلماء وزينة الفقهاء(٢١٨) . وغير هؤلاء كثيرون لم نذكر اسماءهم نظرا لأنهم عاشوا فى بلغار قبل الغزو المغولى لها ، مما يدل على توطن الاسلام بهذه البلاد التى كان لها دور كبير فى مساعدة سلاطين مغول القفجاق فى نشر الاسلام والثقافة الاسلامية فى ارجاء دولتهم الواسعة الأرجاء .

ومن المظاهر الأخرى الدالة على عمق العقيدة الاسلامية عند مغول القفجاق وعلى عظيم انفعالهم بالحياة الاسلامية هو قيامهم بواجب الجهاد سواء للدفاع عن بلادهم او فى مهاجمة البلاد التى كانت تتربص بهذه البلاد سواء من الصليبيين أم من المغول الوثنيين فى ايران ، او لفتح بعض البلاد الأخرى وضمها الى حوزتهم ونشر الاسلام بها مثلما حدث فى سيبيريا وآسية الوسطى وجنوب روسيا ، او لمساندة وقفة الاسلام فى مصر والشام سواء ضد الصليبيين أو ضد مغول ايران الوثنيين .

وكان سلاطين مغول القفجاق على علم بالتحالف الذى تم بين مغول ايران الذين لم يكونوا قد تحولوا الى الاسلام بعد ، وبين الصليبيين سواء فى بلاد الشام وأرمينيا وجورجيا ام فى اوربا . وكان هدف هذا التحالف ضرب المسلمين فى بلاد الشام ومصر ، والفصل بين سراى والقاهرة حتى لا يلتقيا فى خندق واحد ضد هذا الحلف غير المقدس . وقد رد السلطان بركة على

---

(٢١٧) المرجع السابق ، جـ ١ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

(٢١٨) المرجع السابق ، جـ ١ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

ذلك بالتحالف مع مصر وبضرب الصليبيين فى أوربا الشرقيـــة ، وبارسال الحملات التى توغلت فيها حتى وصلت الى بولندا والمجر ، حتى ينشغل أهل تلك البلاد عن تدعيم اخوانهم من الصليبيين فى بلاد الشام والذين كان الظاهر بيبرس يدير ضدهم معارك طاحنة ناجحة ، كما شن بركة خان هجمات على مغول ايران حتى يشغلهم عن بلاد الشام فلا يتعرضوا لها(٢١٩) ، وبذلك أمكن ضرب التحالف المغولى الايرانى الصـــليبى ضربة قاصمة ، وتم انقاذ الاســـلام فى بـــلاد الشـــام .

ولا يهمنا هنا ان نذكر تفاصيل تلك الحملات التى قام بها بركة سواء فى اوربا او ضد ايران ، او تفاصيل علاقاته مع مصر ، بقدر ما يهمنا ابـــراز الطابع الاسلامى والتأثير الذى نتج عن هذه الحملات أو تلك العلاقات من حيث نشر الاسلام والثقافة الاسلامية بين مغول القفجاق وتدعيم روح الأخوة الاسلامية بينهم وبين مصر .

ومنذ البداية فقد برز الانفعال بالاسلام وتقاليده بشكل بارز عند بركة خان سلطان مغول القفجاق وعندما قام ابن عمه هولاكو ايلخان مغول ايران يغزو بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، وقتل خليفة المسلمين المستعصم بالله العباسى ، وقتل اهل بيته وآلافا من المسلمين علمائهم وفقهائهم وعامتهم . وكان غضب بركة خان لهذا الحادث الاليم الذى راح بالخلافة العباسية هائلا وشديدا ، ونتج عنه ان ساءت العلاقات بينه وبين هولاكو ، وتوعده بالحرب والقتال انتقاما لما حدث ببغداد كعبة الاسلام ولخليفة المسلمين(٢٢٠) .

---

(٢١٩) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٥ ص ١١٥٤ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ، جـ ٧ ص ٢٢٢ .

(٢٢٠) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، م٢ جـ ١ ص ٣٣٢ ، القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٣١٠ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ، جـ ٧ ص ٢٢٢ ،
Saunders : op. cit., p. 156.
Howorth : op. cit., v. 2, p. 1012.
وللوقوف على اســـباب العداء العديدة بين مغول القفجاق ومغول ايران ، وعلى تفاصيل العلاقات بين القاهرة وسراى ، انظر : فايد حماد عاشور : نفس المرجع ، ص ٢٠٥ ـــ ٢١٨ ، محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ٩٢ .

وفى نفس الوقت كان الظاهر بيبرس سلطان المماليك فى مصر والشام قد سمع باسلام بركة خان ، وسمع بغضبه على هولاكو ، فارسل له عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م يحرضه على جهاده والتصدى له ، ويهون له من امره ، ويعرفه بأن ذلك واجب عليه لتواتر الأخبار باسلامه الذى يفرض عليه ضرورة مجاهدة الكفار من امثال هولاكو(٢٢١) . واستجاب بركة خان لهذا النداء خاصة بعد أن علم بأطماع هولاكو فى بلاده ، ورأى مؤامرة بعض الأمراء الذين اغضبهم اسلامه(٢٢٢) ، فقام بركة باتخاذ الخطوات العملية لمواجهة هذا الغزو الوثنى لبلاده ولبلاد الشام ، فارسل الى فرقته التى كانت ضمن جيش هولاكو يأمرها بالعودة الى سراى أو الذهاب الى مصر ، فسار جند هذه الفرقة الى مصر واستقبلهم الظاهر بيبرس عام ٦٦٠هـ/١٢٦٢م بكل مظاهر الحفاوة والتكريم ، واقنعهم بصحة الدين الاسلامى ، فاعتنقوه واسلموا وحسن اسلامهم ، وبلغ المغول ما ناله اخوانهم فى مصر من الاحسان والانعام ، فتوافد بعضهم عليها جماعة اثر جماعة ، حيث طابت لهم الحياة واعتنقوا الاسلام كاخوانهم من قبل(٢٢٣) .

وقد ساعد على ذلك انهم وجدوا حكام مصر من نفس أصلهم ونفس جنسهم ، حيث كان الظاهر بيبرس ومماليكه من أصل قفجاقى ، وهكذا تعاون الملكان : بركة فى بلاد القفجاق ، والظاهر بيبرس فى مصر ، على تحويل من يتولون حكمهم من المغول الى الاسلام (٢٢٤) ، فهما اذن يسيران فى طريق

---

(٢٢١) النويرى : نفس المصدر ، جـ ٢٨ ورقة ١٧ ، ٣٠ المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٤٦٥ ، العينى : نفس المصدر جـ ٢٢ ورقة ١٦٣ .

(٢٢٢) ارنولد : نفس المرجع ص ٢٧١ ،
Saunders : op. cit., p. 156.

(٢٢٣) النويرى : نفس المصدر ، جـ ٢٨ ورقة ١٧ ، ٢٥ ، ٢٦ : العينى نفس المصدر ، جـ ٢٢ ورقة ٢٢١ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
Saunders : op. cit., p. 117.

(٢٢٤) أبو الفدا : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٩ ، ١١ ، الديار بكرى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٣٧٨ ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر ، جـ ٧ ص ٩٤ .

واحد وهو العمل على تدعيم وتقفة الاسلام ضد هجمات الصليبيين والمغول بتدعيم الحركة الاسلامية ذاتها وبتعميم العلاقات الشخصية والدولية بينهما ، وقد نالت هذه العلاقات دفعة قوية حينما ارتبط الملكان برباط المصاهرة ، حيث تزوج الظاهر بيبرس من ابنة بركة وأنجب منها ابنا سماه الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان على اسم جده خان القفجاق(٢٢٥) ، كما ارسل بركة اولاده الى مصر لينهلوا من ثقافتها الاسلامية كما سبق القول ، وتردد التجار والعلماء بين القاهرة وسراى ، وتم التحالف بين البلدين ، مما قوى من عزيمة السلطان بركة فى مهاجمة هولاكو الذى كان قد تحالف فى نفس الوقت مع صليبيى أوربا وبلاد الشام ، وملوك ارمينيا وجورجيا المسيحيين ضد مغول القفجاق وضد مصر ، واشتعلت نيران الحرب بين بركة وهولاكو عام ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م ، وانزل هو وقائده نوغاى بقوات هولاكو هزيمة ساحقة على ضفاف نهر ترك Terek (٢٢٦) ، وأرسل بركة الى الظاهر بيبرس فى مستهل شهر رجب عام ٦٦١هـ/ مايو ١٢٦٣م رسالة يقول فيها « فليعلم السلطان اننى حاربت هلاوون (هولاكو) الذى من لحمى ودمى لاعلاء كلمة الله تعصبا لدين الاسلام ، وانه باغ والباغى كافر بالله ورسوله »(٢٢٧) ، كما أرسل له رسالة اخرى فى ذى القعدة من نفس العام يحثه فيها على مساعدته ضد هولاكو لاعتدائه على المسلمين ، ويلتمس منه ارسال جيش الى الفرات لقطع طريق الرجعة على هولاكو ، ولمحاصرته من الشمال والجنوب (٢٢٨) .

---

(٢٢٥) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ٢ ص ٦٤١ بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٧٨ ، Saunders : op. cit., p. 170. Howorth : op. cit., v. 2,p.125.

(٢٢٦) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، م ٢ جـ ١ ص ٢٣٤ ، ابو شامة ص ٢٢٠،النويرى : نفس المصدر جـ ٢٨ ورقة ٣١،الديار بكرى : نفس المصدر جـ ٢ ص ٣٧٩ ، محمد جمال الدين سرور : دولة الظاهر بيبرس ص ٩٢ ، ٩٣ ، Saunders : op. cit., 156.

(٢٢٧) النويرى : نفس المصدر ، جـ ٢٨ ورقة ٣١ ، العينى : نفس المصدر ، جـ ٢٢ ورقة ٢١٩ ، المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ٢ ص ٤٩٥ .

(٢٢٨) النويرى : نفس المصدر ، جـ ٢٨ ورقة ٢٥ ، ٣١ ، الديار بكرى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٣٧٩ .
Saunders : op. cit., pp. 117, 156 ; Howorth : op. cit., v. 2, 118.

وقد استجاب الظاهر بيبرس لمطالب بركة التى كانت تتفق وسياسة مصر فى رد عادية مغول ايران عن بلاد الشام ، فجهز الجيوش وارسلها الى تلك البلاد لهذا الغرض ، وزاد على ذلك بأن أمر بالدعاء للسلطان بركة على المنابر فى مكة والمدينة وبمصر والقاهرة بعد الدعاء للظاهر بيبرس ، كما اشاد الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله بالسلطان بركة ودعا له بنفسه فى خطبة صلاة الجمعة(٢٢٩) مما قوى من شأن بركة فى نفوس شعبه وفى صراعه ضد مغول ايران .

ولا شك ان هذه الرسائل وتلك العلاقات المتينة التى ربطت بين القاهرة وسراى لتدل دلالة مؤكدة على عمق العقيدة الاسلامية فى نفس السلطان بركة وعلى مدى انفعاله بالتقاليد الاسلامية ، وعلى مدى ما نفخه انتصار بركة فى موقعة تريك وانتصار المماليك على هولاكو فى موقعة عين جالوت فى الاسلام من روح جديدة وقوى من شأن الجبهة الاسلامية المتصدية لهولاكو فى مصر والشام ، فقد استحوذت تلك الهجمات التى شنها بركة انتباه هولاكو وصرفته عن الهجوم على بلاد الشام ، كما سهلت لمصر طريق الحصول على الرقيق التركى عبر البحر الأسود (٢٣٠) ، مما مكنها من مواصلة مقاومتها لأعدائها وأعداء الاسلام من الصليبيين ومغول ايران الذين كانوا على الوثنية فى ذلك الحين (٢٣١) ، كما قوت انتصارات بركة وبيبرس على هولاكو من شأن الحركة الاسلامية بين مغول القفجاق أنفسهم واصبح لمصر تأثير كبير فى بلاط سراى ، ووصل تجارها وفقهاؤها ومهندسوها المعماريون الى سراى وظل توافدهم مستمرا لاحظه ابن بطوطة بنفسه عند زيارته لسراى عام ٧٢٦هـ/١٣٢٥م ، وفى اشارة خاطفة منه تدل على ذلك كله يلفت نظرنا الى قيام الملك الناصر محمد بن قلاون بتعمير المسجد الجامع بمدينة القرم على نفقته الخاصة ، والى انتشار المذهب الشافعى فى سراى .

---

(٢٢٩) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ٢ ص ٤٩٥ — ٤٩٨ .

(٢٣٠) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ٢ ص ٤٣٠ — ٤٣١ ،
Saunders : op. cit., p. 159.

(٢٣١) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر م ٢ جـ ١ ص ٣٣٣ ،
ابن خلدون : نفس المصدر جـ ٥ ص ١١٤ ، ١١٥٤ ،
Saunders : op. cit., p. 159.

وباقى مدن المملكة (٢٣٢) . وهذا المذهب لا بد وأنه واصل الى تلك البـــلاد من مصر ؛ فهى المهد الذى ترعرع فيه هذا المذهب وانتشر منه الى الشرق والغـــرب .

اذن دور مصر واضح فى دعم الحركة الاسلامية بين مغول القفجاق ، وظل هذا الدور يذكر لها طوال حكم المغول لبلاد القفجاق وظل زعماء البلدين مغولا ومماليك يجاهدون أعداء الاسلام سواء بالتصدى لمغــول ايــران ام بالتصدى والهجوم احيانا على الدولة النصرانية سواء فى الشرق او المغرب ، وخاصة فى عصر السلطان محمد أوزبك خان (٧١٢ — ٧٤٢هـ/١٣١٣ — ١٣٤٢م) ، وهو السلطان الذى بلغت الحركة الاســلامية فى عهــده قمــة الازدهار والقــوة والنمــو .

غير ان تغير الأوضاع على المسرح السياسى فى منطقة الشرق الأدنى ادى الى تغيير فى اتجاهات سياسة أوزبك وسلاطين مصر بعض الشىء ، فقد ظهرت على المسرح وقتذاك قوة سوف يكون لها شأن كبير ، وهى قوة الترك العثمانيين الذين اقاموا دولة لهم منذ بداية القرن الرابع عشر للميــلاد فى آسيا الصغرى ، ووقفت هذه الدولة حاجزا بين فعالية الاتصال بين سراى والقاهرة(٢٣٣) ، كما أصبحت خطرا يهدد كلا من القسطنطينية ومغــــول القفجاق ومغول ايران ، ومن ثم حاول اباطرة القســـطنطينية ان يوطـــدوا علاقاتهم بمغول القفجاق ، كما حاول مغول ايران ان يحــــولوا علاقاتهم العدائية بمصر والشام الى علاقات طيبة ودية ، ولذلك تأثر تحالف مغــول القفجاق بمصر ، ولم يستجب ســـلاطين مصر لمطـــالب اوزبك فى التصدى لايلخانات ايران(٢٣٤) . اما فى بقية نواحى العلاقات بين القاهرة وسراى فقد ظلت كما هى ، بل زادت توثقا وقوة ، ودللت على استمرار مظاهر الأخوة الاسلامية التى ربطت بين البلدين حتى قال فى ذلك احد الكتاب المعاصرين العظام انه « ما زال بين ملوك هذه المملكة — يقصد مملكة مغول القفجاق —

---

(٢٣٢) ابن بطوطة : نفس المصــدر ، ص ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، المقريزى : السلوك ، جـ ١ ق ٣ ص ٧٣٨ ،
Howorth : op. cit., v. 2, p. 105.

(233) Saunders : op. cit., p. 165.

(٢٣٤) فايد عاشور : نفس المرجع ، ص ٢١٦ .

وبين ملوكنا ــ يقصد ملوك مصر من سلاطين المماليك ــ قديم اتحاد وصــدق وداد من أول ايام الظاهر بيبرس والى آخر وقت (٢٣٥) » .

وقد ظهر الوداد وذلك الاتحاد فى شكل داوم المصاهرات التى ربطت بين السلطان محمد أوزبك خان وبين الملك الناصر محمد بن قلاون ، فقــد تزوج الأخير من اميرة مغولية هى الخاتون دلنبية بنت طغاى بن هندو بــن باطو بن جوجى بن جنكيز خان عام٧١٩هـ/١٣١٩م(٢٣٦) كما وصلت بعد ذلك بعشرين عاما رسل(٢٣٧) الملك أوزبك الى مصر تطلب مصاهرة سـلطان مصر(٢٣٨) ، فالمصاهرات متبادلة والمصالح قائمة ، والتجار مترددون هنــا وهناك ، والعلماء وطلاب العلم يعقدون اواصر الصلات بين البلدين(٢٣٩) ، وينشرون الاسلام بين مغول القفجاق ، ولذلك لا غرابة اذا ما رأينا رســالة تخرج من سراى يرسلها السلطان محمد اوزبك لسلطان مصر الناصر محمد بن قلاون يخبره فيهــا فى عام ٧١٥هـ/١٣١٥م بانتشار الاسلام فى بلاد القفجاق وبامتداد هذا الانتشار الى حدود الصين ويهنئه على ذلك(٢٤٠) . وتهنئــة

---

(٢٣٥) العمرى : التعريف : ص ٤٧ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٥١ .

(٢٣٥) العمرى : نفس المصدر،ص ٤٧ ، ابن الوردى : نفس المصدر، ج ٢ ص ٢٦٩ ابو المحاسن : ج ١٠ ص ٧٤ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٢٠ ،

Saunders : op. cit., p. 164.
Howorth : op. cit., v. 2, p. 150.

(٢٣٧) للوقوف على تفاصيل المراسلات التى تمت بين أوزبك والناصر محمد ، أنظر : فايد حماد عاشور : نفس المرجــع ، ص ٢١٣ ــ ٢١٦ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥١٢ ــ ٥٣٧ .

(٢٣٨) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ق ٢ ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

(٢٣٩) أبو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٦٨ ، ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٣٨ ، الرمزى : نفس المرجع ج ٢ ص ٣٣ ــ ٣٨ ، ٤٧ ــ ٤٩ ،
Saunders : op. cit., p. 170.

(٢٤٠) العمرى : التعريف ، ص ٤٧ ، ابن الوردى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٦٩ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٢٠ .

الناصر بذلك لا تحتاج الى تعليق ، وتدل دلالة كافية على مدى صدق الرابطة التى ربطت بين سراى والقاهرة ، وعلى مدى عمق روح الأخوة الاسلامية وعمق العاطفة الدينية التى تغلغلت فى نفوس وقلوب مغول القفجاق . ولا يشوب هذا الأمر تلك العلاقة التى ربطت بعض سلاطين مغول القفجاق بدول أوربا المسيحية فى فترات معينة . فقد اجبرت الظروف السياسية التى اشرنا اليها السلطان محمد اوزبك على سبيل المثال الى اقامة علاقات تجارية نشطة مع أوربا ، وقد تخلل هذه العلاقات نوع من التساهل نحو التبشير المسيحى فى بلاده ونحو الكنيسة الروسية التى كانت تدين له بالطاعة . فقد أصدر فرمانا لمطرانها بطرس عام ٧١٣هـ/١٣١٣م يحذر فيه رعاياه وأمراء دولته من الحاق اى اذى برجال تلك الكنيسة او الاعتداء على اموالها او خدامها ، وان توفر الحرية التامة لاقامة الشعائر الدينية للمسيحيين فى بلاده دون ان يتعرض لهم احد بسوء ، كما سمح للبابا بندكت الثانى والعشرين بالتبشير بالمسيحية فى البلاد التى تقع على البحر الأسود(٢٤١) .

وقد نتج عن ذلك ان ازداد الوجود النصرانى فى تلك البلاد وبنيت الكنائس وتكاثف نشاط تجار جنوة وغيرها هناك حتى صاروا أغلبية السكان فى بعض مدن شبه جزيرة القرم . وقد لاحظ ابن بطوطة ذلك فى مدينة الكفا وراعه فيها قرع النواقيس الكثيرة ، وعندما امر المؤذن بالآذان وتلاوة القرآن من فوق صومعة المسجد الوحيد بتلك المدينة ، خاف عليهم امامها من بطش سكانها المسيحيين وأسرع اليهم فى درعه وسلاحه(٢٤٢) ، مما يدل على قوة التواجد المسيحى فى تلك المدينة .

ولذلك ليس غريبا ان نسمع ان البابا يوحنا الثانى والعشرين قد ارسل رسالة الى السلطان محمد اوزبك يشكره فيها على عطفه الذى أظهره للمسيحيين ، ولحمايته للبعثات الكاثوليكية التى قدمت الى بلاده تبشر بالمسيحية ، وقدم مبعوث خاص من هذا البابا الى سراى عام ٧٤٠هـ/١٣٣٩م

---

(٢٤١) باسيليوس خرباوى : نفس المرجع ، ص ٧٣ ، ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، Howorth : op. cit., v. 2, pp. 154, 156, 170-171.

(٢٤٢) ابن بطوطة : رحلته ، ص ٢١٤ .

بهدية بابوية قيمة لهذا السلطان(٢٤٣) وليس غريبا أيضا أن نرى هذا السلطان يحاول أن يقيم نوعا من التوازن السياسى فى شبه جزيرة آسيا الصغرى التى تطل على دولته من ناحية الجنوب والتى كانت قد أصبحت مجالا للتنافس بين دولة الترك العثمانيين الفتية وبين الامبراطورية البيزنطية المتداعية ، وكان السلطان محمد أوزبك لا يرضى أن ينال من قوة دولة الترك العثمانيين لاشتراكه معها فى الدين والجنس(٢٤٤) ، ولا يحاول أن يرهب بيزنطه التى أظهرت له المودة وصاهرته ودفعت له « قطيعة مال مقررة ، وجملة مال مقدرة »(٢٤٥) .

ولكن هذه العلاقة الطيبة التى ربطت أوزبك بالغرب وبيزنطة لم تمنعه من واجب الجهاد ضد من يتعرض لدولته بسوء ، اذ يخبرنا ابن خلدون بأن هذا السلطان ارسل الى الناصر محمد بن قلاون يطلب مساعدته ومساندته فى جهاده للارمن المسيحيين(٢٤٦) . ولا شك أن هؤلاء الأرمن كانوا ضالعين فى التحرشات التى كان يقوم بها مغول ايران ضد مغول القفجاق فى منطقة الحدود المشتركة بينهما والتى تتمثل فى بلاد القوقاز(٢٤٧) ، مما دعا السلطان أوزبك وسلاطين مصر الى القيام بغزو الأرمن واخضاعهم أكثر من مرة(٢٤٨) .

وقد سار سلاطين مغول القفجاق بعد أوزبك خان على نفس هذه السياسة التى كانت تاخذ بعين الاعتبار الأوضاع السياسية الناشئة فى

---

(243) Saunders : op. cit., p. 165 ; Howorth : op. cit., v. 2, p. 156.

(244) Saunders : op. cit.., p. 165.

(٢٤٥) العمرى : التعريف ، ص ٥٢ ، ابن بطوطة ، نفس المصدر ، ص ٢٢٣ ، Saunders : op. cit., p. 164.

(٢٤٦) العبر ، ج ٥ ص ٩٢٦ ، ١١٣٩ ، ١١٦٥ .

(247) Saunders : op cit., p. 165 ; Howorth :op. cit., v. 2, p. 171..

(٢٤٨) ابن ايبك الدوادارى : كنز الدرر ، ج ٩ ص ٣٩٧ — ٣٩٩ ابن خلدون : نفس المصدر ج ٥ ص ١١٤٠ ، ١١٦٥ .

المنطقة ، وفى نفس الوقت تحرص على تدعيم روابط الأخوة الاسلامية بمصر وغيرها من القوى الاسلامية المجاورة ، وتقوم بواجب الجهاد اذا ما دعت الضرورة لـذلك .

مما سبق يتبين لنا أن مغول القفجاق قد اسلموا وحسن اسلامهم وانهم انفعلوا بالتقاليد الاسلامية سواء فى الحرص على اداء الشعائر الدينية والعبادات الاسلامية ، أم فى جلب الثقافة الاسلامية والعمل على توطينها وتدعيمها بانشاء المساجد والمدارس والزوايا وتشجيع العلماء واستقدامهم واجزال العطاء لهم ، وايفاد الطلاب الى مصر وغيرها ، وقد برزت الاتجاهات الاسلامية أيضا فى مظاهر حياتهم المختلفة وفى الاتصال بالقوى الاسلامية وخاصة مصر والتحالف معها ضد غارات مغول ايران الذين كانوا لا زالوا على الوثنية حتى قرب نهاية القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى او ضد غارات الصليبيين الذين كانت بقاياهم لا زالت قابعة فى بعض نواحى بلاد الشام والتى كانت تدعمها أوربا بالغارات على بلاد الشام ومصر بين الحين والآخر . وهكذا انتصر الاسلام فى احدى معاركه العظمى ضد وثنية مغول القفجاق فاحتواهم وطوعهم للدفاع عن قضيته التى ما زالت غير محسومة حتى الآن باستمرار الصراع بينه وبين الصليبية من ناحية وبينه وبين أعدائه الجدد من الشيوعية والصهيونية من ناحية اخرى .

الفصل الرابع

تحـول مغـول ايران الى الاسـلام

فى حديثنا عن هذا الموضوع سوف نتبع الأسس السابقة التى اتبعناها فى حديثنا عن تحول مغول بلاد القفجاق الى الاسلام ، وهى أننا سوف نقسم حديثنا هذا الى ثلاث نقاط : النقطة الأولى هى مرحلة الحكم الوثنى المغولى لايلخانية ايران ، وهى ما يمكن ان نسميها مرحلة التمهيد والتهيئة لانتشـار الاسلام بين مغول هذه الايلخانية ، وفى هذه المرحلة سوف يظهر الصراع بين الاسلام من ناحية وبين البوذية والمسيحية من ناحيـة أخرى ، وسـوف نرى ذلك منعكسا على العلاقات بين المغول انفسهم وعلى الصراع على السلطة فنرى احد الايلخانات يعتنق الاسلام ونرى باقيهم يبقون على دياناتهم الشامانية او البوذية ويميلون الى المسيحية فى بعض الأحيان ويتحالفـون مع اوربا المسيحية ومع ملوك الشرق المسيحيين وصليبيى بلاد الشام ، ويدور الصراع بين الاسلام وبين هذا الحلف المغول الوثنى المسيحى ، ولم يستطع الاسلام ان ينل قدرا كبيرا من النجـاح فى هـذه المرحلة ، غير انه اعـد اذهـان المغول لاستقباله واعتناقه ، فنرى بعض الايلخانات الذى لم يعتنقوه أصلا يعملون على مداراة المسلمين والتودد اليهم واستخدامهم فى شتى وظـائف الدولة ، ونرى بعضهم ياخذ فى اضطهادهم ، ولا تنتهى تلك المرحلة الا بمقتل بايدو عام ٦٩٤هـ/١٢٩٥م، واعتلاء غازان بن ارغون بن ابغا بن هولاكو عرش ايـران .

ومنذ عهد غازان تبدأ الفترة الثانية والحاسمة فى انتشار الاسلام بين مغول ايران ، وفيها تم النصر النهائى له على غيره من الأديان فلم يعتل العرش بعد ذلك مغولى وثنى مطلقا . وفى هذا الصدد سـوف نبين كيف اعتنـق ايلخـانات ايـران الاسـلام ، وكيف قضوا على فلول الوثنية والنصرانية وكيف طاردوا اعداء لاسلام فى كل مكان ، ثم نختم حديثنا بالنقطة الثالثة وهى

القاء الضوء على المظاهر الاسلامية التى دللت على عمق العقيدة الاسلامية فى نفوس هؤلاء المغول .

١ — مرحلة التمهيد والتهيئة لتحول مغول ايران الى الاسلام : (٦٢٤ — ٦٩٤هـ/١٢٢٧ — ١٢٩٥م) .

تتميز هذه المرحلة باستكمال الشكل النهائى لايلخانية ايران منذ أن اسند الخان الأعظم منكو خان بن طولى بن جنكيز خان (٦٤٩ — ٦٥٨هـ/ ١٢٥١ — ١٢٥٩م) الى أخيه هولاكو امر الاستيلاء على عراق العجم وقلاع الاسماعيلية ودولة الخليفة المستعصم بالعراق(١) . وقد نجح هولاكو فيما أسند اليه واستكمل غزو ايران كلها ووقعت بغداد فى يده عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م واسقط الخلافة العباسية العتيدة ، وصارت تحت يده البلاد التى تسمى الآن بايران وتركيا والعراق ، والتى كانت تضم اقاليم عديدة ، كاقليم خراسان وكرسيهاو عاصمته نيسابور ، وعراق العجم وعاصمته أصفهان ، وعراق العرب وعاصمته بغداد ، وأذربيجان وعاصمتها تبريز التى صارت عاصمة للايلخانية كلها ، واقليم خوزستان وعاصمته ششتر ، وفارس وعاصمتها شيراز ، وديار بكر وعاصمتها الموصل ، وبلاد سلاجقة الروم وعاصمتها قونية . كما كانت تضم الى جانب هذه الأقاليم والممالك بعض الأجزاء الشرقية مما يعرف الآن بأفغانستان وباكستان ، وخاصة أقليم سجستان والرخج وكرمان والغور(٢) . ولما كانت أيران هى الأساس فى تكوين هذه المملكة المغولية أو هى واسطة العقد ، وكانت عاصمة المملكة وهى مدينة تبريز احدى مدن ايران ، فاننا سوف نستخدم تعبير ايلخانية ايران للدلالة على كل هذه الأقاليم والممالك التى ضمها هولاكو الى دولته متبعين فى ذلك القلقشندى الذى سماها بمملكة ايران واشار الى اقاليمها العديدة فى تفصيل أكثر عما وجدناه عند ابن خلدون(٣) .

---

(١) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٥ ص ١١٤٨ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣٨٣ .

(٢) ابن خلدون : نفس المصدر : جـ ٥ ص ١١٥٣ — ١١٥٤ ، القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٣١٤ — ٣٩٨ .

(٣) القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٣١٣ — ٣٩٨ .

وتكفى نظرة واحدة يمكن ان نلقيها على هذه الأقاليم التى تكونت منها ايلخانية ايران لنعرف طابع هذه الايلخانية وطابع سكانها . فقد كانت تضم فى غالبها اقاليم وممالك اسلامية فيما عدا ارمينية وبلاد الكرج (جورجيا) ، ولذلك كان معظم سكانها يدينون بالاسلام ، خلافا لخانية مغول القفجاق التى كان كثير من سكانها يدينون بغير الاسلام . ورغم هذا الفارق فقد كان مغول القفجاق أسبق الى الاسلام من مغول ايران لسبق اسلام ملوكهم كما سبق القول ، ولذلك كان نضال الاسلام ضد وثنية مغول ايران ابعد مدى واطول زمنا واكثر جهدا . وقد اصاب المسلمين فى هذا النضال الكثير من العنت والاضطهاد والأذى وخاصة اثناء غزوات هولاكو التى اسقط فيها بغداد والخلافة العباسية وقتل مئات الآلاف من المسلمين وخرب دورهم وحطم مدنهم وأصابهم فى ذلك من الفزع والهول بما لا يمكن وصفه ، حتى خرج الناس بعد انتهاء هذا الهول ، وكأنهم خارجون من القبور ليوم النشور(٤) .

وبعد ان هدا هذا الهول ،و استقرت الأمور لهولاكو ولأبنائه من بعده ، وكونوا أسرة حاكمة تتوارث الحكم فى هذه الايلخانية حتى نهاية عهدها ، بدأت الصلات التى كانت تربط ايلخانات ايران بأباطرة المغول فى قراقورم تنفصم وتتلاشى بالتدريج(٥) ، واخذ مغول ايران يرتبطون بهذه البلاد التى توارثوا حكمها واقاموا فيها وصاروا جزءا من شعبها وسكانها ، وكان لذلك اثره الكبير فى تشرب هؤلاء المغول للثقافة والحضارة الاسلامية السائدة فى ايران ، وانتهى بهم الأمر فى النهاية الى اعتناق الاسلام . ولكن اسلامهم لم يتم بين يوم وليلة ، فقد كان الصراع شديدا بين الاسلام وبين الأديان الأخرى التى حاولت تحويل المغول اليها مما عرضنا له فى الفصل الأول . وقد تأثر بعض ايلخانات ايران بالمسيحية وأعلن واحد منهم اعتناقه للاسلام ، ثم عاد التأثير البوذى المسيحى مرة اخرى ، ثم تغلب الاسلام فى النهاية . وقد ظهرت هذه التطورت بصورة واضحة عندما اعتنق تكودار بن هولاكو — ثالث

---

(٤) ابن كثير : نفس المصدر ، ج ١٣ ، ص ٢٠٠ — ٢٠٢ ، المقريزى نفس المصدر ، ج ١ ق ٢ ص ٤٠٩ ، ٤١٠ .

(٥) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، براون : نفس المرجع ، ص ٥٦٥ ، ٥٦٦ .

ايلخانات ايران — الاسلام ، وكان أول اياخان مسلم يحكم ايلخانية ايران ، وتسمى باسم احمد تكودار او احمد سلطان (٦٨١ — ٦٨٣هـ/١٢٨١ — ١٢٨٤م)(٦) .

ويذكر بعض المؤرخين ان تكودار هذا كان مسيحيا فى طفولته فقد ربته أم مسيحية وعمد باسم نيقولا Nicholas تيمنا وتشرفا باسم البابا الذى كان يحمل هذا الاسم(٧) ، ولكنه اعتنق الاسلام عندما بلغ سن الرشد بتاثير بعض المسلمين الذين كان متصلا بهم(٨) .

ولكن هذه الرواية ليس لها نصيب من الصحة ، فلم يثبت ان تكودار أعتنق النصرانية ، ولم يثبت ايضا انه اعتنق الاسلام عندما بلغ سن الرشد لأن من قال بذلك ليسوا من المسلمين ، وهم يستندون فى مصادرهم الى رواية قديمة لمؤرخ أرمنى مسيحى ، ومعروف ان امثال هؤلاء المؤرخين يحاولون ان يصوروا ان ملوك المغول كانوا مسيحيين او كانوا — على الأقل — يميلون الى المسيحية ، حتى يسهل جذب أحفادهم الذين اعتنقوا الاسلام الى المسيحية(٩) . والحقيقة ان تكودار اسلم وهو صبى لم يبلغ الحلم بعد بتاثير شيخ صوفى يدعى كمال الدين عبد الرحمن . وكان والد هذا الشيخ مملوكا روميا للمستعصم آخر خلفاء بنى العباس فى بغداد . ولما قتل هولاكو هذا الخليفة عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م اظهر هذا الشيخ الزهد وتصوف ونال رضا ابغا بن هولاكو ، ولكنه لم يتمكن من التاثير عليه ، فلم يعتنق ابغا الاسلام ولم يتحول عن البوذية التى كان يدين بها ، ولكنه تمكن من التأثير على أخيه تكودار . فقد اتصل به هذا الشيخ وزين له الاسلام فأسلم وتسمى بأحمد ،

---

(٦) ابن حبيب : نفس المصدر ، جـ ١ ص ٧٢ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٥ ص ١١٥٧ ، القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٢٠ ، المقريزى : نفس المصدر ، جـ ١ ق ٣ ص ٧٠٤ ، ٧١١ ، ابو المحاسن ، نفس المصدر ، جـ ٧ ص ٣١٠ .

(7) Saunders : op. cit., p. 132 ; Howorth : op. cit., v. 3, 285.

(٨) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٠ .

(٩) الرمزى : نفس المرجع ، جـ ٢ ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

فوعده هذا الداعية بانتقال الملك اليه . ولما حدث ذلك واصبح احمد تكودار سلطانا على ايلخانية ايران عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م ارتفع شأن هذا الشيخ عنده وعند أمرائه ووزرائه وعظمت منزلته لديهم حتى صار سفيرا لأحمد الى سلطان مصر المنصور قلاون عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م ليبرم بينهما صلحا بصفتهما سلطانين مسلمين(١٠) .

وتدل هذه الرواية على أن احمد تكودار اسلم قبل ان يلى العرش وهو صبى صغير ، يؤكد ذلك ما سبقت الاشارة اليه من ان بعض الصوفيين الأحمدية دخلوا به النار وهو صبى صغير بين يدى أبيه هولاكو ، فوهبه لهم وسماه احمد(١١) ، ويؤكده ايضا رسالته التى ارسلها الى المنصور قلاون والتى يقول فيها انه اعتنق الاسلام وهو « فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة »(١٢) ، ويؤكده أيضا ما يقوله ابو المحاسن ابن تغرى بردى من انه تولى العرش عام ٦٨١هـ وهو ابن ثلاثين عاما(١٣) ؛ ومعنى ذلك انه ولد عام ٦٥١هـ ، وانه كان يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاما عندما توفى ابوه هولاكو عام ٦٦٤هـ(١٤) .

اذن فلم يكن احمد تكودار حديث عهد بالاسلام حينما اعتلى عرش ايلخانية ايران ، اذ كان قد مر على اسلامه اكثر من سبعة عشر عاما ، وعلى ذلك فليست هناك شبهة فى انه اعتنق الاسلام لتحقيق مصالح سياسية شخصية ، لأنه كان يعلم تماما ان اسلامه لن يحقق له اية مصلحة من هذا النوع ، الا فى انه ربما يثير الأمراء الذين كانوا على غير دين الاسلام . كان أحمد تكودار يريد الا يكون نشازا فى هذا المحيط الاسلامى الكبير الذى يعيش فى وسطه ، وكان يريد الخير لنفسه ولأهله ولقومه من المغول حتى لا ينفر منهم اهل الاسلام فى ايران او غير ايران . ولذلك فقد أسرع هذا

---

(١٠) ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٤٣١ ، ٤٣٢ .
(١١) مخطوط كتاب فى التاريخ ، ورقة ٣٤١ .
(١٢) المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ، ص ٩٧٨ .
(١٣) النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣١٠ .
(١٤) المقريزى : نفس المصدر : ج ١ ق ٢ ص ٥٤١ ، ابوالمحاسن: نفس المصدر ، ج ٧ ص ٢٢٠ .

الايلخان المسلم بمجرد توليه العرش باتخاذ كافة الاجراءات التى تدل على عميق اسلامه وايمانه ، فأرسل الى بغداد رسالة يعلن فيها اسلامه ويدعو اهلها الى السير طبقا للشريعة الاسلامية والى اظهار شعائر الاسلام(١٥) ، ويأمر بأن تترك لهم حرية العمل بسائر الشعائر الدينية حسبما اعتادوا عليه منذ ايام خلفاء بنى العباس ، ويقر على نفسه بأنه يعرف ان النصر دائما للاسلام وحتى يوم القيامة ، وان رسالة محمد (ص) حق ، وان هناك الها واحدا فقط(١٦) وهو كلام يدل فى وضوح على مدى صدقه فى اسلامه وحبه لدينه الجديد . وقد دفعه هذا الحب الى قيامه ببذل قصارى جهده لتحويل كافة المغول والتتار الى الاسلام ، ولجأ فى ذلك الى بذل العطايا والمنح والقاب الشرف حتى ان عددا كبيرا من التتار اعتنق الاسلام فى عهده(١٧) .

ورغم هذا القول الصريح الذى نقله ارنولد عن هيتون Haithon المؤرخ الأرمنى المسيحى المعاصر ، والذى يفيد بعدم استعمال احمد تكودار لوسائل العنف والاضطهاد لتحويل التتار او غيرهم الى الاسلام، الا اننا نرى هذا المؤرخ الأرمنى يعود مرة اخرى ويحمل على هذا السلطان المسلم وعلى الاسلام ذاته ، ويقول ان اسلام المغول كان نتيجة لاتباعهم وتقليدهم لهذا السلطان فيما ذهب اليه — أى ان اسلامهم لم يكن عن اقتناع — ونتيجة ايضا لاضطهاده المسيحيين الذى ظهر — حسب قوله — فى نواح عدة ، منها انه امر بأن تسترد الأماكن التى كان المسيحيون واليهود قد اخذوها عقب استيلاء المغول على بلاد الاسلام ، وامر بأن تمحى اسماؤهم منها ، كما امر بأن تتحول معابد البخشيين — اى كهنة البوذية — وكنائس المسيحيين الى مساجد ، ويقول هيثون أيضا بأن هذا السلطان المسلم أمر بتخريب كنائس المسيحيين فى تبريز وهدد بقطع رأس اى واحد منهم يرفض اعتناق الاسلام ، واستدعى ملوك ارمينيا وجورجيا المسيحيين الى بلاطه(١٨) .

---

(١٥) ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٧ ، ص ٣١٠ .

(16) Howorth : op. cit., v. 3, p. 186.

(١٧) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦١ .

(18) Howorth : op. cit., v. 3, p. 288.

ولكن هذه الاتهامات تبعد كثيرا عن الحقيقة لأن قائليها استندوا فقط على رأى احد المؤرخين المسيحيين المعاصرين من امثال هيثون المؤرخ الأرمنى، كما أن كتاب المسلمين المعاصرين لم يشيروا الى ذلك ، وما اشار اليه بعضهم وفى وقت لاحق هو أن احمد تكودار « الزم اهل الذمة بلبس الغيار »(١٩) اى الملابس المميزة لهم ، وهو أمر كان متعارفا ومتفقا عليه منذ ايام الاسلام الأولى بمقتضى شروط الصلح التى تمت بين اهل الذمة والعرب الفاتحين(٢٠) كما أن هذه الاتهامات ينفيها ابو الفرج ابن العبرى —وهو كاتب مسيحى معاصر حينما يقول بأن احمد تكودار عامل شعبه برقة وعطف وخاصة رؤساء الديانة المسيحية(٢١) مما يدل على مدى التجنى فى وصف هذا السلطان بالتعصب واضطهاد اصحاب الأديان الأخرى . ولا شك ان هذه تهمة رماه بها خصومه السياسيون فيما بعد عندما ارادوا الانقضاض عليه ، وكان هؤلاء الخصوم يميل بعضهم الى المسيحية وآخرون الى البوذية ، فدبروا امرهم ورموه بهذه التهمة التى كان منها براء . واذا كان هناك من تهمة فى نظرهم فهو انه كان مخلصا لدينه اشد الاخلاص ، وانه لم يدخر وسعا فى اعلاء شأن هذا الدين ، وهو ما اثار انصار البوذية والمسيحية ، خاصة عندما بدأ يتخذ الخطوات العملية لدعم الحركة الاسلامية . فقد امر بأن يصرف ريع الأوقاف فى مصارفه الأصلية والا يستولى عليه أو يصرف فى اى غرض آخر ، كما اتخذ الترتيبات اللازمة لرعاية قوافل الحج الى مكة . وارسل المؤن الغذائية الى اهلها ، كما كان يقضى جزءا من يومه مع المشايخ والفقهاء يستمع لدروسهم(٢٢) ، وأخذ فى بناء المساجد والجوامع والمدارس ، ورتب القضاة وانقاد لأحكام الشريعة الاسلامية(٢٣) وزوج بناته للامراء المسلمين من المغول(٢٤) ، وأراد ان يعمق ارتباطه بالاسلام والممالك الاسلامية ، فأرسل فى جمادى الأولى عام ٦٨١هـ/ أغسطس ١٢٨٢م سفارة كبيرة الى سلطان

---

(١٩) ابن حبيب نفس المصدر ، جـ ١ ص ٧٢ ، أبو المحاسن : نفس المصدر ، جـ ٧ ص ٣١٠ .

(٢٠) ابن خلدون : نفس المصدر جـ ٥ ص ٨٩٥ ، ٨٩٦ .

(٢١) ابن العبرى : نفس المصدر : ص ٥٠٦ .

(22) Howorth : V. 3, pp. 288-289.

(٢٣) المقريزى : نفس المصدر جـ ١ ق ٣ ص ٧٠٧ — ٧٠٨ أبو المحاسن : نفس المصدر ، جـ ٧ ص ٣١٠ .

مصر المنصور قلاون يخبره باسلامه فى رسالة هامة تفيض حبا فى الاسلام واخلاصا لمبادئه وحرصا على حقن دماء اهله وحفظ أراضيه . وقد بين احمد تكودار فى هذه الرسالة ايضا انه ارسل بعض المشايخ لدعوة التتار الى الاسلام وانه امر ببناء المساجد والمشاهد والمدارس والربط التى كان قد اصابها الخراب والدمار ، وانه امر برعاية اوقاف المسلمين وبتجهيز الحجاج وتأمين سبلهم وحماية قوافلهم ، وأنه اعطى الحرية للتجار كى يتوافدوا الى بلاده ، « وليسافروا بحسب اختيارهم على احسن قواعدهم » ، ويلتمس فى نهاية الرسالة محالفة سلطان مصر والصلح معه حتى « تعمر البلاد ... وتسكن الفتنة الثائرة وتغمد السيوف الباترة .. وتخلص رقاب المسلمين من اغلال الذل والهون »(٢٥) .

وتعتبر هذه الرسالة وثيقة تاريخية هامة تبين مدى عمق الاسلام وصدقه فى نفس هذا السلطان المغولى وتدل على مدى التحول العميق فى صورة المغولى التى كانت تتسم بالفظاعة والوحشية وسفك الدماء كأنه وحش نافر فى جنبات الدنيا يلتهم الأحياء وينبش قبور الموتى(٢٦) ، الى صورة أخرى تتسم بأسمى العواطف الانسانية وحب الخير والرغبة الصادقة فى تقوية دعائم الاسلام ونشره بين المغول الوثنيين وجمع كلمة المسلمين فى بلاد الشرق الأدنى . وهى صورة أثارت اعداء الاسلام وقتذاك ، وجلبت الدهشة لبعض الكتاب المحدثين(٢٧) .

وقد دامت المراسلات بين احمد تكودار وبين السلطان قلاون الذى رد على رسالة تكودار السابقة وهنأه على دخوله فى دين الاسلام مما اذهب

---

(٢٤) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢٥) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٥٠٦ — ٥١٨ ، ابن الفوطى : نفس المصدر ص ٤١٩ ، ٤٢٥ ، رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ٦٦ ، ٩٧ ، ابو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٧ ، النويرى : نفس المصدر ، ج ٢٩ ورقة ٢٤ ، العمرى : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٣٧٨ — ٩٨٤ ، ارنولد نفس المرجع ص ٢٦٠ — ٢٦٣ ، Howorth : Op. Cit., p. 3, pp. 290-292.

(٢٦) ابن ايبك الدوادارى : كنز الضرر ، ج ٧ ص ٢٣٧ .

(٢٧) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٣ .

الأحقاد وازال الجفوة والعداء بين البلدين مما دفع بأحمد تكودار ليرسل وفدا آخر عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م يحمل رسالة مكتوبة باللغة العربية يستحث عقد الصلح بينه وبين سلطان مصر(٢٨) . وقد نتج عن هذه العلاقات الطيبة أن استقر السلام بين مصر ومغول ايران فى عهد هذا السلطان المغولى المسلم فلم نسمع عن اى صدام بينهما فى عهده ، مما يدل على صدقه فى طلبه الصلح وتحقيق السلام وخدمة الاسلام(٢٩) .

ولكن هذا السلطان المغولى المسلم لم يستمر فى الحكم مدة طويلة ، فقد ثار عليه ابن اخيه ارغون بن ابغا وقتله بمساعدة بعض الأمراء واعتلى العرش مكانه . ويذكر هورث Howorth نقلا عن هيثون كما يذكر بعض المؤرخين المسلمين ان السبب فى ذلك هو ان احمد تكودار حمل التتار على الاسلام فثار عليه عسكره وتآمروا ضده مع ارغون وقتلوه(٣٠) . وهى تهمة اخرى يسندها هؤلاء القوم الى هذا السلطان ، وكما فندنا تهمة اضطهاده لأصحاب الأديان الأخرى فاننا نقول فى امر هذا الاتهام الجديد ان الشق الأول وهو حمله التتار على الاسلام غير صحيح ، لأننا اشرنا الى اسلوبه السلمى فى الدعوة الى الاسلام ، اما الشق الثانى وهو ان عسكره نقموا عليه اسلامه وتآمروا على قتله مع ارغون فهو صحيح فى ضوء ما سبقت الاشارة اليه من صراع المسيحية والبوذية مع الاسلام لاكتساب المغول ، وفى ضوء عوامل اخرى تتعلق بأحمد تكودار وعلاقته بالأمراء المنافسين له على العرش ، وهى عوامل اشار اليها المؤرخون المعاصرون لهذا السلطان وجعلوها السبب الرئيسى فى مقتله .

---

(٢٨) ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ابو الفدا : ج ٤ ص ١٧ النويرى : نفس المصدر ، ج ٢٩ ورقة ٢٤ ، ٢٧ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٢٣٧ — ٢٤٢ ، المقريزى : ج ١ ق ٣ ص ٧١٧ ، ٧٢٣ ، Howorth : op. cit., V. 3, pp. 293-296, 308-309.

(٢٩) المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٧٠٧ ، ٧٠٨ .

(٣٠) ابو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٨ ، العمرى : نفس المصدر ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٣٨ ، ابن حبيب : نفس المصدر ، ج ١ ص ٩٠ ، المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٧١٤ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٢ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٥٧ .
Howorth, op. cit., v. 3, p. 310.

من هذه العوامل نرى ان ارغون كان يطمع فى استرداد عرش ابيه الذى حرمه منه عمه احمد تكودار باسراعه فى اعتلائه ذلك العرش دون انتظار لحضور ارغون الذى كان غائبا عن تبريز حين وفاة ابيه ابغا(٣١) ، كما ان العلاقات بطبيعتها كانت سيئة بين ارغون وتكودار بسبب الاجراءات التى كان الأخير قد اتخذها ضد الاول لظلمه لأهل خراسان الذين كان اميرا عليهم واعتدائه بالقتل على واليهم وجيه الدين زكى بن عز الدين طاهر . اذ ان احمد تكودار لم يرضه هذا الجبروت من ارغون ، فأرسل اليه جيشا حاصره وهزمه وأتى الى تبريز حيث اودع السجن(٣٢) . هذا بالاضافة الى ان ارغون كان يتآمر سرا مع اخى احمد تكودار المسمى قنقورتاى لقتل السلطان والاستيلاء على السلطة ، ولما فشا خبر هذه المؤامرة الى السلطان احمد تكودار امر بقتل اخيه هذا مما اثار حفيظة اولاده وجعلهم يصممون على الثأر لأبيهم ، كما احفظ ارغون فصمم هو الآخر على الثأر لصديقه وعمه وللاستيلاء على مقاليد الحكم فى نفس الوقت(٣٣) .

هذه هى الأسباب الحقيقية التى أدت الى مقتل اول سلطان مغولى مسلم فى ايلخانية ايران ، وقد ساعد على تعضيد المتآمرين على قتله ما اثاره بالطبع الأمراء الموالون للمسيحية والذين اتهموه كما سبق القول باضطهاده للمسيحيين وشكوه الى الخان لأعظم قوبيلاى خان وقالوا انه بذلك خالف سنن اجداده(٣٤) سواء باعتناقه الاسلام وعدم تطبيق اليساق شريعة جنكيز خان او باضطهاده للمسيحيين على حسب زعمهم . وقد أدى ذلك كله الى تآلف اعداء الاسلام وأعداء هذا السلطان وعلى رأسهم ارغون وعناصر الشامانيين المعادين للمسلمين واولاد قنقورتاى وبعض الأمراء الاخرين الذين كانوا يطمعون فى الوصول الى مراكز هامة اذا ما تولى ارغون العرش، استطاع هؤلاء المتآمرون

---

(٣١) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، ص ٩٠ — ٩٣ ، ١٠٠ — ١٠٢ .

(٣٢) ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٤٣٥ .

(٣٣) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٥١٨ — ٥٢٠ ، ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٤٣٦ ، رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ١١٢ ، ١١٤ — ١٢١ ، Howorth : op. cit., v. 3, pp. 286, 297-8.

(٣٤) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٣ .

ان يخرجوا ارغون من السجن وان ينقضوا معه على احمد تكودار وان يقتلوه ويولوا ارغون عرش البلاد عام ٦٨٣هـ/١٢٨٤م(٣٥) .

وباعتلاء ارغون العرش (٦٨٣ — ٦٩٠هـ/١٢٨٤ — ١٢٩١م) علا صوت البوذية والشامانية والمسيحية واليهودية فى ايلخانية ايران ، وقد سبقت الاشارة الى تحالف ارغون مع اوربا النصرانية ومع ملوك الشرق المسيحيين فى ارمينيا وجورجيا ومع صليبيى بلاد الشام فى محاولة منه لضرب الاسلام سواء فى بلاد الشام ام فى بلاد القفجاق ، ويقال انه كان مسلما فتحول الى دين البراهمة الهنود واستقدم سحرتهم من الهند(٣٦) ، كما أنه اسند الوزارة الى يهودى يعرف باسم سعد اليهودى الموصلى ولقبه سعد الدولة ، فاشتد الاضطهاد بالمسلمين ، وتآمر هذا الوزير على تحويل الكعبة الى معبد بوذى ، وان لم تنجح المؤامرة ، وأخذ فى تعيين اقاربه واصدقائه من اليهود فى المناصب الهامة للدولة ، بعد ان صرف المسلمين عن المناصب التى كانوا يشغلونها فى القضاء والمالية(٣٧) وارسل جماعة من يهود تفليس ولاة على تركات المسلمين ببغداد عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨ م ، فحكموا بعدم توريث ذوى الأرحام مما ادى الى قيام فتنة قام فيها العوام بنهب متاجر اليهود(٣٨) . وظل المسلمون يعانون حتى سلط الله ارغون على وزيره اليهودى فقتله ، ومات هو نفسه بعلة الصرع وتولى العرش أخوه كيخاتو بن ابغا (٦٩٠ — ٦٩٤هـ/١٢٩١ — ١٢٩٥م)(٣٩) .

---

(٣٥) ابن العبرى : نفس المصدر ، ص ٥١٨ — ٥٢٠ ، ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٤٣٦ ، ابو الفدا : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ١٨ ، العمرى : نفس المصدر ، جـ ١٦ ق ٣ ورقة ٦٣٨ .
Howorth : op. cit., v. 3, pp. 289, 297, 307.

(٣٦) المقريزى : نفس المصدر ، جـ ١ ق ٣ ص ٧١٤ ،
Saunders : op. cit., p. 133.

(٣٧) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ، ص ١٧٢ .

(٣٨) ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٤٥٥ .

(٣٩) ابن حبيب : نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٤١ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٥ ص ١١٥٨ ،
Saunders : op. cit., pp. 133, 134.

وفى عهد هذا الايلخان ساءت الأحوال بالنسبة للمغول ، اذ كان هذا الايلخان الجديد سيء الخلق قبيح الأفعال أباح المنكرات ، فتآمروا عليه وقتلوه وولوا بدله ابن عمه بايدو بن طرغاى بن هولاكو (٦٩٤هـ/١٢٩٥م)(٤٠) ؛ الذى اعتنق النصرانية(٤١) او كان يميل اليها ويفضلها على الاسلام ، حتى انه بذل كثيرا من الجهد لوضع العقبات فى سبيل انتشاره بين المغول(٤٢) .

ورغم هذا كله ورغم فرحة المسيحيين والوثنيين بسياسة هؤلاء الايلخانات الثلاثة الذين اعقبوا احمد تكودار ، وهم ارغون وكيخاتو وبايدو . الا ان انتشار الاسلام كان يسير بين مغول ايران بخطى حثيثة ، واضطرد عدد الداخلين منهم فى الاسلام وأخلصوا له حتى انهم كانوا يحتالون فى الدفاع عنه وعن أراضيه فى عهد هؤلاء الايلخانات الوثنيين اذا ما علموا باتجاههم نحو غزو بلاده فى بلاد الشام أو غيرها،فكانوا يلقون الخوف ويبثون روح التردد ويثبطون همم القواد حتى لا يقوموا بهذا الغزو،وكان الجيل الجديد من المغول الذى ولد وشب فى ايران سريع التأثر بهذا الدين الذى كان يدين به غالبية السكان وكان يدين به معظم امهات هذا الجيل الجديد ، ولذلك وجد هؤلاء الايلخانات الثلاثة انفسهم فى وضع لا يحسدون عليه ، واضطروا رغم قيامهم بمضايقة المسلمين واضطهادهم فى بعض الأحيان كما أشرنا ، الى مداراتهم بقدر ما يستطيعون(٤٣) .

وقد اتخذت هذه المداراة مظاهر عديدة ، منها ما قام به أرغون من الانعام على القضاة والفقهاء والخطباء الذين اموا الاحتفال الكبير الذى اقامه المسلمون فى تبريز عاصمة الدولة بعيد الفطر عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م ، ومنها أيضا ما قام به ارغون من اتخاذ احدى المسلمات زوجة له ، فدخل الاسلام

---

(٤٠) ابن حبيب : نفس المصدر ، جـ ١ ص ١٨٢ ، المقريزى : نفس المصدر ، جـ ١ ق ٣ ص ٧٧٥ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٥ ص ١١٥٨ ، محمد جمال الدين سرور : نفس المرجع ، ص ١٧٤ .

(41) Sauners : op. cit., p. 135.

(٤٢) براون : نفس المرجع ، ص ٥٦٦ ، محمد جمال الدين سرور : نفس المرجع ، ص ١٧٤ .

(٤٣) ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر جـ ٩ ص ١١٣ ، Saunders : op. cit., p. 135.

فى محيط أسرته ، فأسلم حفيده من ابنتــه اولجتاى وتسمى باســم الأمير حسين . واتبع كيخاتو نفس السياسة نحو المسلمين ، فقام باعفاء علمائهم واشرافهم من بنى هاشم من دفع جميع الضرائب على اختلاف انواعهــا ، كما قام بكتابة نقوش اسلامية على اوراقه المالية التى اصدرها ، فكان على احد وجهيها نقش التشهد الاسلامى « اشهد الااله الا الله ، وان محمدا رسول الله » ، كما اسند وزارته الى صدر الدين الزنجانى وصار حكم تبريز والعراق وراثيا فى اسرة هذا الوزير ، كما قرب اليه امراء المغول المسلمين مثل الأمير حسن بوقو كما تزوج من اميرات مسلمات مثل عائشة خاتون بنت طوغو بن ايلكاى نويان ، وپاد شاه خاتون بنت قطب الدين سلطان كرمان ، وذلك بجانب زوجاته الأخريات التى كانت احداهن مسيحية . أما بايدو ، فرغم ما قيل عن تنصره او ميــله الى النصرانيــة الا انه لم يجسر على اظهــار عطفه على المسيحيين ، وكان يحاول ترضية المسلمين بكل جهده حتى انه جعل ابنه يصلى معهم كما يصلون . وقد شجعت هذه السياسة التى اتبعها هؤلاء الايلخانات كثيرا من المغول على الدخول فى الاسلام وأصبحوا يؤدون فرائضه ويحملون السبح فى ايديهم ويكثرون من التنسك(٤٤) .

وكان التطور الطبيعى لذلك كله هو الانتصار النهائى للاسلام ، حتى قيل ان مقتل بايدو كان بسبب ما اشتهر به من بغض الاســلام وتفضــيله للمسيحية عليه رغم المداراة التى اظهرها نحو الاسلام والمسلمين(٤٥) ، وصار تحقيق النصر النهائى حقيقة واقعة بعد مقتل بايدو وقيام غازان على راس الحكم فى ايــران .

٢ ــ مرحلة اكتمال انتشار الاسلام بين مغول ايران :

تبدا هذه المرحلة الهامة والنهائية فى انتشار الاسلام بين مغول ايلخانية ايران واصطباغهم بالصبغة الاسلامية منذ عهد غازان بن ارغون بن ابغا بن هولاكو (٦٩٤ ــ ٧٠٣هـ/١٢٩٠ ــ ١٣٠٤م) وكان هذا الايلخان الذى بدأ عهد

---

(٤٤) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، م ٢ جـ ٢ ص ١٢٤ ، ١٥٧ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ــ ٢٠ ، Malcolm : op .cit., p. 271.

(٤٥) براون : نفس المرجع ، ص ٥٦٦ .

الاستقلال التام عن قراقورم وقطع آخر خيوط العلاقة بالخوانين العظام مسلما قبل ان يتولى عرش ايران التى اصبحت منذ عهده خانية ، وأصبح حاكمها يسمى بلغة المغول خانا بدل أن كان حاكم ايران يسمى ايلخانا اى نائبا عن الخان الأعظم بقراقورم ، وكانت ايران نفسها قبل عهد غازان ايلخانية ، اى جزءا من امبراطورية المغول الكبرى .

اذن واكبت مرحلة النصر النهائى للاسلام على غيره من الأديان مرحلة استقلال مغول ايران عن قراقورم ، وكان هذا من العوامل التى اطلقت عقال الاسلام حتى بلغ الذرا منذ عهد غازان وتحول مغول ايران الى حصن حصين للاسلام وأصبحت ذرية هولاكو تدفع به الى الامام وتعمل بكل ما وسعها من جهد لتعويضه عما لحقه على يد زعيمها هولاكو من خسارة وبوار .

وانه لشىء مدهش حقا ان نرى الاسلام يكتسح وثنية المغول ويقتلعها من قلوبهم القاسية ويكون طوق النجاة الذى يتعلق به حاكم قوى مثل غازان كى ينقذ عرش ايران من مسيرة الوثنية المتحالفة مع المسيحيين ، فيعلن اعتناقه للاسلام قبل ان يصل الى هذا العرش حتى يتمكن من تجميع قوى الاسلام الزاحفة والمتغلغلة داخل الأسرة المغولية الحاكمة ، وداخل جند المغول وعامتهم ، وحتى يجد المساندة اللازمة لتحقيق هدفه فى الانتصار على اعدائه من امراء المغول الوثنيين المتنازعين على العرش .

اعتنق غازان الاسلام فى اليوم الرابع من شهر شعبان عام ٦٩٤هـ/ ١٩ يونية عام ١٢٩٥م ، ويجمع المؤرخون على أن اعتناق غازان للاسلام كان بتأثير اتابكه وقائد جيشه نوروز Nawruz . وكان هذا القائد قد وعد غازان الذى كان اميرا على خراسان بمساعدته ضد بايدو Baidu الذى كان قد قتل كيخاتو عم غازان واستولى على العرش ، وكانت هذه المساعدة نظير وعد من غازان باعتناقه الاسلام . وقد اعلن غازان تحوله الى الاسلام فعلا فى اليوم الذى سبقت الاشارة اليه على يد الشيخ صدر الدين ابراهيم بن الشيخ سعد الدين حمويه الجوينى وتسمى باسم محمود وسمى اخاه اولجايتو باسم محمد ، ووزع فى هذه المناسبة كثيرا من العطايا والأموال على المشايخ والعلماء ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على الناس ، وكان يوم اسلامه يوما مشهودا . ثم زار مقابر الأولياء والمساجد ، ولم ينس

أن يرسل بنبأ اسلامه الى العراق وخراسان ، وأخذ يتعلم من نوروز بعض الآيات القرآنية ، كما تعلم الصلاة وصام رمضان عام ٦٩٤هـ ، وكان يتناول معه طعام الافطار كل مساء كثيرون من الترك والفرس ، « وفشا الاسلام فى التتار » منذ ذلك الحين(٤٦) ، وأعلن غالبية جنده وضباطه اعتناقهم للاسلام ، وسار امراء المغول على نفس المنوال فأعلن احدهم وهو فيروزكوه هو وثمانون ألفا من اتباعه وصناديد قومه من المغول تحولهم الى الاسلام(٤٧) .

وقد تمكن غازان بفضل هذه القوة الاسلامية النامية وبفضل تأييد اتابكه وقائده نوروز ومن معه من جند المغول المسلمين ، وبتأييد الأئمة والفقهاء الذين وقفوا معه فى دعواه ضد بايدو من أن يزحف من خراسان وينتصر على هذا المغتصب الذى لم يحكم اكثر من ثمانية اشهر والذى انتهى الأمر بفراره وقتله . وبذلك آل عرش المغول فى ايران فى ذى الحجة عام ٦٩٤هـ/اكتوبر ١٢٩٥م الى محمود غازان . ومنذ ذلك التاريخ لم يحكم هذه البلاد حاكم مغولى غير مسلم(٤٨) .

وقد أشار بعض المؤرخين الى ان غازان اعتنق الاسلام بدافع المصلحة

---

(٤٦) شرف خان البرليسى : نفس المصدر جـ ٢ ص ١٥ ، العمرى : نفس المصدر ، جـ ١٦ ، ق ٣ ورقة ٦٦٥ ، ابن الوردى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٢٤٠ ، القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٢٠ ، المقريزى : نفس المصدر جـ ١ ق ٣ ص ٨٠٥ ، ابن حجر العسقلانى جـ ٣ ص ٢٩٢ ، الديار بكرى . نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٣٨١ ، كتاب فى التاريخ ، ورقة ٣٤١ .

(٤٧) شرف خان البرليسى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ١٥ ، ١٦ ، أبو المحاسن : نفس المصدر ، جـ ٨ ص ٧١ ،
Howorth : op. cit., v. 3, p. 490.

(٤٨) ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٤٨٣ ، أبو الفدا نفس المصدر جـ ٤ ص ٤٣ ، ٤٤ ، شرف خان البرليسى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ١٥ ، ابن حبيب : نفس المصدر ، جـ١ ص ١٨٢ ، ١٨٣ ، ابن الوردى : نفس المصدر جـ ٢ ص ٢٤٠ ، القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٢٠ ، مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ١٤ ، ١٦ — ٢٠ ، ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٤ ،
Saunders : op. cit., p. 135.

السياسية ، وانه لم يكن مخلصا فى اسلامه(٤٩) ، ويستدلون على ذلك بأمرين الأمر الأول هو انه حاول ان يتراجع او يرتد عن الاسلام عندما أخبره بعض الفقهاء بأن « دين الاسلام يحرم نكاح نساء الاباء » . وكان غازان قد استحوذ على نساء ابيه حسب عادة المغول وحظيت احداهن عنده ، وكان اسمها خاتون وأراد ان يتزوجها ولما قيل له ذلك شرع يفكر فى الارتداد عن الاسلام ، ولكنه لم يفعل بتأثير بعض خواصه الذين قالوا له « ان أباك كان كافرا ، ولم تكن خاتون معه فى عقد صحيح ، انما كان مسافحا بها ، فاعقد انت عليها ، فانها تصلح لك » ، فلقى هذا القول قبولا من نفسه وعمل على تنفيذه(٥٠) .

والأمر الثانى هو موقفه العدائى من سلاطين المماليك فى مصر والشام ، وهم الذين كانوا يعتبرون حماة الاسلام ضد صليبية العالم المسيحى ، ووثنية المغول فى ذلك الحين ، كما انه اظهر تقاربه مع البابوية وملوك اوربا وأعلن الحرب على ديار الاسلام فى بلاد الشام ، وارتكب فيها من الاثام والمنكرات وهو السلطان المسلم ، ما ذكر الناس بهولاكو وجنكيز خان الذين كانوا على الوثنية(٥١) .

أما الأمرالأولوهو زواج غازانالمسلممن زوجةابيه فاننانرجح عدمحدوثه لان الزواج من نساء الآباء كان عادة متبعة عند المغول الوثنيين ، وحيث ان اباه ارغون قد توفى عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م ، فلا بد ان غازان قد استحوذ على نساء ابيه عقب هذا التاريخ مباشرة كما هى العادة ، والراجح ان ما حدث من زواجه من احداهن انما كان قبل اعتناقه الاسلام الذى حدث

---

(٤٩) مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ٢٠ ، ٢٣ ،
Howorth : op. cit., v. 3, p. 384.

(٥٠) ابن حجر العسقلانى : نفس المصدر ، جـ ٣ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، الشوكانى : البدر الطالع ، جـ ٢ ص ٣٠٢ ، محمد جمال الدين سرور : نفس المرجع ، ص ١٧٥ .

(٥١) ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ، جـ ٩ ص ٢٨ ، ٢٩ ، المقريزى : نفس المصدر ، جـ ١ ق ٣ ص ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، فايد عاشور : نفس المرجع ، ص ١٦٢ ،
Malcolm : op. cit., v. 1, pp. 275-7.

(٥٢) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر م ٢ جـ ١ ص ٢٢٠ ، م ٢ جـ ٢ ص ٦ ، ٧ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٧٠ .

كما أشار المؤرخون فى عام ٦٩٤هـ/١٢٩٥م(٥٣) . وحتى لو اتى هذا الزواج بعد ذلك التاريخ ، فانما كان على سبيل عدم الفهم لقواعد الاسلام ، اذ كان غازان وقتذاك حديث عهد بدينه الجديد . وهناك ما يفيد بأن هذه الزوجة التى حاول غازان أن يرتد عن دينه لهيامه بها كما قال ابن حجر والشوكانى ، كانت هى السبب فى قتله ، فقد انضمت للمتآمرين على قتله فى سهولة وكأنها كانت تكره الزواج منه ، مما يعطى انطباعا بعدم صحة ما رواه ابن حجر والشوكانى . فقد روى ابن ايبك الدوادارى بأن هذه الزوجة كانت تسمى هميا خاتون ، وأنها تزوجت بعد وفاة والد غازان بأمير مغولى يسمى بلغاق شاه ، ثم تزوجت بعد ذلك من غازان ، اى انها لم تتزوج من غازان بعد وفاة والده مباشرة ، كما انها استجابت لبعض امراء المغول الذين احسوا بالخطر من غازان بعد هزيمتهم فى موقعة شقحب امام جند الناصر محمد بن قلاون عام ٧٠٢هـ/١٣٠٢م ، ونفذت لهم دون تردد ما أشاروا به وقتلته لهم بالسم(٥٤) ، ولم يذكر ابن ايبك شيئا عن هيام غازان بها أو عن محاولة ارتداده عن الاسلام بسببها ، علاوة على أن ابن ايبك كان معاصرا لغازان وكان يجتمع هو وابوه برسل الملك الناصر محمد عندما يعودون الى بلاد الشام بعد مقابلة غازان ، وكان يسمع منهم ما كانوا يرونه ويسمعون به فى بلاط ذلك الملك المغولى ، ومنهم من كان موجودا فى تبريز عند وفاة غازان مثل الأمير حسام الدين ازدمر المجيرى والقاضى عماد الدين السكرى اللذين كانا قد أرسلا مبعوثين الى غازان عام ٧٠١هـ/١٣٠١م وظلا هنـاك حتى وفاة غازان(٥٥) ، وعادا وقابلهما ابن ايبك ولم يقولا هما او غيرهما من الرسل الذين سبقوهما او اتوا بعدهما بمثل ما قاله ابن حجر(٥٦) والشوكانى ، ولم يرد هذا الخبر عند أى من المؤرخين سواء كانوا معاصرين او متأخرين الا ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) الذى توفى بعد هذا الحديث بمائة وستين عاما ، علاوة على انه لم يشر الى المصدر الذى روى عنه هذا الخبر ،

---

(٥٣) العمرى : نفس المصدر ، جـ ١٦ ق ٣ ورقة ٦٦٥ ، شرف خان البرليسى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ١٥ .

(٥٤) ابن ايبك الدوادارى : كنز الدرر جـ ٩ ص ١١٢ .

(٥٥) ابن ايبك : نفس المصدر ، جـ ٩ ص ٦٥ ، ٦٦ ، ٧١ — ٧٦ ، ١٢٩ — ١٣٠ .

(٥٦) الدرر الكامنة ، جـ ٣ ص ٢٩٢ .

اذ يقول « ولما أسلم (غازان) قيل له ان دين الاسلام يحرم نكاح الآباء ... الخ » فلم يحدد لنا ابن حجر من الذى قال او أفتى بهذه الفتيا . وقد ردد الشوكانى الذى توفى بعد ذلك عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م هذا القول ولم يكلف نفسه هو الآخر بالبحث عن المصدر الذى أخذ عنه ابن حجر ما زعمه عن السلطان محمود غازان .

وعلى ذلك فما قاله ابن حجر العسقلانى من قصة محاولة غازان الارتداد عن الاسلام لا اساس لها من الصحة ، وهى بالتأكيد قد وضعت وضعا لتشويه صورة غازان كمسلم بسبب ما فعله بمسلمى الشام الذين ينتمى اليهم ابن حجر العسقلانى نفسه ، هذا الفعل الذى جعل كثيرا من الناس لا يصدقون بخبر اسلامه ، حتى ان شعراء مصر والشام الذين قالوا شعرا بمناسبة هزيمته فى شقحب كانوا يشيرون الى كفره أو شركه(٥٧) ، كما تشكك الناصر محمد نفسه فى حقيقة اسلامه بسبب ذلك أيضا وعبر عن ذلك فى رسالته التى أرسلها له عقب انتصار غازان فى موقعة حمص عام ٦٩٩هـ/١٣٠٠م ، وما حدث بعدها لمسلمى الشام(٥٨) .

ولكن الحقيقة ان غازان كان مسلما صادق الاسلام والايمان برغم ما حدث فى بلاد الشام ،وكان لا يمكنه أن يرتد عن دينه الجديد ، لأن هذا الدين كان هو القوة الوحيدة التى ساندته كما رأينا ضد اعدائه من امراء المغول الوثنيين ، وضد بايدو ومن معه من الأمراء الذين كانوا قد اشتركوا فى قتل كيخاتو عم غازان واغتصبوا منه العرش لحساب بايدو .

واننا فى الحقيقة نتساءل ، اذا كان غازان قد حاول ان يرتد عن دينه الجديد بهذا الشكل السهل ، أو لهذا السبب التافه ، فما الذى جعله اذن يعتنق الاسلام ويتخلى عن الديانة التى نشأ عليها هو وآباؤه واجداده ؟ وای شعور خطير يمكن أن يثير اهتمام امير او حاكم فى مثل قوة غازان ونفوذه وسطوته فيلهمه تبديل دينه ويحوله الى الاسلام وهو ابن من غزوا العالم(٥٩) ، وسيطروا على آسيا وازالوا دولها وامبراطورياتها ، وتحكموا فى مصيرها

---

(٥٧) ابن ايبك الدواداری : نفس المصدر : ج ٩ ص ٨٩ ، ٩٢ .
(٥٨) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٦٨ ، ٦٩ .
(٥٩) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٤ .

زمنا طويلا ، ووصل نفوذهم فى أوربا الشرقية حتى بولندا والمجر ، واذلوا الروس وجعلوهم يدفعون لهم الجزية ويدورون فى فلكهم حتى بداية القـــرن السادس عشر للميلاد(٦٠) .

واذا كان زواج غازان من زوجة ابيه الوثنى لم يحدث الا عندما كان غازان نفسه وثنيا كما بينا وكما نرجحه ، وحتى اذا كان هذا الزواج هـــو الموقف الوحيد الذى استدل به البعض على ضعف اسلامه وايمانه وهـــو ما نستبعده ، فان هناك عشرات المواقف والأحداث والأفعال والأقوال التى تدلل بشكل واضح وقوى على قوة هذا الايمان وعلى سلامة هذا الاسلام ، مما يذهب دليلا على اخلاصه لدينه الجديد ، ذلك الاخلاص الذى جعل بعض المؤرخين يقولوا انه « كان أجل ملوك المغل من بيت هولاكو »(٦١) .

ومن الأفعال والمواقف الدالة على ذلك انه بدأ اولا يحقق اســـتقلال دولة المغول فى ايران والعراق وآسيا الصغرى عن خانية المغول العظمى ببلاد الصين والخطا لأن تلك الخانية كانت خانية وثنية يعتنق خوانينها وأهلها جميعا البوذية وغيرها من الديانات الوثنية ، وعمل غازان كل مافى وســـعه حتى تخلص من كل ما كان يربط بلاده بتلك الخانية الوثنية . وخاصة بعـــد موت قوبيـــلاى خـــان الـــذى كان مـــوته عـــام ٦٩٤هـ/١٢٩٤م نهاية لوحدة الامبراطورية المغولية التى كانت تضم دول المغول فى كل آسيا وشرقى أوربا . كما كان حكم غازان فى نفس الوقت حدا فاصلا بين دولة المغول الوثنية فى ايران وبين دولة المغول الاسلامية التى ازدهرت على يديه فى تـــلك البـــلاد(٦٢) .

ذلك ان غازان رفض ان ينقش اسم الخان الأعظم على عملة ايـــران لأنه كافر وغير مسلم ، واصدر عملة اسلامية نقش عليها عبارة « لااله الا الله محمد رسول الله » وخص نفسه بالذكر على العملة وفى الخطبة دون الخان

---

(٦٠) الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٥٠ ، ٥٧٧ — ٥٨٠، ج٢ ص ٥١ — ٥٧ باسيليوس خرباوى : تاريخ روسيا ، ص ١١٦ .

(٦١) المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٩٥٦ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢١٣ .

الأعظم وطرد نائبه من بلاده ، والغى لقب ايلخان ، اى نائب الملك ، واتخذ لنفسه لقب (الخان) اى انه لم يقبل ان يصبح نائبا لحاكم غير مسلم حتى لو كان ذلك الحاكم هو الخان الأعظم ، وفى نفس الوقت اعطى لنفسه اسما اسلاميا فتسمى باسم السلطان محمود ، كما وضع التاريخ الخانى الذى نسب اليه منذ ذلك الحين ، وغير شعار الدولة المسمى (آل تمغا) أو التمغا او الطمغا ، وهو الشعار الذى تصدر به الكتب والفرمانات(٦٣) وكان مربعا ، فجعله مستديرا لأن الدائرة أفضل الأشكال الهندسية واكثرها كمالا ، كما امر بان تتوج رءوس الكتب والمنشورات والفرمانات بعبارة الله أكبر(٦٤) . وبذلك تأكدت الهوية الاسلامية لخانية المغول فى ايران وتوابعها ، وبدأت الطبقة المغولية الحاكمة المسلمة تنصهر فى جمهرة الشعب الايرانى المسلم .

وقد أراد محمود غازان ان يؤكد ويعمق من هوية دولته الاسلامية فبذل كل ما فى وسعه لتحطيم كل ما هو وثنى ، فقام على معابد الوثنية يحطمها ، حتى معبد ابيه الفخم الذى كان مثالا لمعابد البوذية والذى حظى بالكثير من الأوقاف ، قام عليه ودمره تدميرا ، وهدد بالموت كل من بنى معبدا للاصنام او النيران ، وأصر فى عام ٧٠٠هـ/١٣٠٠م على ان يتحول كل المغول الى الاسلام ، وأمر كهنة المغول من البوذيين والشامانيين بالتحول الى الاسلام او الرحيل الى مواطن هاتين الديانتين فى التبت وكشمير ومنغوليا ، وأنذر من فضل البقاء منهم فى ايران بالقتل أن لم يعتنقوا الاسلام ، ونفذ سياسته تلك بكل شدة وعنف حتى انه لم يتورع عن قتل خمسة من اقاربه الأمراء وثمانية وثلاثين أميرا آخرين لمناوئتهم للاسلام(٦٥) . وبذلك انتصر الاسلام فى معركته مع

---

(٦٣) كما ان الطمغا هو شعار السلطان او الأمير ، فهو أيضا البراءة التى تصدر عن السلطان او الملك بالعفو عن مجرم أو تأمين خائف .
انظر : سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٤٣٣ .

(٦٤) المقريزى : نفس المصدر ، جـ ١ ق ٣ ، ص ٩٥٦ ، ابن حجر : نفس المصدر ، جـ ٣ ص ٢٩٣ ، شرف خان البدليسى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ١٦ ، ١٧ ، مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ٢٠، ٢٤، ٢٥ ،
Malcolm : op. cit., v. 1, p. 271.
Saunders : op. cit., pp. 135,136.
Howorth : op. cit., v. 3, pp. 399, 525.

(٦٥) براون : نفس المرجع ، ص ٥٦٦ ،
Saunders : op. cit., pp. 136, 137.

البوذية والشامانية انتصارا نهائيا ، وضاع الحاجز الذى كان يحول دون التفاهم بين الحكام والمحكومين فى ايران منذ ذلك الحين(٦٦) .

وقد ساعد على ذلك ان السلطان محمود غازان اخذ فى صبغ ادارات الدولة بالصبغة الاسلامية ، فجعل اعوانه من الوزراء والقواد والكتاب والموظفين من المسلمين خاصة ، مثال ذلك الأمير نوروز الذى عهد اليه بمنصب أمير الأمراء وجعله قائدا عاما للجيش ، وصدر الدين احمد الزنجانى الذى عهد اليه بمنصب الوزارة ولقبه بلقب صدر جهان(٦٧) ، ورشيد الدين فضل الله الهمذانى مؤلف كتاب جامع التواريخ الذى اتخذ منه مستشارا ووزيرا . وقد اشار هذا الوزير المؤرخ على غازان بضرورة اصلاح الأوضاع الاقتصادية بتخفيض الضرائب المفروضة على الفلاحين والتجار(٦٨) ، كما قام هذا الوزير برعاية العلوم والفنون فشيد ضاحية قرب تبريز سرعان ما تحولت الى جامعة وألحق بها مكتبة ومعهدا لنسخ المخطوطات ، وبنى فيها مساكن اقام فيها طلاب العلم وأهل الفن القادمون من جهات مغولية صرفة(٦٩) . واستمر هذا الوزير وأولاده من بعده فى تولى منصب الوزارة فى عهد السلطان محمد خدا بنده وعهد ابنه السلطان ابو سعيد ، وظلوا يسيرون على سياسة ابيهم فى تحبيب المغول فى الاسلام حتى قال ابو الفدا عن احدهم وهو على شاه وزير السلطان ابو سعيد أنه « هو الذى نسج المودة بين الاسلام والتتر »(٧٠) .

وهناك جانب آخر يدل على عميق اخلاص السلطان محمود غازان لاسلامه وينفى عنه ان اسلامه لم يكن بدافع المصلحة السياسة . ذلك انه اظهر تحمسا شديدا لدينه الجديد وصار يحافظ على اداء الصلوات فى اوقاتها وعلى صيام شهر رمضان ، وكانت فرائض الدين كلها متبعة فى حماسة وغيرة

---

(66) Saunders : op. cit., pp. 136, 141.

(٦٧) شرف خان البدليسى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٥ — ١٧
Howorth : op. cit., v. 3, p. 399.

(68) Saunders : op. cit., p. 141.

(٦٩) اربرى : تراث فارس ، ص ١٨٤ .

(٧٠) شرف خان البدليسى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٠ ، ٣١ ، ابو الفدا : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٩٦ .

شديدة خلال حكمه كله ، وكان لا يبدأ التحرك لأى معركة الا بعد ان يصلى هو وجيشه ركعتين يبتهل فيهما لالتماس المساعدة من الله(٧١) ، علاوة على انه كان يتبع الشريعة الاسلامية فى كل شئونه ، حتى انه كان ينصح القضاة والمشايخ قائلا لهم : « حذرونى اذا فعلت شيئا مخالفا للشريعة والدين ، وتأكدوا انه عندما تكون قلوبكم صادقة فان كلماتكم سوف تقنعنى ؛ لأنها سوف تكون معبرة عن الاخلاص والحماس الصادق والشجاعة ، وسوف يكون لها وزنها الكبير ، والا فانها فقط سوف تثير غضبى »(٧٢) .

وكان من مظاهر تطبيق السلطان محمود غازان للشريعة الاسلامية انه كان يعمل على محاربة ضروب الفساد المختلفة كشرب الخمر والبغاء والربا الذى أصدر قرارا بتحريمه ، كما اصدر قرارا بمعاقبة من يتفوه بألفاظ الكفر او اى لفظ يسىء الى الاسلام ، كما الزم شعبه بارتداء العمامة حتى يتميز المسلم من غير المسلم(٧٣) .

أما الأمر الثانى الذى اثار الغبار حول اسلام السلطان محمود غازان ودفع البعض لأن يقول بأن اسلامه هذا كان لمصلحة سياسية او انه لم يكن مخلصا فى اسلامه ، هو ان اسلامه لم يكن له اثر فى توطيد علاقته بسلاطين المماليك فى مصر والشام ، وفضل أن يسير على سياسة من سبقه من ايلخانات المغول الوثنيين فى بسط نفوذه على بلاد الشام ، ولذلك قضى فترة طويلة من حكمه فى محاربة سلاطين المماليك(٧٤) الذين كانوا قد استأصلوا منذ بضع سنوات الوجود الصليبى من تلك البلاد بالاضافة الى حمايتهم لها من خطر الاحتلال المغولى الذى تعرضت له منذ سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ/

---

(٧١) العمرى : نفس المصدر ، جـ ١٦ ق ٣ ورقة ٦٦٥ ؛
Saunders : op. cit., p. 136.
Howorth : op. cit., v. 3, pp. 437, 490.

(72) Howorth., op. cit., v. 3, pp. 399, 490.

(٧٣) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ، ص ١٧٦ ؛
مصطفى بدر : نفس المرجع ص ٣٦ — ٣٨ ، ٤٦ — ٤٨ ؛
Howorth : op. cit., v. 3, p. 453.

(٧٤) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاون فى مصر ص ١٧٦ ؛ دولة الظاهر بيبرس ، ص ١٠٧ ، مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ٨٠ .

١٢٥٨م . وكان الأحرى بهذا السلطان المغولى المسلم أن يحمى ظهر المماليك من الهجمات الصليبية التى بدأت تقصد مصر ذاتها ، ولكنه تقارب مع البابوية وحاول التحالف مع ملوك اوربا والحصول على مساعدات تلك الدول الأوربية الصليبية ، فأرسل سفارات الى ملكى انجلترا وفرنسا لمؤازرته(٧٥) ، واستعان بنصارى الأرمن والكرج(٧٦) تماما كما فعل هولاكو من قبل،وغزا بلادالشامأكثر من مرة وارتكب جنده اثناء هذا الغزو من ضروب التدمير والقتل والفساد وارتكاب المنكرات والاعتداء على الحرمات واتخاذ بعض المساجد اصطبلات(٧٧)،وهو السلطان المسلمالذى كان لا يحل له ولا لجنده ان يفعلوا ذلك او يأتوه .

اذن فقد كانت سياسة غازان الخارجية لا تطابق سياسته الاسلامية الداخلية التى أشرنا الى طرف منها ،ولذلك فقد كانت تبدو وكأنها تتناقض تماما مع عقيدته الجديدة التى اعتنقها وأظهر الاخلاص لها . والأمر ليس على هذا النحو تماما ، وفك هذا التناقض وتفسير هذا الوجه من سياسة غازان وبيان وجه الحقيقة فيه ليس بالأمر العسير ، ونحن هنا لا يهمنا أن نتحدث عن مظاهر هذه السياسة او احداثها بقدر ما يهمنا ان نبرز مدى صلتها أو علاقتها بحقيقة اسلامه ، او مدى قربها او بعدها عن دينه الجديد لنرى أن كانت تلك السياسة تمس اخلاصه لهذا الدين أم ان هناك امورا اخرى دفعته لاتخاذ هذه السياسة دفعا .

وفى هذا الصدد فاننا سوف نتناول مسألتين متداخلتين لا تنفك احداهما عن الأخرى ، المسألة الأولى هى موقفه من المسيحيين بشكل عام سواء داخل

---

(٧٥) فايد حماد عاشور : نفس المرجع ، ص ١٦٢ ، ميور : نفس المرجع ، ص ٧١ .

(٧٦) ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢١ ، ٦٧ ، ٦٩ .

(٧٧) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٤٦ ، المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ، ص ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٦ ، ابن حجر : نفس المصدر ج ٣ ص ٢٩٣ ، الشوكانى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣ .

بلاده ام خارجها ، والمسالة الثانية هى موقفه من سلاطين المماليك فى مصر والشام بالمفهوم الذى اشرنا اليه .

وبالنسبة للمسالة الأولى فقد كان السلطان محمود غازان شديدا وعنيفا فى معاملته لأهل الذمة داخل مملكته ،ذلك انه « الزمهم الغيار ، فكانت علامة النصارى شد الزنار(٧٨) فى أوساطهم ، واليهود خرقة صفراء فى عمائمهم » . واسترد الدور والقصور والأربطة التى كان المسيحيون قد استولوا عليها عقب استيلاء المغول على بغداد ، وازال ما بها من تماثيل وخطوط سريانية وجعل بعضها مجالس للوعظ والارشاد الاسلامى(٨٠) . وبلغ التطرف مداه حينما امر هو ووزيره نوروز بحرق الأيقونات المسيحية او بتحطيمها والقائها فى شوارع تبريز ، كما حطمت الكاتدرائية النسطورية وقصر المطران فى مراغة ، ونفى مطران هذه المدينة بعد ان ضرب وعذب بشدة كما صدرت الأوامر بتخريب كل كنائس جورجيا ، وقتل بعض قسسها وقدم بعض سكانها المسيحيين الى الموت ، اما الذين هربوا من هذا المصير ، فقد سلبت أمتعتهم وبيعت زوجاتهم وأولادهم فى سوق الرقيق ، وامر غازان بتحويل كنائس كثيرة ومعابد بوذية الى مساجد ، وقاسى المسيحيون فى عهده كثيرا من الاضطهاد فى بغداد والموصل وحمص وتبريز ومراغة وبلاد الروم(٨١) حتى أصبح من المتعذر عليهم السير فى الشوارع،وصارت نساؤهم يذهبن الى الحوانيت للبيع والشراء بدلا منهم لصعوبة التمييز بينهن وبين نساء المسلمين(٨٢) .

---

(٧٨) الزنار جمعه زنانير ، وهو حزام ، او وشاح تميز بلبسه اهل الذمة فى العصور الوسطى . أنظر : سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٤٢٤ .

(٧٩) ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٤٨٣ ، ٤٨٤ .

(80) Saunders : op cit., p. 136.

(81) Howorth : op cit ., v. 3, pp 421 — 422, 427; Saunders : op. cit, pp. 136, 141

(٨٢) محمد جمال الدين سرور نفس المرجع ، ص ١٧٥ .

هذا هو شكل العلاقة التى كانت بين السلطان محمود غازان وبين رعاياه من المسيحيين ، وهى علاقة اعتقد ان فيها كثيرا من المبالغة ، ولكنها تتفق وتحمسه الشديد لدينه الجديد ، وكما رأينا فقد اضطهد المغول البوذيين حتى يسلموا او يعودوا الى ديار البوذية فى المشرق الأقصى قبل ان يضطهد المسيحيين ويجبرهم على التزام حدودهم وعلى الكف عن نشاطهم التبشيرى فى ديار الاسلام . وهذا الجانب من سياسته لا يدل الا على اخلاصه التام لدينه الجديد الذى اعتنقه ذلك الحاكم القوى دون ارغام او اكراه .

ولا يتناقض مع هذه السياسة — من وجهة نظره كما سنرى — ما عرف عن اتصاله بالبابا بونيفاس الثامن وبعض ملوك اوربا الصليبية ، ذلك ان هذا الاتصال كان يخدم سياسته تجاه بلاد الشام . وكانت تلك السياسة تلتقى فى جانب منها مع اهداف البابوية ، فالبابا كان يريد محالفة مغول ايران بعد ان نجح الاشرف خليل بن قلاون فى الاستيلاء على آخر حصن للصليبيين فى عكا عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م ، فدعا هذا البابا لحرب صليبية ضد مصر عام ٦٩٩هـ/١٣٠٠م ، وحاول التحالف مع غازان للانتقام منها ولاستعادة بيت المقدس مرة اخرى . اما غازان فكان يريد ان يحقق حلم آبائه فى السيطرة على بلاد الشام ، ويحطم التحالف الذى كان يربط سلاطين المماليك باعدائه من مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق ، ويحطم من يقف فى طريقه لتحقيق هذه الأهداف حتى ولو كان وزيره نوروز(٨٣) .

وعلى ذلك فقد تلاقى هدف غازان والبابا فى محاربة سلاطين مصر والشام ، وان كان التحالف بينهما لم يتم ، ولم يصل غازان فى أستعانته بغير المسلمين فى غزوه لبلاد الشام أكثر من ضمه جند الأرمن والكرج الذين كانوا تحت طاعته وحكمه الى جيشه الذى غزا تلك البلاد(٨٤) . ورغم ذاك فقد

---

(٨٣) المقريزى : نفس المصدر ، جـ ١ ق ٣ ص ٨٣٧ ، ٨٧٤ ، محمد جمال الدين سرور : نفس المرجع ، ص ١٧٦ ، مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ٣٥ .

(٨٤) ابن ايبك : نفس المصدر ، جـ ٩ ص ٢١ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ابن خلدون نفس المصدر ، جـ ٥ ، ص ٨٨٨ ، المقريزى : نفس المصدر ، جـ ١ ق ٣ ملحق ١٥ ص ١٠٢٦ .

حرص غازان على أن يعطى هذا الغزو وجها اسلاميا ، فجعل له تبريرا اسلاميا او ذريعة دينية تجيز له من وجهة نظره هذا الغزو . فهو يقول فى رسالته التى ارسلها للسلطان الناصر محمد بن قلاون عام ٧٠٠هـ/١٣٠١م بعد انتصاره على جيوش مصر فى موقعة حمص عام ٦٩٩هـ/١٣٠٠م ، انه لم يغز بلاد الشام فى ذلك العام الا بسبب « اغارة عسكر مصر على ماردين وبلادها فى شهر رمضان المعظم الذى تعظمه الأمم فى سائر الأقطار ، ويغلل فيه الشيطان وتغلق فيه ابواب النار ، فطرقوا (اى جند مصر) البلاد وهتكوا محارم الله عز وجل سرعة بغير مهلة ، وأكلوا الحرام وركبوا الاثام وفعلوا مالا تفعله عباد الأصنام ، فأتانا أهل ماردين وبلادها مستصرخين مسارعين ملهوفين ، بالأطفال والحريم ، وقد استولى عليهم الشقاء بعد النعيم ، فوقفوا بأبوابنا ولاذوا بجنابنا ، فهزتنا نخوة الكرام وحركتنا حمية الاسلام ، فركبنا على الفور بمن معنا ، ولم يسعنا أن نجمع بقية جيوشنا ، وقدمنا النية وعاهدنا الله على ما يرضيه عن بلوغ الأمنية ، وعلمنا ان الله لا يرضى لعباده أن يسعوا فى الأرض بالفساد ، وانه ليغضب لهتك الحريم والأولاد ... » ويؤكد غازان فى نهاية رسالته على أن هذا هو السبب الذى جعله يغزو بلاد الشام لأخذ القصاص لأهل ماردين وديار بكر ، وأنه يعتقد الاسلام سرا وعلانية ، ويعمل بفروضه « فى كل وصية » ، وأن اسلامه يجعله هو والملك الناصر مسئولين عن ازهاق ارواح المسلمين ، ولذلك فهو يطلب الصلح بعد أخذ قصاص اهل ماردين(٨٥) .

هذا عن السبب المباشر الذى اظهره غازان لغزوه بلاد الشام ، وهو سبب كما ترى اسلامى الصورة دينى الطابع ، فهو يأخذ القصاص من فئة مسلمة لفئة اخرى مسلمة . ولم يكن هذا الأمر او هذا السبب ذريعة كاذبة اتخذها غازان تكئة لغزو بلاد الشام ، فقد اعترف الملك الناصر محمد بن قلاون بهجوم بعض جنده فعلا على اهل ماردين وبارتكابهم لما اشار اليه غازان ، ولكنه برر ذلك كما هى العادة « بأن الذى فعل ما فعل من الفساد لم يكن

---

(٨٥) ابن ايبك الدوادارى :نفس المصدر ، ج ٩ ص ٥٣ — ٥٥ ، ابن الوردى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٩١٥ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ج ٨ ص ١٣٦ — ١٣٩ .

برأينا ولا من امرائنا (امرائنا) والأجناد ، بل هو من الأطراف الطماعة ممن لا يؤبه اليه،ولا يعول فى قول ولا عمل عليه»(٨٦) كما اسنده لسبب آخر وهو عدم وجود صلح او موادعة بينه بين غازان(٨٧) ، وكأن عدم الصلح يبيح له العدوان على اطراف بلاد غازان ، وهو نفس المنطق الذى كان يسير عليه غازان هو الآخر ، فهو يقول انه كاتب سلاطين مصر وأنذرهم ليرتدعوا عن المظالم والمفاسد ، وانه لم يحاربهم الا بعد أن رفضوا الزجر والموعظة وبعد ان اودعوا سفراءه السجن تجبرا وغرورا(٨٨) .

ومهما كان من أمر غازان وما اتخذه من عدوان جند مصر على أهل ماردين كسبب لغزوه بلاد الشام ، وما أعطاه لهذا السبب من شكل اسلامى كما ترى ، فقد رأى غازان سببا آخر اعطاه نفس الحجة على سلاطين مصر ، وكان لهذا السبب ايضا نفس الطابع ونفس الشكل الاسلامى ، وهو فى هذه المرة لا يتهم جند مصر بالعدوان والفساد ، ولكنه يتهم سلاطين مصر أنفسهم بهذه الصفات ، ويشير الى ظلمهم وخروجهم على مقتضيات الايمان الصحيح ، وان ذلك هو السبب فى غزوه لبلاد الشام انقاذا لها من هؤلاء الحكام الفاسدين الظلمة . يفهم ذلك من نص الأمان الذى اعطاه غازان لأهل دمشق عقب استيلائه على شمالى بلاد الشام عام ٦٩٩هـ/١٣٠٠م ، اذ يقول لهم فى هذه الأمان انه سمع ان « حكام مصر والشام خارجون من طريق الدين غير متمسكين بأحكام الاسلام ، ناقضون لعهودهم ، حالفون بالأيمان الفاجرة ، ليس لديهم وفاء ولا ذمام ، ولا لأمورهم قيام ولا انتظام وكان احدهم (اذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد)(٨٩) ، وشاع شعارهم بالحيف على الرعية ، واضاعوا الحقوق المرعية ، ومدوا ايديهم العادية الى حريمهم وأموالهم واولادهم وعيالهم ،

---

(٨٦) ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٨٧) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٧ ص ٢٤٤ ، المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ١٠١٨ ، ١٠١٩ .

(٨٨) المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠٢٥ .

(٨٩) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، آية رقم ٢٠٥ .

والتخطى عن جادة العدل والانصاف ، وارتكابهم الجور والاعساف ، حملتنا الحمية الدينية والحفيظة الاسلامية على أن توجهنا الى هذه البلاد لازالة هذا العدوان واماطة هذا الطغيان .. ونذرنا على أنفسنا ان وفقنا الله تعالى لفتح البلاد ازلنا الفساد عن العباد ممتثلين للأمر الالهى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان)(٩٠) ، فلله علينا بذلك الامتنان ... »(٩١) .

فهو كما ترى يبرر غزوه لبلاد الشام بهذه الأسباب ، ويريد ان يقيم العدل ويمنع الفساد الذى عم وانتشر فى هذه البلاد ، ولذلك فانه بمجرد ان استولى عليها حرص على توفير العدالة لأهاها ، فعين فى حكمها الأمير سيف الدين قبجق الذى كان حاكما لها من قبل وفر اليه خوفا من بطش حسام الدين لاجين سلطان مصر فى ذلك الحين ، وحرص غازان على ان ينص فى فرمان توليته على أن يراعى « تقوى الله فى احكامه ، وخشيته فى نقضه وابرامه ، وتعظيم الشرع وحكامه ، وتنفيذ اقضية كل قاض على قول امامه ، وليتعاهد الجلوس للعدل والانصاف فى سائر ايامه ، واخذ الحق للمشروف من الأشراف ، وليقم الحدود والقصاص على كل من وجبت عليه ، وليكف الكف العادية عن كل ما يرد اليه ... »(٩٢) فغازان حريص على اقامة العدل وعلى اقامة الحدود وتطبيق الشريعة الاسلامية .

ولا شك ان بعض أمراء بلاد الشام الذين فروا الى بلاط غازان قد أعطوه صورة سيئة عن سياسة سلاطينهم تجاه الرعية ، وحثوه على القيام بغزو تلك البلاد لانقاذها من ظلم هؤلاء السلاطين ، ولاقامة الحق واعادة

---

(٩٠) القرآن الكريم ، سورة النحل ، آية رقم ٩٠ .

(٩١) ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢١ ، النويرى : نفس المصدر ، ج ٢٩ ورقة ٣٢٥ — ٣٢٦ ، المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ١٠١١ ، ١٠١٢ .

(٩٢) ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٧ ، المقريزى : نفس المصدر ج ١ ق ٣ ، ملحق ١٣ ص ١٠١٥ .

الاسلام الى قلوب أهلها(٩٣) . ويبدو ان امراء المغول وسلطانهم غازان قد صدقوا ما فعله هؤلاء الأمراء الفارون اليهم لدرجة ان أحدهم قال انهم ما غزوا بلاد الشام وما خربوها وما اخذوا أموالها الا لأن شيخهم افتاهم بذلك عقابا لأهل تلك البلاد الذين كانوا « لا يصلون الا بالأجرة ، ولا يؤذنون الا بذلك ، ولا يتفقهون الا بمثل ذلك » . أى بالأجرة(٩٤) . كما ان عقابهم كان لسبب آخر ساقه احد قواد المغول عندما سأله ابن تيمية ان يسرح من عنده من اسرى دمشق،فرفض القائدتسريحهم لأن أهل دمشق فى نظره — هم قتلة الحسين بن على رضى الله عنهما (٩٥) ، رغم بعد الشقة بين اهل دمشق فى ذلك الحين وبين حادث مقتل الحسين ، ولكن يبدو ان ذلك القائد اعتبرهم كذلك لأنهم من نسل القتلة وذريتهم ، فهو يأخذ الذرية بذنب الآباء والأجداد .

فغازان وجنده اذن يغزون بلاد الشام عقابا لأهلها الذين نكصوا عن الدين وصاروا لا يؤدون فرائضه الا اذا اخذوا الأجر على ذلك ، و لأن جدودهم قاتلوا اهل البيت وقتلوهم ، ون كان هذا الكلام فى رأينا لا يستقيم بحال ، فما لاهل دمشق فى عام ٦٩٩هـ/١٣٠٠م بالحسين رضى الله عنه ، وكيف يأخذون الأجر على اقامة الصلاة والأذان ، وممن يأخذونها ، الا أن من صور لهم ذلك سواء كان من بينهم من فقهاء ايران — واعتقد انهم من فقهاء الشيعة — أم من امراء الشام الفارين اليهم ، نجحوا فى استغلال عواطف المغول الشجية نحو الاسلام ، وازادوا من حماستهم له واخلاصهم فى نصرته على هذا النحو السقيم ، وخاصة فى عهد غازان الذى ما تولى الملك الا بمساعدة المسلمين من المغول فى بلاده ، والذى جعل الاسلام هو الدين الرسمى للدولة وحاول ان يقضى على غيره من الأديان فى بلاده كما رأينا . وقد بلغ تحمسه للاسلام

---

(٩٣) ابن الفوطى : نفس المصدر ، ص ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ابو الفدا : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٤ ، النويرى : نفس المصدر ، جـ ٢٩ ورقة ١٠٣ ، ابن الوردى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٥ ص ٨٨٩ ، المقريزى : نفس المصدر ، جـ ١ ق ٣ ص ٨٧١ ، ٨٧٢ .

(٩٤) ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ، جـ ٩ ص ٣٣ .

(٩٥) المصدر السابق ، جـ ٩ ص ٣٦ .

أن ادعى احد امرائه بان « جنكيز خان كان مسلما ، وكل من خرج من ذريتــه مسلمين ، ومن خرج من طاعته فهو خارجى »(٩٦) .

ومعنى ذلك ان غازان ومن معه من امراء المغول وجندهم كانوا يعتقدون فى أحقيتهم فى مقاتلة سلاطين مصر والشام الذين يجب ان يدينوا لهم بالطاعة والولاء ، حيث ان هؤلاء السلاطين ليسوا من بيت ملك ، وهم عبيد اصـــلا ، فكيف يحل لهم ان يناجزوا غازان او يدعوا شرف الدفاع عن الاسلام(٩٧) . فغازان اذن كان يرغب ان يكون هو صاحب الكلمة الأولى بين المسلمين ، وكان يعتبر نفسه القوة الوحيدة التى تستطيع الدفاع عن بلاد الاسلام ، ومن ثم يجب ان تكون له المكانة الأولى بين ملوك المسلمين(٩٨) ، لأنه ينحدر من بيت عريق غزا العالم وخضع لناموس الاسلام ، واتصف بالعدل وعمـــل على القضاء على الفســاد والمظالم(٩٩) .

فسلاطين مصر والشام فى نظر غازان وجنده عبيد وخوارج ، وظلمة وفاسدون جبارون يعتدون على أهل ماردين ويظلمون سكان مصر والشــام ، ويجب اخضاعهم لعدل الاسلام ولنواميسه ، ويجب اخذ القصاص منهم لمن اعتدوا عليهم ، من ثم أتى غزو غازان لبلاد الشام عام ٦٩٩هـ/١٣٠٠م حيث انتصر على قوات المماليك فى حمص وخطب له على منابر دمشق باســـم « السلطان الأعظم سلطان الاسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمــود غازان »(١٠٠) .

هذا هو الوجه الاسلامى لتفكير غازان ولغزوه بلاد الشام ، ولــكن كيف يتفق ذلك الوجه مع عيث جنده فى بعض نواحى تلك البلاد وما قاموا

---

(٩٦) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٣٢ .

(97) Saunders : op. cit., p. 138.

(٩٨) فايد عاشور : نفس المرجع ، ص ١٧٤ .

(٩٩) أبو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٨ ص ٢١٣ .

(١٠٠) ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٤ ، المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٨٨٦ — ٨٨٨ ، ٨٩١ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٨ ص ٩٧ .

فيها من افساد وفساد وارتكاب لأشنع الجرائم والمنكرات ؟(١٠١) وما هو موقف غازان من تلك الأفعال المنكرة التى جعلت البعض يتشكك فى اخلاصه للاسلام ، بل جعلت بعضهم يصفه بالكفر والشرك كما سبق القول ؟

ويجيب على هذه التساؤلات احد الكتاب المعاصرين لغازان ويقول ان هذا السلطان لم يبح لجنده هذه الأفعال ولا ارتضاها منهم ولا أقرهم عليها ، بل عاقبهم بالقتل واصدر مرسوما لجنده « بألا يتعرض احد من العساكر على اختلاف طبقاتهم وتباين اجناسها واختلاف لغاتها ، لدمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية الاسلامية ، وان يكفوا أظفار التعدى عن أنفسهم وأموالهم وحريمهم ، ولا يحوموا حول حماهم بوجه من الوجوه ، حتى يشتغلوا بصدور مشروحة وآمال مفسوحة ، بعمارة البلاد وبما هو كل واحد بصدده من تجارة وزراعة وغير ذلك من كل صناعة ، وكان هذا الهوج العظيم وكثرة العساكر ، وتزاحم هذه العساكر ، فتعرض بعض نفر يسير من السلاحية وغيرهم الى نهب بعض الرعايا وأسرهم ، فقتلناهم ليعتبر الباقون ويقطعوا اطماعهم عن النهب والسلب وغير ذلك من الفساد ، وليعلموا أنا لا نسامح بعد هذا الأمر البليغ البتة فى أذية احد من العباد ، ولا يتعرضوا لأحد من أهل الأديان على اختلاف اديانهم من اليهود والنصارى والصابئة ، فكل منهم قد عاد منا فى أمان ... »(١٠٢) .

هذا هو موقف غازان من اعتداء بعض جنده على بعض اهالى بلاد الشام ، وهو موقف واضح الدلالة على عدم موافقته على ما قام به بعض جنده الذين كان منهم من لا يدينون بالاسلام ، اذ كان فريق منهم يتظاهر بالاسلام ويخفى الوثنية فى قلبه(١٠٣) ، وبعضهم كان حديث عهد بالاسلام ، وآخرون من جند غازان كانوا من الأرمن والكرج المسيحيين ، وهؤلاء كانوا

---

(١٠١) ابن ايبك : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٤٦ ، المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٦ .

(١٠٢) ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٢ ، ٢٣ ، النويرى : نفس المصدر ، ج ٢٩ ورقة ٣٢٥ — ٣٢٦ ، المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ملحق ١٢ ، ص ١٠١٢ .

(103) Howorth : op. cit., v. 3, p. 454.

ينتهزون اى فرصة لصب العذاب على المسلمين ايا كانوا ، ولتخريب المساجد وانتهاك الحرمات . واظن ان ما حدث فى دمشق « وجبل الصالحية من افعال قبيحة مما تقشعر لهول سماعه الأبدان »(١٠٤) ، كان من فعل هؤلاء الجند المسيحيين بالمشاركة مع بعض المغول الذين تظاهروا باعتناق الاسلام ، علاوة على الفتوى التى سبقت الاشارة اليها والتى أباحت لجند غازان من المسلمين الانتقام من أهل الشام لتقاعسهم عن شعائر الدين او لأنهم كانوا من سلالة قتلة الحسين بن على (رضى الله عنهما) .

هذا هو التبرير الذى ساقه المؤرخون لما فعله جند غازان : مسلمون وغير مسلمين ، فى بعض نواحى بلاد الشام ، وهذا هو موقف غازان . ورغم ذلك فان ما حدث من هؤلاء الجند ليس بالشىء الكثير اذا ما قورن بما حدث لأهل هذه البلاد نفسها على أيدى جند الدول الاسلامية الأخرى ، فقد اشار كثير من المؤرخين الى افعال اشد هولا حدثت على يد الخوارزمية الذين اغاروا على بعض بلاد الشام قبل الغزو المغولى لها(١٠٥) بل ان بعض سكان بلاد الشام نفسها « من الجبلية — اى سكان الجبل — والعربان كانوا على

---

(١٠٤) ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ، جـ ٩ ص ٢٨ ، المقريزى : نفس المصدر ، جـ ١ ق ٣ ص ١٠١١ .

(١٠٥) يقول بعض المؤرخين ان جلال الدين خوارزم شاه وصاحب أذربيجان قبل استيلاء المغول عليها ، زحف على مدينة خلاط فى شمال بلاد الشام عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م وحاصرها ثم اقتحمها عنوة واعمل فيها السيف « وفعل افعال التتار قتلا واسترقاقا ونهبا ، ثم قبض على نائبها وقتله » وبعد ذلك بعشر سنوات هاجم الخوارزمية الذين كانوا يسكنون بلاد سلاجقة الروم بعد مقتل سلطانهم جلال الدين على يد المغول عام ٦٢٨هـ/١٢٣١م ، واغاروا على مدينة حلب ومنج وغيرهما ، « وارتكبوا من الزنا والفواحش والقتل ما ارتكبه التتار » « واقبح مما فعله التتار » .

انظر : ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ، جـ ٧ ص ٣١٧ ، ٣٣١ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ابو الفدا : تاريخه جـ ٣ ص ١٧٥ ، ١٧٦ العمرى : مسالك الأبصار ، جـ ١٦ ق ٣ ورقة ٥٣٦ ، ابن الوردى : تاريخه جـ ٢ ص ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٧٠ ، ابن خلدون : تاريخه ، جـ ٥ ص ٧٦٧ ، ٧٧٢ ، ٧٧٤ .

الناس أشد من التتار حتى كأن لهم على الاسلام تار »(١٠٦) . وهى اشارة الى ما فعله هؤلاء العربان عقب هزيمة جند مصر والشام فى موقعة حمص عام ٦٩٩هـ/١٣٠٠م أمام غازان ، ويقول ابن ايبك الذى ساق الينا هذا الخبر ، أن ما فعله التتار بدمشق لا يقاس ايضا بما فعله جند الفاطميين فيها من قبل ، ولو عرف الناس ما فعله هؤلاء الجند « لاستقل عندهم فعل التتار هذا واستصغروه »(١٠٧) .

وما لنا نذهب بعيدا وواقع الحال ينبؤنا بحدوث مظالم ونكبات حدثت بعد رحيل المغول عن بلاد الشام على يد حكامها ورعاتها من امراء المماليك ، وكانت هذه المظالم لا تقل فداحة وغرما عما نسب للمغول . اذ يحدثنا المؤرخ المعاصر ابن ايبك الدوادارى — وهو احد امراء المماليك وكان مقيما فى بلاد الشام — ان أمراء المماليك فرضوا على الناس ضرائب فادحة وصادروا اموالهم حتى ضج الناس « وتسحب اكثر ارباب الأملاك واستخفوا » ، فقام الأمراء بقطع الأشجار ، بثمارها وبيعها حطبا بعد فرار اصحابها حتى يجنوا ما ارادوا جمعه من اموال ، ويعلق هذا المؤرخ على ذلك ويقول ان هذا العمل كان على « أهل دمشق اشد من كل شىء مر بهم من اول حال والى ذلك التاريخ » ، ويقول ان هذا المال الذى جمع ظلما سرق الكتاب والجباة معظمه ، وما بقى استقر فى جيوب الأمراء ولم ينفق منه شىء فى تحصين البلاد او تحسين احوال اهلها(١٠٨) .

فلا يهولنك ما ذكره البعض عن افعال جند غازان ببعض نواحى بلاد الشام . فالحروب من طبيعتها ان يحدث فيها مثل هذا العيث والافساد ، ولا يحمل ذلك على صاحب الغزو ويتهم بأنه غير مسلم او انه مسلم غير صادق الايمان ، اذ لا سيطرة له على كل الجند عقب احراز نصر او اكتساح بلاد . وقد حدد غازان موقفه مما فعله بعض جنده وعاقبهم بالقتل على النحو الذى سبقت الاشارة اليه ، بل انه بكر بالرحيل عن بلاد الشام بعد ان رأى ثقل وطأة جنده على الناس ومضايقتهم لهم ، وعين فى حكمها سيف الدين قبجق

---

(١٠٦) ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ١٧ .
(١٠٧) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٢٨ ، ٢٩ .
(١٠٨) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٤٤ .

نائب الشام السابق الذى كان قد فر الى غازان ، بعد ان امره باقامة العدالة واقامة الحدود . وقد قابل ابن تيمية امراء غازان وقواد جنده قبل رجيلهم الى ايران ، وشهد لهم بالايمان والاسلام وان فيهم « دين وسكون وصلاة حسنة » وقال « انهم يكتبون فى جميع فراميتهم بقوة الله وبميثاق الملة المحمدية » ، وسمع منهم ان ما جعلهم يفعلون ما فعلوه هو تلك الفتوى التى افتاهم بها شيخهم(١٠٩) .

ونحن هنا لا نبرر ما فعله جند غازان او ما فعله السابقون واللاحقون باهل الشام ، ولكننا نريد ان نضع ما فعله هؤلاء الجند فى موضعه الصحيح ونعطيه حجمه الذى يستحقه ، لا نزيد ولا نبالغ كما فعل الآخرون حتى أتهموا هذا الحاكم المسلم بما اتهموه به ، وهو الذى جعل الاسلام هو الدين الرسمى لدولة المغول فى ايران ، والذى تحمس لهذا الدين تحمسا جعله يحاول أن يجعله الدين الوحيد فى دولته ، فقضى على البوذية والشامانية وقلص من حجم المسيحية فى بلاده بمنع نشاطها التبشيرى ، فلاقت هذه الديانات على يديه ضربة لم تفق منها ابدا . أما البوذية فقد انسحبت الى مواقعها فى شرقى آسيا ، واما النصرانية فقد تقوقعت على نفسها فى بعض جبال شمالى ايران والعراق . وبذلك حقق الاسلام انتصاره النهائى على هذه الديانات اثناء عهد السلطان محمود غازان ، ولم يتول عرش ايران حاكم مغولى بعده الا وهو معتنق لدين الاسلام ، واتسمت حياة المغول فى معظم أمورها واحوالها منذ ذلك الحين بسمات اسلامية بارزة واضحة لا تكاد تفترق عما كان موجودا عند المسلمين فى الدول الاسلامية الأخرى ، مما يدل على انفعالهم العميق والكبير بالاسلام وحياته ومظاهره وتقاليده رغم حداثة عهدهم به .

٣ — مظاهر الحياة الاسلامية عند مغول ايران :

من هذه المظاهر التى يمكن ملاحظتها بسهولة هو ان سلاطين مغول ايران اتخذوا لأنفسهم القابا واسماء عربية اسلامية ، مثال ذلك تكودار الذى سمى نفسه السلطان احمد تكودار ، وغازان الذى سمى نفسه

---

(١٠٩) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٢٥ ، ٣١ — ٣٣ ، المقريزى : نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ١٠١٥ .

السلطان مظفر الدنيا والدين محمود غازان ، وأولجايتو(١١٠) الذى سـمى

(١١٠) ذكر ابن بطوطة ان اسم اولجايتو محمد خدا بنده مختلف فيه ، فقيل ان اسمه خدا بنده بمعنى عبد الله ، لأن (خدا) بالفارسية تعنى اسم الله عز وجل ، و (بنده) تعنى غلاما او عبدا ، وقيل ان اسمه (خربنده) بمعنى غلام الحمار او راعى الحمير ، لأن (خر) بالفارسية تعنى الحمار . وقال ان السبب فى تسميته بهذا الاسم الأخير ان المغول كانوا يسـمون المولود باسم اول داخل على اهل البيت عند ولادته ، فلما ولد هذا السلطان وكان اول داخل هو الزمال (اى الشخص الذى يحمل الأشياء على الحمير) وكانوا يسمونه خربنده ، فسمى هذا السلطان به . وكذلك سموا اخاه غازان او قازان ، فقازان او قازغان وهو الاسم الحقيقى ، معناه (القدر بكسر القاف) ، وقيل سمى بذلك لأن جارية زملت تحمل قدرا عند ولادته . (انظر ، رحلة ابن بطوطة ، ص ١٥٢) ويذكر هورث Howorth ان اولجايتو لقب باسم خدا بنده التى تعنى عبد الله ، وان السنيين تلاعبوا بهـذه الكلمة ، وسموه خربنده التى تعنى عبد الحمار وذلك عندما تشيع ، وانه فى معظم وثائق الدولة كان يسمى اولجايتو محمد خدا بنده ، وتبين النقود التى ضربها والموجود منها عدد فى المتحف البريطانى أن اسـمه المنقوش عليهـا هـو « غياث الدنيا والدين اولجايتو سلطان محمد » .

انظـــر : Howorth : op .cit., v. 3, pp. 535, 580.

واورد ابو المحاسن بن تغرى بردى رواية تفيد بأن اسم هذا السلطان هـو خدا بنده ، اى عبد الله باللغة الفارسية ، وأن والده هو الذى سماه باسم خرا بندا الذى يعنى عبد الحمار (لاحظ ان اباه ارغون كان غير مسلم) ، لأن اباه كان اولاده يموتون وهم صغار ، فقيل له بالتسمية القبيحة حتى يعيش ابنه ، ففعل وسماه بهذا الاسم ، ولما اصبح خدا بنده سلطانا كره هذا الاسم واستقبحه وهدد من قال به .

انظر : ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٩ ص ٢٣٨ .

وقد ورد اسم هذا السلطان فى بعض كتب التاريخ العربية باسم محمد خربنده (انظر : ابو الفدا ، جـ ٤ ص ٩٩ والعمرى : جـ ١٦ ق ٣ ورقة ٦٨ ، ٦٨٣ ، ابن الوردى : جـ ٢ ص ٢٦١ ، الديار بكرى : جـ ٢ ص ٣٨١ كما ورد فى بعضها الآخر باسم محمد خدا بنده (انظر : ابن ايبك الدوادارى ، جـ ٩ ص ١١٢ ، ١١٨ ، ابن بطوطة : ص ١٣٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٩) ، وكذلك ورد بهذا الاسم فى كتب التاريخ الفارسية (انظر شرف خان البدليسى ص ٢٢ — ٢٤ ، النظامى عروضى سمرقندى ، ص ١١٢) والاسم الأخير هو الاسم الذى اشتهر به هـذا السـلطان .

نفسه محمد خدا بنده، أى محمد عبد الله وسمى أولاده أبا يزيد وبسطام وأبا سعيد ، وتلقب بلقب غياث الدين ، ثم توالت بعد ذلك أسماء سلاطين مغول ايران على هذا النحو . بل ان بعضهم سمى اولاده على اسماء المدن العربية مثل دمشق وبغداد ونحوها ، انفعالا بالاسلام وأهل بلاده(١١١) .

يضاف الى ذلك ان مغول ايران : سلاطين وأمراء وخواتين وجندا ورعية حافظوا على اداء الفرائض الاسلامية من صلاة وصيام وحج ونحوها ، وتحمسوا لأدائها تحمسا شديدا وبالغوا فى ذلك حتى ان الخواتين كان لكل واحدة منهن امام ومؤذن وقراء للقرآن خاصون بها(١١٢) . وكانت مجالس العلم تعقد برعاية الخوانين والخواتين ، وتحت اشرافهم وعلى سبيل المثال كان السلطان محمد خدا بنده يجتمع فى مجلسه العلماء والحكماء والمنجمون ومؤرخو الأديان والشعوب من جميع البلاد الاسلامية وغيرها ، فكان مجلسه يضم علماء وحكماء الخطا والصين والهند وكشمير والتبت والأويغور واقوام الترك الآخرين والعرب والفرنج(١١٣) وكانت الخواتين (أى زوجات السلاطين والأمراء من المغول) بحكم كثرتهن وفراغهن أكثر اقامة لمجالس العلم التى كانت تعقد فى المدارس والمشاهد والزوايا بحضور القضاة والفقهاء والشرفاء وطلبة العلم الذين كانوا يأخذون فى تلاوة القرآن الكريم بأصوات حسان حتى ينتهوا من قراءته كله ، ثم يؤتى لهم بالطعام والفواكه والحلوى ، فاذا انتهى القوم من الطعام قام الواعظ يخطب الحاضرين ويعظهم ، ويستمر هذا المجلس العلمى الدينى من بعد صلاة الظهر الى صلاة العشاء ، كل ذلك والخاتون بجوارهم وفى غرفة تطل على الحاضرين ، وكانت الخاتون تعقد هذا المجلس العلمى دوريا كل ليلة اثنين فى ضريح احمد بن موسى الكاظم اخى على الرضا العلوى ، وتعقد أيضا مجلسا آخر كل ليلة جمعة فى ضريح آخر هو ضريح القطب ابى عبد الله بن خفيف بشيراز(١١٤) .

---

(١١١) ابن ايبك الدوادار : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٨٩ ، ٣٤٥ ، أبو الفدا ، ج ٤ ص ٩٩ ، ابن خلدون ج ٥ ص ١١٦٢ ، المقريزى : السلوك ج ١ ق ٣ ص ٩٥٤ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٣٨ ابن حجر : نفس المصدر ، ج ٣ ص ٤٦٨ .

(١١٢) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٥٥ .

(١١٣) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، م ٢ ج ١ ص ١٩٥ .

(١١٤) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

وقد بلغ من عمق العقيدة الاسلامية فى نفوس سلاطين مغول ايران انهم كانوا يذكرون اسماء الخلفاء الراشدين على منابر بلاهم فى خطبة الجمعة(١١٥)، بل ان عملتهم كانوا ينقشون عليها اسماء هؤلاء الخلفاء ما عدا فترة قليلة كان السلطان محمد خدا بنده قد تحول فيها الى مذهب الأئمة الاثنى عشرية ، فحلت أسماء الامام على بن ابى طالب وابنائه وبقية اسماء الأئمة الاثنى عشر محل اسماء الخلفاء الراشدين(١١٦) . ولم يلبث هذا السلطان نفسه أن عاد الى مذهب السنة وسار من اتى بعده من سلاطين المغول فى ايران على هذا النحو كما سيجىء فى حينه .

وقد ذكر هؤلاء السلاطين اسماء الخلفاء الراشدين فى خطبهم وعملتهم حتى يتجنبوا ذكر اسماء الخلفاء العباسيين الذين كانوا يعيشون فى القاهرة وقتذاك بعد سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م على يد هولاكو ، ويعود السبب فى ذلك الى علاقة العداء التى كانت قائمة بين مصر ومغول ايران لفترة طويلة منذ ذلك الحين ، والى العداء والكراهية التى كان يكنها الخلفاء العباسيون فى مصر لبيت هولاكو بالذات،وهو البيت الذى قضى على الخلافة العباسية فى بغداد وورث حكمها فى العراق ونفوذها الأدبى فى المشرق الاسلامى . وقد بذل الخليفة العباسى المستنصر بالله بمصر محاولة لاسترداد العراق بتشجيع من الظاهر بيبرس ، وذهب مع بعض الجند الى بلاد الشام وقصد بغداد عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م ولكن محاولته فشلت بعد أن تخلى عنه من كان معه من قليلى الجند عند اللقاء مع التتار قرب الأنبار ، وانتهت هذه المحاولة بهزيمته وموته ولم تتكرر بعد ذلك(١١٧) ، واستمر العداء بين العباسيين فى مصر وسلاطين مغول ايران مما دفع بهؤلاء السلاطين الى عدم ذكر اسماء

---

(١١٥) المصدر السابق ، ص ١٣٨ ، العينى : نفس المصدر ، جـ ٢٣ ق ١ ورقة ١٠٣ ، Howorth : op. cit., v. 3, p. 399.

(١١٦) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، م ٢ جـ ١ ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، العينى : نفس المصدر ، جـ ٢٣ ق ١ ورقة ١٠٣ ، ١٠٤
ibid : v. 3, p, 580

(١١٧) ابن كثير : نفس المصدر ، جـ ١٣ ص ٢٣٢ ، ابو شامة : نفس المصدر ، ص ٢١٤ ، المقريزى : نفس المصدر ، جـ ١ ق ٢ ص ٤٥٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٧ ، ميور : نفس المرجع ، ص ٤٣ .

العباسيين على منابر بلادهم ، كما ادى الى عطفهم على الشيعة ، بل ان احدهم اصبح شيعيا وحاول ان يصبغ الدولة كلها بهـذه الصبغة(١١٨) .

وهكاذ بلغ التحمس والانفعال بالاسلام درجة واضحة فى هذه الناحية وهو ظهور المذاهب المختلفة للسنة والشيعة عند مغول ايران . فالسـلطان محمود غازان (٦٩٤ — ٧٠٣هـ/١٢٩٥ — ١٣٠٤م) كان سنيا ولكنه كان لا يرغب أن يكون سلطانا للسنة وحدهم ، بمعنى انه لا يود ان يتحيز لهم ضـد غيرهم من اصحاب المذاهب الأخرى ، ولذلك فقد مد يد الصـداقة والعطف للشيعة وآل البيت ، فبنى منازل فى المدن الكبيرة مثل تبريز وأصفهان وشيراز وبغداد وغيرها لرعايتهم ، وخصص أوقافا خيرية للانفاق منها على الاشراف من آل على بن ابى طالب (رضى الله عنه) ، وأمر بمد قنوات مائيـة الى كربلاء ومشاهد الشيعة الأخرى بالعراق ، وقام بنفسه تكريما للشيعة بزيارة ملكية الى مشهد الحسين بن على (رضى الله عنهما) فى كربلاء ، وذهب غازان الى أبعد من ذلك عندما قرر ان النبى (صلى الله عليه وسلم) ظهر له فى المنام مرتين مصحوبا بعلى بن ابى طالب وابنيه الحسن والحسين حيث قدمهما له مخبرا اياه ان يعاملهما كاخـوة له ، وأمـره ان يسـلم عليهمـا ويعانقهمـا(١١٩) .

ولا شك أن هذه الرواية من وضع الشيعة الذين حاولوا اسـتمالة سلاطين المغول الى صفوفهم ضد أهل السنة ومذهبهم ، وهى محاولة كتب لها الفشل فى النهاية فى عهد السلطان اولجايتو محمد خدا بنده (٧٠٣ — ٧١٦هـ/١٣٠٤ — ١٣١٦م) ، وهو اخو السلطان السابق غازان ، وكان هذا السلطان الذى اشتهر باسم محمد خدا بنده قد اتبع المـذهب الحنفى بتاثير الأئمة الذين كانوا يحيطون به عندما كان واليا على خراسان أثناء حكم اخيه السلطان محمود غازان . ولما توفى غازان واعتلى اخوه محمد خـدا بنده عرش البلاد تحول الى المذهب الشافعى عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م بتأثير وزيره رشيد الدين فضل الله الهمدانى صاحب كتاب جامع التواريخ والذى كان يميل

---

(١١٨) ابن بطوطة : نفس المصـدر ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، شرف خان البدليسى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٢١ .

(119) Howorth : op. cit., v. 3, p. 453 ; Saunders : op. cit., p. 136.

الى هذا المذهب ويحمى اتباعه ويعمل على نشره . وقد تمكن هذا الوزير من ان يصدر قرارا بتعيين نظام الدين عبد الملك الشافعى المذهب قاضيا لقضاة ايران كلها ، مما رفعه فوق فقهاء الحنفية ، فقام احدهم بمناظرة هذا القاضى الشافعى ، وأخذ كل منهما يسفه الآخر ويعيب مذهبه فى حضور السلطان محمد خدا بنده ، مما كان له تأثير سيء فى نفس هذا السلطان ونفس ضباطه ، لدرجة انه تساءل لماذا ترك ديانة آبائه وأجداده الى هذه الديانة التى ينقسم اتباعها شيعا وفرقا تسفه كل واحدة منها الأخرى وتقبحها . وقد انتهز الكهنة الشامانيون هذه الفرصة واشاروا على السلطان بالتخلى عن عقيدة الاسلام ، ولكنه رفض ذلك واستجاب لمشورة احد امرائه الذى اشار عليه بأن يتحول الى مذهب الشيعة الامامية الاثنى عشرية . وقد استنكف السلطان فى البداية من أن يصبح رافضيا شيعيا يخالف اهل السنة والجماعة ، ولكن هـذا الأمير أو احد فقهاء مذهب الأئمة الاثنى عشرية وهو السيد تاج الدين الآوى الرافضى ، جعله يتحول الى هذا المذهب ، وقال احدهما او كلاهما له ان السنة والشيعة لا يختلفان الا فى ان الشيعة يقولون بوراثة الحكم فى آل على بن أبى طالب متفقين فى ذلك مع قوانين المغول فى مذهب توريث الحكم لآل جنكيز خان حسب الياساق ، وأن السنة يقولون بغير ذلك ويجيزون للناس من غير البيت الحاكم ان يتولوا الحكم مما يناقض قوانين المغول فى وراثة الحكم ، فاقتنع السلطان محمد خدا بنده وتحول الى مذهب الأئمة الاثنى عشرية منـذ عام ٧٠٧هـ/١٣٠٧م . يؤيد ذلك النقود التى ضربها هذا السلطان فى ذلك التاريخ ، فقد جاءت النقوش والكتابات المدونة عليها مخالفة للنقود التى سكت قبل ذلك والتى كانت تحمل أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة ، اما النقود التى ضربها بعد تشيعه فتذكر اسماء على وابنائه وبقية اسماء الائمة الاثنى عشر(١٢٠) .

ولم يكتف هذا السلطان بذلك بل أمر بتغيير صيغة خطبة الجمعة لتتفق مع مذهبه الشيعى الجديد ، وطلب من قواده واتباعه أن يسيروا على منهاجه ،

---

(١٢٠) ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ج ٩ ص ٣٤٦ ، شرف خان البدليسى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢١ ، العمرى : نفس المصـدر ، ج ١٦ ق ٣ ورقة ٦٨٦ ، الديار بكرى : نفس المصدر ج ٢ ص ٣٨١ ، النظامى عروضى السمرقندى : نفس المصدر ، حاشية ٢٧ ص ١١٢ ، ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، ابن خلدون : نفس المصدر ج ٥ ص ١٦٣
Howorth : op. cit., v. 3, pp. 557-559, 580.

فأطاعوه جميعا عدا القليل الذى صمم على البقاء على مذهبه(١٢١) ، وحاول هذا السلطان أيضا ان يحمل جميع رعاياه فى كافة الأمصار التابعة له على اتباع هذا المذهب وكتب بذلك الى العراقين وفارس واذربيجان واصفهان وكرمان وخراسان ، وسعت الرسل الى تلك البلاد لتنفيذ اوامره ، فامتنع اهل بغداد عن ذلك وهددوا خطيب المسجد بالموت ان غير فى شعائر الصلاة او حذف اسماء الخلفاء الراشدين من الخطبة ، وفعل مثل ذلك اهـل شـيراز وأصفهان ، فأمر السذلطان باستدعاء قضاة هذه البلاد كى يحاسبهم ويعاقبهم على عصيان اوامره . وكان قاضى بغداد هو « الشيخ الامام قطب الأوليـاء فريد الدهر ذو الكرامات الظاهرة مجد الدين اسماعيل بن محمد بن خداد » ، فأمر السلطان بالقائه طعمة لكلاب شرسة تأكل احمه كان يقتنيها هـذا السلطان لمثل هذه الأمور . فلما اطلقت الكلاب على ذلك القاضى « بصبصت اليه وحركت أذنابها بين يديه » ولم تنله بسوء . ولما علم السلطان بذلك خرج حافى القدمين واكب على رجلى القاضى يقبلهما ، واخذ بيده وخلع عليه جميع ما كان عليه من ثياب — وهى عادة عند المغول كانوا يفعلونها مع من يودون المبالغة فى تكريمه ورفع شانه — ثم قام السلطان وأدخله الى داره وامر نساءه بتعظيمه والتبرك به ، وتراجع السلطان عن مذهب الشيعة الامامية وكتب بذلك الى جميع انحاء دولته وامر الناس ان يسيروا على مذاهب اهـل السنة والجماعة ، وأجزل العطاء لذلك القاضى واعاده الى بلاده معززا مكرما واعطاه ضمن ما اعطاه مائة قرية من قرى جمكان ، والزم نفسه بزيارة قبـر الامام احمد بن حنبل فى بغداد اثناء الليل ، فكان يذهب الى هناك حيث يجلس ويبكى عند القبر ويستغفر ربه من الذنوب ويعود دون ان يشعر به أحد(١٢٢) .

وهكذا انتصر اهل السـنة والجمـاعة على الشـيعة وعاد المغـول

---

(١٢١) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣٧ ، ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ج ٩ ص ٢٠٦ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ابن حجر ، نفس المصدر ، ج ٣ ص ٤٦٨ ، ميور : نفس المرجع ، ج ٨١ ، ١٢٧ . Howorth : op. cit., v. 3, p. 559.

(١٢٢) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، ابن حجر : نفس المصدر ج ٣ ص ٤٦٨ ، العينى : نفس المصدر ، ج ٢٣ ق ١ ورقة ١٦ ، ١٧ ، ١٠٤ .

وسلاطينهم الى مذاهب السنة مرة اخرى ، واعلن السلطان ابو سعيد بهادر خان بمجرد توليه العرش بعد وفاة والده محمد خدا بنده عام ٧١٦هـ/١٣١٦م التزامه بمذهب ابى حنيفة ،وأحاط نفسه بفقهاء الحنفية ورجال الدين والمثقفين(١٢٣) . وأمر باراقة الخمور فى مدينة السلطانية — التى بناها ابوه واتخذها عاصمة للبلاد — وبغداد وغيرهما من مدن الدولة ، وأمر بالمناداة فى الناس بقتل اى انسان يوجد عنده شىء من الخمر ، ونفذ القتل فعلا فى رجلين بسبب ذلك ، كما امر بتزويج البغايا حتى يقضى على البغاء(١٢٤) .

ولم ينفعل المغول وسلاطينهم بالاسلام ومذاهبه وتقاليده على هذا النحو فقط ، بل ان بعضهم تحول الى حياة الصوفية بما فيها من زهد شديد وتقشف وورع بالغ . وقد بلغ الأمر بأحد امرائهم المتصوفين أنه كان يلبس تحت ثيابه ثوبا خشنا مصنوعا من شعر الماعز او وبر الجمال ، ولما ظن حراس السلطان ابى سعيد ان ذلك الثوب الداخلى الغليظ ربما يكون درعا وضعه ذلك الامير تحت ثيابه خيفة على نفسه من الاغتيال او التعرض لأى أذى ، وارادوا معرفة حقيقته فمسكوه من ثيابه على سبيل المزاح والمضاحكة ، ولما تبين لهم وللسلطان حقيقة امره قام اليه السلطان وعانقه وأجلسه الى جانبه وقال له : سن آطا ، اى (انت ابى) بالتركية ، واعطاه هدية قيمة(١٢٥) .

وقد بلغ من حب هذا الأمير المغولى الصوفى للاسلام انه تعلم اللغة العربية وكان يتكلم بها ، مما يدل على رغبة اكيدة فى تعلم علوم الدين ولغته(١٢٦) التى اعتنى بها المغول ، ولم يكن هذا الأمير المغولى هو الوحيد الذى تعلم العربية من بين امراء المغول وملوكهم ، فقد كان السلطان محمود غازان الذى جعل الاسلام الدين الرسمى للدولة يفهم اكثر ما يقال باللسان العربى بجانب المامه التام باللغة الفارسية . وكان تعلم اللغة العربية والفارسية ونسخ الكتب العربية وخاصة القرآن الكريم مزدهرا فى دولتهم

---

(١٢٣) العينى : نفس المصدر ، جـ ٢٣ ق ١ ورقة ١٠٧ ،
Howorth : op cit ., v. 3, p 624

(١٢٤) العمرى : نفس المصدر ، جـ ١٦ ق ٣ ورقة ٦٩١ ، ابن الوردى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، المقريزى : نفس المصدر جـ ٢ ق ٢ ص ٣٩٧ ، ٤٠٤ .

(١٢٥) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣١ .

(١٢٦) المصدر السابق ، ص ١٣٣ .

وعلى ايامهم حتى ان فن النسخ والتجليد والتذهيب وصل فى عهدهم الى ارقى مستوى ، يظهر ذلك من المصاحف الرائعة التى طلبها السلطان محمد خدا بنده من فنانى همدان وقاشان وبغداد والموصل(١٢٧) . كما أدت رعاية سلاطين المغول لعلوم الدين ولغته الى ازدهار كبير للثقافة الدينية والأدبية وخاصة فى عهد السلطان أبى سعيد بهادر خان (٧١٦ — ٧٣٦هـ/١٣١٦ — ١٣٣٥م) حيث ظهر فى عهده نوابغ الشعراء والأدباء واثنان من اشهر المؤرخين(١٢٨) أحدهما سبقت الاشارة اليه وهو رشيد الدين الهمدانى ، والثانى هو فخر الدين ابو سليمان عبدالله البناكتى صاحب كتاب فى التاريخ يسمى «روضة اولى الألباب »(١٢٩) . وذلك ليس بغريب اذ أن هذا السلطان تربى فى بيت يموج بالعلم ، اذ كان ابوه اولجايتو محمد خدا بنده يميل شخصيا الى البحث والاطلاع على انواع العلوم والمعارف والى الاستقصاء لفنون الحكايات والتواريخ ويمضى أكثر وقته فى اكتساب صنوف الفضائل والكمال(١٣٠) .

وقد أدى هذا الانفعال بالاسلام ومذاهبه وتقاليده ولغته وعلومه ان ظهر احترام سلاطين المغول الكبير لعلماء الاسلام وفقهائه ورجاله . فالسلطان محمد خدا بنده كان يعظم العلماء والفقهاء ويرفع منزلتهم فى مجلسه وأمام كبار رجال دولته ، فقد كان يجلس الشيخ صفى الدين الأردبيلى على يمينه على المائدة ، والشيخ علاء الدولة السنانى على يساره(١٣١) ، وما سلف من حديثنا عن تأثره بأحد فقهاء الشيعة الامامية ثم عودته الى السنة بعد أن رأى كرامة احد علمائها واظهاره الاحترام العظيم لهذا العالم حتى انه امر بادخاله الى نسائه للتبرك به ، وحتى انه قبل رجله واعاده الى بلده عزيزا مكرما لدليل كبير على مدى تغلغل الروح الدينية فى نفس هذا السلطان المغولى المسلم الذى رعى حرمة علماء الاسلام وأجزل لهم العطاء وعمل على نشر مؤلفاتهم حتى انه امر بأن تنسخ مؤلفات رشيد الدين فضل الله الهمدانى

---

(١٢٧) ابن حجر : نفس المصدر ، ج ٣ ص ٢٩٢ اربرى : نفس المرجع ، ص ١٨١ .

(128) Howorth : op. cit., v. 3, pp. 626-627.

(١٢٩) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، م ٢ ج ١ ص ١٢٦ .

(١٣٠) المصدر السابق : م ٢ ج ١ ص ١٩٤ .

(131) Howorth : op. cit., v. 3, p. 537.

فى التاريخ وغيره والتى كانت تقع فى عشرة مجلدات تشتمل على ثلاثة آلاف ورقة ، على نفقة الدولة ، وأمر بأن توضع هذه المؤلفات فى المسجد ، واعطى صاحبها مكافأة ضخمة(١٣٢) .

أما ابنه السلطان ابى سعيد فقد كان اكثر من ابيه رعاية واحتراما لفقهاء الاسلام ، وكان ولاته وكبار رجال دولته يسيرون على نفس هذا المنوال ويعطينا ابن بطوطة الذى زار هذه البلاد فى عهد هذا السلطان صورا حية تنطق بالاحترام الشديد الذى كان يحظى به فقهاء الاسلام وعلمائه فى هذا العهد . من ذلك ما حدث عندما وصل رسول السلطان ابى سعيد — وهو امير مغولى — لزيارة القاضى الشيخ مجد الدين بن محمد بن خداد فى شيراز وكان هذا الأمير قد قدم فى نحو خمسمائة فارس من مماليكه وخدمه واصحابه ، ونزل خارج شيراز ثم دخلها فى خمسة من رجاله فقط ، ولما وصل الى منزل ذلك القاضى ، دخل اليه وحده منفردا تأدبا واحتراما . ولما رآه خلع « شاشيته »(١٣٣) عن رأسه وأكب على رجل القاضى يقبلها وجلس بين يديه ممسكا بأذن نفسه احتراما لذلك القاضى على عادة المغول(١٣٤) وقد فعل نفس الشيء ملك شيراز ابو اسحاق بن محمد شاه ينجو ،ورأى ذلك ابن بطوطة بنفسه عندما كان فى زيارة لهذا الشيخ عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م بعد عودته من بلاد الهند ، ووصف لنا هذا الملك المغولى وقال عنه أنه كان من خيار الحكام والسلاطين ، وأنه كان حسن الصورة والسيرة والهيئة ، كريم النفس جميل الأخلاق متواضعا(١٣٥) . وهى صورة تغاير تماما ما عرفناه عن صورة المغولى الذى رأيناه يخرب ويدمر امام جنكيز خان وهولاكو . ولا شك ان هذا التغيير لا يعود الا لتسرب الاسلام وحضارته بروحها وتقاليدها الى عقول وقلوب هؤلاء المغول ، فبالغوا فى احترام فقهاء الاسلام وأعلوا مكانة علمائه على هذا النحو الذى اشرنا اليه ، كما أنهم أكثروا من بناء المنشآت الدينية حفاظا عليه ورعاية لعلومه وفنونه .

---

(132) Ibid : v. 3, p. 561.

(١٣٣) الشاشية او الشاش هو ما يلف حول غطاء الرأس من قماش رقيق ، انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٤٢٧ .

(١٣٤) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٣٧ .

(١٣٥) المصدر السابق ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

واكثار مغول ايران من المنشآت الدينية والعلمية الاسلامية ظاهرة جديرة بالتسجيل ولها دلالتها المعبرة عن مدى انفعالهم بالاسلام وتقاليده . فالسلطان محمود غازان يبنى الكثير من المدارس والمساجد والحمامات فى جميع أنحاء دولته وخاصة فى القرى والنواحى الخالية من هذه المنشئات ، كما بنى جامعا ومدرسة بجانب القبة التى انشأها فى دار السلطنة بتبريز لتكون ضريحا له(١٣٦) . وقد زار ابن بطوطة هذا الضريح ووجد عليه مدرسة وزاوية يقدم فيها الطعام للوارد والصادر من الناس(١٣٧) . كما امر غازان بتخصيص كثير من الأوقاف لتزويد المؤسسات التى امر بانشائها بالأثاث والأوانى والمصابيح والأخشاب وكافة النفقات الضرورية المتنوعة ، كما خصص اوقافا أخرى لرعاية مائة من الصبيان الذين كانوا يتعلمون القرآن الكريم ويحفظونه عن ظهر قلب ، وخصص اوقافا اخرى للصرف على المحتاجين والاقطاء وغيرهم ، وحرر بذلك سبع وثائق حفظت واحدة منها عند ناظر الوقف فى تبريز وأرسلت واحدة لتحفظ فى الكعبة بمكة المكرمة ، وثالثة حفظت فى الأرشيف بتبريز ، ورابعة فى دار القضاء ببغداد ، وارسلت الوثائق الثلاث الباقيات لتحفظ فى سائر الولايات ، وعين رشيد الدين بن فضل الله الهمدانى لمراقبة تنفيذ ذلك(١٣٨) .

وقد سار الوزراء ورجال الدولة على سياسة غازان فى الاكثار من انشاء المساجد والمدارس سواء فى تبريز ام فى غيرها من النواحى واوقفوا عليها الأوقاف ، مما مكن الناس من اقامة الشعائر الدينية فى القرى التى كانت تخلوا من هذه المنشئات(١٣٩) فالوزير الختلانى على شاه — على سبيل المثال — بنى جامعا كبيرا فى تبريز كان ارتفاع جداره الأمامى ثمانين ذراعا . وقد زار ابن بطوطة هذا المسجد الجامع عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م ، ورأى على جانبيه مدرسة وزاويةوقال ان صحن هذا المسجد كان مفروشا بالمرمر وجدرانه

---

(١٣٦) شرف خان البدليسى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ١٧ ،
Howorth : op. cit., v. 3, p. 453.

(١٣٧) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٥٦ .

(138) Howorth : op. cit., v. 3 ,pp. 451-452 ;
Saunders : op. cit., p. 137.

(١٣٩) مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ٣٦ — ٣٧ ،
Howorth : op. cit., v. 3, p. 453

مكسوة بالقيشانى ، ويشقه نهر ماء ، وبه انواع الأشجار المختلفة ، وان القراء كانوا يقومون بقراءة بعض سور القرآن الكريم عقب صلاة العصر فى صحن هذا المسجد كل يوم ، ويجتمع لذلك اهل هذه المدينة(١٤٠) .

ونتيجة لكثرة الانشاءات التى أمر السلطان محمود غازان ورجاله بانشائها وخاصة فى تبريز ، فقد تحولت هذه المدينة لتصبح عاصمة كبرى جميلة مزدحمة بالمساجد والأسواق والحمامات والمدارس تحيط بها الحدائق والخانات ، ويتبعها كثير من الأوقاف الخيرية سواء كانت اراضى زراعية أخذ الفلاحون فى اصلاحها وزراعتها نظير اعفائهم من الضرائب خلال السنة الأولى من عملهم فيها ، ام بنايات ومؤسسات رصدت لها الأموال اللازمة لتجديدها أو انشائها من جديد ، كما اخذت تبريز تزدان بالطرق النظيفة والكبارى التى تسهل الدخول والخروج منها ، حتى اصبحت قبلة الناس وقبلة العلماء والتجار ، وتحولت الى مركز من مراكز الثقافة الاسلامية البارزة فى دولة مغول ايران(١٤١) .

وقد سار السلطان محمد خدا بنده على نهج اخيه محمود غازان فى هذا الميدان ، فاكثر من بناء المدارس وعين فيها الأساتذة والمدرسين ، فبنى قرب مقبرته مدرسة عين فيها ستة عشر أستاذا ، وكان يتعلم فيها مائتان من الطلاب(١٤٢) . كما امر هذا السلطان بأن تصرف اموال الأوقاف حسب ارادة أصحابها دون ان ياخذ الموظفون العشر من ريعها كما كان متبعا من قبل(١٤٣) ، كما بنى عاصمة جديدة للدولة بين قزوين وهمدان عام ٧١٣هـ/ ١٣١٣م وسماها السلطانية . وقد ازدحمت العاصمة المغولية الجديدة بالكثير من القصور والمساجد والمدارس والمستشفيات التى كانت مزودة بالأطباء والأدوية وما يحتاجه المرضى ، كما بنى فيها مسجدا جامعا على نفقته الخاصة ومدرسة على نمط المدرسة المستنصرية فى بغداد ، وتنافس الأمراء وكبار رجال الدولة فى بناء المنازل الجميلة بتلك المدينة ، حتى ان احد احيائها كان

---

(١٤٠) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٥٦ ،

(141) Howorth : op. cit., v. 3, p. 542 ; Saunders : op cit., p. 137.

(142) Howorth : op. çit., v. 3, p. 559.

(143) Ibid : op. cit., v. 3, p. 536.

يحتوى على عشرة آلاف منزل مبنية على نفقة الوزير رشيد الدين خاصة ؛ وكان السلطان محمد خدا بنده ينفق خمسين تومانا كل عام فى بناء هذه المدينة ، مما يدل دلالة مؤكدة على نهضة عمرانية اسلامية كبيرة حدثت فى عهد هذا السلطان ، واصبحت مدينة السلطانية التى بناها تمثل احد مراكز الثقافة الاسلامية الهامة سواء فى نشر هذه الثقافة أم فى نشر الاسلام ذاته ، فقد تحول اليه عدد كبير من الأطباء اليهود الذين كانوا يعملون بها ، كما تحول اليه عدد من المغول الذين كانوا لا يزالون على الشامانية او البوذية(١٤٤) .

وقد ازدادت هذه الحركة نشاطا وقوة فى عهد السلطان ابى سعيد ومن اتى بعده من حكام المغول ، وضرب الوزراء والخواتين وحكام الأقاليم بسهم وافر فى هذا الميدان . مثال ذلك طاش خاتون ام الأمير ابى اسحاق حاكم شيراز التى قامت ببناء مدرسة كبيرة وزاوية كانت تقدم الطعام للواردين على شيراز ، كما خصصت الرواتب للمدرسين والفقهاء والطلاب ، وكانت تعقد فيها مجالس العلم وقراءة القرآن بطريقة دورية ومنتظمة ، وكانت تدق لها الطبول والأنفار والبوقات عند حضورها لسماع هذه المجالس كما كان يفعل مع الملوك والسلاطين(١٤٥) . وقد بلغ من تحمس امراء المغول فى بناء الزوايا والمساجد والمدارس ان واحدا منهم عمر وحده اربعمائة وستين زاوية وقسم خراج بلاده ثلاثة اقسام ، قسم ينفق منه على تلك الزوايا والمدارس — ويلاحظ ان الزاوية كانت تسمى ايضا باسم مدرسة فى ذلك العهد — وقسم ثان يخصص لرواتب الجند ، والقسم الثالث يخصص لنفقته وأسرته وعبيده وخدمه ، ويهدى منه لسلطان المغول فى تبريز(١٤٦) .

وقد برزت فى هذه الفترة مدينة شيراز كمركز هام من مراكز الثقافة

---

(١٤٤) شرف خان البدليسى : نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٠ ، رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ١٦٦ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٦٣ ، المقريزى : نفس المصدر ، ج ٢ ق ٢ ص ٣٩٠ ، ابن حجر : نفس المصدر ، ج ٣ ص ٤٦٨ .

Howorth : op. cit., v. 3, pp. 537, 560, 501, 582.

Saunders : op. cit., p. 143-144

(١٤٥) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٤٢ .

(١٤٦) المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

الاسلامية حتى انها كانت تنافس مدينة دمشق فى حسن اسواقها وبساتينها وانهارها ، وتقوى اهلها وصلاحهم وورعهم وتدينهم وعلمهم ، حتى ان نساءها كن يجتمعن لسماع دروس الوعظ والارشاد كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالمسجد الجامع فى اعداد كبيرة تصل الى الألف والألفين بأيديهن المراوح تروحن بها على انفسهن من شدة الحر(١٤٧) ، مما يدل على نهضة اسلامية كبيرة فى فترة الحكم المغولى لايران . وقد اضربنا صفحا عن ذكر اسماء العلماء والفقهاء والكتاب والأدباء والمؤرخين الذين ازدانت بهم مراكز الثقافة الاسلامية فى هذا العهد نظرا لكثرتهم من ناحية ، ونظرا لتوافر ذلك فى كتب الأدب والتاريخ القديمة والحديثة،ولأن هذه البلاد من البلاد الاسلامية العريقة التى ضربت بسهم وافر وعظيم فى مجال الثقافة الاسلامية قبل ظهور المغول بعصور طويلة ، فلا حاجة للحديث عنها ، بخلاف بلاد القفجاق التى أنشأ فيها المغول مراكز عديدة للثقافة الاسلامية وظهر فيها علماء لم نسمع عنهم من قبل ، وحركة اسلامية وليدة كان من المستحسن ان نتحدث عنها فى شىء من التفصيل وقد فعلنا .

اما وقد انتهينا من الحديث عن جوانب هامة من جوانب الحياة الاسلامية ومظاهرها فى حياة مغول ايران ، فلا بد لنا أن نتحدث عن بعض الجوانب الأخرى المتبقية ، وهى تتلخص فيما حرصوا عليه من تأديتهم لفريضة الحج ، وما قاموا به من اتصال بالدول الاسلامية المجاورة وخاصة مصر .
اما الحج فقد كان السلطان محمود غازان من اوائل السلاطين الذين سهلوا السبل لأداء هذه الفريضة وساعدوا الناس على ادائها ، فقد خصص مبالغ كبيرة للانفاق منها على الحجاج وعلى قوافل الحج التى انتظمت فى عهده بين ايران وبلاد الحجاز ، وعين اميرا خاصا على راس فرقة عسكرية لحراسة هذه القوافل حتى تبلغ مأمنها ، كما ارسل كسوة للكعبة مطرزة بألقاب هذا السلطان ، كما ارسل أثنى عشر تومانا من الذهب لمشايخ العرب فى مكة والمدينة المنورة(١٤٨) .

---

(١٤٧) المصدر السابق ، ص ١٣٦ .
(١٤٨) مصطفى بدر : نفس المرجع ، ص ٣٦ — ٣٨ ، ٤٦—٤٨ ،
Howorth : op cit., v. 3, p. 530.

وقد أدى اهتمام هذا السلطان بطرق الحج وقوافله على هذا النحو الى ازدياد حرص المغول على اداء هذه الفريضة رغم بعد الشقة والمسافة كما حرص بعضهم على بناء مقابر يدفن فيها عند موته تبركا بهذه البلاد المقدسة ، كما حرص آخرون على توجيه كثير من اعمال البر والخير الى هذه البلاد . مثال ذاك الأمير جوبان نائب السلطان ابى سعيد وقائد جيشه ، فقد حرص هذا الأمير المغولى الكبير على تزويد مكة بالماء العذب على حسابه الخاص ، كما أمر ببناء مقبرة يدفن فيها بعد موته فى المدينة المنورة ، ولما توفى جىء بجثمانه ووقف به حاملوه على جبل عرفات للتبرك وطلب الغفران ، ثم حمل الجثمان الى المدينة المنورة ليدفن فى مقبرة الجوبانية التى اتخذها جوبان بالقرب من مسجد الرسول (صلى الله عايه وسلم) ، ولكن القدر شاء أن يدفن فى مقابر البقيع لاعتراض أمير المدينة على دفنه فى مقبرته لعدم وصول اوامر السلطان الناصر محمد بن قلاون بذلك(١٤٩) .

ومثال ذلك ايضا الخاتون قطلو بنت ابغا بن هولاكو التى حرصت على اداء هذه الفريضة هى وجماعة كبيرة من « قرابة السلطان ابى سعيد » بعد عقد اواصر المودة والصلح بين هذا السلطان وبين سلطان مصر الملك الناصر محمد بن قلاون عام ٧٢٣هـ/١٣٢٣م . وقد وصلت هذه الخاتون المغولية الى بلاد الحجاز مع عدد كبير من المغول كانوا فى خدمتها ، وبعد أن رتب لها السلطان ابو سعيد الاقامات الوافرة فى الطريق من سلطانية حتى بلاد الحجاز(١٥٠) ، كما وصل الى هذه البلاد فى عهد هذا السلطان محمل سلطانى محلى بالذهب والجوهر الذى قوم ثمنه بأزيد من مائتى الف دينار مصرية ، واصبح توافد الحجاج من مغول ايران امرا مألوفا منذ ذلك الحين حتى وصف العمرى هذا السلطان بأنه « صاحب دين وعدل »(١٥١) .

ولا شك ان توافد حجاج مغول ايران على هذا النحو لدليل على مدى

---

(١٤٩) العمرى : نفس المصدر ، جـ١٦ ق ٣ ورقة ٦٩٦ ، ٦٩٩ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٥ ص ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٧ ص ٢٧٣ .

(١٥٠) ابن ايبك الدواداري : نفس المصدر ، جـ ٩ ص ٣١٢ ، ابو الفدا : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٩٥ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٥ ص ١١٦٥ .

(١٥١) العمرى : نفس المصدر ، جـ ١٦ ق ٣ ورقة ٦٩١ ، ٧٠٤ .

انفعالهم بالاسلام وحرصهم على اداء شعائره ، كما انه لا بد ان يدفع فيهم روح الحياة الإسلامية دفعا قويا يجعلهم يحسون بانتمائهم الى عالم الاسلام والى ضرورة تأكيد صلتهم به وحسن علاقتهم بأهله . وقد برزت هذه الناحية فى تحول عداء مغول ايران نحو سلاطين مصر الى صداقة ومودة ومحبة . وكانت محاولات الصلح قد جرت بين تبريز والقاهرة عقب وفاة السلطان غازان عام ٧٠٣هـ/١٣٠٣م فقد ارسل اخوه السلطان محمد خدا بنده رسله الى مصر عقب توليه الحكم مباشرة يطلب السلام بين اهل العقيدة الواحدة فى البلدين ، وانتقد سياسة اخيه العدائية تجاه مصر والشام لأنها تسببت فى خراب البلاد ، وأن ذلك لم يكن برضاه ولا برضا أمراء المغول(١٥٢) .

ويبدو ان محمد خدا بنده لم يكن صادق النية تماما فى طلب الصلح فى البداية ، لأنه كان قد احس باتفاق سلطان مغول القفجاق والناصر محمد بن قلاون على قتاله واقتسام مملكته ، فأراد ان يكفى نفسه مئونة مواجهة القوتين فى وقت واحد فحاول الصلح مع الناصر محمد(١٥٣) ، وأرسل فى نفس الوقت الى البابا كليمنت الخامس وملوك انجلترا وفرنسا يطلب منهم المساعدة فى احتلال الشام ، غير انهم لم يكترثوا به لأن احوالهم الداخلية لم تكن تسمح لهم بذلك(١٥٤) ، وثانيا لأنه فتح بلاده لأمراء المماليك الفارين من بلاد الشام عام ٧١١هـ/١٣١١م خيفة على أنفسهم من سطوة الملك الناصر محمد ابن قلاون(١٥٥) . والواقع ان القاهرة وتبريز فتحت كل منها ابوابها للأمراء الفارين من كلا البلدين الى الأخرى ، وكان هذا من عوامل سوء العلاقات بينهما .

وقد كان لهؤلاء المماليك الفارين الى تبريز فى عهد السلطان محمد خدا بنده وخاصة الأمير قراسنقر والأمير الأفرم اثر كبير فى تحديث دولة المغول

---

(١٥٢) ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ١٢٧ ، المقريزى: نفس المصدر ، ج ١ ق ٣ ص ٩٥٤ .
(١٥٣) ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ١٢٧ ، ١٢٨
(١٥٤) فايد حماد عاشور : نفس المرجع ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ ، ميور : نفس المرجع ، ص ٨١ .
(١٥٥) ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٣٣ ، ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٣٦ .

بايران وترقية امورها واصلاح أحوالها ، مما يبين ان مصر كان لهـا تأثيرها الحضارى فى دولة مغول ايران حتى عندما كانت العلاقات بينهما تتسم بالعداء، فقد قام الأمير قراسنقر بترتيب ادارات الدولة ، ونظم طرق جباية الأمـوال والضرائب المختلفة ، ورتب الممالك والأقاليم التابعة لتبريز « ترتيب ممالك الاسلام فى جميع آلات الملك » ، ونظم امور القصور الملكية وجعل الحياة فيها وما يقدم للخوانين والخواتين من الطعام وأنواعه وطريقة تقديمه حسبما كان موجودا ومتبعـا فى بلاط سـلاطين مصر ، ورتب للخـواتين والأمراء الاقطاعات ونظم لهم جباية المال ، وعمل كل مافى وسعه لاستجلاب المسرة الى نفوسهم ، حتى انه امر بأن « تصاغ للخواتين المصاغات المفتخرة وعمل لهن من البدلات الزركش وفصل لهن القماش العالى ، حتى اخذ بعقول كبارهم وصغارهم » ، وحتى القى اليه السلطان خدا بنده بمقاليد الأمـور وقال له « قد فوضت اليك جميع امر مملكتى ، افعل ما تراه من المصلحة »(١٥٦) . وهذا الدور الذى قام به هذا الأمير المملوكى المصرى فى بلاط تبريز يشبه الى حد كبير ما قام به بعض امراء المماليك وبعض اقباط مصر الذين فروا الى بلاد الحبشة النصرانية خوفا من بطش سلاطينها وادوا لملك الحبشة اسحاق بن داود (٨١٧ — ٨٣٣هـ/١٤١٤ — ١٤٢٩م) خدمات جليلة فى تنظيم امور دولته وترقية شئونها العسكرية والادارية والمالية(١٥٧) .

ورغم ان وجود قراسنقر فى تبريز قد ادى الى استمرار سوء العلاقات بينها وبين القاهرة ، الا أن ذلك انتهى بمجرد وفاة السلطان محمد خدا بنده وقيام ابنه ابى سعيد فى حكم البلاد (٧١٦ — ٧٣٦هـ/١٣١٦ — ١٣٣٥م) ، فقد عقد الصلح بينه وبين سلطان مصر الناصر محمد بن قلاون عام ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م ، وفتحت بلاد الحجاز ابوابها للحجاج من مغول ايـران وغيرهم من سكانها ، ودعى على منابر مكة للسلطان ابى سعيد بعد الملك الناصر محمد ، وازدادت العلاقات توطيدا بينهما عندما أرسل ابو سعيد الى الملك النـاصر محمد عام ٧٢٩هـ/١٣٢٩م يطلب مصاهرته بزواجه من احدى بنات النـاصر

---

(١٥٦) ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ، ج ٩ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

(١٥٧) المقريزى : الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، ص ٤ ، ٥ ، رجب عبد الحليم : العلاقات السياسية بين مسـلمى الزيلع ونصارى الحبشة فى العصور الوسطى ، ص ٨٧ .

محمد ، وكرر هذا الطلب فى سفارة اخرى ارسلها الى مصر عام ٧٣٢هـ/١٣٣٢م(١٥٨) .

وقد بلغ الود بين هذين السلطانين مبلغا جعل السلطان ابا سعيد يخبر الناصر محمد بمشاكله الداخلية ، فارسل له فى عام ٧٢٨هـ/١٣٢٨م يخبره بما حدث بينه وبين الأمير المغولى جوبان الذى كانت له اليد العليا فى تسيير شئون الدولة ، ويبشره « بهرب هذا الأمير الطموح ونصرته عليه واستقراره فى الملك وانه يقيم على الصلح والمحبة »(١٥٩) . ولما قبض هذا السلطان على جوبان ارسل الى الناصر محمد كتابا يستشيره فى أمره ، وأرسل اليه الناصر محمد يشفع فى امر دمرداش بن جوبان الذى كان قد فر اليه عقب مقتل أبيه(١٦٠) . كما ان السلطان ابا سعيد تأثر بسياسة الملك الناصر محمد تجاه اهل الذمة فى فترة معينة من فترات حكمه ، فألزم ابو سعيد النصارى فى بغداد عام ٧٣٥هـ/١٣٣٥م ان يلبسوا العمائم الزرقاء ، واليهود العمائم الصفراء (١٦١) ، مما يذهب دليلا على تأثير مصر فى سياسة مغول ايران فى هذه الفترة حتى قال فى ذلك صاحب النجوم الزاهرة « وأما ابو سعيد ملك التتار فكانت الرسل لا تنقطع بينهما ويسمى كل منهما الاخر اخاه ، وكانت الكلمتان ومراسيم الملك الناصر تنفذ فى بلاد ابى سعيد ، ورسله يتوجهون اليه باطلابهم وطلبخاناتهم وأعلامهم المنشورة »(١٦٢) . وكانت الرسل تترى بينهما طوال عهديهما محملين بالهدايا الفخمة والتحف المتنوعة لتزيد من اواصر المودة والصداقة والأخوة الاسلامية التى جمعت بين هذين البيتين وذلك المصرين الاسلاميين(١٦٣) .

---

(١٥٨) ابن ايبك الدوادارى : نفس المصدر ، جـ ٩ ص ٣١٢ ، ابن خلدون :نفس المصدر ، جـ ٥ ص ١١٦٥ — ١١٦٦ ، المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ق ١ ص ٢١١ ، جـ ٢ ص ٣١١ ، ٣٤٤ .

(١٥٩) ابو الفدا : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٩٢ — ٩٥، ١٠٠ .

(١٦٠) المقريزى : نفس المصدر ، جـ ٢ ق ١ ص ٢٩٥ .

(١٦١) المصدر السابق ، جـ ٢ ق ٢ ص ٣٧٥ .

(١٦٢) ابو المحاسن : نفس المصدر ، جـ ٩ ص ٢١١ .

(١٦٣) ابن أيبك الدوادارى : نفس المصدر ، جـ٩ ص٣٨١ ، القلقشندى نفس المصدر ، جـ ٧ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

وهكذا اكتملت المظاهر والتقاليد الاسلامية فى حياة المغول وسلاطينهم فى ايران وآسيا الصغرى والعراق ، وانتهى الأمر باندماجهم فى اهالى هذه البلاد وتخلوا عن لسانهم المغولى الى اللسان التركى والفارسى وأصبحوا يكونون مع الايرانيين واهل آسيا الصغرى احد شعوب العالم الاسلامى . وبذلك حقق الاسلام نصره الثانى على مغول ايران بعد ان حقق نصره الأول على مغول بلاد القفجاق ، أما البوذية فقد انتهى نفوذها تماما فى ايران وفقدت المسيحية النسطورية كل قوتها وتحول غالبية معتنقيها الى الاســـلام وانسلت البقية الباقية منهم الى المناطق الجبلية فى اعالى نهر دجلة واســـتقروا فى ارمينيا ولم يتأخر هذا الانتصار الرائع الذى حققه الاسلام على مغول ايران احفاد هولاكو وجنكيز خان أكثر من ثمانية وثلاثين عاما بعد قضاء هولاكو على الخلافة العباسية فى بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، فيا له من انتصار ، وما أروعه من نصر ! .

الفصل الخامس

تحول مغول آسيا الوسطى الى الاسلام

أول ما نلفت النظر اليه فى هذا الحديث هو اننا نقصد بآسيا الوسطى تلك البلاد التى تتوسط تلك القارة والتى تشمل على وجه التحديد تركستان وبلاد ما وراء النهر وغزنة . فقد تكونت من هذه الممالك الثلاث الايلخانية المغولية الثالثة التى أوصى جنكيزخان بأن تكون من نصيب ثانى أولاده جغطاى ، ولذلك اشتهر سكانها مغولا وغير مغول باسم جغطاى وقيل لهم الجغطائيين ، وبقى فيهم هذا الاسم الى وقت قريب ، وعرفت بلادهم باسم بلاد جغطاى كما عرفت بلاد مغول القفجاق باسم بلاد بركة نسبة الى ثانى خوانينهم بركة خان (١) ، كما عرفت ايلخانية جغطاى ايضا باسم مملكة ما وراء النهر (٢) . وقد آثرنا أن نشير اليها باسم ايلخانية آسيا الوسطى لأن هذا الاسم أكثر دلالة على هذه الايلخانية من غيره من الأسماء ، لأنها كانت تنقسم فى بعض الأحيان الى أجزاء عديدة ، وكان فى كل جزء منها حاكم مغولى ينافس الآخر ، واحيانا كانت تتحد فى دولة واحدة ، وكذلك فان تعبير « ايلخانية آسيا الوسطى » يعنى هذه البلاد كلها سواء كانت متحدة فى دولة واحدة أم منقسمة الى عدد من الدويلات والأقاليم المتنافسة .

أما الأقاليم التى تكونت منها هذه الايلخانية المغولية فهى كما أشرنا ثلاث : تركستان وبلاد ما وراء النهر وغزنة . والبلد الأخير وهو غزنة بلد معروف ويشكل جزءا مما يعرف بدولة أفغانستان ، وكانت هذه البلاد أقصد غزنة وما يحيط بها مقرا لدول اسلامية زاهرة كالدولة الغزنوية (٣٥١ — ٥٥٥ هـ / ٩٦١ — ١١٦٠ م) ثم الدولة الغورية (٥٥٥ — ٦١٢ هـ / ١١٦٠ —

---

(١) العمرى : التعريف ، ص ٤٥ ، الرمزى : نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٦٠ .

(٢) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٤٩ .

١٢١٥م) ثم استولى عليها الخوارزميون بضع سنوات حتى جاء جنكيزخان وضمها لمملكته عام ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م (٣) .

اما بلاد ما وراء النهر فهى البلاد التى تقع خلف نهر جيحون (أموداريا الآن) وتشتمل على أراض واسعة ومدن كثيرة أهمها بخارى وسمرقند والسغد وفرغانة وكش ونخشب وخجندة وترمذ والصغانيان وغيرها ، وكلها الآن جزء مما يسمى بجمهورية أزبكستان السوفيتية الاشتراكية ، وكان الاسلام قد دخل هذه البلاد ، اقصد بلاد ما وراء النهر ، منذ عهد الفتوحات الاسلامية الأولى فى عهد الخلفاء الراشدين ثم فى عهد خلفاء بنى أمية ، وتم اسلامها فى العصر العباسى الأول ، وقامت فيها دول اسلامية زاهرة مثل الدولة السامانية (٢٠٤ — ٣٨٩ هـ / ٨١٩ — ٩٩٩م) ، ثم دولة السلاجقة (٤٨٢ — ٥٣٦هـ / ١٠٨٩ — ١١٤١م) ، ثم الغز المسلمون وملوك خوارزم حتى استولى عليها جنكيزخان عام ٦١٦هـ / ١٢١٩م) (٤) .

أما بلاد تركستان او بلاد الأويغور ، فهى بلاد واسعة منسوبة لشعبها من الترك ، والأيغور احدى قبائل هذا الشعب ، وكانت هى الأخرى تشتمل على كثير من المدن الهامة مثل فاراب وكاشغر وختن وجند واسفيجاب وطراز والماليق وغيرها ، وقد أضاف القلقشندى الى هذه الأقاليم الثلاثة اقليمى طخارستان وبذخشان (٥) ، وكان الاسلام قد دخل هذه البلاد ايضا قبل الغزو المغولى لها بفترة كبيرة ، وذلك أن الأويغور وهم قبيلة تركية انفصلت عن جموع البدو الرئيسية التى تمثل الجنس التركى واتخذت موطنا لها عند سفوح جبال تيان شان حيث تمكن ايليك خان من توحيدهم واستولى بهم على بلاد ما وراء النهر من يد السامانيين عام ٣٨٩هـ / ٩٩٩م (٦) ، ثم أتى من بعده بغراخان الذى اشتهر بجهاده لغير المسلمين ، وتمكن من أن يحمل الوفا من البوذيين والمسيحيين على الدخول فى الاسلام واتخذ مدينة كاشغر عاصمة له (٧) ، ويقول ياقوت الحموى الذى توفى عام ٦٢٦ هـ / ١٢٣٠م أن

---

(٣) المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ .
(٤) المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٤٤٦ ، ٤٤٧ .
(٥) المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٤٣٩ — ٤٤٣ .
(٦) المصدر السابق ، جـ ٤ ص ٤٤٧ .
(٧) فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٢٠ .

مدينة كاشغر مدينة اسلامية وأن أهلها مسلمون ، ومنها انتشر الاسلام فى بلاد تركستان حتى نهر ايرتش وجبال التاى من ناحية الشرق ، واصبحت هذه البلاد تزخر بالعديد من المساجد والمدارس والخوانق والربط والزوايا ، وكثرت بها الأوقاف وانتشر فيها العلماء وطلاب العلم . ومنها انتشر الاسلام فى بعض نواحى التبت ومنغوليا والمدن الصينية المجاورة لتركستان الصينية (٨) .

واذا نظرنا الى ايلخانية آسيا الوسطى نجد انها كانت تشكل حلقة الاتصال بين ممالك المغول الأخرى ، ففى شرقها كانت تقع خانية مغول الصين والخطا حيث مقر الخان الأعظم فى قراقورم ، وفى غربيها وشمالها كانت تقع خانية مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق (بلاد بركة خان) ، وفى جنوبها كانت تقع بلاد الهند والتبت وايلخانية مغول فارس التى فضلنا ان نطلق عليها ايلخانية ايران ، وهى بلاد هولاكو وأبنائه (٩) .

وهكذا كانت ايلخانية مغول آسيا الوسطى محاطة من معظم نواحيها بدول اسلامية ، وكان شعبها يعتنق معظمه دين الاسلام ، وكانت موئلا للكثير من العلماء والفقهاء والأصوليين ، ورغم ذلك فقد أتى اسلام مغول هذه البلاد فى نهاية المطاف بعد أن أسلم مغول القفجاق ومغول ايران ، وذلك يرجع فى نظرى الى أن هذه البلاد كانت مجاورة لخانية المغول الأعظم فى بلاد الصين حيث تسود البوذية والشامانية ديانة المغول الأولى ، بل أن عاصمتها — اى عاصمة ايلخانية آسيا الوسطى — كانت فى البداية هى مدينة الماليق . وهى مدينة لم يكن الاسلام قد انتشر فيها كثيرا ، نظرا لأنها كانت تقع فى اقصى الشرق من تركستان حيث كان يحكم الخطا البوذيون (١٠) .

هذا سبب ، والسبب الثانى هو موقعها المتوسط بين خانيات المغول وممالكهم ، فقد جعلها هذا الموقع بؤرة للصراع والتنافس الذى قام بين هذه الخانيات لضمها أو ضم أجزاء منها ، فتعرضت لمحاولات بيت أوكتاى ، وهو

---

(٨) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، حـ ٤ ص ٤٣٠ .
القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٣٠ .
عبد العزيز جنكيزخان : نفس المرجع ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .
(٩) القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٣٠ ، ٤٣١ ، عبد العزيز جنكيزخان : نفس المرجع ص ١٤
(١٠) القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٢٩ .

البيت الحاكم فى قراقورم لتأسيس حكم لهم فى تركستان بالذات ، كما تعرضت لأطماع خوانين القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق ، مما أدى الى كثرة النزاع حول العرش والى تعدد الحكام وكثرتهم والى تناقص مدة حكم كل منهم ، مما أدى الى عدم الاستقرار السياسى ، وهذا بدوره ترك اثره الكبير على حياة البلاد وعلى اقتصادها ، وعلى أمنها حتى هدد لصوص البدو أمن التجار وطرق التجارة التى كانت تمر بوسط آسيا (١١) ، فى الوقت الذى لم تكن فيه هذه البلاد قد أفاقت بعد من الضربة العنيفة التى كان جنكيزخان قد وجهها اليها عند غزوه لها . فقد كانت هذه البلاد أول ما واجه الموجة الأولى من موجات الغزو المغولى ، وكانت موجه عاتية مدمرة أطاحت بالأخضر واليابس فأقفرت الأرض من سكانها « ولم يبق من معالمها الا رسوم دائرة وأطلال ناتئة » . وخاصة فى تركستان (١٢) ، أما فى بلاد ما وراء النهر فقد كانت حالتها لا تختلف كثيرا عن حالة تركستان وظلت كذلك مدة طويلة حتى زارها ابن بطوطة بعد حوالى قرن من غزو المغول لها وقال عن بخارى أن « مساجدها وأسواقها خربة الا القليل ، وأهلها أذلاء لا تقبل شهادتهم بخوارزم وغيرها ، وليس بها اليوم من الناس من يعلم شيئا من العلم ولا من له عناية به » (١٣)، وأشار الى أن سمرقند قد نالها الخراب والدمار حتى ظلت بلا سور ولا أبواب ، أما مدينة ترمذ فلم تنلها يد التعمير بعد تدمير جنكيزخان لها حتى عصر ابن بطوطة (١٤) .

ولابد أن تؤدى هذه الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية المضطربة الى تأخر نجاح الدعوة الاسلامية بين مغول هذه الايلخانية ، ولابد أن هذه الأحوال قد تركت أثرها على دعاة الاسلام هناك ، فلم يحاولوا أن ينشروه بين الخوانين الجغطائيين الحاكمين لبلادهم ، وانما اهتموا بنشره أولا بين المغول العاديين ، وسرت دعوته بعد ذلك حتى وصلت الى بنى جغطاى ، وكان قد مر وقت طويل تداول فيه حكم هذه البلاد عدد كبير من هؤلاء الأبناء الذين كانوا حجر عثرة فى سبيل تقدم الحركة الاسلامية فى بلادهم لكونهم بوذيين أو شامانيين . وعلى ذلك لم يحقق الاسلام تقدما واضحا

(11) Saunders : op. cit., p. 171.

(١٢) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٣٩ .

(١٣) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٤٤ .

(١٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٥ — ٢٥١ .

الا فى عهد طرما شيرين الذى تولى حكم هذه البلاد عام ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م ، اى بعد أكثر من قرن من فتح المغول لها ، ولم تكن الفترة السابقة على هذا الايلخان المسلم الا بمثابة فترة تمهيد وتهيئة لانتشار الاسلام بين مغول هذه البلاد .

١ — فترة التمهيد والتهيئة لتحول مغول آسيا الوسطى الى الاسلام :

تتشابه هذه الفترة بمثيلاتها فى حياة مغول ايران ومغول القفجاق ، فقد كان الاسلام يتسرب الى مغول هذه البلاد نتيجة للعوامل التى أشرنا اليها فى الفصل الثانى من هذا الكتاب ، وينتهى هذا التسرب باعتناق أحد خوانين المغول للاسلام ويتبعه فى ذلك عدد كبير من الأمراء والجند، ثم تقوم مقاومة البوذية والشامانية والنصرانية ويحدث الصراع ، وينتصر أعداء الاسلام انتصارهم المؤقت نتيجة للعوامل التى اشرنا اليها فى الفصل الأول من هذا الكتاب ، ثم لا يلبث الاسلام ان يستأنف زحفه ويواصل مسيرته ويحرز انتصاره النهائى فى معركته ضد الأديان التى نافسته فى ضراوة كى تكسب المغول فى صفها ثم تتخذهم وسيلة للقضاء النهائى عليه .

حدثت هذه التطورات فى بلاد القفجاق وفى بلاد ايران وكان لابد ان تحدث أيضا فى بلاد ما وراء النهر وتركستان أو فى منطقة آسيا الوسطى ، حيث تتشابه الظروف التاريخية وتتصارع نفس القوى ولكن بأناس يختلفون فى أشخاصهم وذواتهم وان اتحدت أهدافهم . ولذلك رأينا فى هذه الفترة وفى هذه البلاد بعض الخوانين يعتنقون الاسلام وبعضهم يظلون على ديانة جنكيزخان يطبقون السياق الذى اتخذه جنكيزخان شرعة ومنهاجا ، وكان بعضهم لا يقف موقف الحياد بين الاسلام ومنافسيه من الأديان الأخرى ، بل ويضطهد المسلمين ويحاول القضاء عليهم . مثال ذلك أول حكام هذه البلاد من المغول وهو جغطاى بن جنكيزخان (٦٢٤ — ٦٤٠هـ / ١٢٢٧ — ١٢٤٢م) وقد أسلفنا القول فى أنه كان من الد أعداء المسلمين من بين خوانين المغول كافة ، ولذلك كان يسومهم سوء العذاب ويمنعهم من اقامة شعائرهم الدينية ويقتل منهم من يضبط متلبسا بذبح الماشية على الطريقة الاسلامية ، ولا يقبل من أحد أن ينطق بكلمة مسلم أو كلمة الاسلام الا اذا أريد بها التحقير والمهانة (١٥) .

---

(١٥) القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٣١١ ، أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

وفى عهد خلفائه المباشرين تعرض بعض المسلمين للاضطهاد والقتل عندما اشتكى مسيحيو مدينة سمرقند من أن ترك بعض المسيحيين يتحولون الى الاسلام من شأنه أن يشجع الآخرين على هجر المسيحية ، فقام أحد كبار امراء المغول بتعذيب شاب مسلم كان قد تحول من المسيحية الى الاسلام ، وطلب منه أن يرجع الى دينه الأول ، ولما رفض قتله أمام الناس (١٦). وظل بعض خلفائه يسيرون على هذه السياسة نتيجة لبداوتهم التى حافظوا عليها بمعيشتهم فى مناطق الاستبس فى وادى نهر ايلى ili ، ونتيجة لتحمسهم للبوذية أو الشامانية ، ونتيجة لوقوعهم تحت سيطرة الخوانين العظام القريبين منهم وخاصة بيت أوكداى البوذيين ، ونتيجة للصراع الذى قام بين احد أمراء هذا البيت وبين بيت جغطاى فى السيطرة على آسيا الوسطى . وظل الوضع على هذا النحو السىء بالنسبة للاسلام والمسلمين حتى تحول خوانين آسيا الوسطى منذ عهد كبك خان (٧١٨ — ٧٢٦هـ / ١٣١٨ — ١٣٢٦م) الى سكنى بلاد ما وراء النهر حيث وقع المغول هناك تحت تأثير الحضارة الاسلامية المتفوقة ، مما ادى فى النهاية الى اسلامهم واستبدالهم اليساق بشريعة الاسلام منذ عهد طرما شيرين (١٧) .

ورغم ذلك ففى هذه الفترة أحرز الاسلام بعض الانتصارات واعتنقه بعض الايلخانات بعد ان حكم هذه البلاد بعض الحكام غير المسلمين من بيت جغطاى مثل قراهولاكو وييسو مانجو ، وارغانا خاتون والغو الذين حكموا بعد جغطاى ونافسهم قايدو بن قاشين بن أوكداى واستطاع أن يتغلب على الغو وأن يحكم هذه البلاد بعد وفاة الغو حفيد جغطاى عام ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥م ، واستطاع أن يمد نفوذه وسيطرته على آسيا الوسطى كلها وأن يوفر الأمن لسكانها وللتجار الذين يرتادونها ، ويناصر بركة خان سلطان مغول القفجاق فى تصديه لهولاكو ايلخان مغول ايران ، وتقرب الى العلماء والفقهاء رغم عدم اسلامه ، فبدأت الحياة تدب فى المدن الاسلامية فى آسيا الوسطى من جديد ، واخذت جهود محمود يلواج وابنائه تؤتى ثمارها ، واخذت جهود الوزراء المسلمين الآخرين مثل قطب الدين حبش عميد وخواجه بهاء

---

(١٦) ارنولد : نفس المرجع ص ٢٥٥ .

(17) Saunders : op. cit., p. 171.

الدين المرغلانى تؤثر فى تخفيف الصدمة التى أصابت الناس من الغزو المغولى، وتؤثر فى حياة المغول أنفسهم (١٨) .

وقد بلغ هذا التأثير مداه عندما تولى مبارك شاه بن قرا هولاكو حفيد جغطاى حكم آسيا الوسطى عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م بالاشتراك مع قايدو البوذى . وارتقاء مبارك شاه عرش البلاد ما هو الا مظهر واضح للصراع الحاد الذى كان قائما بين الاسلام والبوذية فى تلك البلاد ، فمبارك شاه كان مسلما كما يدل عليه اسمه (١٩) ، وكان أول من أسلم من خوانين مغول جغطاى فى آسيا الوسطى . وليست هناك معلومات عن الشيوخ الذين أسلم مبارك شاه على ايديهم ، وقد أخبرنا بارتولد نقلا عن أحد المؤرخين المعاصرين لهذا الايلخان المسلم أن أمه أرغانة Orghana خاتون كانت مسلمة (٢٠) ، فربت ابنها على الاسلام (٢١) ، مما يدل على مدى تأثير الزوجات والأمهات المسلمات فى نشر الاسلام بين المغول .

وقد تقدم هذا الأمير المسلم عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م يطالب بعرش ايلخانية جده جغطاى ، ذلك العرش الذى كان مثار نزاع بين امراء المغول فى ذلك الوقت ، واستطاع أن يعتلى العرش ولكنه لم يستطع أن يحافظ عليه مدة طويلة ، اذ سرعان ما قام الصراع بينه وبين ابن عمه غير المسلم براق خان Buraq عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م ، واستطاع براق أن يعزل مبارك شاه عن العرش ويتولاه (٦٦٤ — ٦٦٨هـ / ١٢٦٥ — ١٢٧٠م) بمساعدة الأمير قايدو البوذى المتغلب على تلك البلاد ، وهو تطور يدل على مدى حدة الصراع

---

(١٨) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، م ٢ ج ٢ ص ٢٢ ؛ ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٤٤٩ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص٣٥٩ ؛ ٣٦٠ بارتولد :نفس المرجع ، ص ١٨٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، عبد العزيز جنكيزخان : نفس المرجع ص ٧١ .

رشيد الدين الهمذانى : نفس المصدر ، م٢ ج٢ ص ٢٢ .

Zambaur : op. cit., V. 1., P. 248.

(١٩) فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٩١ .

(٢٠) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٠٠ .

(٢١) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٦ .

بين البوذية والاسلام ، ولا يختلف فى ذلك عما حدث فى بلاد القفجاق عـام ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م عندما توفى السلطان بركة خان وأعقبه فى الحكم خان غير مسلم ، وعما حدث فى ايران عام ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م عندما خلع السلطان المسلم أحمد تكودار وتولى بعده ايلخان غير مسلم (٢٢) .

ورغم ذلك فقد كان الاسلام يواصل تقدمه وانتشاره بين المغول ، فقد أخبرنا رشيد الدين الهمذانى بأن أخا هذا الخان غير المسلم كان يسمى احمد أوغول (٢٣) ، وهو اسم يدل على أن صاحبه اعتنق الاسلام ، بل قيل ان براق نفسه أسلم قبيل وفاته فى عام ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م بأيام قليلة ، وانه تسمى باسم السلطان غياث الدين (٢٤) مما يدل على مدى تقدم الحركة الاسلامية فى مملكة جغطاى فى آسيا الوسطى فى ذلك الوقت .

ومع ذلك فلم تذكر المصادر التاريخية أن أبناء براق واقاربه من بيت جغطاى الذين خلفوه على العرش بعد وفاته وحتى عام ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م اعتنقوا الاسلام ، ولم تذكر عنهم الا أخبارا قليلة تتعلق بالصراع فيما بين بعضهم البعض وفيما بينهم وبين قايدو حفيد أوكتاى الذى كانت متغلبا على تركستان ، ثم تذكر لنا المصادر بعد ذلك أن عرش البلاد انتقل الى أمير جغطائى مسلم يسمى باسم تاليقاوة أو تالقو بن قادامى بن بورى بن موتوغان (٧٠٨ — ٧٠٩هـ / ١٣٠٨ — ١٣٠٩م) بعد أن قتل أبوه فى باميان . ومقتل هذا الأمير واعتلاء ابنه تاليقاوة العرش لا يدل الا على الصراع الذى كان مستمرا بين بيت طغطاى على العرش من ناحية ، وعلى الصراع الذى كان ناشبا بين الاسلام والبوذية من ناحية أخرى . وعلى ذلك فالأمير تاليقاوة هو ثانى أمير مغولى مسلم جلس على عرش مملكة جغطاى فى آسيا الوسطى، ويبدو أنه غالى فى تحمسه لعقيدته الجديدة وحاول أن يفرضها على الأمراء

---

(٢٢) رشيد الدين الهمذانى : نفس المصدر ، م٢ ج٢ ص ١٨ ، ٢٥ — ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٦ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٨٨ .

(٢٣) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، م٢ ج٢ ص ٢٨ ، ٢٥ — ٤٦ .

(٢٤) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٦ .

والجند مما أغضب قواد المغول فثاروا عليه وقتلوه فى احدى المآدب (٢٥) .

ولم ينته الصراع بين البوذية والاسلام باغتيال هذا الخان المسلم ، فقد تولى عرش البلاد اسنبغا (أسان بغا) بن دوا بن براق (٧٠٩ — ٧١٨هـ/ ١٣٠٩ — ١٣١٨م) ، وكان له أخ مسلم يدعى (يساوار) . وقد ساءت العلاقات بين هذين الأخوين ، وفر الأخ المسلم الى بلاط أمير فارس المغولى الذى رحب به وساعده على قتال أخيه ، فانتصر عليه عام ٧١٦ هـ / ١٣١٦م (٢٦) ، مما يدل على حدة الصراع الذى كان قائما بين البوذية والاسلام فى مملكة جغطاى فى آسيا الوسطى . وقد ظلت البوذية تحتفظ بنفوذها فى عهد كبك (٢٧) Kebek خان بن دوا خان بن براق خان (٧١٨ — ٧٢٦هـ / ١٣١٨ — ١٣٢٦م) . وقد فضل هذا الخان الجديد غير المسلم أن يعيش فى اقليم ما وراء النهر ، ربما لضمان البعد عن تأثير الخوانين العظام فى قراقورم ، وتخلصا من سيطرتهم على الخوانين الجغطائيين ، فانتقل من مدينة الماليق الى هذا الاقليم وبنى هناك قصرا قرب مدينة نخشب (٢٨)، وسمى هذا القصر مغول كارشى Mongol Karshi ، ومنه أخذت مدينة قرشى اسمها ، واصبحت هذه المدينة قاعدة لبلاد ما وراء النهر وتركستان (٢٩) .

ومنذ عصر كبك أخذ خوانين المغول فى مملكة جغطاى فى آسيا الوسطى يتمثلون المدينة الاسلامية بالتدريج (٣٠) ، فاستفاد هذا الخان من النظام

---

(٢٥) رشيد الدين الهمدانى : نفس المصدر ، م٢ جـ٢ ص ٥٠ ، ٥٤ .
فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .
Zambaur : op. cit., v. 1, pp. 248-249.

(٢٦) فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٩٩ .

(٢٧) هذا الايلخان يسمى كوبك عند شرف خان البدليسى (ص٢٦) ، ويسمى كيوك عند القلقشندى (جـ٤ ص٤٤٩) ، ويسمى كبك عند ابن بطوطة (ص ٢٤٦)، الرمزى (جـ١ ص ٥٢٩) .

(٢٨) يقول القلقشندى أن مدينة نخشب عندما عربت سميت باسم مدينة نسف ، ونقل عن ابن حوقل قوله أنها على مرحلتين من مدينة كش . (انظر : صبح الأعشى ، جـ ٤ ص ٤٣٥) .

(٢٩) القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٤٠ ، البدليسى : نفس المرجع ص ٢٦
Saunders : op cit., p. 172.

(٣٠) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٠٦ .

المالى الفارسى ، وضرب عملة ظلت معروفة بعده باسم كبكى Kebeki لمدة طويلة (٣١) . ويبدو أن معيشته فى بلاد تركستان وما وراء النهر قد أثرت فى معتقداته الدينية ، فيذكر شرف خان البدليسى أنه عندما توفى دفن فى جوار المسجد الجامع بمدينة قرشى (٣٢) ، وقد سبق القول انه هو الذى بنى هذه المدينة او ابتدأ العمارة فيها حتى اكتملت فى عهده أو فى عهد من خلفه . ومعنى انه كان بهذه المدينة مسجد وأنه دفن بجوار هذا المسجد يدل على انه فيما يبدو قد غير عقيدته الدينية الى الاسلام وان لم يظهر ذلك ربما خوفا من بعض الضباط الذين كانوا لا يزالون على ديانة جنكيزخان ، وكان كبك يرى أثر هؤلاء الضباط فى عزل واغتيال بعض الخوانين المسلمين الذين سبقوه فى تولى العرش ، ولذلك وكما هو الراجح لم يجهر باسلامه ولكنه لم يخف تكريمه واحترامه للمسلمين (٣٣) .

وقد حدث ما كان يتوقعه كبك اذ نجح هؤلاء الضباط فيما يبدو فى تولية العرش بعد وفاته لأخيه غير المسلم المسمى الجكطى او الجكداى كما جاء عند القلقشندى ، وبذلك أبعدوا الأمراء المسلمين عن تولى الحكم لفترة لم تطل كثيرا ، اذ تمكن أخوه طرما شيرين المسلم أن يتولى العرش عام ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م ، وفى عهد هذا الخان أحرز الاسلام انتصاره النهائى وانتشر الاسلام بين معظم مغول بلاد جغطاى فى آسيا الوسطى (٣٤) .

٣ — مرحلة اكتمال انتشار الاسلام بين مغول آسيا الوسطى :

تبدأ هذه الرحلة بتولى طرما شيرين عرش البلاد (٧٢٦—٧٣٤هـ/١٣٢٦—١٣٣٤م) ويعتبر هذا الخان هو المؤسس الحقيقى لدولة المغول الاسلامية فى مملكة جغطاى فى آسيا الوسطى ، ويمكن وضعه من هذه الناحية على قدم المساواة مع السلطان بركة والسلطان ازبك فى بلاد القفجاق ، والسلطان غازان فى ايران والعراق وآسيا الصغرى ، وان كان طرما شيرين قد أتى متأخرا عنهم للظروف والعوامل التى أشرنا اليها فى صدر هذا الحديث ،

---

(31) Saunders : op. cit., p. 172.

(٣٢) البدليسى : نفس المصدر ، ص ٢٦ .

(٣٣) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٤٦ .

(٣٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٦ ، القلقشندى : نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤٤٩ ، الرمزى : نفس المرجع ، ج ١ ص ٥٠٢ .

وللصراع العنيف الذى رأيناه مع البوذية والذى سوف تظهر ذيوله عقب وفاة هذا السلطان لفترة قصيرة لا تلبث أن تزول ويستقر الاسلام بين مغول هذه البلاد .

ويبدو أن طرما شيرين كان يخشى بأس الضباط الوثنيين الذين قضوا على اسلافه من الايلخانات المسلمين فكتم اسلامه حتى اعتلى العرش ، ولما توطدت له الأمور واستقرت الأحوال نقل عاصمته الى بخارى فى بلاد ما وراء النهر وتمثل الحضـــارة الاسلامية اكثر من أخيه كبك (٣٥) ، ولم يلبث أن أعلن اسلامه على يد الشيخ حسن والفقيه العابد مولانا حسام الدين الياغى فى نفس العام الذى تولى فيه عرش البلاد ، واتخذ لنفسه اسما اسلاميا فسمى باسم علاء الدين طرما شيرين وواظب على أداء الصلوات فى أوقاتها واخذ يطبق الشريعة الاسلامية (٣٦) حتى وصفه العمرى بأنه كان « حسن الاسلام عادل السيرة طاهر الذيل مؤثرا للخير محبا لأهله » (٣٧) .

وقد عمل طرما شيرين منذ البداية على نشر الاسلام بين المغول فى كافة انحاء دولته ، فأمر قواده وأمراءه وجنوده من غير المسلمين أن يعتنقوا الاسلام فاعتنقوه ، ولم يمض على ذلك عشر سنوات حتى عم الاسلام معظم مغول آسيا الوسطى عامتهم وخاصتهم ، وذلك بتأثير طرما شيرين ومن التف حوله من العلماء والوعاظ والفقهاء والمشايخ والأشراف والدعاة والتجـــار الذين فتح لهم ابواب بلاده حتى جاءه التجار من مصر وغيرها من دول العالم الاسلامى (٣٨) .

وقد أراد طرما شيرين بعد أن عظمت جيوشه واتسعت مملكته أن يغزو البلاد المجاورة التى لا تزال على الوثنية كى ينشر فيها الاسلام ، فغزا بلاد

---

(٣٥) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٠٠ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٠٧ .

(٣٦) ابن بطوطة : نفس المصدر ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ٥ ص ١١٢٩ .

(٣٧) التعريف ، ص ٤٧ ، المقريزى : نفس المصدر ، جـ ٢ ص ٣٨٩

(٣٨) ابن بطوطة : نفس المصدر ص ٣٠٥ ، القلقشندى : نفس المصدر جـ٤ ص ٤٥٠ .

الهند الشمالية حتى وصل الى دلهى ، وأعلى راية الاسلام فى كل مكان وصار يأخذ الناس بشريعة الاسلام وبدأ يهاجم جيرانه من مغول ايران (٣٩) .

ويبدو أن هذه السياسة لم تعجب بعض الأمراء والضباط الذين كانوا لا يزالوا على دينهم القديم أو الذين تظاهروا بالاسلام وابطنوا الكفر ، وخاصة من الذين كانوا يعيشون فى مناطق البدو فى وادى نهر ايلى فى أقصى الشرق من البلاد حيث كانت تسود شريعة جنكيزخان (٤٠) ، وانكروا عليه هجرانه التام لهذه الشريعة ، كما انكروا عليه ابطاله ليوم (الطوى) وهو اليوم الذى كان يجتمع فيه الأمراء والأميرات من أطراف البلاد مرة كل عام ، يحاسبون فيه الخان على مخالفاته لأحكام السياق ويعزلونه اذا ما تعددت هذه المخالفات ، كما انكروا عليه أيضا أنه استمر فى اقامته فى بلاد ما وراء النهر ، وانه لم يذهب الى اقليم تركستان حيث توجد الماليق عاصمة المملكة ؛ فيتفقد أحوالها وحال الجند بها مرة كل سنة حسبما جرت به العادة قبل ذلك (٤١) . وهو صراع كما ترى بين النصف الشرقى من الدولة (تركستان) حيث كان العنصر المغولى المحافظ أو القديم أقوى ، وبين النصف الغربى منها (بلاد ما وراء النهر) حيث كان أمراء المغول متحمسين لدينهم الجديد (٤٢) .

وقد انتهى هذا الصراع بقيام ثورة انتهت بخلع طرما شيرين عن العرش وتولاه ابن أخيه جنكشى (٧٣٤ — ٧٣٥ / ١٣٣٤ — ١٣٣٥م) وقد علا شأن البوذية والمسيحية فى عهد هذا الخان الذى كان يدين بالبوذية ، وكان مستشاروه منكهنة هذه الديانة،ولذلك كانيناصر الياساق ولا يحفلبالشريعة الاسلامية ، وانتهز المبشرون المسيحيون هذه الفرصة النادرة وتحالفوا مع هذا الخان فسمح لهم بالتبشير بدينهم فى مملكة جغطاى على نطاق واسع حتى كان الانجيل يدرس بكل حرية ، كما سمح للكاثوليك الوافدين من أوربا

---

(٣٩) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٠٩ ،
Saunders : op. cit., p. 172.

(٤٠) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحتين .

(٤١) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(42) Saunders : op. cit., pp. 172, 173.

ببناء كنيسة لهم قرب مدينة المالبق ، وعين لها البابا بندكت الثانى عشر مطرانا من الفرنسسكان (٤٣).

ولكن هذا العهد لم يطل وسرعان ما اعتلى العرش ابن أخ آخر لطرما شيرين يسمى بوزون (٧٣٥ — ٧٣٩ هـ / ١٣٣٥ — ١٣٣٨م) أو بوزون أغلى (٤٤) . ويبدو أن هذا الخان اراد أن يقيم توازنا بين الحركة الاسلامية التى عنفت واشتدت منذ عهد عمه طرما شيرين وبين الأديان الأخرى كالبوذية والنصرانية التى انتعشت أخيرا فى عهد الخان السابق والتى كان كهنتها قد انزعجوا كثيرا من الاكتساح الاسلامى لمعاقلهم فى آسيا الوسطى ، فتظاهر بالاسلام (٤٥) ، وفى نفس الوقت « ضيق على المسلمين وأباح للنصارى واليهود عمارة كنائسهم فضج المسلمون من ذلك وتربصوا به الدوائر (٤٦) ولذلك كرهه الناس ووصفه ابن بطوطة بانه كان « مسلما فاسد الدين سيىء السيرة »(٤٧)، وتطورت الأمور الى قيام فتنة تم على اثرها قتل مطران المالبق الجديد وخمسة من رفاقه وتاجر ايطالى على يد أحد العامة عام ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩م ، ولم يستطع الخان أن ينتقم لمقتل هؤلاء المسيحيين السبعة ، وسادت الاضطرابات الدينية أنحاء الدولة ، ولم تستطع الحركة المضادة للاسلام أن تحرز أى تقدم بعد ذلك (٤٨) .

ذلك انه منذ عام ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢م اعتلى عرش مملكة جغطاى فى آسيا الوسطى شيخ مسلم من أحفاد جغطاى وهو السلطان خليل بن اليسور

---

(٤٣) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٠٩ .
Saunders : op. cit., p. 172.

(٤٤) يسميه القلقشندى (جـ ٤ ص ٤٥٠) توزون ، ويسميه ابن بطوطة المعاصر له باسم بوزن أغلى ويقول أن (أغلى) لقب يطلق على كل من كان من أبناء الملوك (رحلته ص٢٤٨) ، ويسميه الرمزى (جـ ١ ص ٥٤٨) باسم تزان خان بن ييسور ، وهذا خطأ ، لأن بوزون كان ابن دوا تيمور (انظر : Zambaur, op. cit., 248) ، ويسميه المقريزى (جـ٢ ق٢ ص ٣٨٩) باسم بوزان وكذلك فامبرى (ص ٢٠١) ، ويسميه زآمباور باسم بوزون وهو ما أخذنا به .

(٤٥) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٠١ .

(٤٦) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٥٠ .

(٤٧) المصدر السابق ، ص ٢٤٨ .

(48) Saunders : op. cit., p. 172.

ابن دوا بن براق (٧٤٣ — ٧٤٤هـ / ١٣٤٢ — ١٣٤٣م) (٤٩) . ولم يكن هذا السلطان مسلما فقط بل كان فيما يقول بارتولد مرشدا روحيا للولى المشهور بهاء الدين النقشبندى البخارى (٧١٨ — ٧٩٢هـ / ١٣١٨ — ١٣٨٩م) .
وقد تأثر به هذا الولى أو هذا الصوفى الذى أصبح صاحب طريقة النقشبندية تأثرا كبيرا ولازمه حتى بعد اعتلاء خليل لعرش البلاد . وبعد أن مات السلطان خليل اقتنع بهاء الدين بأن الدنيا لا خير فيها وتحول الى حياة الزهد والتصوف (٥٠).

ومعنى هذه الرواية أن السلطان خليل كان مسلما قبل توليه العرش بمدة طويلة ، ولذلك فانه قد وجد المساندة والعون والتأييد من أمراء المسلمين فى صراعه ضد ابن عمه بوزون الذى كان قد تغلب على العرش . فقد قدم له السلطان حسين بن السلطان غياث الدين الغورى صاحب غزنة الجند الوفير ، كما قدم له علاء الملك سيد الملقب بخداوند زاده صاحب ترمذ جندا يقدر عدده بأربعة آلاف من المسلمين ، وكان هذا الأمير الشريف الحسنى النسب على رأس جنده عندما تقدم لمساعدة خليل ، ولما رأى جند (بوزون) خليل وجنده مالوا اليه وأعلنوا طاعتهم له « وأسلموا سلطانهم اليه وأتوا به أسيرا ، فقتله خليل خنقا بأوتار القسى » حسب عادة المغول فى عدم قتل من كان من أبناء الملوك الا خنقا (٥١) .

ومعنى ميل الأمراء والجند الى السلطان المسلم على هذا النحو هو أنهم كانوا فى الغالب مسلمين والا لما مالوا الى السلطان خليل على هذا النحو . ولما أسلموا سلطانهم بكل سهولة ، ولدافعوا عنه دفاع المستميت ، واذا عرفنا بأن عدد هؤلاء الجند كان يقدر بثمانين ألفا (٥٢) ، لأدركنا مدى شيوع الاسلام وانتشاره بين المغول .

وقد قام السلطان خليل بعد أن دانت له الأمور باستخدام هؤلاء الجند

---

(٤٩) يسميه بارتولد (ص ٢٠٩) خليل بن ياساور ، وهو ليس ببعيد عما ذكره ابن بطوطة (ص ٢٥٠) اذا فتحنا الياء والسين فى كلمة (اليسور) التى جاءت عند ابن بطوطة . وانظر أيضا :
Zambaur : Op. cit, V. 1, p 248.

(٥٠) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢١٠ .
(٥١) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٥٠ .
(٥٢) المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

فى القضاء على آخر بقايا الوثنية فى النواحى الشرقية من آسيا الوسطى ، بل وفى بلاد الصين ذاتها ، وهى معقل الخوانين العظام البوذيين كما هـو معروف ، فزحف بهم واقر سلطانه أولا فى العاصمة القديمة لمملكة جغطاى ، وهى مدينة المالیق ثم واصل زحفه بعد ذلك الى بلاد الصين والخطا واستولى على قراقورم وبش باليق وعقد الصلح مع امبراطور الصـين فعظم أمـره وهابته الملوك ، وبدأ رحلة العودة وترك فى مدينة المالیق حامية عسكرية قوية كما ترك بها وزيره خداوند زاده حاكما لها حتى لا يتألب عليه سكانها من المغول ، وعاد الى مقر مملكته فى بلاد ما وراء النهر (٥٣) .

وبهذا وحد السلطان خليل مملكة جغطاى فى آسيا الوسطى مـرة أخرى ، وقضى على آخر صحوة للبوذية والمسيحية فى تلك المملكة ، وارتفع شأن الاسلام والمسلمين فى عهده . وكما رأينا فقد ولى وزارته لأحد الأشراف الحسنيين ووصلت قوة الدولة الاسلامية المغولية فى عهده الى الذروة ، ولم نسمع أن خانا غير مسلم تولى عرش البلاد بعده ، ولكن يبدو أن مملكة جغطاى ضعفت وانقسمت بعد موته الى امارات وممالك صغيرة ؛ وظلت كذلك حتى وحدها من جديد تغلق تيمور خان حفيد دوا بن براق خان (٧٤٨ — ٧٦٥هـ / ١٣٤٧ — ١٣٦٣م) وملك كاشـغر ومغالستان التى تسمى الآن بتركستان الصينية والتى كان هذا الملك قد استقل بها عقب موت السلطان خليل (٥٤) .

وقد أسلم هذا الملك على يد رجل من أهل التقوى والورع من مدينة بخارى يقال له الشيخ جمال الدين والذى كان يصحبه جماعة من التجـار الذين كانوا قد ارتادوا مع شيخهم هذا أرضـا كان ذلك الملك قد خصصها للصيد . وقد نتج عن ذلك أن غضب الملك واستدعى الشيخ وزملاءه التجار ، ولما علم بأن هذا الشـيخ فارسى أهانه قائلا أن الكلب أغلى ثمنا من أى فارسى ، فرد عليه الشيخ قائلا أن ذلك يكون صحيحا لو أنه لم يدن بالدين الحق،فراع هذا الجواب الملك وجعله يستفسر عن هذا الدين من ذلك الفارسى الجسور ، فانتهز الشيخ هذه الفرصة وعرض عليه قواعد الاسلام فى غيرة

---

(٥٣) المصدر السابق ، ص ٢٥١ ؛ بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢١٠ .

(٥٤) الرمزى : نفس المرجع ، جا ص ٣٦٠ .

وحماس انفطر لها قلب الملك حتى كاد يذوب بعد ان صــور له الشــيخ الكفر بصورة مروعة اقتنع معها الملك بضلال عقيدته الوثنية ، ولكنه اجــل اعتناقه للاسلام ووعده أن يفعل ذلك عندما يتمكن من توحيد مملكة جغطاى كلها . فعاد الشيخ جمال الدين الى بخارى واوصى ابنه رشيد الدين قبل أن يموت أن يتصل بتغلق تيمور خان وان يذكره بالوعد الذى قطعه عــلى نفسه اذا ما تحققت له وحدة البلاد (٥٥) .

وقد تحققت هذه الوحدة فعلا بالتدريج ، فقد استولى هذا الملك الذى ينتسب للبيت الجغطائى على السلطة فى مغولستان عام ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م فى البداية ، ثم استولى بعد ذلك على كاشغر عام ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م ، ثم زحف الى بلاد ما وراء النهر واستولى عليها وعين ابنه (الياس) حاكما لها فى سمرقند ، كما عين أحد شباب سمرقند وزيرا له . وكان هذا الشاب يدعى تيمور وكان شابا قديرا من اسرة تدعى الانتساب لجنكيزخان ، ولكنه كان اعرجا ، ولذلك عرف باسم تيمورلنك Timur Lang وقد حرف الأوربيون هذا الاسم الى Tamerlane (٥٦) .

وبعد أن حقق تغلق تيمور وحدة مملكة جغطاى على هذا النحو تحايل رشيد الدين بن الشيخ جمال الدين فى الوصول اليه ومقابلته ، ولما تمكن من ذلك ذكره بالوعد الذى كان قد قطعه على نفسه لأبيه من قبل ، فقال له السلطان تغلق : « حقا ! مازلت اذكر ذلك منذ أن اعتليت عرش آبائى ، ولكن الشخص الذى قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل ، والآن فانت على الرحب والسعة » ثم أقر بالشهادتين واصبح مسلما منذ ذلك الحين وأخذ على عاتقه نشر الاسلام بين جميع الأمراء ، واتفق مع رشيد الدين على أن يستقبلهم واحدا بعد واحد ويعرض عليهم الاسلام ، فمن قبله جوزى أحسن الجزاء ، ومن رفضه كان مصيره القتل . وكان أول امير عرض عليهما هو الامير تولك Tulik ، ولما طلب منه السلطان الدخول فى الاسلام سالت عبرات هذا الأمير وقال له « قد دخلت فى الاسلام منذ ثلاث سنوات على يد احد رجال هذا الدين فى كاشغر واصبحت مسلما منذ ذلك الحين ، ولكنى لم اصرح بذلك خوفا منك » ، فنهض تغلق خان وعانقه وجلس ثلاثتهم يتقدم

---

(٥٥) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

(56) Saunders : op cit., p. 173.

اليهم سائر الأمراء حيث عرض عليهم الاسلام فقبلوه جميعا الا واحدا منهم رفض الدخول فى الاسلام الا بعد ان يختبر قوة الشيخ رشيد الدين الجسمانية بأن يدخل هذا الشيخ فى مبارزة مع خادم له كان ضخم الجثة متين البنيان يستطيع أن يرفع بيديه جملا صغير .

وقد خاف السلطان والحاضرون نتيجة هذه المبارزة التى قبل بها ذلك الشيخ الضعيف والتى انتهت بتغلبه على ذلك الخادم الضخم بعد أن استعان بالله ووكزه فى صدره وكزة سقط منها الخادم مغشيا عليه ، ولما افاق أخذ يقبل اقدام الشيخ ويصيح بالشهادتين ، فكبر الناس واكبروا هذا الانتصار وعلت أصوات الابتحسان من كل مكان ، وانفتحت قلوب المغول للاسلام حتى أنه أسلم منهم فى ذلك اليوم مائة وستون الفا ، واصبح الدين الاسلامى منذ ذلك الحين دين سكان الحضر من المغول فى الولايات الشرقية من مملكة جغطاى ، أما الولايات الغربية فكان قد تم اسلام مغولها منذ عهد طرما شيرين (٥٧) .

واذا كان السلطان تغلق تيمور خان قد استطاع أن يعيد الوحدة لأجزاء مملكة جغطاى فى آسيا الوسطى وان يستكمل انتشار الاسلام فى النصف الشرقى من تلك المملكة ، فان وزيره الشاب الأعرج الطموح المسمى تيمورلنك استطاع بعد وفاة تغلق ببضع سنوات أن يعيد الوحدة الى امبراطورية المغول الكبرى كلها ، فاستولى على معظم ممالكها فى آسيا الوسطى وبلاد الهند والأفغان وبلاد ايران وخوارزم والعراق وآسيا الصغرى وبلاد القفجاق ، وذلك بقيامه بسلسلة من الحروب والغزوات بداها باستيلائه على الحكم فى سمرقند وبلاد ما وراء النهر عام ٧٧١هـ / ١٣٧٠م واستمرت حروبه حتى وفاته عام ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م بعد ان كان قد تمكن من السيطرة على كل هذه الممالك وضمها تحت لواء واحد مستغلا فى ذلك ضعفها وضعف الحكم المغولى الذى كان قائما فيها (٥٨) .

ويعتبر عصر تيمورلنك هو نهاية عصر الفتوحات المغولية فى قارة

---

(٥٧) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

(٥٨) شرف خان البدليسى : نفس المصدر ، ص ٥٥ ، ٥٦ ، مبور : نفس المرجع ، ص ١١٦ ، عبد العزيز جنكيزخان : نفس المرجع ، ص ٦٦ ، Saunders : op. cit., p. 173.

آسيا ، وكانت فتوحاته تنافس فى حدتها وعنفها وقسوتها فتوحات جنكيزخان. واذا كان جنكيزخان وثنيا فقد كان تيمورلنك مسلما وان كان بدويا الى حد كبير ، ولذلك فانه يعتبر مؤسس امبراطورية الاستبس الكبرى ، ولكنه أوجد الى حد ما مجتمعا اسلاميا كبيرا ضم الحضر والبدو معا ، مما أعطى فرصة للتأثير على هؤلاء البدو الذين كان كثير منهم لا زال على الوثنية ، فتركوها واعتنقوا الاسلام (٥٩) .

وقد ساعدت نشأة تيمورلنك ومولده على قيامه بهذا الدور خير قيام ، فهو من قبيلة مغولية متتركة تدعى برلاص ، وأبوه ينتسب الى أصل مغولى تركى ينتهى به الى طائفة جغطاى بن جنكيزخان ، ويقال ان أمه من ذرية جنكيزخان ، فهو اذن من نفس العنصر الذى غزا آسيا واخضعها لسلطانه، ولكنه يراها الآن قد تفرقت بددا واصبحت دويلات صغيرة متناثرة بعد أن كانت ممالك قوية وامبراطورية كبرى يشار اليها بالبنان . وكانت قبيلته تحكم البلاد الواقعة على نهر كش فى منطقة سمرقند . وقد نشأه أبوه نشأة دينية سياسية ، فقد رباه على التمسك بسنن الاسلام القويمة وعلى التطلع على تملك بلاد المغول التى أصابها التفكك والانحلال (٦٠) .

ويقول تيمورلنك عن نفسه فى سيرته التى كتبها له أحد المؤرخين المعاصرين فى كتاب يسمى (توزوكات تيمور) ، أى مراسيم تيمور ، « كنت أقضى وقتى فى قراءة القرآن ولعب الشطرنج وهوايات أخرى » (٦١) . ولذلك فقد ظهر فى حياة تيمورلنك جانبان : جانب اسلامى واضح وجانب سياسى يتمثل فى طبيعته الثائرة وأطماعه السياسية التى لا حد لها والتى أدت الى ارتكابه لكثير من أعمال العنف والوحشية أثناء غزواته الكثيرة التى ملأت حياته منذ ظهوره على المسرح السياسى عام ٧٧١هـ / ١٣٦٩م وحتى وفاته عام ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥م ، والتى أدت الى سيطرته على معظم امبراطورية

---

(59) Ibid : p. 173.

(٦٠) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٥ ص ١٠٣٣ ، ١٠٨٢ ، ١١٢٩ ، أبو المحاسن : نفس المصدر ، جـ ١١ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢١٧ ، فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٠٧ ، عبد العزيز جنكيزخان : نفس المرجع ،ص ٧٢ .

(٦١) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٠٧ .

المغول الكبرى (٦٢) . ويهمنا هنا الاشارة الى الجانب الاسلامى فى حياة هذا الفاتح الذى صوره لنا المؤرخون فى صورة قاسية أخرجته أحيانا عن صورة المسلم حسبما قالوا (٦٣) ، ولم يذكروا لنا شيئا عن أعماله السلمية وعن جهوده فى نشر الاسلام بين بعض شعوب امبراطوريته الكبرى .

فعلاوة على جهود تيمورلنك فى نشر الاسلام بين البدو من المغول والترك داخل امبراطوريته الواسعة نراه يعمل على نشره فى بلاد الهند وكشمير والتبت . وكان تيمورلنك قد غزا شمالي الهند واستولى على دهلى عام ٧٩٨ هـ / ١٣٩٥م (٦٤) ، ثم انطلق منها يبيد الهنود الوثنيين مما جعل توماس أرنولد يقول أن غزوته لتلك البلاد اتسمت بطابع الجهاد الدينى مستندا فى ذلك الى ما قاله تيمورلنك عن نفسه بعد استيلائه على دهلى . فقد دون يقول « لقد قضيت خمسة عشر يوما فى دهلى بين مظاهر الفرح والنعيم ، أعقد مجالس البلاط الملكية وأقيم الأسمطة العظيمة ، ثم ذكرت أننى أتيت الى هندستان لشن الحرب على الكفار . وقد بارك الله هذه الحملة ، فجعل النصر حليفنى والظفر يتبعنى أنى ذهبت ، ولقد انتصرت على خصومى وقتلت بعض مئات الألوف من الكفار وعبدة الأصنام ولطخت سيف الدعوة بدماء أعداء الدين . الآن وقد تم لى هذا النصر المبين أشعر انه لا يحق لى أن أخلد الى الراحة ، بل ان ابذل جهدى لشن الحرب على كفار هندستان » (٦٥) .

ولا شك أن حربه لهندستان على هذا النحو قد أضعفت من قوة الديانة الهندوكية فى شمالى الهند وافسحت الطريق لانتشار الاسلام فى هذه المناطق سواء فى عهده أم فيما تلا ذلك من عهود . ففى كشمير ازداد نفوذ الاسلام بعد أن أصبح هذا الاقليم الكبير احدى ولايات امبراطورية المغول فى عهد (اكبر) ، كما قدم اليه كثير من رجال العلم مختارين أو فارين

---

(٦٢) ابن خلدون : نفس المصدر ، جـ ٥ ص ١٠٨٢ ، ١٠٨٥ ، ١١٣٠ — ١١٣١ ، أبو المحاسن : نفس المصدر ، جـ ١١ ص ٢٦١ ، ٢٦٤ — ٢٦٨ ، جـ ١٢ ص ٤٣ ، ٤٤ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ — ٢٢٥ ، ٢٤٠ — ٢٤٨ .

(٦٣) أبو المحاسن : نفس المصدر ، جـ١٢ ص ٥٠ — ٥١ .

(٦٤) شرف خان البدليسى : نفس المصدر ، ص ٥٦ ، أبو المحاسن : نفس المصدر ، جـ ١١ ص ٢٦٣ — ٢٦٤ ، أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٨٧ .

(٦٥) أرنولد : نفس المرجع ص ٢٨٧ .

من بطش تيمورلنك . ففى عام ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م قدم الى كشمير شيخ يسمى سيد على الهمذانى كان قد أثار سخط تيمورلنك وخاف من بطشه ، ففر من همذان مع سبعمائة من اصحابه الى كشمير حيث اسسوا هناك اماكن للعبادة والتنسك فى جميع انحاء البلاد ، فلقيت دعوة الاسلام هناك رواجا كبيرا واعتنقه لذلك عدد كبير من الناس ، ومن هناك بدأ الاسلام يزحف شمالا على يد تجار كشمير الذين كانوا قد أسلموا ، الى هضبة التبت (٦٦) .

وقد اشاد بعض الكتاب بالجانب الاسلامى عند تيمورلنك وقالوا انه كان مسلما متأثرا بالمدنية الايرانية الاسلامية وانه كان عارفا بالفارسية الى جانب التركية ، وانه لم يكن ملما بالاسلام من حيث هو عقيدة فقط ، بل كان واقفا على كثير من العلوم والفنون الاسلامية لدرجة انه كان يشارك فلاسفة هراة وفقهاءها فى محاوراتهم ويبذل العطاء الوفير لهم ولغيرهم من علماء المدن الأخرى وحتى لمن كان معهم على خلاف فى الراى . مثال ذلك العالمان المشهوران : شمس الدين الفنارى ومحمد الجزرى اللذان بذل تيمورلنك جهده لكسبهما الى صفه وبالغ فى استرضائهما رغم ما كان يعلمه من شدة عدائهما له بعد أن كانا قد وقعا فى أسره (٦٧) .

وقد بذل تيمورلنك جهده ايضا فى اثراء الحياة العلمية فانشأ الكثير من المدارس والمساجد والجوامع والمراصد والزوايا والمكاتب وارتقت فى عهده الحياة الفنية والصناعية على يد الصناع وارباب الفنون والحرف الذين حصل عليهم من البلاد الكثيرة التى فتحها والحقهم بخدمته وجلبهم الى سمرقند عاصمة امبراطوريته ، واصبح كلفا باعادة تعمير ما كان قد خربه من مدن فى بلاد ما وراء النهر وخوارزم حتى قال عنه بارتولد ان أعماله فى التعمير لا تقل اثرا فى نفوس معاصيره عن أعماله فى التخريب والتدمير (٦٨) .

وهذا التخريب وذلك التدمير الذى اشار اليه بعض المؤرخين كان فى

---

(٦٦) المرجع السابق ، ص ٣٢٨ — ٣٣٠ .

(٦٧) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٢٦ ، ٢٣٠ ؛ فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٤١ .

(٦٨) ابن خلدون : نفس المصدر ، ج ٥ ص ١١٣٠ ، بارتولد : نفس المرجع ، ص٢٢٦ ، فامبرى : نفس المرجع ، ص٢٤١ ، عبد العزيز جنكيزخان : نفس المرجع ص٨٠ .

الواقع سمة من سمات الحروب التى كانت شائعة فى ذلك العصر سواء جاءت هذه الحروب على يد سلاطين المماليك أم على يد غيرهم من سلاطين المغول والترك .. وكان كل فريق يرتكب فى أراضى خصمه الكثير من الأمور الشنيعة ، وكان كل ملك يتهم الآخر لهذا السبب بالكفر والمروق عن الاسلام ، فتيمورلنك أرسل الى سلاطين مصر يقول لهم « اكلتم الحرام وظلمتم جميع الأنام وأخذتم أموال الأيتام وقبلتم الرشوة من الحكام ... وقتلتم العلماء .. » ويستشهد على ذلك كله بآيات من القرآن الكريم ، ثم ينفى عن نفسه وأهله أنهم كفرة ، وأن الكفرة والفجرة كما قال فى رسالته هم سلاطين مصر (٦٩). ويرد عليه سلطان مصر بقوله « وعندنا خبركم من حين خرجتم أنكم كفرة » (٧٠) .

فالاتهامات — كما ترى — متبادلة ، ولذلك فانها لا تنفى صفة الاسلام عن أى منهما ، وكانت هذه الاتهامات شيئا مألوفا فى تلك العصور ، فكل طرف يريد أن يرمى غيره بهذه التهمة حتى ينفر منه سائر المسلمين ويبتعدوا عن تأييده أو السير فى ركابه . وفى الواقع فقد كان هم تيمورلنك الأول هو توحيد امبراطورية المغول مرة أخرى ، وبالطبع فان ظهور قوة المغول والترك على المسرح السياسى مرة أخرى لابد أن يثير الدول المجاورة ، سواء كانت دولا اسلامية أم غير اسلامية ، وسواء كان تيمورلنك نفسه مسلما أم غير مسلم ، ومن هنا يقع الخلاف وتحدث الاتهامات وتجرى المصادمات والحروب والغزوات . ومن ناحية أخرى فان تيمورلنك لم يكن فى كل غزواته هو البادىء بالقتال والزحف بدافع السيطرة والاحتواء ، بل ان بعض الأقاليم الاسلامية كانت تستدعيه ضيقا بظلم حكامها وفساد أحوالهم ، مثال ذلك ما فعله أهل بغداد عندما كاتبوا تيمورلنك عام ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م يحثونه على المجىء اليهم نظرا لظلم سلطانهم أحمد بن أويس وفساد أمره (٧١) .

ومهما كان الأمر فقد واصل الحكام التيموريون الذين أتوا بعد تيمورلنك سياسته فى نشر الاسلام وفى توطيد أركان الثقافة الاسلامية . ومن أبرز هؤلاء الحكام فى هذا الميدان محمد خان أمير مغالستان (تركستان الصينية). فقد كان هذا الحاكم حسن الاسلام نهج منهج العدل وسلك سبيل المساواة بين الناس،

---

(٦٩) ابو المحاسن : نفس المصدر ، ج ١٢ ص ٤٩ ، ٥٠ .
(٧٠) المصدر السابق : ج ١٢ ص ٥١ .
(٧١) المصدر السابق ، ج ١٢ ص ٤٣ ، ٤٤ .

وظل يتبع هذه السياسة ويواصل جهوده فى نشر الاسلام حتى أصبحت معظم القبائل المغولية التى تعيش فى امارته تدين بالاسلام وخاصة بدو المغول الذين كان كثير منهم بعيدا عن الاسلام حتى مستهل القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر للميلاد ، وتوج هذا الأمير بذلك العمل ما فعله السلطان طرما شيرين والسلطان تغلق تيمور اللذان نشرا الاسلام بين سكان الحضر من المغول فى ولايات آسيا الوسطى . ويشير أرنولد الى أن محمد خان كان يتبع فى نشر الاسلام بين بدو المغول حوالى عام ٨١٩هـ / ١٤١٦م وسائل العنف وأنه لم يتوان عن اتباع هذه الوسائل حتى أصبحت معظم القبائل المغولية فى عهده تدين بالاسلام ، ويعود ويناقض نفسه ويقول أنه يبدو أن هذه الوسائل لم يكن لها تأثير فى حمل المغول كافة على قبول الاسلام بدليل أن هناك قبائل مغولية وخاصة فى المناطق الشمالية ظلت تدين بغير الاسلام وذلك قرب نهاية القرن السادس عشر للميلاد ، وأن هذه القبائل تم تحويلها الى الاسلام على يد بعض الدعاة من الصوفية والدراويش من امثال الشيخ (اسحاق ولى) الذى حول كثيرين الى الاسلام وباشر نشاطه لمدة اثنى عشر عاما فى كاشغر وياركند وختن ، كما عنى أيضا بنشر الاسلام بين أمم القرغيز والقازاق .. حتى أسلم عدد كبير منهم (٧٢) .

وكان قد ظهر فى ذلك الوقت ، أى فى القرن السادس عشر ، عديد من الملاوات (جمع ملا) أو العلماء الذين كان لهم فضل كبير فى تدعيم الحركة الاسلامية وفى نشر الاسلام مدعمين فى ذلك جهود الحكام من المغول . من هؤلاء الملاوات مخدوم أعظم الذى يسمى عادة باسم (مولانا خوجاقىقاشانى) والذى كان تلميذا فى عهد التيموريين للخواجه عبد الله احرار . وكان هذا الملا تقيا ورعا ظهرت على يديه كثير من المعجزات ، مما جعل أمراء عصره يعاملونه باحترام كبير ، وجعل كثيرا من الوثنيين يعتنقون الاسلام على يديه ، ومازالت مقبرته التى دفن بها عام ٩٤٩هـ / ١٥٤٢م فى سمرقند مزارا للناس حتى الآن (٧٣) .

---

(٧٢) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(73) Howorth : op. cit., v. 2, p. 741.

يمثل الملا مخدوم اعظم وأولاده وطبقته من العلماء ظاهرة سياسية برزت على سطح الحياة فى هذه البلاد وهى ازدياد نفوذ هؤلاء العلماء وتدخلهم فى

=

وهكذا تواكب حكام المغول جنكيزخانيين وتيموريين فى المسير على درب الاسلام وعملوا على نشره حتى عم معظم قبائل المغول سواء فى الحواضر والمدن أم فى القرى والأصقاع النائية ، وسواء فى فيافى الصحراء أم على ضفاف الأنهار ، ولم تلبث حياة هؤلاء المغول بدوا وحضرا أن تشكلت حسب دينهم الجديد وظهر ذلك فى كثير من مظاهر حياتهم وأمورهم وأحوالهم مما يدلنا على حسن اسلام القوم وعلى عمق انفعالهم بهذا الدين واخلاصهم له .

٣ ــ مظاهر الحياة الاسلامية عند مغول آسيا الوسطى :

ومظاهر الحياة الاسلامية عند مغول آسـيا الوسطى كثيرة وعديدة ،

= الشئون السياسية . وكانت الدولة التيمورية قد انتهت فى بلاد ما وراء النهر وتركستان فى ذلك الوقت (القرن الخامس عشر للميلاد) وحلت محلها الدولة الأوزبكية ، وبدأت بوادر الضعف تظهر فى عهد هذه الدولة ، وقام النزاع بين العلماء الذين ازداد نفوذهم وبين الأمراء الجغطائيين المغول الذين كانوا قد استقلوا بتركستان واتخذوا كاشغر عاصـمة لهم ، وانتهى هذا النزاع باستيلاء العلماء على السلطة وقامت فى تركستان حكومة العلماء (الخوجات) منذ عام ١٠٩٩هـ / ١٦٨٧م وانتهزت الصين هذه الفرصة وبدأت تزحف على هذه البلاد منذ أواسط القرن الثامن عشر وهزموا حكامها المتنازعين وبدأوا يستأصلون المسلمين بالقتل والاضطهاد والتشريد ، وظلوا على ذلك حتى حكموا كاشغر أخيرا عام ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م ، وبذلك استولت الصين على تركستان (الشرقية) . وكان الروس قد تمكنوا فى نفس الوقت من الاستيلاء على تركستان الغربية (بلاد ما وراء النهر عام ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م ، وخوارزم عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م ، وتركستان عام ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م) . وفى عـام ١٣٠٢هـ / ١٨٨٤م استولوا على مدينة مرو وسرخس ، وبذلك تم للروس فتح تركستان الغربية وقضوا على ممالكها الاسلامية بعد حروب دامت ثلاثة قرون من الزمان (٩٨٩ ــ ١٣٠٢هـ / ١٥٨١ ــ ١٨٨٤م) ، اضطهد فيها قياصرة الروس المسلمين وحاربوا الاسلام حربا شعواء تماما كما فعلوا فى دولة المغول فى بلاد القفجاق . (انظر : عبد العزيز جنكيزخان : تركستان قلب آسيا ، ص ٨٢ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١١١ ، ١١٨) . ولما قامت الثورة البلشفية عام ١٩١٧م قام على أنقاض هذه الممالك الاسلامية ست جمهوريات سوفييتية اشتراكية واخذ الاسلام فى هذه الجمهوريات يواجه خطرا أشد وأعتى وهو خطر الشيوعية التى تعادى جميع الأديان والملل والنحل .
انظر : أحمد رزقانه : الجغرافية السياسية ، ص ١٤٩ ــ ١٩١ .

منها أن هؤلاء المغول بعد أن اسلموا واظبوا على أداء الشعائر الدينية وخصوصا صلاة الجماعة فى المساجد ، ولم يكن هذا العمل قاصرا على عامة المغول بل كان سلاطينهم يضربون المثل فى ذلك للرعية ، فالسلطان طرما شيرين كان يحرص على صلاة الجماعة فى المسجد ، ويقول ابن بطوطة انه « كان يحضر معه الصلوات وذلك أيام البرد الشديد المهلك ، فكان لا يترك صلاة الصبح والعشاء فى الجماعة ، ويقعد للذكر بالتركية بعد صلاة الصبح الى طلوع الشمس ، ويأتى اليه كل من فى المسجد فيصافحه ويشد بيده على يده ، وكذلك يفعلون فى صلاة العصر » (٧٤) . ويعود السلطان بعد أداء الصلاة الى مجلسه فى الأردو ماشيا على قدميه ، فيتقدم اليه الناس ويقدمون لـه شكاياتهم « فيقف لكل مشتك منهم صغيرا أو كبيرا ، ذكرا أم أنثى » (٧٥) ، وهى صورة لا تقل عما كان موجودا عند خلفاء الاسلام وملوكه العظام الذين كانوا يحرصون على الالتقاء المباشر بالناس سواء فى المساجد أم فى الطرقات ومجالس العلم والمواسم والأعياد .

وكان تفاعل سلاطين المغول وحكامهم يبدو واضحا فى قيامهم بتطبيق الشريعة الاسلامية واخذ الناس بها . وقد ادت الشدة فى التطبيق الى حدوث قلاقل واضطرابات فى بعض الأحيان خاصة وان بدو المغول الذين كانوا يعيشون فى الفيافى والصحارى كانوا بدوا رحلا لا تصل اليهم يد الدولة ، وكانوا يعيشون فى ضوء السياق وقوانين البادية التى يعرفونها منذ دهور طويلة ، ولذلك فان هؤلاء البدو تمردوا فى بعض الأحيان على سلاطينهم من المغول لهذا السبب ، وظهر ذلك فى أواخر عهد طرما شيرين نفسه وأدى الى عزله كما سبق القول ، ولكن هذا التمرد لم يدم طويلا ، اذ سرعان ما قام سلاطين المغول بتركيز جهودهم فى نشر الاسلام بين هؤلاء البدو من المغول وخاصة فى عهد السلطان تغلق تيمور والأمير محمد أمير مغالستان ، وظل تطبيق الشريعة الاسلامية ساريا حتى فى أيام التيموريين الذين كانوا يحرصون على ذلك كل الحرص لدرجة ان احدهم وهو شاهرخ (شاه رخ) بن تيمورلنك (٨١٠ — ٨٥٠هـ / ١٤٠٧ — ١٤٤٦م) حرص على أن يصف نفسه بأنه سلطان مسلم وخليفة للمسلمين ، وأبى أن يعترف بقوانين جنكيزخان (٧٦) .

(٧٤) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٤٧ .
(٧٥) المصدر السابق ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
(٧٦) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٣٤ .

وكانت ظاهرة التبرك بالأولياء والصالحين ظاهرة مألوفة عند سلاطين المغـول وعامتهم حتى قبل أن يسـلموا ، فكانوا يأتون فى عهد السـلطان طرما شيرين لزيارة الزوايا ذات الأضرحة التى تضم رفات الأولياء والصالحين وصحابة رسول الله (ﷺ) ، فكانوا يزورون على سبيل المثال الزاوية التى تضم رفات قثم بن العباس (رضى الله عنهما) فى سمر قند ، « وينذرون له النذور العظيمة ويأتون اليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير ، فيصرف ذلك فى النفقة على الوارد والصادر ولخدام الزاوية والقبر المبارك » ، الذى كان يعلوه ضريح فخم وقبة عظيمة مزينة بالرخـام المجزع المنقوش بالذهب ، وبالقناديل المصنوعة من الفضة الخالصة . وكان يخدم هذا الضريح أحـد العباسيين ، كان قد قدم على السلطان طرما شيرين من العراق (٧٧) .

ومن الظواهر الأخرى التى تدل على عمق الاسلام فى قلوب المغول فى آسيا الوسطى هو تواضعهم الشديد للعلماء . وقد بلغ من تواضع السلطان طرما شيرين لهؤلاء العلماء والفقهاء والمشايخ والصوفية أن كلمتهم كانت تعلو كلمته ، وأنهم كانوا لا يخافون بطشه أو نفوذه ، بل ان واحدا منهم كان يعنفه ويغلظ له القول حينما كان يعظه أثناء خطبة صلاة الجمعة ، وكان هـذا السلطان لايستنكر ذلك ولا يستغربه ، بل كان يتقبله بدموع الندم والتوبة (٧٨) .

وقد أعطانا ابن بطوطة صورة جميلة لهذه الخلة التى اتصف بها هذا السلطان فيقول أنه « حضر صلاة العصر يوما ولم يحضر السلطان ، فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها قبالة المحراب حيث جرت عادته أن يصـلى ، وقال للامام حسام الدين الياغى : ان مولانا يريد أن تنتظره بالصلاة قليلا ريثما يتوضأ . فقام الامام المذكور وقال ما معناه : الصلاة لله أو لطرمشيرين » ؟ ثم أمر المؤذن باقامة الصلاة ، وجاء السلطان وقد صلى (الامام) منها ركعتين ، فصلى (السلطان) الركعتين الأخيرتين حيث انتهى به القيام وذلك فى موضع قريب من نعال الناس عند باب المسـجد ، وقضى ما فاته وقام الى الامام ليصافحه وهو يضحك ، وجلس امام المحراب بجوار الامام الشيخ وابن بطوطة جالس بجانب الامام من الناحية الأخرى ، فوجه السلطان كلامه الى ابن بطوطة قائلا له « اذا مشيت الى بلادك فحدث أن فقيرا من فقراء الأعاجم يفعل هكذا

---

(٧٧) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٥٠٣ .
(٧٨) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٠٠ .

مع سلطان الترك ! » وكان هذا الشيخ يعظ الناس فى كل جمعة ويأمر السلطان بالمعروف وينهاه عن المنكر وعن الظلم ، ويغلظ عليه فى القول ، والسلطان ينصت لكلامه ويبكى (٧٩) .

وهذه الصورة التى رواها لنا ابن بطوطة لا شك أنها بالغة الدلالة على مدى تقدم الحركة الاسلامية بين مغول آسيا الوسطى وعلى مدى انفعال هؤلاء المغول بالاسلام وتقاليده وعلى مدى النفوذ الذى وصل اليه المشايخ والعلماء فى تلك البلاد . وهناك صورة لا تقل هى الأخرى روعة وتعبيرا عن هذه المعانى كلها رواها لنا فامبرى عن احد الحكام التيموريين وهو السلطان احمد ميرزا حيث يقول أن هذا السلطان كان مثالا للحاكم التيمورى الذى يحترم المشايخ والعلماء ، وقد بلغ من احترامه وتوقيره لشيخه خواجه عبد الله انه كان يجلس فى حضرته على ركبتيه خافض الراس ، والتزم هذا الوضع ذات مرة وهو يعانى الما شديدا فى ركبته بسبب قطعة عظم حادة تصادف وجودها حيث كان يجلس ، ولم يرد أن يبعدها حتى لا يبدو وكأنه منشغل عن كلام الشيخ (٨٠) .

وصورة ثالثة لا تقل دلالة عن الصورتين السابقتين رواها لنا هورث Howorth عن الشيخ قاسم عزيزان (ت ٩٨٩هـ / ١٥٨١م) الذى كان له احترامه الكبير فى بلاد ما وراء النهر حتى انه عندما علم أحد الحكام المتحاربين بنية هذا الشيخ فى زيارته لحثه على وضع حد لهذه الحرب ، بادر هذا الحاكم بالذهاب الى ذلك الشيخ وهو عارى الراس ويلف حول عنقه حبلا ربطت نهايته فى حصان ، وهو الخان العظيم الحاكم لأقطار كثيرة . ولما سأله الشيخ عن ذلك عندما تقابلا ؟ اجابه ذلك الخان بأنه اراد أن يعاقب نفسه بالسير على هذه الصورة حتى يصل الى الخانقاه (الزاوية) الخاصة بالشيخ الذى يجب أن يمشى الناس اليه لا أن يمشى هو الى احد حتى ولو كان المشى الى الخان أو السلطان (٨١) .

ولم يكن حب سلاطين المغول فى آسيا الوسطى لعلماء الاسلام قاصرا

---

(٧٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ١ ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .
(٨٠) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٧٧ .
(81) Howorth : op. cit., v. 2, p. 742.

على احترامهم والتواضع الشديد لهم ، بل تعدى ذلك الى مشـــاركتهم فى الاشتغال بالعلم أو الاحتفاء به وبمجالسه، فقد وصلنا عن بعضهم مثل السلطان أولوغ بك بن شاهرخ بن تيمورلنك (٨٥٠ — ٨٥١ هـ / ١٤٤٦ — ١٤٤٧م) أنه كان متأثرا بالحضارة الاسلامية والمدنية الايرانية أكثر من جده تيمورلنك لدرجة أنه فاقه فى كافة الاتجاهات الدينية والعلمية والعمرانية التى اشتهر بها هذا الجد ، فلم يقتصر أولوغ بك على لقاء العلماء وحضور مجالسهم كما كان يفعل جده تيمورلنك ، بل كان يشتغل هو نفسه بالعلم عامة وبعلم الهيئة (الفلك) خاصة ، وهو من هذه الناحية نموذج نادر فى التاريخ الاســـلامى للحاكم العالم ، حتى كان معاصروه يشبهونه فى هذه الناحية بالاسكندر المقدونى تلميذ أرسطو . وتعتبر كتب أولوغ بك وكتب خلفائه الأقربين فى علم الهيئة بأنها آخر ما وصل اليه المسلمون فى موضوعها . وقد اتخذ هذا السلطان من بين أصحابه من الترك تلميذا له وخليفة فى هذا العلم وهو على قوشجى الذى توفى عام ٨٧٩ هـ / ١٤٧٤م . وجدير بالذكر أن هذا السلطان وهذا العالم وغيره من العلماء لم يحاولوا أن يكتبوا بالتركية ولكنهم حرروا ما كتبوه بالفارسية والعربية (٨٢) ، مما يدل على مدى تشربهم لعلوم الاسلام المدونة فى معظمها بهاتين اللغتين فى ذلك الحين .

وهكذا شـــارك الســـلاطين والأمراء العلماء فى ميدان البحث العلمى لا يضيرهم فى ذلك أن يكونوا دونهم فى الثقافة والعلم . ولقد ترك لنا (على شيرنوائى فى كتابه (مجالس النفائس) ثبتا بأسماء الأمراء التيموريين المشتغلين بالعلم والأدب ، فكان منهم شاهرخ ميرزا الذى كان ينظم الشعر بالفارسية والتركية على السواء (٨٣) ، كما أنه كان من أعظم الحكام التيموريين فى فنون الكتب ورعايتها ، اذ جمع لذلك الفنانين من كافة أنحاء دولته وأقام لهم معهدا علميا ومكتبة عظيمة فى هراة ، حيث تعاون الوراقون والنســـاخ والمذهبون وقصاصوا الورق وصانعو الأصباغ والمصورون والمجلدون فى انتاج مجموعة من أروع الكتب التى ظهرت فى العالم وقتذاك (٨٤) .

وكان من نتيجة احترام سلاطين المغول للعلماء ورفع مكانتهم ومشاركتهم

---

(٨٢) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .
(٨٣) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٨٥ .
(٨٤) أربرى : نفس المرجع ، ص ١٨٨ .

فى حب العلم وعقد مجالسه والاشتغال ببعض فروعه أن ظهرت أسرات تتوارث العلم وتتوارث المناصب الدينية فى بلاد ما وراء النهر . مثال ذلك أسرة ستاجى وأسرة خاوند . ومؤسس الأسرة الأولى هو جمال الدين ستاجى الذى كان فقيها وشاعرا صوفيا ، استوطن خجنده عام ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م ومات بها عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م . وكانت الأسرة الثانية تقطن بخارى واشتهر من ابنائها مولانا كمال الدين ابن العالم والمفتى المشهور الأمير شمس الدين خاوند صاحب كتاب « منهاج المذكرين » وهو كتاب قيم فى التراجم ، وله كذلك عدة دواوين من الشعر ، وبعد موته عام ٦٧١هـ / ١٢٧٢م ظل ابناؤه يتوارثون مكانة والدهم وجدهم فى العلم ، ومن أشهرهم فخر الدين والملا تاج الدين العالم (ت ٧٣٠ هـ / ١٣٣٥م) صاحب كتاب « بستان المذكرين » (٨٥) .

وقد نتج عن احترام سلاطين المغول للعلماء ورفع مكانتهم نتيجة اخرى وهى ازدهار العلوم الاسلامية وخاصة العلوم الدينية وراجت كتب الحديث بصفة خاصة ، وقام السلاطين والأمراء تدفعهم غيرتهم الدينية لرعاية هذه الحركة الروحية لا يألون جهدا فى ذلك (٨٦) ، وقاموا بالتمكين لهذه الحركة بالاكثار من بناء المساجد والزوايا والمدارس .

والواقع أن ظاهرة بناء المساجد والزوايا والمدارس من أحسن الظواهر الاسلامية واروعها فى مملكة جغطاى فى آسيا الوسطى وفى غيرها من ممالك المغول فى ايران وبلاد القفجاق ، وهى دليل واضح على مدى الانفعال العظيم والعميق بالاسلام وتقاليده . فقد كان كل سلطان من سلاطين مملكة جغطاى يتخذ لنفسه مسجدا أينما قام ، سواء كانت اقامته فى العاصمة أم فى الأردو اى فى معسكره الذى كان يقيم فيه أحيانا خارج العاصمة والذى كان يسمى بالمحلة . وكان أمراء المغول يسيرون على سياسة سلاطينهم فيتخذ كل منهم لنفسه هو الآخر مسجدا . وقد اقام ابن بطوطة قرب مسجد الأمير تقبغا نائب السلطان طرما شيرين عندما كان هذا السلطان غائبا عن محلته فى رحلة صيد (٨٧) . ويفيدنا ابن بطوطة أيضا بأن أحد الأمراء فى عهد طرما شيرين

---

(٨٥) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٠٣ .
(٨٦) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٨٧) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٢٤٦ .

عمر نحوا من أربعين زاوية فى عمالته ووفر فيها الطعام والشراب لأنه كان محبا للاسلام والمسلمين (٨٨) .

وفى عهد تيمورلنك وخلفائه بلغت النهضة المعمارية الاسلامية الذروة ، وتعتبر منشآته العلمية والدينية من أهم المظاهر الدالة على حسن اسلامه ورعايته للاسلام والمسلمين فى امبراطوريته الواسعة . والأمثلة الدالة على ذلك كثيرة ، منها تلك القبة الفخمة وذلك الضريح العظيم الذى أنشأه تيمورلنك على قبر الولى التركى أحمد اليسوى بمدينة تركستان (٨٩) ، والمدارس التى أمر ببنائهافى تبريز وبخارى وبغداد وغيرها من المدن وأوامره باجراء الأرزاق عليها ، ولاتزال بقايا هذه المدارس تثير دهشة زوار بخارى حتى اليوم . ولقد جعل تيمورلنك من نفسه مثالا يحتذى فى هذا المضمار ، ولذلك أخذ فريق من أبناء أسرته ومن الوزراء النبلاء يتنافسون فيما بينهم فى بناء المدارس والمساجد ودور الشفاء (المستشفيات) واجراء الأرزاق عليها حتى أننا لا نجد مناصا من القول بأن النهضة الفكرية فى آسيا الوسطى كانت من ثمار عهد تيمورلنك ومن الخدمات التى أداها لبلاده (٩٠) ، فاليه يعود الفضل فى اشاعة الاهتمام الجدى بالحركة العقلية والعلمية فىامبراطوريته الواسعة حتىبلغ بذلك العنصر التركى المغولى درجة من العزة لم يعرفها من قبل ، وحتى شهدت بلاده قبيل وفاته نهضة عقلية لا تنكر فى ميدانى العلم والدين (٩١) . واليه يعود الفضل أيضا فى العناية بمسقط راسه مدينة (كش) (٩٢) حتى جعل منها بالفعل قصبة آسيا الوسطى الثقافية ، وصارت قبلة العلم والأدب فى عصره ، فقد جلب اليها العلماء من مدارس خوارزم المشهورة ، والأساتذة من بخارى وفرغانة ، كما

---

(٨٨) المصدر السابق ، ص ٢٤٩ .

(٨٩) بارتولد : نفس المرجع ، ص ٢٢٧ ، فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٥٠ .

(٩٠) فامبرى : نفس المرجع ، ص٢٥٠ ، ٢٥٧ ؛ عبد العزيز جنكيزخان: نفس المرجع ، ص ٨٠ .

(٩١) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٩٢) كش قرية على ثلاثة فراسخ من جرجان ، وهى احدى مدن بلاد ما وراء النهر . انظر : ياقوت معجم البلدان ج ٤ ص ٤٦١ ، القلقشندى : ج ٤ ص ٤٣٥ .

أمر بنقل مكتبة بأكملها فوق متون البغال من مدينة بروصة التركية فى آسيا الصغرى الى مدينة سمرقند (٩٣) .

وقد استمرت هذه الروح تسيطر على خلفائه فأكثروا من بناء المدارس والزوايا والمساجد ، فالسلطان أولوغ بك بنى خانقاه قيل أن قبتها كانت أعظم قبة من نوعها فى عصره ، ومدرسة انشأها فى عام ٨٢٨هـ / ١٤٢٤ م وكان بها حمام مزين بالفسيفساء فى أبدع صورة ، ومسجدا سمى بالمسجد المقطع ، لأن جدرانه وسقفه كانت تزينها جميعها نقوش وزخارف مصنوعة من الخشب المقطع ، وقلده فى ذلك الأمراء والحكام ، مثال ذلك مير على شير الذى اقام بخراسان وحدها ما لا يقل عن ثلاثمائة وسبعين مسجدا ومدرسة ودارا للشفاء وقاعات للقراءة (٩٤) . كما أسس السلطان أحمد ميرزا كثيرا من المساجد والمدارس (٩٥) وقام الوزير قوقلتاش Kukaltash عام ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م ببناء مسجد فى سمرقند ، وبنى عبد الله خان مدرسة لا تزال فى حالة جيدة ، كما بنى عبد العزيز خان خانقاه فوق مقبرة الخواجه بهاء الدين على مقربة من بخارى ، وبنى أبو سعيد مدرسة فى سمرقند ، الى غير ذلك من المساجد والمدارس والزوايا التى أذاعت الثقافة الاسلامية فى بلاد جغطاى فى آسيا الوسطى (٩٦) .

وهكذا انتشر الاسلام وانتشرت الثقافة الاسلامية والحضارة الاسلامية بين المغول فى ممالكهم الثلاث : فى بلاد القفجاق ، وفى بلاد ايران وآسيا الصغرى والعراق ، وفى آسيا الوسطى ، وتشرب المغول هذه الحضارة ورعوا علوم الاسلام ومعارفه بعد ان كانوا مدمرين لهذه الحضارة قاتلين لهذه

---

(٩٣) فامبرى : نفس المرجع ، ص ٢٤١ — ٢٥٠ .

(٩٤) المرجع السابق ، ص ٢٩٢ .

(٩٥) المرجع السابق ، ص ٢٦٦ .

(96) Howorth : op. cit., v. 2, p. 742.

العلوم وتلك المعرفة أثناء غزواتهم المدمرة ، وتحول هؤلاء المغول بالتدريج وفى فترة زمنية وجيزة لا تتجاوز النصف قرن الى حماة للاسلام بعد أن كانوا غزاة له وقاهرين لأتباعه ومعتنقيه مدمرين لبلاده وممالكه مسقطين لخلافته .

وحتى تكتمل الصورة ويتم الحديث لابد أن نعرض لدولة المغول الرابعة فى بلاد الصين والخطا ولموقفها من الاسلام ، وهل حقق فيها الاسلام نصرا كبيرا كما حدث فى الممالك الثلاث التى تحدثنا عنها حتى الآن ، أم أن البوذية هى التى فازت بالجولة فى تلك البلاد ؟ .

الفصل السادس

الاسلام ومغول الصين والخطا

كانت مملكة المغول فى بلاد الصين والخطا (١) مملكة هامة ، فقد احتوت على مدينة قراقورم عاصمة الامبراطورية المغولية بممالكها الأربع التى انقسمت اليها ، وفى جهاتها تقع بلاد المغول وهم خالصة التتار ، كما انها كانت مسقط رأس جنكيزخان (٢) وبها أقام وأقام من اتى بعده من الخوانين العظام الذين كان يدين لهم الايلخانات فى الممالك الثلاث بالطاعة ، وكانوا يعينون من قبلهم فى نطاق التقسيم الذى أوصى به جنكيزخان قبيل وفاته . وظل هذا الأمر معمولا به بعد وفاة جنكيزخان فترة ليست بالطويلة ، اذ انه بعد اعتناق ايلخانات الممالك المغولية الثلاث فى ايران وآسيا الوسطى وبلاد القفجاق للاسلام انقطعت الصلة بينهم وبين الخوانين العظام فى قراقورم ، واندمج المغول فى كل مملكة فى سكانها وأهلها الأصليين وصاروا شعبا واحدا .

وقد حدث نفس التطور فى خانية المغول فى بلاد الصين والخطا . فقد اندمج المغول هناك فى السكان المحليين واعتنق معظمهم البوذية . وظل بعضهم يعبدون الأصنام او الشمس (٣) ، واعتنق آخرون قليلون الاسلام وخاصة فى غربى الصين وشمالها متأثرين فى ذلك بمغول آسيا الوسطى التى كانت تصاقبهم وتتصل بهم من الناحية الجغرافية والثقافية والتجارية ، ومتأثرين أيضا ببعض وزرائهم المسلمين وببعض جندهم الذين كانوا يدينون بالاسلام . ذلك أن جنكيزخان اعتمد هو وخلفاؤه من بعده على الأويغور الشرقيين — وهم من الترك المسلمين — فى ادارة شئون بيت المال ، واتخذوا منهم حجابهم

---

(١) انظر ما سبق أن ذكرناه عن بلاد الخطا ، ص ١٧ ، حاشية (٥) .

(٢) القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٨٠ ، ٤٨١ .

(٣) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٤١٤ ؛ القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٨٥ ، Saunders : op. cit., p. 118.

وعمال دواوينهم ، واستعار منهم جنكيزخان أبجديتهم التى طوعت لغة المغول للكتابة (٤) . وبذلك صار تأثير الأويغور المسلمين على المغول عظيما ، وخاصة من الناحية الثقافية ، ولا شك أن هذا التأثير كان مفيدا فى تحويل بعض المغول الى الاسلام .

وبجانب الأويغور المسلمين ، فقد استعان جنكيزخان بثلاثة من المسلمين الآخرين كانوا من أشد الناس اخلاصا له ، وهم جعفر خوجا ، وحسن ، ودانشمند الحاجب ، كما اتخذ من تاجر خوارزمى يدعى محمود يلواج مستشارا له ووزيرا ، واتخذ ايضا جنده من جميع الملل والأمم التى غزاها ، فضم جيشه كثيرا من الترك والأفغان والفرس المسلمين (٥) . وكان لهؤلاء الجند أثرهم على زملائهم من جند المغول الوثنيين فاسلم بعضهم .

وقد سار ابنه قوبيلاى خان (٦٥٨ — ٦٩٣هـ / ١٢٦٠ — ١٢٩٤م) على سياسته فاتخذ كثيرا من الموظفين من الايرانيين المسلمين ، فنشروا الاسلام فى الصين (٦) . مثال ذلك أحمد البناكتى Fanakti (اهاما بالصينية) وهو أحد مواطنى مدينة بنكث التى تقع قرب طشقند . وقد عينه قوبيلاى خان وزيرا للمالية وظل يشغل هذا المنصب طوال عشرين عاما (٧) . كما عين هذا الخان أحد العرب الذين كانوا قد استقروا فى تلك البلاد واتخذ اسما صينيا هو (بوشو شنغ) قاضيا ، كما عين عربيا آخر يسمى (شوقنغ) مساعدا لرئيس وزرائه . . وتتناثر فى مختلف الكتب والأبحاث التاريخية أسماء مثل عبد الرحمن الذى اختير رئيسا لبيت المال وخول حق تقدير الضرائب المفروضة على الصين ، وقطب الدين (توتنغ) الذى كان وزيرا للملكة عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م . ويذكر الرحالة الايطالى ماركو بولو فى مذكراته أنه التقى

---

(٤) فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٦٣ .

(٥) ستودارد : حاضر العالم الاسلامى ، جـ ٢ ص ٢٣٨ — ٢٤٦ ، فهمى هويدى : الاسلام فى الصين ، ص ٦٢ ، ارنولد : نفس المرجع ، ص ٣٣٢ .

(٦) ستودارد : نفس المرجع ، جـ ٢ ص ٢٣٨ — ٢٤٦ ، Saunders : op. cit., p. 124.

(٧) القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٣٧ ، فهمى هويدى : نفس المرجع ص ٦٤ ، Saunders : op. cit., p. 124, Prawdin : op. cit., p. 332.

فى الصين عام ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م باثنين من كبار المهندسين المسلمين ، هما على الدين الموصلى (نسبة الى الموصل بالعراق) واسماعيل الهروى (نسبة هراة فى افغانستان الآن) ، ويذكر أن الأمير جهاندار (سيانتا بالصينية) دخل اقليم يونان Yunnan عام ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م ومعه قائدان مسلمان أحدهما ناصر الدين بن عمر (ناسولا تنغ) (٨) ، وهناك غير هؤلاء كثير من المسلمين الذين لمعوا فى سماء الصين أثناء حكم المغول لها ، وكان من اشهر هؤلاء جميعا رجل يعرف بالسيد الأجل (٩) .

والسيد الأجل من اشهر الوزراء والحكام الذين دخلوا فى خدمة المغول وكان لهم اثر كبير فى نشر الاسلام فى غربى الصين وخاصة فى مقاطعة يونان . وهذا الرجل سيد شريف من آل البيت من بخارى اسمه شمس الدين عمر ويسميه الصينيون (هيان يانغ فانغ) وكان قد دخل فى خدمة جنكيزخان (٦٠٤ — ٦٢٤هـ / ١٢٠٦ — ١٢٢٧م) وقدم له الف فارس ونصح له وكان مخلصا فى ولائه له وللمغول ، فأكرمه جنيزخان وجعله ضمن بطانته فارتقى شأنه وتولى المناصب العالية (١٠) ، فعينه أوكتاى بن جنكيزخان (٦٢٥ — ٦٣٩هـ / ١٢٢٧ — ١٢٤١م) حاكما لثلاث ولايات هى : فونغ وتسينغ ويون ناى ثم استدعاه الى خان باليق (بكين الحالية) وعهد اليه بمنصب كبير ، ولما تولى الخانية منجو خان (٦٤٩ — ٦٥٧هـ / ١٢٥١ — ١٢٥٩م) عهد الى السيد الأجل بادراة ست نظارات أو ادارات بالاشتراك مع صينى آخر ، ولما تولى

---

(٨) فهمى هويدى : نفس المرجع ، ص ٦٤ — ٦٦ ، أرنولد : نفس المرجع ، ص ٣٣٥ .

(٩) السيد الأجل كان لقبا يطلقه اهل الهند والسند وتركستان على الأشراف ، وهو يعادل لقب النقيب ، اى نقيب الأشراف عند أهل مصر والشام والعراق ، ولقب الطاهر فى ايران .
انظر : ابن بطوطة : رحلته ، ص ٢٥٨ .
والسيد الأجل البخارى كان من أهل بخارى الذين كانوا قد هاجروا من بلاد ما وراء النهر منذ زمن بعيد فرارا من السلاجقة الى بلاد الصين والخطا ، وحملوا معهم الاسلام الى المملكة الوسطى فى الصين ، ونتج عن ذلك أن اقليم يونان الجبلى تحول الى الاسلام . انظر :
Saunders : op. cit., pp. 183-184.

(١٠) ستودارد : نفس المرجع جـ ٢ ص ٢٣٠ .

السلطة قوبيلاى خان (٦٥٨ — ٦٩٣هـ / ١٢٦٠ — ١٢٩٤م) عهد اليه بادارة بيت مال الامبراطورية ثم عينه وزيرا له وجعله عضوا فى مجلس أمانة السر الأعلى ثم تولى ادارة ولاية يونان Yunnan الخربة التى تقع فى جنوبى الصين بعد فتحها وضمها الى مملكة المغول ، فعمرها السيد الأجل وبنى فيها المدارس والطرق والجسور والسدود وأزال المغارم والمظالم وبنى فيها مساجد للمسلمين . ويعود دخول الاسلام بشكل مؤثر فى هذه المقاطعة الى عهد هذا الرجل والى عهد ابنه نصير الدين (١١) حتى وجدنا جميع سكان مدينة تاليفو Talifu — عاصمة مقاطعة يونان — مسلمين فى بداية القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر للميلاد (١٢) ، نتيجة لاعتناء السيد الأجل بالتمكين للاسلام والمسلمين فى هذا الاقليم حتى نسبت الروايات المأثورة فى الصين هذا الرجل الى المغول وقالت عنه أنه كان مغوليا مسلما (١٣) مما أتاح له هذه الفرصة فى نشر الاسلام .

ولا زال الصينيون يتغنون بأعمال السيد الأجل وخدماته حتى اليوم . وعندما مات هذا الرجل الشهير عام ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م (١٤) عم الحزن بلاد الصين بأسرها ، وصدرت أوامر الحكومة المغولية الصينية بعد ذلك عام ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م بتأليف سيرة للسيد الأجل بقلم (تشينغ هو) ، كما اقاموا له تمثالا فى هيكل الحكماء (الباثيون) فى عاصمة مقاطعة يونان باسم الأمير (هسين يانج) وهو لقب السيد الأجل عند الصينيين (١٥) .

وقد ترك السيد الأجل خمسة أولاد وتسعة عشر حفيدا تداولوا الامارة والحكم جميعا ، ولا تزال أعقابهم معروفة فى بلاد الصين حتى بداية القرن الحالى . وقد صار ابنه نصير الدين (ناسولا ينغ بالصينية) وزيرا للدولة ثم واليا على شنسى ثم مقاطعة يونان ومات سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م ، كما صار ابنه الثانى حسن قائدا عاما لجيوش (كوانغ تونغ) ، وصار الابن

---

(١١) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٣٣٥ ، ستودارد : نفس المرجع جـ ٢ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ — ٢٣٨ .
(١٢) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٣٣٦ .
(١٣) ستودارد : نفس المرجع ، جـ ٢ ص ٢٤٦ .
(١٤) أرنولد : نفس المرجع ص ٣٣٥ .
(١٥) ستودارد : نفس المرجع ، جـ ٢ ص ٢٧٢ ، فهمى هويدى : نفس المرجع ص ٦٧ — ٦٩ .

الثالث حنسين وزيرا للدولة ثم واليا على ولاية (كيانغ سى) ثم على يونان بعد موت أخيه نصير الدين ، والرابع شمس الدين مديرا عاما لمقاطعة (كيث تشانغ) بولاية (كيانغ سى) ، وصار الخامس مسعود وزيرا ثم واليا على مقاطعة يونان . وقد تعاقب أحفاد السيد الأجل على حكم هذه المقاطعة ؛ وكان من أشهرهم (بايان فنتشان بن نصير الدين) الذى رمم المسجد الأعظم فى (سينغان فو) وحصل من الامبراطور عام ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م على الاعتراف بأن الدين الاسلامى هو « الدين الحق الخالص » ، وهو اسم ظل الاسلام يحمله حتى القرن العشرين (١٦) .

ولا شك أنه كان للسيد الأجل وأولاده وأحفاده أثر كبير فى نشر الاسلام فى مقاطعة يونان فى جنوبى الصين وفى نشره فى غربها وفى نواحى أخرى من من تلك البلاد . ذلك أن سائر العمال والحكام كانوا يقتدون بسيرته ويتباهون بأعماله (١٧) . ففى مقاطعة كانسو فى غربى الصين انتشر الاسلام بصورة كبيرة ، وقد دخلها الاسلام قبل عصر المغول على يد الأويغور الذين كانوا يسكنونها ثم على يد أهالى تركستان الشرقية المسلمين ، وعلى يد المغول الذين بقوا هناك من عهد تيمورلنك . وبهذا صارت أغلبية السكان تدين بالاسلام فى هذا الاقليم من مملكة الصين وبلغت أعداد المساجد هناك بالمئات ، وكثيرا ما كان هؤلاء المسلمون الصينيون يأخذون أولاد الفقراء من الوثنيين ويربونهم على الاسلام خصوصا عند حدوث المجاعات الشديدة (١٨) .

وقد جاب الشريف تاج الدين حسن بن الجلال السمرقندى — وهو تاجر من سمرقند — بلاد الصين فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر للميلاد وأفادنا بأن المسلمين كانوا يتمتعون فى بلاد الصين فى عهد المغول بمنزلة اجتماعية سامية ، فكانوا يحظون بالاحترام والتكريم لدرجة أنه اذا قتل وثنى مسلما كان الوثنى يقتل هو وأهل بيته وتنهب أموالهم ، وان قتل مسلم وثنيا كان لا يقتل به ، بل يطالب بديته التى كانت لا تزيد عن تقديم

---

(١٦) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٣٣٥ ، ستودارد : نفس المرجع ج ٢ ص ٢٣٣ .

(١٧) ستودارد : نفس المرجع ، ج ٢ ص ٢٣٢ .

(١٨) المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ — ٢٣٨ .

حمار لورثة القتيل (١٩) . كما افادنا ابن بطوطة الذى رحل الى تلك البلاد فى شهر صفر عام ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م بهذه الحقيقة وأشار الى أن المسلمين كانوا فعلا مكرمين ومحترمين وأنهم كانوا موجودين فى كل مدن الصين ، وأنه كانت لهم أحياء خاصة بهم داخل تلك المدن ، وكان لهم فى كل حى أو مدينة مساجد وقضاة وشيخ للاسلام « تكون أمور المسلمين كلها راجعة اليه » (٢٠) . رأى ابن بطوطة ذلك بنفسه فى مدينة الزيتون (٢١) ، وصين كلان (٢٢) ، وقنجنفو ، والخنسا (٢٣) ، كما رأى الزوايا التى كانت فى هذه المدن ، والتى كانت تحظى بأوقاف يصرف منها على أهل الزاوية وعلى الغرباء الوافدين من المسلمين (٢٤) .

وقد اشار هذا الرحالة أيضا الى أن الغناء كان يتم هناك باللغة الصينية والعربية والفارسية (٢٥) ، مما يشير الى وجود تأثير اسلامى فى تلك البلاد وان كان هذا التأثير قليلا أو محدودا حتى أن هذا الرحالة المسلم أبدى ألمه لما رأى من غلبة الكفر بها ، « والمناكير الكثيرة » التى كان يراها عندما يخرج من منزله حتى انه قرر الا يغادر هذا المنزل الا لضرورة (٢٦) .

ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا المقام أن التجار العرب وغيرهم من

---

(١٩) القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٨٦ ، فهمى هويدى : نفس المرجع ص ٧٠ .

(٢٠) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٣٥٥ ، ٤١٤ ، ٤١٨ .

(٢١) مدينة الزيتون هى ما تسمى باسم (تسى تون ، أو تشيو انتشو) الآن . ويقول ابن بطوطة أن هذا الاسلام (الزيتون) لم يطلق عليها لأن بها زيتون ، فالزيتون ليس بها ولا بجميع بلاد الصين والهند ، ولكنه اسم وضع لها . انظر : ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٤١٧ ، فهمى هويدى : نفس المرجع ص ٥٤ .

(٢٢) صين كلان اسم يطلق على مدينة تسمى باسم صين الصين . انظر : ابن بطوطة : ص ٤١٨ ، فهمى هويدى : ص ٥٧ .

(٢٣) مدينة الخنسا هى مدينة قانصوه عند العرب وتسمى الآن باسم هانج تشوفو . انظر : فهمى هويدى : نفس المرجع ، ص ٧٧ .

(٢٤) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٤١٨ — ٤٢١ .

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٤٢٢ .

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٤٢٠ .

تجار المسلمين الذين توافدوا على بلاد الصين وسكنوا مدن الصين الساحلية بالذات قبل الغزو المغولى لتلك البلاد فى القرن الثالث عشر للميلاد لم يقوموا بنشاط يذكر فى نشر الاسلام فى بلاد الصين حتى أتى الفتح المغولى لتلك البلاد وتمخض عن حركة هجرة واسعة النطاق هاجر فيها كثير من المسلمين على اختلاف قومياتهم من عرب وفرس وأتراك وغيرهم الى الامبراطورية الصينية تجارا أو موظفين ومعلمين أو أسرى حرب ، واستقر عدد كبير منهم فى هذه البلاد بصفة دائمة وتزاوجوا من نساء صينيات ، فكان لهم تأثيرهم فى تحويل بعض الصينيين والمغول الى الاسلام ، وخاصة فى مقاطعات الغرب والشمال والجنوب وبالذات فى مقاطعات هينكانج وكانسو ويونان التى كان أهلها مسلمين سنيين على المذهب الحنفى ومن أشد المسلمين تمسكا بالسنة (٢٧) .

وعلى ذلك فان أباطرة المغول فى بلاد الصين لم يقفوا حجر عثرة أمام استمرار انتشار الاسلام فى هذه المقاطعات ، وتركوا الاسلام وشأنه يتنافس مع ديانات الصين العديدة . ومع ذلك فلم يفز الاسلام بانتصار يذكر خارج نطاق المقاطعات التى أشرنا اليها ، وهى مقاطعات قليلة بالنسبة لبلاد كالصين ، وظل المسلمون فى هذه البلاد أقلية منذ عهد المغول وحتى اليوم .

أما بلاد الخطا والتى تشمل شمالى الصين ومنغوليا فان بارتولد يقول أنه لم يرد شىء عن الدعوة للاسلام فيها فى عهد جنكيزخان رغم وجود كثير من التجار المسلمين فى عاصمته خان باليق التى كانت تقع فى هذه البلاد ، اذ لا توجد الا رواية واحدة تدل على أن بعض المغول دخلوا فى الاسلام وجنكيزخان على قيد الحياة ، فقد كان أخو زوجته وهو أحد زعماء الماركيت يحمل اسما اسلاميا فقد كان يسمى جمال خوجة (٢٨) .

وعندما زار ابن بطوطة بلاد الخطا عام ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م قال انه « ليس بها أحد من المسلمين الا من كان حاضرا غير مقيم ، لأنها ليست بدار مقام ، وليس بها مدينة مجتمعة ، وانما هى قرى وبسائط فيها الزرع

---

(٢٧) ارنولد : نفس المرجع ، ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، فامبرى : نفس المرجع ، ص ١٧٤ ، ستودارد : نفس المرجع ، ج ص ٢٥١ .

(٢٨) بارتولد : نفس المرجع ، ص ١٥٥ .

والفواكه والسكر » (٢٩) . يفهم ذلك أيضا من كلام ابن بطوطة عن خان باليق حين زيارته لها ، اذ لم يشر الى جالية اسلامية تقيم بها ، فقط أشار الى اسم «الشيخ برهان الدين الصاغرجى الذى كان الخان قد قدمه على جميع المسلمين فى بلاد الخطا والصين وخاطبه بصدر جهان » (٣٠) ، ولا يستبعد أن يكون قد التف حول هذا الشيخ قلة من المسلمين لكنهم كانوا لا يشكلون جالية (٣١). ويبدو أن عدد المسلمين كان كبيرا فى مدينة قراقورم التى اتخذها المغول عاصمة لامبراطوريتهم بعد تركهم لمدينة خان باليق ، فقد شاهد فيها ابن بطوطة بعض المسلمين أثناء تشييع جنازة أحد الخوانين وقال أنه « لم يتخلف عن ذلك — احد من الرجال ولا النساء ، المسلمين والكفار ، وقد لبسوا جميعا ثياب العزاء ، وهى الطيالسة البيض للكفار ، والثياب البيض للمسلمين » (٣٢) .

ولا شك انه كان لقرب هذه المدينة من تركستان أثر كبير كما سبق القول فى دخول التاثيرات الاسلامية اليها لدرجة أنه فى عهد أسرة (منج) التى حكمت بلاد الخطا والصين من عام ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م الى سنة ١٠٥٤هـ / ١٦٤٤م (٣٣) استعمل التقويم العربى ، اذ قام رجل يدعى الشيخ محمود بترجمة كتب التقويم العربية الى لغات الصين والخطا ، وظل هذا التقويم العربى الأصل معمولا به هناك طوال هذه الفترة (٣٤) . كما قدم مؤسس هذه الأسرة كثيرا من الامتيازات للمسلمين فى بلاده ، وتدل كثرة المساجد التى بنيت هناك على انتعاش الاسلام خلال الفترة التى قضتها هذه الأسرة فى الحكم (٣٥) .

ورغم هذا الانتعاش الذى حظى به الاسلام الى حد ما فى عهد المغول فى بعض بلاد الصين والخطا وانتشاره بين بعض المغول وغيرهم فى تلك

---

(٢٩) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٤٢٣ .
(٣٠) المصدر السابق ، ص ٤٢٣ .
(٣١) فهمى هويدى : نفس المرجع ، ص ٧٩ .
(٣٢) ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص ٤٢٤ .
(٣٣) فهمى هويدى : نفس المرجع ص ٨٠ ، أرنولد : نفس المرجع ، ص ٣٣٦ .
(٣٤) ستودارد : نفس المرجع ، جـ ٢ ص ٢٧٢ .
(٣٥) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٣٣٦ .

البلاد ، الا ان خوانين المغول انفسهم لم يقدموا على اعتناقه ، وان كانت هناك اشارة غير مؤكدة تشير الى أن أحد هؤلاء الخوانين قد اعتنق الاسلام فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر للميلاد . اذ يقول العمرى الذى توفى عام ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م « أن صاحب الصين والخطا ووارث تخت جنكيزخان .. قد تواترت الآن الأخبار بأنه قد أسلم ودان بدين الاسلام، ورقم كلمة التوحيد على ذوائب الأعلام ، وان صح وهو المؤمل ، فقد ملأت الأمة المحمدية الخافقين وعمت المشرق والمغرب وامتدت بين ضفتى البحر المحيط » (٣٦) .

وهناك رواية أخرى أوردها توماس أرنولد يتحدث فيها عن أن أحد الملوك التيموريين وهو (الشاه رخ بهادر) بن تيمورلنك انتهز فرصة قدوم سفير صينى الى قصره فى سمرقند عام ٨١٥هـ / ١٤١٢م وسلمه رسالتين لامبراطور الصين المغولى ، احداهما باللغة العربية والأخرى بالفارسية ، يدعوه فيهما الى الاسلام ويتحدث فيهما عن مزايا هذا الدين وانه يعمل بمقتضى أحكامه فى حكم بلاده ، ويطلب منه أن يعمل هو الآخر بالشريعة الاسلامية حتى يقوى الاسلام وينال سلطان الآخرة بدلا من سلطان الدنيا (٣٧) .

وهناك رواية ثالثة ساقها لنا تاجر مسلم يدعى سيد على اكبر كان قد قضى سنوات قليلة فى بكين فى نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، وتحدث عن ان احد اباطرة الصين من المغول قد تحول الى الاسلام ، وأن عدد المسلمين كان كثيرا فى مدينة كنجنفو Kenjanfu ويقدر هذا العدد بثلاثين الف اسرة مسلمة ، وان هؤلاء المسلمين تمتعوا بعطف هذا الامبراطور الذى منحهم الحرية الدينية وهبات من الأرض ، وأنه فى العاصمة نفسها يوجد أربع مساجد كبرى ، ويوجد فى غيرها من المدن الأخرى ما يقرب من تسعين مسجدا بنيت كلها على نفقة هذا الامبراطور (٣٨) .

ورغم هذه الروايات فانه من المؤكد أن اباطرة الصين والخطا من المغول لم يعتنقوا الاسلام وان كان بعضهم قد عطف على المسلمين القليلين هناك

---

(٣٦) العمرى : التعريف ، ص ٤٦ ، ٤٧ ؛ القلقشندى : نفس المصدر ، جـ ٤ ص ٤٧٧ .

(٣٧) أرنولد : نفس المرجع ، ص ٣٣٦ — ٣٣٩ .

(٣٨) المرجع السابق ، ص ٣٣٩ .

كما أفادت الرواية السابقة ، وسمحوا لهم باقامة المساجد والزوايا كما جاء عند ابن بطوطة ، وعينوا منهم بعض الوزراء والحكام والموظفين كما سبق القول ، واتخذوا سياسية الحياد بين الأديان التى تعددت فى امبراطوريتهم الواسعة واعفوا جميع فقهاء هـذه الأديان وأحبارها وكهانها وأساقفتها ورهبانها من « جميع المئونات والأوزار والتكليفات » (٣٩) . ولكن المحيط البوذى الكبير الذى كان يعيش فيه هؤلاء الأباطرة تغلب منذ البداية ، فدان معظم المغول هناك بهذا الدين بعد أن ذابوا وانصهروا مع الشعب الصينى الكبير الذى يعتنق هذا الدين مع غيره من الأديان الصينية الأخرى مثل الكنفوشيوسية وغيرها .

واذا كان الاسلام لم يحقق انتصارا ذا قيمة على مغول الصين والخطا الا انه حقق انتصارا حاسما وكبيرا كما سبق القول على مغول ايران ومغول آسيا الوسطى ومغول بلاد القفجاق ، وتمكن الاسلام الأعزل المهيض الجانب من القضاء على الوثنية المغولية المدعمة بأقوى الجيوش واعتاها فى ذلك الوقت ، فتحول مغول هذه البلاد الثلاث الى الاسلام وصاروا شعبا مسلما ينفعل — كما رأينا — بالاسلام وتقاليده كأحسن ما يكون الانفعال ، وأخذوا يبذلون جهدهم للدعوة الى هذا الدين ويعدون العدة لاستئناف حركات الجهاد بهدف نشره فى سيبريا وفى روسيا وفى وسط آسيا وفى بلاد الهند حيث كانت توجد بعض القبائل المغولية والتركية والهندية وغيرها من القبائل والشعوب التى كانت لا تزال على الوثنية فى ذلك الحين ، وكان المغول فى ذلك يخدمون الحركة الاسلامية ويفعلون فى هذا السبيل ما فعله اخوانهم وبنو عمومتهم من الترك السلاجقة من قبل وما فعله اخوانهم وبنو عمومتهم من الترك العثمانيين فيما بعد ، وهكذا كان النصر فى النهاية للاسلام ضد هؤلاء المغول الذين دحروا قواته ذات يوم .

---

(٣٩) ابن العبرى : نفس المرجع ، ص ٤٥٧ — ٤٥٩ .

الخاتمة

وهكذا بعد أن طوفنا بممالك المغول كلها ورأينا الاسلام يغمر المغول فى ثلاث ممالك منها ، ظهرت تلك الصفحة المطوية من تاريخ المغول والاسلام لأول مرة فى صورة واضحة ومكتملة ، وهى صورة تنطق بالعظمة والروعة بأى مقياس من المقاييس وعلى أى نحو من الأنحاء .

وسر العظمة والروعة فى هذه الصورة وفى تلك الصفحة التى لم تعد مطوية أنها وضعت يدنا على سر من أسرار قوة الاسلام وعظمته ، هـذا السر يكمن فى أنه دين يطـوع الناس اليه ويجعلهم يقبلون عليه طواعية واختيارا ، حتى لو كان هؤلاء الناس من عتاة المغول وقساة التتار . فهو دين لا يتوقف عن الانتشار حتى فى أصعب أوقاته وأشد أزماته وأقسى محنه وشدائده ، ذلك أننا رأيناه يستدير بعد أن تلقى الضربة المغولية التى كادت تقصم ظهره ، وتلقف ضاربه الفظ ، وهذب من غلظته وشـذب من وعر أخلاقه وخشونة مظهره ومخبره ، وأعطاه الكثير والكثير من قيمه ومبادئه ومظاهر حضارته ، فتحول هؤلاء الذين تهجموا عليه ذات يوم وحاولوا القضاء عليه فى عقر داره فى غفلة من الزمن ، الى اعتناقه والايمان به فى حماس واخلاص منقطع النظير ، واصبحوا حماته والمدافعين عنه .

ونتج عن ذلك أن أصبحت معظم قارة آسيا وشرقى اوربا تحت سيطرة هؤلاء المغول المسلمين ، وقام هؤلاء المغول فى حماس كبير واخلاص تام — كما رأينا — بعملين كبيرين عظيمين : أولاهما هو نشر هذا الدين بين شعوب وقبائل وعلى أرض لم تعرف الاسلام من قبل وخاصة فى التبت وغربى الصين ومنغوليا وجنوبى سيبريا وسيبريا الغربية وجنوبى روسيا وشـبه جزيرة القرم ، وذلك أثناء قوتهم وازدهار دولتهم . أما العمل الثانى الذى قام به المغول هو أنهم دافعوا عن الاسلام بعد أن اشتد عود الروس وأداروا معركة صليبية كبرى ضد الاسلام والمسلمين فى قارة آسيا وشرقى أوربا منذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر للميلاد ، وتمكن سلاطين المغول من المحافظة

على استقلال بلادهم والمحافظة على اسلامهم وعقيدتهم سنين طويلة وتصدوا لهذه المعركة الصليبية فى شراسة بالغة وأذاقوا الروس الويلات قرب نهاية القرن الخامس عشر للميلاد ، ولما ضعفوا وتنازعوا فيما بينهم وانقسموا على انفسهم اجتاحهم الروس من الغرب والصينيون من الشرق وقضوا على ممالك المغول الاسلامية وضموها لبلادهم ، وأصبح سكان هذه الممالك يجاهدون ويناضلون حتى يحافظوا على اسلامهم أمام صليبية روسيا القيصرية والصين البوذية ، وهم الآن يقومون بهذا الدور أمام خطر الشيوعية سواء فى الصين أم فى الاتحاد السوفييتى . ورغم ذلك فدور المغول فى هذا الجهاد الذى بدأ منذ خمسة قرون ضد صليبية الروس وبوذية الصين لا ينكر ، وهو دور جدير بالتسجيل والذكر ، وهو صفحة رائعة من صفحات المغول والاسلام حرية بالاشادة والاهتمام .

واسلام المغول لم يكن ذا أثر ايجابى فعال فى هذه الناحية فقط ، بل انه كان مفيدا أيضا فى ناحية أخرى ، فهو قد وفر الحماية لظهور سلاطين المماليك فى مصر والشام أثناء تصديهم للحملات الصليبية المتأخرة ، ولم يعد هؤلاء السلاطين يخيفهم أن يقعوا بين نارين : نار المغول من الشرق ونار الصليبيين من الغرب ، وهو ما كان قائما بالفعل منذ ان ظهر المغول على مسرح التاريخ فى بداية القرن السابع الهجرى / الثالث عشر للميلاد ، وحتى اعتناقهم للاسلام قرب نهاية هذا القرن . وقد سبق أن رأينا المحاولات المتعددة التى قامت بها البابوية فى روما وملوك أوربا لجذب المغول الى ديانتهم والتحالف معهم ضد الاسلام والمسلمين حتى يقع هؤلاء المسلمون بين شقى الرحى ويتم الخلاص منهم الى الأبد . ولكن الاسلام حسم المعركة لصالحه ، واستطاع أن يجذب المغول اليه ، فضاع على صليبيى أوروبا هذا الأمل ، وفشل هؤلاء الصليبيون فى الالتفاف حول المسلمين من الشرق عن طريق المغول الذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام . ولكن الصليبيين لم يتخلوا عن مشروعاتهم وتحولوا الى الالتفاف حول المسلمين وضربهم عن طريق آخر يدور حول افريقيا قرب نهاية القرن الخامس عشر للميلاد ، ونجحوا فيما فشلوا فيه فى بلاد الشام ومع المغول فى ايران والقفجاق وآسيا الوسطى وبلاد الصين .

المهم هنا هو أن المغول المسلمين لم يمكنوا الصليبيين من تحقيق أهدافهم ، وتصدوا لهم كما تصدوا لصليبية الروس ولم يتحالفوا معهم ووفروا

الحماية كما أشرنا لظهور سلاطين المماليك فى معاركهم ضد صليبيى أوربا ، وهو دور لابد من الاشادة به ووضعه موضع الاعتبار .

ولابد أن نسجل هنا ايضا حيوية الاسلام ورجاله فى جذب هؤلاء المغول البدو المتوحشين الى الاسلام فى ممالك ايران وبلاد القفجاق وآسيا الوسطى رغم ميل بعض خوانين المغول وسلاطينهم فى هذه الممالك الى النصرانية ورغم ميل معظمهم الى البوذية قبل أن يتحولوا الى الاسلام . وهنا راينا الاسلام يواجه خطرين : خطر بداوة المغول وشراستهم ووثنيتهم وهمجيتهم ، وخطر المنافسة مع البوذية والمسيحية فى جذب هؤلاء المغول الى صفه . وقد تمكن رجالات الاسلام من معالجة الخطر الأول وبدأ المغول ينفضون عنهم سمات البداوة ويستسيغون حياة المدن والحضارة بما فيها من سهولة عيش وطيب حياة لم يالفوها من قبل واندمجوا فى السكان المحليين المسلمين . وقد ساعد هذا الأمر رجالات الاسلام على الصمود أمام التنافس الرهيب الذى فرضه البوذيون والمبشرون من مسيحيى الشرق والغرب رغم الاضطهاد والعنف الذى لاقاه رجال الاسلام وعلماؤه فى هذه الفترة التى كان فيها المغول وثنيين ، ولكن صمود هؤلاء العلماء والدعاة والمشايخ والصوفيون والتجار وغيرهم وقيامهم بخوض المعركة الى النهاية ، جعلهم يحرزون النصر النهائى باعتناق سلاطين مغول بلاد القفجاق للاسلام حوالى منتصف القرن السابع الهجرى وسلاطين مغول ايران قرب نهاية ذلك القرن ، وسلاطين مغول آسيا الوسطى فى بداية الربع الثانى من القرن التالى .

ولم يكن اعتناق المغول فى هذه الممالك للاسلام امرا شكليا أو شيئا يهدفون من ورائه تحقيق مصالح سياسية ، بل كانوا مخلصين فى اسلامهم فرحين بايمانهم متحمسين لدينهم الجديد ، ومن البداية طبقوا مبادىء الشريعة الاسلامية وتخلوا عن اليساق الذى أصدره لهم جنكيزخان وأدوا فرائض الاسلام وشعائره على احسن وجه ، فصاموا وصلوا وحجوا وادوا الزكاة وظهرت عنده المذاهب الفقهية وتلقبوا بألقاب المسلمين وتسموا بأسمائهم وخطبوا للخلفاء الراشدين (فى ايران) وللخلفاء العباسيين (فى بلاد القفجاق) ، وفتحوا قصورهم وبيوتهم لعلماء الاسلام واستقدموا وعقدوا لهم مجالس العلم والدين تحت اعينهم وبمشاركتهم فى بعض الأحيان ، وأعلوا من شأن علماء الاسلام عامة حتى أن كلمة هؤلاء العلماء كانت تعلو على كلمة سلاطين المغول فى كثير من الأحيان ، وحتى كان هؤلاء السلاطين لا يتورعون

عن الجلوس أمام هؤلاء العلماء والمشايخ جلوس التلميذ أمام استاذه ، لاينبسون ببنت شفة ولايحركون ساكنا احتراما واكبارا للشيخ ، بل كان الواحد من أمراء المغول يمسك بأذن نفسه اذا جلس أمام أحد مشايخ الاسلام ، وهى علامة الخضوع التى كان يظهرها المغول لملوكهم وسلاطينهم ، وكانوا يخلعون عليهم ملابسهم الخاصة ، وهو أمر كان سلاطين المغول لا يفعلونه الا لمن ارادوا المبالغة فى تكريمه وتعظيمه .

وقد ازدهرت الحضارة الاسلامية فى عهد هؤلاء المغول المسلمين وكثرت المدارس والجوامع والزوايا والقباب والمراصد التى انشاها هؤلاء المغول ، ونهضت علوم الدين وازدهر نسخ الكتب وتقدمت الفنون والصناعات نهضة كبرى ، وظهر فى عهدهم العديد من العلماء والشعراء والكتاب والمؤرخين المشهورين ، وبرزت مراكز عديدة للثقافة الاسلامية سواء فى المدن القديمة أو فى المدن الجديدة والعديدة التى انشئوها حتى قال بعض الكتاب أن آثارهم فى التعمير لا تقل عن آثارهم فى التدمير بل تزيد عليها ، وحتى المدن التى كانت قد دمرت أعيد بناؤها وعاد اليها ما بقى من سكانها ، وارتادها العلماء وطلاب العلم مرة اخرى ، وتوافد اليها التجار من شتى أنحاء العالم الاسلامى بعد أن وفر المغول لهم الحماية والأمان الذى كان هؤلاء التجار وأولئك العلماء قد افتقدوه نتيجة للحروب المتوالية والاضطرابات السياسية التى كان يزخر بها المشرق الاسلامى قبيل الغزو المغولى ، مما أدى الى ازدهار الحضارة الاسلامية ورقيها ، وهى صفحة يجب أن تضـــاف الى صـــفحات الاسلام والمغول المسلمين السابقة ، ولا شك أنها صفحات ناصعة مضيئة آن الأوان كى تظهر للناس وتبرز أمامهم حتى يتعرفوا على جانب هام من جوانب عظمة هذا الدين من خلال هذه الدراسة التى قمنا بها عن انتشاره بين المغول .

مَلاحِقُ الكِتابِ

خوانين المغول وســلاطينهم

١ ــ خوانين المغول العظام

(فى بلاد الصين والخطا وحكام الامبراطورية المغولية كلها)

١ ــ جنكيزخان : ٦٠٤ ــ ٦٢٤هـ / ١٢٠٧ ــ ١٢٧٧م .

٢ ــ أوكتاى خان بن جنكيزخان : ٦٢٦ ــ ٦٣٩هـ / ١٢٢٩ ــ ١٢٤١م .

تورجين بن جنكيزخان (نائب الخان) : ٦٣٩ ــ ٦٤٤هـ / ١٢٤١ ــ ١٢٤٦م .

٣ ــ كيوك خان بن أوكتاى : ٦٤٤ ــ ٦٤٧هـ / ١٢٤٧ ــ ١٢٤٩م .

٤ ــ منكو خان بن تولى بن جنكيزخان: ٦٤٩ ــ ٦٥٨هـ / ١٢٥١ ــ ١٢٥٩م

٥ ــ قوبيلاى خان بن تولى بن جنكيزخان : ٦٥٨ ــ ٦٩٣هـ / ١٢٦٠ ــ ١٢٩٤م .

٢ ــ خوانين مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القفجاق

١ ــ باطو بن جوجى بن جنكيزخان : ٦٢٤ ــ ٦٥٤هـ / ١٢٢٧ ــ ١٢٥٦م .

٢ ــ صرتق بن باطو بن جوجى : ٦٥٤ / ١٢٥٦م .

٣ ــ بركة بن جوجى بن جنكيزخان : ٦٥٤ ــ ٦٦٥هـ / ١٢٥٦ ــ ١٢٦٦م .

٤ ــ منكو تمر (منجو تيمور)بن طغان بن باطو : ٦٦٥ ــ ٦٧٩هـ / ١٢٦٧ ــ ١٢٨٠م .

٥ ــ تدان (تودى) منكو خان بن طغان بن باطو : ٦٧٩ ــ ٦٨٦هـ/ ١٢٨٠ ــ ١٢٨٧م .

٦ ــ تلابغا بن طارطو بن طغان : ٦٨٦ ــ ٦٩٠هـ / ١٢٨٧ ــ ١٢٩١م .

٧ ــ طقطاى بن منكو تمر بن طغان : ٦٩٠ ــ ٧١٢هـ / ١٢٩١ ــ ١٣١٢م .

٨ ـــ محمد أوزبك خـــان بن طغرلشاه بن منكوتمر : ٧١٢ ـــ ٧٤٢هـ / ١٣١٣ ـــ ١٣٤٢م .

٩ ـــ محمود جانى بك بن أوزبك خان : ٧٤٢ ـــ ٧٥٨هـ / ١٣٤٢ ـــ ١٣٥٧م

١٠ـــ محمد بردى بك بن أوزبك خان : ٧٥٨ ـــ ٧٦٢هـ / ١٣٥٧ ـــ ١٢٦١م .

١١ـــ متغلبون من نفس الأسرة : ٧٦٢ ـــ ٧٨٢هـ / ١٢٦١ ـــ ١٣٨٠م .

١٢ـــ طقتمش بن بردى بك بن جانى بك بن أوزبك خان : ٧٨٢ ـــ ٧٩٨هـ / ١٣٨٠ ـــ ١٣٩٥م .

ثم فترة تغلب تيمورلنك على البلاد ثم عودتها الى أسرة القبيلة الذهبية حتى سقوطها عام ٩٠٧هـ / ١٥٠٢م .

٣ ـــ ايلخانات ايران

١ ـــ هولاكو بن تولى بن جنكيزخان : ٦٥٤ ـــ ٦٦٤هـ / ١٢٥٦ ـــ ١٢٦٥م .

٢ ـــ أبغـــا (أباقا) بن هولاكـــو : ٦٦٤ ـــ ٦٨٠هـ / ١٢٦٥ ـــ ١٢٨١م .

٣ ـــ احمد تكودار بن هولاكـــو : ٦٨٠ ـــ ٦٨٣هـ / ١٢٨١ ـــ ١٢٨٤م .

٤ ـــ أرغون بن أبغا بن هولاكو : ٦٨٣ ـــ ٦٩٠هـ / ١٢٨٤ ـــ ١٢٩١م .

٥ ـــ كيخاتو بن ابغا بن هولاكو : ٦٩٠ ـــ ٦٩٤هـ / ١٢٩١ ـــ ١٢٩٥م .

٦ ـــ بايدو بن طرغاى بن هولاكو : ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م .

٧ ـــ محمود غازان بن أرغون بن أبغا : ٦٩٤ ـــ ٧٠٣هـ / ١٢٩٥ ـــ ١٣٠٤م

٨ ـ أولجايتو محمد خدابنده بن أرغون : ٧٠٣ ـــ ٧١٦هـ / ١٣٠٤ ـــ ١٣١٦م

٩ ـــ ابو سعيد بن أولجايتو محمد خدابنده : ٧١٦ ـــ ٧٣٦هـ / ١٣١٦ ـــ ١٣٣٥م .

ثم انقسمت البلاد وقام فى حكمها متغلبون من المغول حتى استولى عليها تيمورلنك عام ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م ثم انقسمت بعده بين أمراء من المغول وغيرهم حتى قامت فيها الدولة الصفوية فى بداية القرن السادس عشر للميلاد .

٤ — خوانين المغول فى آسيا الوسطى

(بلاد ما وراء النهر وتركستان)

١ — جغطاى بن جنكيزخان : ٦٢٤ — ٦٤٠هـ / ١٢٢٧ — ١٢٤٢م .

٢ — قرا هولاكو بن موتوغان بن جغطاى : ٦٤٠ — ٦٤٥هـ / ١٢٤٢ — ١٢٤٧م ، ٦٥٠ — ٦٥٩هـ / ١٢٥٢ — ١٢٦١م .

٣ — ييسو مانجو بن جغطاى : ٦٤٥ — ٦٥٠هـ / ١٢٤٢ — ١٢٥٢م .

٤ — الغو بن بيدار بن جغطاى : ٦٥٩ — ٦٤٤هـ / ١٢٦١ — ١٢٦٥م .

٥ — مبارك شاه بن قرا هولاكو : ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م .

٦ — براق خان بن ييسون دوا حفيد جغطاى : ٦٦٤ — ٦٦٨هـ / ١٢٦٥ — ١٢٧٠م .

٧ — أحفاد آخرون لجغطاى ومتغلبون آخرون : ٦٦٨ — ٧٠٨هـ / ١٢٧٠ — ١٣٠٨م .

٨ — تاليقاوة (تالقو) بن قادامى بن بورى بن موتوغان بن جغطاى : ٧٠٨ — ٧٠٩هـ / ١٣٠٨ — ١٣٠٩م .

٩ — اسان بغا (ييسون بوغا) بن دوا خان بن براق خان : ٧٠٩ — ٧١٨هـ/ ١٣٠٩ — ١٣١٨م .

١٠— كبك خان بن دوا خان بن براق خان : ٧١٨ — ٧٢٦هـ / ١٣١٨ — ١٣٢٦م .

١١— الجكداى بن دوا خان بن براق خان : ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م .

١٢— محمد طرما شيرين بن دوا خان بن براق خان : ٧٢٦ — ٧٣٤ هـ / ١٣٢٦ — ١٣٣٤م .

١٣— جنكشى بن ابوكوا بن دوا خان بن براق خان : ٧٣٤ — ٧٣٥هـ /

١٤— بوزن بن دوا تيمور بن دوا خان بن براق خان : ٧٣٥ — ٧٣٩هـ / ١٣٣٥ — ١٣٣٨م .

١٥— ييسون تيمور بن أبوكوا بن دوا خان بن براق : ٧٣٩ — ٧٤٣هـ / ١٣٣٨ — ١٣٤٢م .

١٦— خليل بن ياسـاور بن دوا خان بن براق خـان : ٧٤٣ — ٧٤٤هـ / ١٣٤٢ — ١٣٤٣م .

١٧— أربع سلاطين آخرين من بيت دوا بن براق خان : ٧٤٤ — ٧٤٨هـ / ١٣٤٣ — ١٣٤٧م .

١٨— تغلق تيمور خان بن أمال خوجا بن دوا خان بن براق خان : ٧٤٨ — ٧٦٥هـ / ١٣٤٧ — ١٣٦٣م .

ثم متغلبون ثم قام حكم تيمورلنك (٧٧١ — ٨٠٨هـ / ١٣٧٠ — ١٤٠٥م) وأولاده من بعده وبعض أمراء المغول الآخرين حتى سقطت تركستان فى يد الصين ، وبلاد ما وراء النهر فى يد الروس .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم :

١ – المصادر العربية القديمة المطبوعة والمخطوطة

ابن الأثير : (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) :

– الكامل فى التاريخ ، جـ ١٢ ، دار صادر ، بيروت سنة ١٩٧٩م .

ابن أيبك الدوادارى : ابو بكر بن عبد الله

– كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السابع المعروف باسم الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م .

– كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء التاسع المعروف باسم الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، مكتبة الخانجى بالقاهرة ، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م .

أبو شامة المقدسى الشافعى (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م) : شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل

– تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين المعروف بالذيل على الروضتين . نشر السيد عزت العطار الحسينى ، الطبعة الأولى ، ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م ، القاهرة .

أبو المحاسن بن تغرى بردى (٨١٣ – ٨٧٤هـ / ١٤١٠ – ١٤٦٩م) : جمال الدين أبو المحاسن يوسف

– النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جـ ٧ – ١٠ سلسلة تراثنا ، طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومى بمصر .

أبو الفدا (٧٣٢هـ / ١٣٢٩م) :

– تاريخه ، جـ ٢ ، ٣ ، ٤ ، القسطنطينية ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م .

ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) :

– تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار الشهير باسم رحلة ابن بطوطة ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، بدون تاريخ .

البيرونى (ت ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) : ابو الريحان محمد بن احمد

— الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ليبزج سنة ١٩٢٣ .

ابن حبيب (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) : الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر

— تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، نشر وتحقيق د. محمد محمد أمين ، مراجعة د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦م .

ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) : شهاب الدين احمد

— الدرر الكامنة فى اعيان المائة الثامنة ج ٣ . تحقيق محمد سيد جاد الحق ، بدون تاريخ ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) :

— العبر وديوان المبتدأ والخبر الشهير باسم تاريخ ابن خلدون ، جـ٥ ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت سنة ١٩٦٨م .

الديار بكرى (ت ٩٦٦هـ / ١٥٥٨م) :

— الخميس فى احوال أنفس نفيس ، ج ٢ ، القاهرة سنة ١٢٨٣هـ .

رشيد الدين فضل الله الهمدانى (٦٤٥ — ٧١٨هـ / ١٢٤٧ — ١٣١٩م) :

— جامع التواريخ م٢ ج١ ، م٢ ج٢ ، ترجمه عن الفارسية محمد صادق نشأت وفؤاد عبد المعطى الصياد ، طبعة وزارة الثقافة بمصر ، بدون تاريخ .

الرمزى (م. م.) :

— تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار فى وقائع قزان وبلغار وملوك التتار ، ج ١ ، ٢ طبع أورنبورغ ، الطبعة الأولى سنة ١٩٠٨م .

السيوطى (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن

— حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ج ٢ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨ ، دار احياء الكتب العربية بالقاهرة .

شرف خان البدليسى :

— شرفنامة ج ٢ ، ترجمه عن الفارسية محمد على عونى ، راجعه يحيى الخشاب ، نشر دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٦٢ .

الشوكانى (ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م) : محمد بن على

— البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، جـ ٢ الطبعة الأولى سنة ١٣٤٨هـ ، مطبعة السعادة بالقاهرة .

ابن العبرى (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) : غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الطبيب الملطى المعروف بابن العبرى .

— تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت سنة ١٨٩٠م .

عرب شاه (ت ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م) شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقى الأنصارى المعروف بعرب شاه .

— عجائب المقدور فى أخبار تيمور ، طبع مصر سنة ١٣٠٥هـ .

العينى (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥٠م) :

— عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، حـ ٢٢ ، حـ ٢٣ ، ق ١ مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٨٢٠٣ ح) .

العمرى (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) : ابن فضل الله

— مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، جـ ١٦ ق ٢ ، ٣ مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٥٥٩ معارف عامة) .

— التعريف بفن المصطلح الشريف ، القاهرة ١٩١٠م .

ابن الفوطى (٦٤٢ — ٧٢٣هـ / ١٢٤٤ — ١٣٢٣م) : كمال الدين عبد الرازق أحمد الشيبانى بن الفوطى

— الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ، المكتبة العربية ، بغداد سنة ١٣٥١هـ .

ابن قتيبة الدينورى (٢١٣ — ٢٧٦هـ / ٨٢٨ — ٨٨٩م) : أبو محمد عبد الله بن مسلم .

— الامامة والسياسة ، المعروف بتاريخ الخلفاء ، جـ ١ ، الطبعة الأخيرة ، القاهرة سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م .

القلقشندى (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) :

— صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ٤ ، ٧ ، طبع مصر ، بدون تاريخ .

ابن قيزاوغلى (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م) شرف الدين أبو المظفر يوسف .

— ذيل مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، جـ ١٥ ، ١٧ ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (١٥١٦ تاريخ) .

ابن كثير (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) : عماد الدين أبو الفدا اسماعيل ابن عمر بن كثير القرشى الدمشقى :

— البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، مطبعة السعادة بمصر ، بدون تاريخ .

المقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) : تقى الدين أحمد بن على

— السلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ق ٢ تحقيق د. محمد مصطفى زيادة القاهرة ، ١٩٣٦ ، جـ ١ ق ٣ القاهرة سنة ١٩٣٩ .

— السلوك جـ ٢ ق ١ ، ٢ ، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة ، القاهرة سنة ١٩٤٢ .

— الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، مصر سنة ١٨٩٥م .

مجهــول :

— كتاب فى التاريخ ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤٠٣٠ .

الناصرى (ت ١٣١٥هـ / ١٨٩٥م) : أحمد بن خالد

— الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى ، جـ ٢ ، طبع مصر ، بدون تاريخ .

النظامى العروضى السمرقندى :

جهار مقاله (المقالات الأربع) نقله من الفارسية عبد الوهاب عزام ، ويحيى الخشاب ، الطبعة الأولى سنة ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر .

النويرى (ت ٧٣٢هـ / ١٣٢٩م) :

— نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ ٢٩ مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٥٤٩ معارف عامة) .

ابن الوردى (٧٤٩هـ / ١٣٣٦م) :

— تاريخه ، جـ ٢ ، طبع مصر سنة ١٢٨٥هـ .

ياقوت الحموى (ت ٦٢٦هـ / ١٢٣٠م) : شهاب الدين أبو عبد الله

معجم البلدان ، جـ ٤ ، دار صادر ، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ .

٢ — المراجع العربية والمعربة

ابراهيم احمد رزقانة (دكتور) :

— بعض مشكلات الجغرافيا السياسية ، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٦٣م دار النهضة العربية بالقاهرة .

اربرى (أ. ج.) :

— تراث فارس ، عربه عن الانجليزية د. محمد كفافى ، د. أحمد الساداتى ، د. السيد يعقوب بكر ، د. محمد صقر خفاجه ، د. أحمد عيسى ، د. يحيى الخشاب ، دار احياء الكتب العربية ، مصر سنة ١٩٥٩ .

ارنولد (توماس) :

— الدعوة الى الاسلام ، عربه عن الانجليزية د. حسن ابراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين ، اسماعيل النحراوى طبع ونشر مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٠م .

بارتولد :

— تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، عربه عن الانجليزية د. أحمد السعيد سليمان ، طبع ونشر مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة سنة ١٩٦٠ .

باسيليوس خرباوى :

— تاريخ روسيا منذ نشأتها حتى الوقت الحاضر ، طبع نيويورك عام ١٩١١م .

براون (ادوارد جرانفيل) :

— تاريخ الأدب فى ايران من الفردوسى الى السعدى، تعريب د. ابراهيم امين الشواربى ، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م

بطروشوفسكى :

— الاسلام فى ايران ، تعريب د. السباعى محمد السباعى ، دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة سنة ١٩٨٢ م .

حسين على الرفاعى (دكتور) :

ـ الاسلام فى الاتحاد السوفييتى للأستاذين الكسندر بننغستون وشانتال لوميرسيه ، مجلة مركز البحوث بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، الرياض ، المحرم سنة ١٤٠٤هـ / أكتوبر ١٩٨٣م .

ستودارد الأمريكى (لوثروب) :

ـ حاضر العالم الاسلامى ، تعريب الأستاذ عجاج نويهض ، به فصول وتعليقات للأستاذ شكيب ارسلان ، ٤ أجزاء ، القاهرة سنة ١٣٥٢م .

سعيد عبد الفتاح عاشور : (دكتور)

ـ العصر المماليكى فى مصر والشام ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٥ م ـ دار النهضة العربية ، القاهرة .

السيد الباز العرينى (دكتور) :

ـ الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ج ١ ، دار النهضة العربية ، سنة ١٩٦٣ م .

عبد العزيز جنكيزخان البكورى :

ـ تركستان قلب آسيا ، طبع ونشر الجمعية الخيرية الباكستانية عام ١٩٤٥م .

على حسنى الخربوطلى (دكتور) :

ـ غروب الخلافة الاسلامية ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، بدون تاريخ .

فامبرى (ارمنيوس) :

ـ تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر ، تعريب د. أحمد محمود الساداتى ، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٥م .

فهمى هويدى :

ـ الاسلام فى الصين ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٤٣ ، شعبان / رمضان سنة ١٤٠١هـ ، يولية ١٩٨١م .

فؤاد عبد المعطى الصياد (دكتور) :

— المغول فى التاريخ ، دار النهضة العربية ، سنة ١٩٨٠ .

فايد حماد عاشور (دكتور) :

— العلاقات السياسية بين المماليك والمغول فى الدولة المملوكية الأولى، تقديم ومراجعة الدكتور جوزيف نســيم ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٦ .

محمد جمال الدين سرور (دكتور) :

— دولة الظاهر بيبرس فى مصر ، دار الفكر العربى سنة ١٩٦٠م .
— دولة بنى قلاوون فى مصر ، دار الفكر العربى ، سنة ١٩٤٧ .

محمد الخضرى :

— تاريخ الأمم الاسلامية (الدولة العباسية) ، المكتبة التجارية الكبرى القاهرة ١٩٧٠ .

محمد عبد المنعم الشرقاوى وآخرون :

— افغانستان ، مطبوعات معهد الدراسات الاسلامية ، الطبعة الأولى سنة ١٤٨٠ هـ / ١٩٦١م .

محمد يوسف الكاندهلوى : (١٣٣٥ — ١٣٨٤هـ / ١٩١٧ — ١٩٦٥م)

— حياة الصحابة ، جـ ١ ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

مصطفى طه بدر (دكتور) :

— مغول ايران بين المسيحية والاسلام ، دار الفكر العربى ، بمصر ، بدون تاريخ .

ميور (السير وليم) :

— تاريخ دولة المماليك فى مصر ، تعريب محمود عابدين ، وسليم حسن الطبعة الأولى سنة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م ، مطبعة المعارف بمصر .

هايد (فن) :

— تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى جـ ١ ، عربه عن الفرنسية أحمد محمد رضا ، مراجعة وتقديم د. عــز الدين فوده ، الهيئة العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٥م .

٣ ـ المراجع الأجنبية

Barthold :

— Turkestan down the Mongol Invasion, London, 1928.

Berge (J. K.) :

— The Bektashi Order of Derwishes, London, 1937.

Howorth (Henry F.S.A.) :

— History of the Mongols from the 9th to the 19 century, part 2, (London 1880), Part 3, (London 1888).

Lea (Henry Charles) :

— The Moriscos of Spain, London, 1901.

— A history of the inquisition of Spain, London, 1906.

Malcolm :

— A history of Persia, vol. 1, London, 1929.

Prawdin (Michael) :

— The Mongol Empire, London, 1940.

Saunders (J. J.) :

— The history of the Mongol Conquests, London, 1971.

Scott (C.p.) :

— A history of the Morish Empire, in Europe, v. 2, London, 1904.

Zambaur :

— Manuel de Genealogie et de Chronolgie pour L'Histoire de L'Islam. Germany, 1927.

The Cambridge History of Iran, v. 5, (Cambridge, 1968).

محتويات الكتاب

مطبعة الجبلاوى

٢٠٢ شارع الترعة البولاقية - بشبرا

رقم الايداع بدار الكتب ٢٩٣٢ / ١٩٨٦